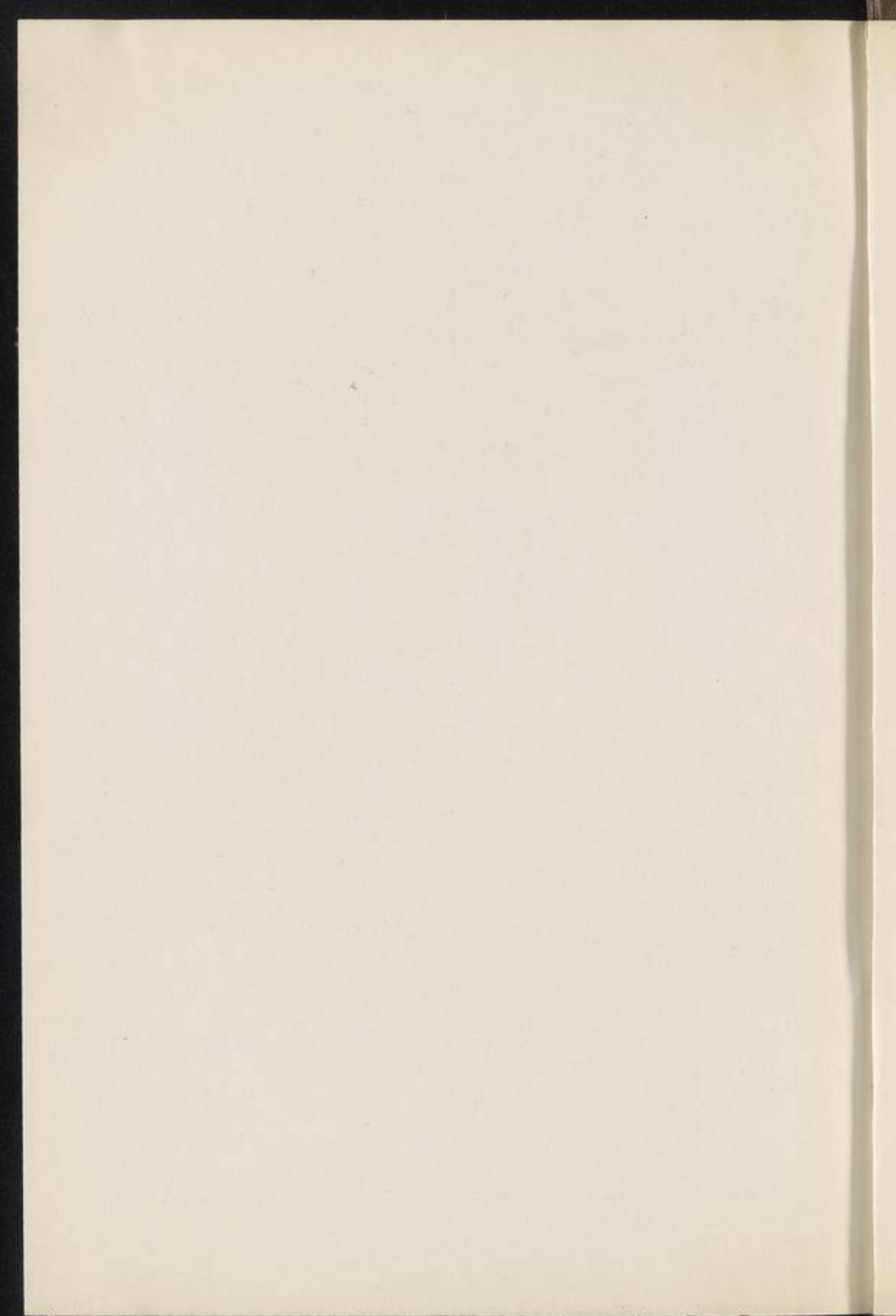
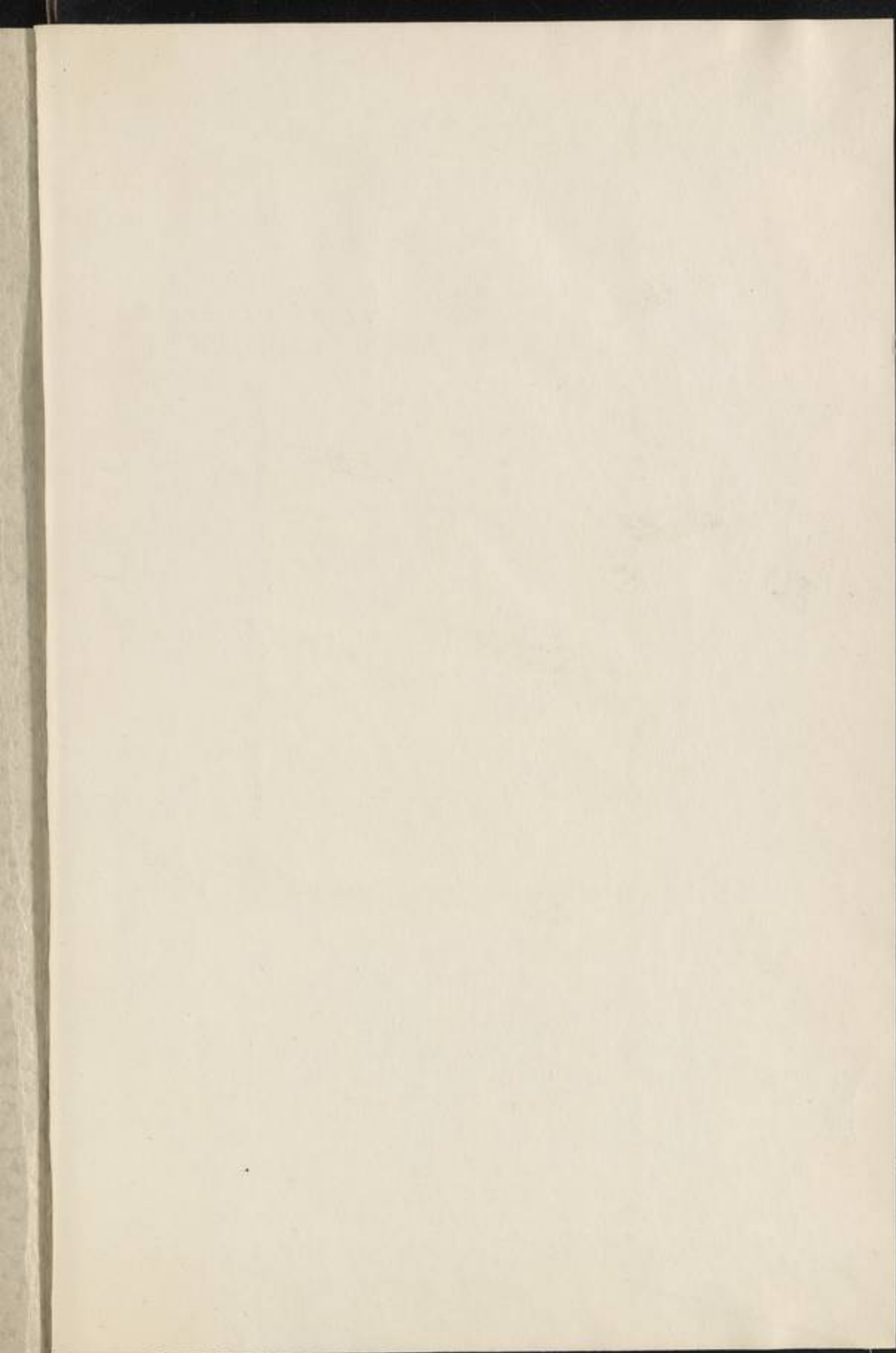


Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES







ابراهيم الوائلي

التتبع السببي العراقي

في القرن التاسع عشر

١٩٦١

ساعات جامعة بغداد على نشره

مطبعة العاني - بغداد

1771

سأدت ءامعة بغداد على نشره

الشيء السبب العرقي

في القرز التاسع عشر

تأليف

أبراهيم الوائلي

المدرس بكلية الآداب - ءامعة بغداد

مطبعة العاني - بغداد

١٣٨١هـ ١٩٦١م

893.782
W13

26414H

مقدمة

قبل أن أتخرج في كلية دار العلوم بالقاهرة كانت تدفعني رغبة ملحة الى معالجة الموضوعات الحديثة من الشعر العربي ، وكنت - على الرغم من اعتقادي بأننا لم ننته بعد من دراسة الادب القديم - أشعر بضرورة البحث في الادب الحديث وما جد في عصر النهضة التي ظهرت طلائعها في أول القرن التاسع عشر ، ولاحظت أن اشباع هذه الرغبة عمل صعب لا يسلم فيه المنهج من الالتواء ولا تأتي فيه الدراسة بأكثر من التأليف والجمع وبما قد يكون غير ذي جدوى من الاستنتاج والتحليل لذلك رأيت أن أقصر دراستي على الشعر السياسي في العراق خلال القرن التاسع عشر لتكون الدراسة أطوع للسلامة والوضوح ، وان شعوري بالحاجة الى استجلاء الحالة السياسية وغيرها في العراق أيام خضوعه للحكم العثماني ولو في فترة من الفترات والى معرفة الاثر الذي تراكبه في حياة السكان ومدى صلتها بالشعر وتأثيرها فيه كل ذلك قد دفعني الى اختيار هذا اللون من الشعر الذي قد يكون ضعيفا في كثير من خصائصه أو في ناحيته الموضوعية على الأقل .

وقبل أن أقدم على كتابة هذا الموضوع فكرت فيه من كل جوانبه وتاملت فيمن يكون قد سبقني اليه فظهر لي أنه لا يزال غير مبحوث فيه بعناية واستقصاء وأنه يحتاج الى دراسة شاملة ، ومن ثم أخذت أتبع مصادره ومراجعته وشرعت أتصفح ما يمكن الاعتماد عليه في تاريخ السياسة العثمانية ولاسيما التي تخص العراق ، ومكثت سنتين^(١) في القاهرة كنت أرتاد فيهما دار الكتب وغيرها ثم أربع سنوات في العراق أبحث وأفش حتى توفرت لدى المادة الكافية لعرض الجانب السياسي ولكن المصاعب التي لم تقف عند

(١) من صيف ١٩٤٩ - حتى صيف ١٩٥١ م .

حدود الاناة وبذل الوقت تلك التي حالت دون دراسة الحياة الاجتماعية في العراق فلقد كانت الحالة الاجتماعية في القرن التاسع عشر لم تأخذ في بحوث التاريخ نصيبها من العناية الا القليل مما كتبه بعض العراقيين والرحالة الاجانب وقد استطعت أن آخذ من هذا القليل مقناحا لدراسة لا تعدو الواقع في مجتمع متأخر آنذاك كالعراق ، ومثل هذا ما يقال عن الحالة العلمية فان هذه الناحية لم تظفر من الباحثين بدراسة موضوعية شاملة عدا قليل من المؤلفات التي ترجمت لبعض العلماء والادباء ولكنها لم تستقص وانما اكتفى أصحابها بالفريق الذي يتمون اليه وأهملوا ما سواه .

وكانت المصاعب في دراسة الشعر لا تقل عن غيرها ولاسيما الشعر الذي لا يزال قيد المخطوطات المتفرقة ومعظم هذه المخطوطات مدفون في زوايا البيوت القديمة بعيد عن من يريد أن يقرأ أو يطلع .

وكان الى جانب هذا غموض المناسبات والحوادث التي أملت كثيرا من الشعر سواء منه ما كان مطبوعا أم مخطوطا . ولعل هذا الغموض يرجع الى جهل النساخ أو عدم اهتمامهم - على الأقل - بتدوين المناسبات . وقد يرجع الى اغفال الشعراء أنفسهم تلك المناسبات لثلا يكون في ذكرها شيء من الفضاضة التي قد تسيء الى سمعة الشاعر أو تؤذي أبنائه وقد يكون من أسباب الاغفال اعتماد بعض الشعراء على شهرة المناسبة ومعرفة الناس بها فلا يذكرونها حتى يمتد الزمن فيصير المعلوم مجهولا لدى الباحثين . على أن بعض القصائد قد أهمل فيه ذكر المناسبة لا للأسباب المتقدمة بل للسياسة نفسها كقصائد الاخرس في الوالى (مدحة) فان الاشارة الى المدوح قد حذفت عندما طبع الديوان في الاستانة أيام السلطان عبدالحميد .

وقد ذلت صعوبة الاطلاع بما أفدت من مكتبة الآثار ببغداد^(٢) فقد أغنتنى هذه المكتبة بما فيها من مطبوع ومخطوط يتصلان بموضوع البحث

(٢) من الحق أن اعترف بجميل الاستاذ كوركيس عواد أمين المكتبة لما كان يبذله هو ومساعدوه من عناية في تهيئة المراجع المطلوبة .

ولدت بمن آنتست فيهم الأريحية والسماحة للوقوف على بعض القصائد التي لم أجدتها في مكتبة الآثار •

ثم ذلك صعوبة التعموض الذي أحاط بمناسبات بعض القصائد بتبع الحوادث والأسماء والسنين ودراسة الشعر نفسه للاعتماد على ما فيه من قرائن زمنية ومكانية وما فيه من كلمات وأسماء ترتبط بالمناسبة والحادثة وتقف عندها وتستوحىها فجاءت الدراسة واضحة في أكثر جوانبها •

أما المصادر والمراجع التي استعنت بها على هذه الدراسة فهي دواوين الشعراء والمجموعات الأدبية من مطبوع ومخطوط مما استطعت أن أظفر به ولعل هذا معظم ما يمكن الوصول إليه من مصادر الشعر التي كونت هذا البحث وإلى جانب هذه المصادر ما استعنت به من المراجع العربية والأجنبية المترجمة وغير المترجمة في كتابة التمهيد ثم الفصول الثلاثة التي اشتمل عليها الباب الأول وقد وضع ليكون مفسرا لبواعث الشعر مما اشتمل عليه الباب الثاني • ولا بد لي في هذه المقدمة من الاعتراف بجهد الاستاذ عمر الدسوقي استاذ الأدب الحديث بكلية دار العلوم في وضع المنهج الذي سرت عليه في كتابة هذه الرسالة وفيما أبدأ من ارشاد قيم ، ولا بد لي أيضا أن أسجل تقديري لمناقشة الدكتورين الفاضلين عبدالرزاق حميدة وأحمد محمد الحوفي وملاحظتهما الدقيقة التي ساعدت على تنسيق بعض الموضوعات واختصار ما يجب اختصاره ولاسيما ما يتصل بالحالة الاجتماعية فإن الفصل الخاص بها قد كتب بتوسعة في استعراض المظاهر العامة والعادات والتقاليد التي يمكن الاستغناء عن ذكر بعضها وعدم الاسهاب في بعضها الآخر والاكتفاء بذكر مراجعها في الهوامش ، وقد ساعدت هذه الملاحظات أيضا على كتابة تمهيد للباب الثاني يوضح معنى الشعر السياسي وتطوره ولم يكن هذا التمهيد موجودا في صلب الرسالة قبل المناقشة • أما ما حذفته من موضوع الشعر فهو جانب من الفصل الخامس من الباب الثاني يتصل بموازنة عقدها بين الشعر في العراق وبينه في سوريا ولبنان ومصر خلال القرن التاسع عشر فقد بدا لي أن هذه الموازنة - على ما فيها من طرافة وجهد

وعلى ما فيها من صلة بالجانب الفنى والتاريخى - لم تكن من صلب البحث
وليس فى حذفها ما يودى الى خلل فيه . فاذا كان ثمة شيء يستحق أن
يضاف الى الدراسات الادبية فى هذه الرسالة فهو كل ما أرجو من بحث
استفد كثيرا من الجهد والزمن ، وأنا - حين أقدم هذه الدراسة الى قراء
الادب - انما أقدمها مع الاعتذار عما يمكن أن يروه فيها من الهنات التى
لا يسلم منها أى باحث أو مؤلف .

ابراهيم حرج الوائلى

تمهيد

الحالة السياسية والأدبية في العراق

قبيل القرن التاسع عشر

الاستيلاء العثماني

اتسعت فتوحات العثمانيين فرسخت أقدامهم في ثلاث قارات عدة قرون وخضع لسلطانهم الوطن العربي ، ولما كانت بغداد ذات أهمية تاريخية وسياسية فقد اتجه العثمانيون الى احتلالها وكانت اذ ذاك بيد الفرس الصفويين^(١) ، وفي سنة ١٥٣٤ هـ ١٥٤١ م استولى عليها السلطان سليمان القانوني وتعاقب فيها الولاة العثمانيون الذين حكموا العراق وهم بحاجة الى كثير من الفهم والمرونة فقد كان ظهورهم أمام القبائل يلفتهم وأخلاقهم الغريبة من عوامل الاشمئزاز الذي أدى الى كثير من الثورات القبلية ، وكان الانكشاريون - وهم المسهمون في بناء الحكم المهزوز المستقلون بالاقطاعات التي منحوها - لا يألون جهدا في محاربة هذه القبائل .

واستمر العثمانيون يحكمون العراق حتى سنة ١٠٣٣ هـ ١٦٢٣ م اذ هوجمت بغداد من قبل الفرس أيام الشاه عباس حتى فتحها السلطان مراد سنة ١٠٤٨ هـ ١٦٣٨ م ودخلها على رأس جيش وهي تعاني مرارة جوع

(١) كان الصفويون قد احتلوا العراق سنة ٩١٤ هـ ١٥٠٨ م وقد سبقت حملة العثمانيين حروب طاحنة بين السلطان سليم والشاه اسماعيل وتبودلت بينهما رسائل شديدة اللهجة . راجع رسالة سليم الى اسماعيل في « تاريخ الاتراك العثمانيين » لحسين لبيب ص ٤١ - ٤٥ ج ١ .

شديد بعد أن دارت المعارك في أزقتها • وتعاقب الولاة المستبدون في بغداد
والموصل طيلة القرن السابع عشر الذي انتهى دون استقرار وجاء القرن
الثامن عشر فكان بداية عهد انحلال للدولة نفسها إذ انتقلت من سياسة
الفتح الى سياسة السلام^(٢) وكانت أوروبا قد استيقظت بعد الثورة الفرنسية
وأخذت تنظر الى الدولة العثمانية نظرة مصحوبة بالحسد والحقد فنشبت
الحروب بين العثمانيين والروس الى جانب الحروب المستمرة مع الفرس
وقد أدى هذا الانشغال بالحروب الى تسابق الدول الاخرى على استلاب
ما يمكن استلابه فاحتل الفرنسيون مصر عام ١٧٩٨م واتصلت بريطانيا
بالخليج العربي ووطئت أقدامها بعض امارات الساحل •

وفي أواخر هذا القرن ظهرت بوادر الدعوة الوهابية ، وكان العراق
خلال هذه الفترة يعوج بحوادث بعضها امتداد للتاريخ وبعضها ايدان
بتاريخ جديد ونعني بالاول استمرار الحكم الصارم الغريب على السكان ،
والحوادث الداخلية التي كانت تزعج هؤلاء الحكام والثورات القبلية في
الجنوب والشمال والغزو الايراني الذي تابعت أحداثه على بغداد والموصل
والبصرة ومناطق الشمال الكردية حتى منتصف القرن الثامن عشر لتعود
مرة اخرى • ونعني بالثاني انتقال الحكم من الولاة العثمانيين الى ممالئكم
من الكرج في منتصف القرن الثامن عشر بينما كانت القبائل في وسط
العراق وجنوبه تسعى بكثير من الجهد الى تقوية زعاماتها ونفوذها •

بداية الممالئك

كان حسن باشا الذي ولي بغداد سنة ١١١٦ هـ ١٧٠٤م من أبرز الولاة
فقد بقي في الحكم مدة عشرين سنة وهي مدة يحسد عليها وال مثله كان
يعيش في الجو الذي عاش فيه أسلافه ولم يكن سبب بقائه طيلة هذه المدة
الا انشغال الدولة بنفسها عما يتبعها وكونه من الذين وقفوا في وجه الفرس
بقوة وحزم وقد مات في حملته التي توجه بها الى ايران سنة ١٧٢٣م^(٣)

(٢) دائرة المعارف الاسلامية • ج ٥ م ٥ الترجمة العربية •

(٣) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث للونكريك ص ١٢٤ ط ٢

ترجمة جعفر خياط •

فخلفه ابنه أحمد وكان كآبيه فى حروبه مع الفرس حتى مات فى صيف سنة ١٧٤٧م وكان يقود حملة لمحاربة البابين من زعماء الاكراد فى شمال العراق^(٤) .

ان المدة التى قضاها حسن باشا فى الحكم قد دفعته الى أن يجعل من قصره بلاطا يشبه بلاط السلطان فى الاستانة وكان قد عرف - وهو مستخدم فى الباب العالى - كيف ينظم السلطان مستخدميه فأخذ يؤسس على غرار ذلك درجات مستخدميه فى بغداد^(٥) وكان من هؤلاء طائفة من الارقاء جىء بهم صفارا من بلاد الكرج^(٦) ثم تدرجوا فى الخدمة فأسندت اليهم الوظائف المختلفة من مدنية وعسكرية وكان من بين هؤلاء المملوك سليمان فقد أعتقه الوالى أحمد بن حسن حين أسندت اليه الولاية بعد أبيه وزوجه ابنته عادلة^(٧) وجعله نائبا له (كتحذا) وبعد وفاة أحمد كان الممالك قد رسخت أقدامهم فى بغداد فلم يخضعوا للولاة الثلاثة الذين عينتهم الدولة بل شغبوا عليهم طيلة حكمهم الذى لم يتجاوز ثلاث سنوات^(٨) وأثاروا الفوضى ضدهم حتى اضطرت الدولة الى تعيين سليمان المملوك المعتق واليا لبغداد سنة ١١٦٣هـ ١٧٥٠م^(٩) وهو أول وال مملوك حكم هذه الولاية ثم أضيفت اليه البصرة وماردين وبقي يحكم مدة اثنتى عشرة سنة كان فيها أهل بغداد

(٤) المصدر السابق ص ١٥٢ .

(٥) المصدر السابق ص ١٥٤ وتاريخ الممالك لسليمان فاتق

الورقة ٦ . ترجمة نجيب ارمنازى .

(٦) الكرج من شعوب الهند الجرمانية وتسمى بلادهم كرجستان وهم مشهورون بالجمال وقد دالت دولتهم سنة ١٨٠١م واستولت عليهم روسيا وحاضرتهم تفليس على ضفاف نهر (الكر) Kour ومنهم ممالك بغداد الذين عرفوا بالكولة من . اى : الاسراء . راجع (لغة العرب) الجزء الاول من السنة الرابعة - تموز ١٩١٤ - بغداد .

(٧) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث . ص ١٥٥ و :

Baghdad the city of peace. by richard koke. p. 227. 2nd. London.

(٨) راجع (سالنامه) بغداد الدفعة ٢٢ سنة ١٣٢٩هـ و (تاريخ

الممالك . الورقة ٣ .

(٩) كان بعد وفاة سيده وصهره أحمد قد عين واليا لاطنه فذهب

اليها ثم جاء به الى بغداد تعصب الممالك .

راضين قانعين لانه كان يحميمهم من غارات القبائل فى حين كان هو محكوما لزوجته ذات النفوذ القوى وفى حين كان سيل الممالك يتدفق من تفلّيس الى بغداد لتسلم أهم الوظائف والمناصب بينما كان يكفى المرء أن يكون بغداديا ليحد من طمعه فى الوظيفة^(١٠) .

وتوفى سليمان سنة ١١٧٦هـ ١٧٦٢م فتعرضت بغداد - كعادتها - لشغب المتنافسين على الحكم من الممالك وكان هؤلاء سبعة من الضباط فاتّيح لاحدهم وهو (على آغا) أن يكون واليا ووزيرا بعد سليمان ولكن أصله الفارسى وما قيل عن تشييعه كان من أسباب الفوضى التى عاقت استمراره فى الحكم فقتل^(١١) وخلفه عمر زوج بنت أحمد الثانية^(١٢) فقتل أيضا وخلفه عبدى ثم حسن ثم سليمان الكبير الذى ختم به القرن الثامن عشر واستمر بعده حكم الممالك فكان آخرهم داود الذى انتهى به حكم هؤلاء سنة ١٢٤٧هـ ١٨٣١م .

أما الموصل فانها كانت خاضعة للأسرة الجليلية الموصلية وكان أبناء هذه الاسرة يتعاقبون على الحكم ولاة من قبل السلطان وأما مقاطعات الأكراد فهى خاضعة لزعماء القبائل الكردية التابعين للسلطان ، وكانت البصرة ونواحيها تابعة لوالى بغداد .

الحالة العامة :

ليس من السهل أن تسرد الحوادث مفصلة فى تمهيد قصير خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر فقد كانت عقابيل الطمع الايرانى تستدعى التحفظ والاستعداد لمنع تكرار الحوادث التى تعرضت لها بغداد والموصل والبصرة فى النصف الاول منه ، وكان خطر الحركات الوهابية قد تجاوز حدود نجد الى بادية العراق وأخذ يهدد سكان الضفة الغربية من

(١٠) Baghdad the city of peace. p. 229.

(١١) كان قتله على يد خلفه عمر الذى استعان ببعض متنفذى بغداد عليه . وقد دافع رسول حاوى فى كتابه (دوحه الوزراء) عن على آغا هذا فى ص ٢٥٩ من الاصل التركى المخطوط فى مكتبة الآثار .
(١٢) اسمها عائشة وهى أخت عادلة زوجة سليمان .

نهر الفرات وقد بلغ التهديد درجة مخيفة في نهاية القرن الثامن عشر
فرحفت لمحاربة الوهابيين قبائل الجنوب من المنتفق وغيرهم ثم جيش مؤلف
من معظم القبائل العراقية وجنود الدولة بقيادة الكرخدا (على) أيام ولاية
سليمان الكبير وكان هذا الزحف سنة ١٢١٣هـ - ١٧٩٨-١٧٩٩م وقد باءت
كل هذه المحاولات بالخيبة ولم تجد نفعا .

وكانت اليد الاجنبية قد مدت أصابعها الى العراق فلبريطانيا وفرنسا
ممثلون في بغداد والبصرة^(١٣) ولهؤلاء الممثلين صلة بولاية بغداد تبعثها
مساعدات جمة لهم وكان الوالي عمر ممن ساعده الانكليز^(١٤) وكان نفوذ
وكلاء الشركة البريطانية^(١٥) ونجاحهم مبعث حنق الفرنسيين وحسدهم
فقد ظفرت هذه الشركة بعطف الوالي سليمان الكبير لانها ساعدته على ارتقاء
المنصب وقد طلب بوساطتها بعض السلاح والعتاد من بومبي . وتكرر هذا
الطلب مع استقدام مدرين اوروبيين من الهند . وكان تدخل المقيم البريطاني
قد ساعد سليمان هذا على البقاء في منصبه عندما شاع خبر تعيين سليمان
الشاوي البغدادي واليا لبغداد سنة ١٢٠٢هـ - ١٧٨٧-١٧٨٨م فقد كتب المقيم
الى السفير البريطاني في الاستانة ليسانع الوالي المملوك على بقاءه في
الولاية^(١٦) .

ولقد كانت الحياة العامة في بغداد غير مستقرة ومثلها المدن الاخرى
وكان الشعب الذي يثيره الممالك وحاشية الوالي طمعا بالمال والحكم عاملا
هاما في عدم الاستقرار وفي اثاره الهلع والخوف بين السكان . أما القبائل
فقد كانت أشد اضطرابا ونوراتها تكاد تكون مستعصية على الحكومة ولكن
الولاة لم يدخروا أى جهد لخضد شوكة الثائرين وقمع ثوراتهم .

(١٣) أول مقيمة اسستها بريطانيا في البصرة كانت سنة ١٧٦٤م
وفي بغداد سنة ١٧٩٨م . راجع : (العراق دراسة في تطوره السياسي)
لايرلاند ص ١٤ ترجمة جعفر خياط .

(١٤) Baghdad the city of peace. p. 230.

(١٥) تأسست هذه الشركة في البصرة سنة ١٧٥٥م .

(١٦) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث . ص ٢٤١ .

وقد كانت قبائل الفرات الاوسط تحمل راية التمرد على الحكم وتتنفض بين حين وآخر ساخطة متبرمة من ثقل الضرائب وفداحتها .
ومثلها قبائل المنتفق في الجنوب وقبائل جنوبي دجلة وكذلك شمر وعنزة في الشمال الغربي ، والاكراد في المناطق الجبلية غير انها كانت مبعثرة لا يجمعها هدف موحد ولكن ثورة واحدة يمكن أن تعبر عن هدف وتصميم وتوحى بأن هناك احساسا بوجود طرد الولاة الاجانب وهذه الثورة كانت سنة ١٢٠١ هـ ١٧٨٦-١٧٨٧م وقد بدأها سليمان الشاوي^(١٧) في بغداد فهدد هذه المدينة وما جاورها وامتدت ثورته الى أماكن اخرى وكاد ينتصر على الوالي سليمان الكبير لولا التخاذل الذي سبب انتكاس الثورة وهرب الشاوي^(١٨) الى قبائل المنتفق ومن ثم حدث اتفاق ثلاثي جمع سليمان الشاوي وحمد بن محمود رئيس خزاعة وثويني بن عبدالله شيخ المنتفق^(١٩) وأدى هذا الاتفاق الى استيلاء ثويني على البصرة^(٢٠) وطرد المسلم العماني غير أن سياسة التفكيك والتقريب والتباعد وعوامل قبلية وعنصرية يرافقتها جعلت يحول دون التنظيم الصحيح كانت تبعد هذه الثورات وتكل بأهلها فقد كان الوالي يستعين بالاكراد لمحاربة العرب^(٢١) وبحكام الموصل لمحاربة

-
- (١٧) كان الشاوي قد شاهد مصرع أبيه عبدالله وعمد سلطان على يد الوالي المملوك عمر سنة ١١٨٣ هـ ١٧٦٩ - ١٧٧٠م . راجع (غاية المرام) لياسين العمري الورقة ١٠٣ .
(١٨) مطالع السعود لعثمان بن سند : الورقتان : ٥٥ و ٥٦ وغاية المرام . الورقتان : ١٠٦ و ١٠٧ وأربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ١٩١ .
(١٩) مطالع السعود : الورقة ٥٧ . ومن الغريب أن هؤلاء الثلاثة كانوا على ميعاد في الموت فقد قتل الشاوي سنة ١٢١٠ هـ ٧٩٥ - ١٧٩٦م . وقتل ثويني سنة ١٢١٢ هـ ١٧٩٧ - ١٧٩٨م وتوفى حمد سنة ١٢١٤ هـ ١٧٩٩ - ١٨٠٠م .
(٢٠) مطالع السعود . الورقة ٥٧ وغاية المرام . الورقة ١٠٧ وأربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ١٩٢ .
(٢١) مطالع السعود . الورقة ٥٧ وأربعة قرون . ص ١٩٢ .
وخلاصة تاريخ الكرد وكرديستان لمحمد أمين زكي . ص ٢٣٢ من الترجمة العربية لمحمد علي عوني .

أهل الوسط والجنوب^(٢٢) بل كان يستعين بالقرب على القريب^(٢٣) وبهذه الوسائل قضى على الثورة الثلاثية •

ومهما يكن من شيء في سوء النتائج فإن هذه الثورات الضخمة المتكررة في الشمال والجنوب وعلى الفرات ودجلة دليل واضح على عدم الاستقرار وبرهان جلي على فساد الحكم وعدم انسجامه مع المحكومين •

الثقافة العامة :

لقد كان من نتيجة استيلاء المغول وتعاقب الحكومات الاجنبية على العراق أن هبطت الحركة العلمية عن مستواها في العصر العباسي وكان هذا الهبوط عاما شاملا في البلاد العربية ولا غرابة في أن تضعف الحركة العلمية ويخفت صوت الشعر ويتكسر النثر الى أضعف درجاته فقد كانت هذه العصور المتأخرة لا ترى فيها حكاما على العراق غير الذين قذفت بهم مسارب الظلام من آفاق بعيدة فجاءوا وهم لا يعرفون غير الرطانة الاعجمية وليس في أدبهم خميرة من علم أو معرفة ولا في نفوسهم أو نفوس الكثيرين منهم ميل الى العلم والمعرفة ولقد كان من الهين لو أنهم كانوا كحكام الدويلات التي تشققت في العصر العباسي اذ دفعتهم قوة الاستمرار الى تشجيع العلم والادب ولكن هؤلاء كانوا يتساقطون على العراق كما تساقط الاخشاب الخاوية المتآكلة على أمثالها في بناء قد انهارت جوانبه ومسقوفه فلا ترى الا الغبار الذي يعلأ الخياشيم ويمنع نور الشمس أن يصل الى بقايا الاعشاب والبراعم • ولقد كان العصر العثماني من أشد العصور وبالا على العلم والادب لا في العراق وحده بل في جميع أنحاء الدولة العثمانية فالجهل عام في تركيا وفي كل بلد تابع لها وقد شمل كل

(٢٢) غاية المرام • الورقة ١٠٧ • وذكرى السعدون للشيخ على الشرقي • ص ٣٥ •

(٢٣) كما حدث لحمود الثامر فقد انضم الى الوالي سليمان الكبير لمحاربة عمه ثويني بن عبدالله وجوزى بنصبه شيخا بدل عمه • راجع • مطالع السعود • الورقة ٥٧ وأربعة قرون • ص ١٩٢ •

الطبقات وكان تعصب العثمانيين قد حملهم على أن يجعلوا لغتهم التركية لغة رسمية في الدواوين ومجالس القضاء^(٢٤) وقد أدى هذا الى أن يتعلم التركية من أراد التقرب الى الوالى وأن يعنى بها ويعلمها أبناءه . وكانت بغداد مركز هذا الزلزال المخيف الذى اهتزت له جوانب دجلة فيما حول بغداد . غير أن هذا السلطان الذى فرض على بغداد والمدن الكبرى لم يستطع أن يهيمن على المدن الجنوبية الصغيرة أو على القرى والارياف فقد كانت السلطة النافذة بيد زعماء القبائل ولم يكن لهؤلاء صلة بالدولة غير دفع الضرائب فى مواسم الدفع وغير مساعدة الوالى عندما يحتاج الى المساعدة وبسبب ذلك لم تتأثر عادات القبائل وسجاياهم الموروثة بعادات الأتراك وسجاياهم ولم تخضع خصائصهم العربية لهذا الذوبان الذى خضعت له بغداد بما عمرها من الاجناس المختلفة ، وبقيت اللغة العربية لغة التعليم فيما بقى من المعاهد القديمة فى بعض الحواضر كالحلة والنجف وكانت هذه المعاهد تحت اشراف رجال الدين تغذيها الاعانات التى يجمعها ذوو اليسار وهى - على علاتها وعلى ما فيها من اهمال - لها فضل كبير على رعاية التراث العربى الموروث وكان المتخرجون فى هذه المعاهد مغمورين بعطف الزعماء فى الارياف كزعماء خزاعة وربيعة وزبيد وبنى لام والمتفق وغيرهم^(٢٥) وكان فى هؤلاء الزعماء من يقدر رجال العلم والادب ويحسن الى الشعراء ، وكان فيهم من يأنس للشعر بل كان فى خزاعة - مثلاً - من له المام بالادب ومحاسن الكلام^(٢٦) . وليس معنى هذا أن اللغة الفصحى كانت شائعة فى الارياف وبين القبائل بل كانت العامية الدارجة أقوى منها نفوذاً ان لم تكن هى السائدة آنذاك .

(٢٤) كان السلطان مراد قد فرض التركية لغة رسمية عندما احتل بغداد ومنع أن تكتب عريضة واحدة بغيرها . جريدة (العرب) البغدادية العدد - ٥ - من السنة الاولى .
(٢٥) من مقال للشيخ محمد رضا الشيبى فى جريدة (الزمان) البغدادية ٢٩ نيسان ١٩٥٠ م .
(٢٦) مقدمة ديوان الشيخ صالح التميمى الورقة ٢ من النسخة الخطية . والمسك الاذفر لمحمود شكرى الالوسى ص ١٤٨ .

أما الموصل فقد تملكت في القرن الثامن عشر واستعادت شيئاً من نشاطها الموروث وكان فيها علماء وشعراء لا يقلون عن اخوانهم في النجف والحلة ، وهذا لا يعني أن بغداد في القرن الثامن عشر كانت رابدة كل الركود وان كانت معاهد العلم فيها تخضع لرعاية الدولة وأوقفها فقد كانت اسرة الشاوي أقوى دعامة للمحافظة على الخصائص العربية في بغداد وكان للعلماء والشعراء نصيب من احترامها وتقديرها وكان سليمان الشاوي في طليعة الزعماء الذين حفلت مجالسهم بالشعراء بل كان هو نفسه شاعراً وكان الشيخ كاظم الازري المتوفى سنة ١٢١١هـ - ١٧٩٦ - ١٧٩٧م شاعره الخاص غير أن مكانة بغداد وشهرتها لا يناسبها ما كانت عليه من علم وأدب كالذي كان في الحلة والنجف .

الشعر والنثر في هذه المرحلة :

كان الشعر في هذه الفترة يتلفت الى الماضي في بعض المواطن فيحاول الشاعر أن يأخذ بأساليب القدماء ولكنه لا يستطيع أن يزاحم الصف ليأخذ مكانه منه بل كان يهدف الى ذلك باذلاء أقصى الجهد في الاطلاع على الادب القديم والاستعانة بما بقي من المخطوطات واستظهار ما يمكن استظهاره من الشعر العربي القديم وتبدو مظاهر هذه المحاولات في التعابير والاوزان وفي الابتعاد - جهد المستطاع - عن المحسنات التي طمست معالم الاصاله في الشعر خلال الفترة المظلمة ولكنه كان في معظم المواطن لا يستطيع التخلص من أساليب العصور المظلمة فتطغى عليه المحسنات وتؤخره الركافة عن سير القافلة . وقد شاع في هذه الفترة فن التخميس والتشظير وما يشاكلهما من فنون ذات الصبغة المصطنعة .

أما من الناحية الموضوعية فان الشعراء لم يجدوا في شيء ولم يخرجوا عن نطاق الشعر القديم من غزل ومدح ورناء وحكم وأمثال الى جانب الشعر الديني الذي شاع في التصوف ومدائح النبي وآل البيت ومراثيهم وقد نظم في هذه المدائح والمراثي معظم شعراء العراق .

وهذا الشعر الذي لم يزد على الموضوعات المعروفة لم يجدد أو يطور

في الموضوعات نفسها فلم يخرج بالفزل والرثاء والمدح وغيرها عما كانت عليه في العصور القديمة •

أما الشكوى من الحياة والتذمر من الزمن فإن له في شعر هذه الفترة نصيبا غير قليل ولكن اللون السياسي كان ضعيفا من الوجهة السلبية فالخطرات التي نظمها الشعراء في مناوأة الحكم العثماني لا تؤلف مجموعة ذات دلالة قوية على مجابهة الحكم من قبل الشعراء كالسلبية التي كانت تظهر من مجموع الشعب العراقي بين حين وآخر •

ومن أمثلة هذا الشعر - لا على سبيل الاختيار - قول شاعر هذه الفترة الشيخ كاظم الازري من قصيدة يمدح بها سليمان الشاوي :

ان رمت توطئة المرام الاصعب فاركب من الاقدام أخشن مركب
لا تكترن من الشباب وذكره أنت ابن يومك لا ابن ماضي الاحقب
وتلاف من قبل القوات فربما أعيالك غمز العود بعد تصلب
ومنها :

لا تعجبا لفساد كل صحيحة فالتاس في زمن كجلد الأجر ب
ما ليالي حاجة في عاجز يأبى المرس في هجير السبب (٢٧)
وقد ورد لمدوحه سليمان الشاوي شعر فيه بعض الحكم وهو دون مستوى هذا الشعر (٢٨) •

وينظم الشيخ حسين العشاري في مدح (سعيد) كاتب الوالي المملوك

(٢٧) راجع ديوان الازري ص ١٧ - ٢١ •

(٢٨) راجع (غاية المرام) الورقة ١٠٨ •

عمر^(٢٩) سنة ١١٨١ هـ - ١٧٦٧ - ١٧٦٨ م فيقول :

يا صاحب القلم الاعلى الذى سعدت به الملوك فأغناهم عن السمر

جعلته سيف مولانا الرضا عمر لذلك سمّيته بالصارم العمري^(٣٠)

ويعمدح الامام عليا . وقد رأى قبته المذهبة عند زيارته النجف سنة
١١٨٣ هـ - ١٧٦٩ - ١٧٧٠ م فيقول :

لقبة مولانا على أشعة تفتى على الابصار والأعين الدعج

فما هي الا برج فضل وقد بدا محيا أبي السبطين من ذلك البرج^(٣١)

وللسيد أحمد فخرى الموصلي^(٣٢) شعر فيه كثير من الاتجاهات
الدينية ومنه قوله في مدح الامام على . ولعله قد زار النجف كما يظهر
من القصيدة :

لونا عنان العملات لمشهد به قد توى كنز المكارم والفخر

أبو الحسين الليث من آل غالب وغالب فرسان بأسيفه البتر

هو المرتضى للمصطفى وابن عمه وصاحبه والصنوفى العسر واليسر^(٣٣)

(٢٩) راجع الهامش ١٧ من هذا التمهيد .

(٣٠) ديوان العشارى ، الورقتان : ٢٧ و ٢٨ .

(٣١) المصدر السابق الورقة : ١٧ .

(٣٢) كان مفتيا للموصل وقد توفى سنة ١٢١٩ هـ - ١٨٠٥ م .

(٣٣) غاية المرام الورقة ٢٠٠ .

ومن شعر المدح ما قاله يحيى بن مراد العمري في الوالى أحمد ابن

حسن عندما قضى على بعض الثورات القبلية في الشمال والجنوب :

ألم تعلم الاعراب وقع سيوفكم وفي كل قفر موحش لكم قبر
فمتفق لما أبدت نفاقهم وفرقتهم في اليد صرعى لهم عفر
وشمر لما شمروا الساق في الوغى غدوا ككلاب حين يلحقهم ذعر
وأما (بنو لام) فكل يلومهم لما نابهم قتل وحق بهم أمر^(٣٤)

ولا أرى حاجة للتعليق على لغة هذه الأبيات وضعف نسجها وما فيها
من تحامل على القبائل العربية من شاعر عربي فهي لغة بعض الشعراء - أو
كثير منهم - في العصر العثماني .

ومن الشعر السياسي المناوىء للحكم العثماني قول مصطفى الغلامى
الموصلى مستخدما بعض الالفاظ التركية :

ما قولكم يا علما (أدرنه) فى زمن لا يشبه الأزمنه
ترعد من أنفاسه ركبتى ويقشعر الجلد منه سنه
هذا وذو كركين أو ثالث يقول : (بوقيش صاو چقتر كنه)
والترك ان تدن لهم يبعدوا يصيحوا فى غلمانهم (قاوسنه)
وان أعزوك بألفاظهم كانت - ورب البيت - مستهجنه^(٣٥)

(٣٤) شمامة العنبر لمحمد مصطفى الغلامى . الورقة : ٣٠ .

(٣٥) راجع هذه القصيدة فى (شمامة العنبر) الورقة ٥١ - ٥٢
وفى تاريخ الموصل لسليمان صائغ ص ١٣٣ و ١٣٤ ج ٢ ، وقد حذفنا منها
بعض الابيات .

أما النثر فإنه كان أحط من الشعر ، وإذا استثنينا النثر الذي كتبت به العلوم الدينية فإننا لا نجد نثرا أدبيا يستطيع أن ينهض الى مساماة النثر القديم في أدنى عصوره فإن مقدمات الكتب والرسائل ونثر الكتب التاريخية أيضا كان كل ذلك مثلا من أمثلة التهافت على اللفظ لا المعنى ، والعناية بالالوان البديعة المتكلفة السقيمة ، ومن صور ذلك ما جاء للشيخ عبدالرحمن السويدي^(٣٦) في (حديقة الزوراء)^(٣٧) وهو يستعرض تاريخ فترة من فترات القرن السابع عشر . قال تحت عنوان : « فصل في بيان غزوة زبيد »^(٣٨) .

••• وهذه الغزوة تحتاج في البيان الى بسط مقدمة وافية الايضاح والبيان ••• وهو أن هؤلاء الاشقياء ومن والاهم من أهل الفساد في تلك البيداء كال جحيش وآل سعيد وآل عامر وآل خالد وآل دليم وآل نوفل أظهروا الاعتزال وخرجوا على طاعة العمال •••^(٣٩) .

وقال في ثورة خزاعة سنة ١١٠٥هـ ١٦٩٣م :

••• كان صاحب المشورة على البغي والعصيان والمحرض للاعراب

(٣٦) توفي سنة ١٢٠٠هـ ١٧٨٦م .

(٣٧) لا يزال هذا الكتاب مخطوطا في بضع نسخ توجد في بغداد .

(٣٨) كانت سنة ١١٠٦هـ ١٦٩٤م .

(٣٩) على هامش العراق بين احتلالين للحاج وادي العطية ، ص ٩ .

على الفساد والطغيان والمحزب للاحزاب الخزعلى سلمان (٤٠) .
هذا النثر واضح فى ركنه التى تلائم عصر المؤلف أما موضوعه فانه
استعداد سافر على القبائل واتهام لها بالمروق والفساد على حكام الدولة
العثمانية الجائرين وليس هذا بغريب على بعض رجال الدين الذين كانوا
يؤيدون الولاية فى أعمالهم ومحاربتهم القبائل .

(٤٠) المصدر السابق ص ١٣ و ١٤ .

الباب الأول
عوامل الشعور السياسي
في القرن التاسع عشر

- ١ - الحالة السياسية في الدولة العثمانية عامة وفي العراق خاصة
- ٢ - الحالة الاجتماعية في العراق
- ٣ - الحالة العلمية . . .

الفصل الاول

الحالة السياسية

القسم الأول

الحالة السياسية في الدولة العثمانية

السلطين ونظام الحكم :

بدأ القرن التاسع عشر وسلطان الدولة العثمانية سليم الثالث ، وانتهى حكمه بالقتل بعد الخلع سنة ١٢٢٢هـ ١٨٠٧م فخلفه مصطفى الرابع وكانت نهايته القتل أيضا سنة ١٢٢٣هـ ١٨٠٨م وجاء بعده محمود الثاني وانتهى حكمه سنة ١٢٥٥هـ ١٨٣٩م قتلاه عبدالمجيد ومات سنة ١٢٧٧هـ ١٨٦١م وجاء بعده عبدالعزيز وخلع ومات سنة ١٢٩٣هـ ١٨٧٦م واسند الحكم الى مراد ولكن هذا لم يبق في الحكم سوى بضعة أشهر فخلع وبويع بعده السلطان عبدالحميد الثاني .

سبعة سلاطين تداولوا الحكم العثماني في قرن واحد كان من أحفل القرون بالتطور في العالم الغربي . ومن أشدها حركة ويقظة في العالم الاسلامي في حين كان جهاز الحكم في الدولة العثمانية لا يتحرك الا ببطء وقد يتحرك يوما ولكنه يقف سنين .

سبعة سلاطين ليسوا على مثال واحد في الحكم والتفكير ، بعضهم كان يميل الى العلم والعمل والاصلاح ، وبعضهم كان جامد الفكر تستحوذ عليه الرجعية المتعصبة ، فالسلطان سليم الثالث حاول الاصلاح وأرسل البعث وشجع الطباعة وأسس المدارس وحدد مدة حكم الوالي في أية ولاية بثلاث سنوات ولكن أعماله كانت تصطدم برجعية جامحة .

ومصطفى الرابع كان يسير في ركاب الرجعيين الذين رفعوه الى العرش ثم قتلوه كما قتلوا سليما قبله .

ومحمود الثاني قضى على (النيجيرية) وغير زى الرأس بالظربوش

وأنتأ سفنا حربية ومسرحا يشرف عليه ايطاليون وأراد القضاء على الحركات
الوهابية فلم ينجده غير الجيش المصرى وصمم على ابادة المماليك فى بغداد
فتم له ذلك على يد جيوش معظمها من الارناؤود وحلب والموصل فى حين
أضاع الصرب واليونان وأتاح للدول الاجنبية أن تتدخل فى شؤون حكومته
وفسح المجال لتابعه محمد على والى مصر أن يحارب الدولة ثم مات نتيجة
لادماته الخمر^(١) .

وأما عبدالمجيد فقد أعلن المساواة فى الحقوق بين المسلمين وغيرهم
عام ١٨٣٩م ثم عام ١٨٥٦م ولكن ذلك كله لم يكن أكثر من كلام مسطور
اذ كانت المساواة مفقودة حتى بين المسلمين أنفسهم وقد دفعته الحاجة الى
الاقتراض من اوروبا .

وعبدالعزيز كان مبذرا متلافا أعطى الاجانب حرية التملك فى الدولة
وانصرف الى اللهو والبذخ وحشد النساء فى القصر والاكثار من المغنيات
والخدم والحواشى^(٢) وألقى الدولة تحت عبء ثقل من الديون^(٣) . ولم
يكن مراد سوى سلطان مختل العقل لا قدرة له على ادارة شؤون نفسه فضلا
عن ادارة شؤون الدولة فلم يمكث فى الحكم أكثر من ثلاثة أشهر .

وداهية الدواهى عبدالحميد كان مستبدا موسوسا أعلن الدستور ثم
طواه وحارب المفكرين والاحراز وأضاع سيادة الدولة على الصرب ورومانيا
وبلغاريا والجيل الاسود وقبرص ومعظم مقدونيا ، واستفحل فى عصره شأن
الجاسوسية ، وأخذ كل جذوة من جذوات الحرية ثم غلف سلطانه بغلالة
شفافة هى غلالة الجامعة الاسلامية يهدد بها خصومه فى الداخل والخارج
وحشد لها حشدا كبيرا من الزعماء ومشايخ الطرق فى الحجاز والشام
والعراق ونجد واليمن ومصر وطرابلس وتونس والمغرب وبعض زعماء

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ص ٣١ ج ٤ الترجمة
العربية لنبية أمين فارس ومير البعلبكي .
(٢) عبدالحميد من ولاية العهد الى المنفى لجلال نورى ص ٣٤ و ٣٥
الترجمة العربية لابراهيم سليم النجار .
(٣) مذكرات مدحة ص ٥٧ الترجمة العربية ليوسف كمال حتاتة .

الأكراد والأرناؤود حتى صير الأستانة مكة ثانية^(٤)، في حين كان قصره حافلا بمئات الجوارى ، وكانت بطانته من الجواسيس والمنجمين^(٥) ويده لا ترفع عن اغتصاب المزارع والمقاطعات وتسجيلها باسمه وتفويضها الى مقربيه^(٦) ، ونفسه لا تنكش من السماح لليهود بالتملك في العراق^(٧) ، وأصابعه - وهى أصابع خليفة المسلمين - لا تتورع عن العزف^(٨) ، وسجنونه ومنافيه تضم بين جدرانها مئات من المفكرين المناوئين لسياسته .

فإذا تركنا السلاطين الى غيرهم فإننا لا نجد سوى أنماط وأشكال من الموظفين الذين لا هم لهم سوى جمع المال . الصدور هم الصدور والوزراء هم الوزراء ، والولاة هم الولاة لم يختلفوا عن سبقهم فى الجهل والنفاق . وفى شراء المناصب ونهب الناس وسرقة الدولة ولا زجر ولا عقاب أكثر من النقل من مكان الى آخر ، والى جانب هؤلاء جنود يحملون البنادق للارهاب ، وجباة لا يحى الناس منهم قانون ، وقضاة يعشون وينهبون^(٩) ، ويشيدون الدور من أموال الأراامل واليتامى .

وقد بلغ التزاحم على الوظائف أشده وصار الموظفون من كبيرهم الى صغيرهم يأكل بعضهم بعضا وينافق بعضهم على بعض ينهبون ويرتشون ثم يقدمون ما نهبوا لموظفى الباب العالى طمعا فى منصب أعلى أو وظيفة كبرى . وكانت الابواب مفتحة لكل من يقدم أكثر من غيره ولو كان جاهلا أميا حتى

(٤) حاضر العالم الاسلامى تأليف لوثرروب ستودار ص ٣٠٩ الجزء الاول من الترجمة العربية لعجاج نويهض .
(٥) كان للمنجمين رئيس ، راجع (الزوراء) العدد ٦٠٥ السنة السابعة .

(٦) أخذ مقاطعة كبيرة فى شمال العراق وفوضها الى أحد اليونان راجع جريدة (اليقظة) البغدادية العدد ٧٥٤ الصادر بتاريخ ١٩٠٢-١٩٥٠ م .

(٧) بواعث الحرب العالمية الاولى فى الشرق الادنى لجان بيشون ، ص ١١٩ من الترجمة العربية لمحمد عزة دروزة .

(٨) كان مغرما بالبيانو الذى اهدى اليه من امبراطور ألمانيا . راجع (الانقلاب العثمانى) لجرجى زيدان ص ٥٨ طبعة ١٩٥٠ .

(٩) غرائب الإغراب لابی الثناء الالوسى ص ٤٢٢ . ومطالع السعود الورقة ١٠٠ .

صار لكل ولاية خمسة ولاة أربعة معزولون يقبضون مرتب العزل وواحد في وظيفته ينتظر نهايته ليخلفه صاحب القرعة ، ومثلهم المتصرفون ومن دونهم حتى امتلأت خانات الاستانة وفنادقها بالمعزولين وطلاب الوظائف ، وصار من المألوف في الدولة - من اليمن الى إزمير - أن يتبدل شكل الحكم مرة أو مرتين في العام حتى في القرية الواحدة^(١٠) . والمحكومون غارقون في الجهل والذل يؤدون ما عليهم ولو كان بيع القدر والائناء والزاد والراحلة ، وصار الحاكم يظلم بلا وازع ، والمحكوم يُظلم وليس له من شفيع وقد سدت أبواب الشكوى دونه^(١١) ، فاذا ثار أحد أو طالب بالحق قوبل بالسيف والنار والتدمير والخراب^(١٢) ، وأشبه الاميين ممن سموا أنفسهم رجال دين يتنافسون على الالقاب والرتب والاوزمة ويمائنون السلطان ويسبون من لم يعلن له الطاعة والخضوع ، والتكايبا^(١٣) والربط وزوايا المتصوفين ومشايخ الطرق كأنها أوكار البوم ومساكن النمل يزحف بعضها فوق بعض ولا هم لها غير التخدير والتويم وبيع الوظائف لمن يثق بالطوالع والنجوم^(١٤) ، وما أكثر هؤلاء في الدولة حتى زهد الناس في العمل وانصرفوا الى الخمول واعتادوا العطالة والجوع ، وعبارات مصطنعة من التفضيم والملق والعبودية تظني على السنة المتملقين من رجال الدين والكتاب والشعراء والسماصرة الذين لا يحسنون غير الكذب والدجل^(١٥) ، وسنطان لا يحترم موظفيه ، وموظفون ينحنون أمام السلطان ولكنهم يحقر بعضهم بعضا وينحني بعضهم لبعض على اختلاف درجاتهم ومراكزهم . وحروب في الداخل والخارج عرضت الدولة للتمزيق والتقسيم في أوروبا وآسيا

(١٠) مذكرات مدحة ص ٢٣٤ .

(١١) من أمير الى سلطان لمصطفى فاضل ص ١١ من الترجمة العربية لاحمد فتحي زغلول .

(١٢) مذكرات مدحة ص ٢٣٤ .

(١٣) كان في الاستانة وحدها ٢٦٠ تكية . راجع . حاضر العالم الاسلامي ص ٢٢٩ ج ١ .

(١٤) راجع : غرائب الاغتراب ص ١٨٨ .

(١٥) راجع مذكرات مدحة ص ٢١٦ .

وأفريقيا ، وفتن وثورات في كل مكان ، وتحريض للعناصر والطوائف بعضها على بعض وضرب العربي بالتركي والارمني بالكردي^(١٦) والعربي بالارناؤودي ، والرومي بالكاثوليكي ، والمسلم بالنصراني ، والشيعي بالسني^(١٧) ، والعربي بالعربي بل ضرب السوري بالسوري والعراقي بالعراقي . وكانت حروب الدولة في الخارج مع روسيا والنمسا وغيرهما وهي لا ترى سلاحا تحارب به هذه الدول غير التهديد بالجامعة الاسلامية وما الجامعة الاسلامية الا وبال على المسلمين فقد تقاسمتهم بسببها انكلترا وفرنسا وايطاليا وروسيا ولم يستفد المسلمون من هذه الدولة شيئا حتى يساعدها في كل حادثة وان ساعدها في أكثر الحوادث^(١٨) .

وقد أدى هذا الفساد المستشري الى ثورات عارمة في كل أنحاء الدولة كما أدى الى ظهور مفكرين مصلحين في البلاد التركية نفسها وفي الشرق العربي ولكن صيحات هؤلاء كانت أخف من طين الذباب على مسمع السلطان وبطانته ، وقد استمرت الرجعية في سطوتها وقوتها غير مكترثة بالندر حتى هبت العاصفة الطورانية وقضت على الجامعتين الاسلامية والعثمانية^(١٩) .

أهم الحروب والحوادث :

تعرضت الدولة العثمانية لمشكلات خطيرة في القرن التاسع عشر وواجهت حروبا وحوادث لم تكن هينة سهلة ، وكانت لهذه المشكلات والحروب والحوادث أسباب وعوامل ليس من السهل استقصاؤها بل ليس

(١٦) أنشأ عبد الحميد كتيبة من الاكراد ليحارب بها الارمن .

(١٧) الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي ص ٥٠٥ ج ٢ .

(١٨) المصدر السابق ص ٥١٣ .

(١٩) الجامعة العثمانية يشترك فيها كل أتباع الدولة ورعاياها وهي نافعة لها في حروبها الداخلية اما الطورانية فهي اعتزاز بالتركية لغة وجنسا وقد صارت مقابلة للجامعة الاسلامية النافعة للسلطان . راجع جريدة (الاساس) القايرية العدد ٩١٣ من السنة الثالثة الصادر بتاريخ ١٩٠٥-١٩٥٠م من مقال لعباس محمود العقاد .

من السهل استقصاء تلك الحروب والحوادث جميعها في بحث أدبي لا يتعرض للتاريخ الا في حدود ما يتصل به ولا يتناول الحوادث السياسية الا بمقدار ما تدعو الحاجة اليه ، ومحاولة الربط بين الاثنين هنا لا تعنى أكثر من عرض أهم الحوادث التي استجاب لها الشعر وتناولها شعراء العراق فقد كان من حروب الدولة وحوادثها ما له صلة بالشعر العراقي ولكنها صلة لا تسمى انعكاسا لتلك الحروب والحوادث أو أثرا لها ، ومنها ما كان ذا أثر واضح في الشعر وتوجيه الشعراء ، ويعود السبب في الناحية الاولى الى بعد تلك الحروب والحوادث عن العراقيين ، وفي الثانية الى احتكاك بعض الحروب والحوادث بالعراق نفسه .

الحرب مع روسيا :

سجلت بداية القرن التاسع عشر حربا مع روسيا سنة ١٨٠٩-١٨١٢م ثم تجددت الحرب سنة ١٨٢٨م بسبب ثورة اليونان التي ناصرتها روسيا وانتهت هذه الحرب بمعاهدة (أدرنة) سنة ١٨٢٩م . وكانت حرب القرم سنة ١٢٧١هـ-١٨٥٥م من أشهر الحروب بين الدولة العثمانية وروسيا ولعل من أسبابها الهامة تنافس روسيا وفرنسا على الحماية الدينية في القدس فقد كانت الاولى تدعم الارثوذكس ، والثانية تحمي الكاثوليك الذين تؤيدهم الدولة العثمانية ، ولهذا السبب تدخلت انكلترا وفرنسا الى جانب الدولة العثمانية خوفا من زحف الروس ، وقد هوجم الجيش الروسي في شبه جزيرة (القرم) واندحر أمام أساطيل انكلترا وفرنسا بعد أن كاد يصل الى الاستانة ، وسقطت قلعة (سواستبول) بيد الدولة العثمانية وحلفائها في السنة نفسها^(٢٠) . ولكن روسيا لم تبق صامتا فقد عادت الى الحرب سنة ١٨٧٧م واشتركت معها رومانيا التي أعلنت استقلالها التام عن الدولة العثمانية آنذاك . وانتهت هذه الحرب بعقد الهدنة في (أدرنة) سنة ١٨٧٨م . وقد نتج عن هذه الحروب المستمرة انفصال كثير من أجزاء الدولة

(٢٠) تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٤٥ ج ٤ .

العثمانية كبلغاريا ورومانيا والجبل الاسود والصرب واليونان • وجعل
البوسنة والهرسك تحت اشراف النمسا وقد احتلتهما بجيوشها بعد ذلك •

مع اليونان وجيرانهم :

كانت ثورة اليونان سنة ١٨٢١م من الثورات التي كلفت الدولة جهودا شاقة فقاتلتها بالسلاح مدة طويلة ، وكانت الدول الاوروبية ولاسيما روسيا تشجع اليونان على هذه الثورة^(٢١) التي استمرت بحروبها وحوادثها ومن أشهرها حرب (المورة) سنة ١٨٢٦م وقد أسهمت بها الجيوش المصرية وساعدت باسطولها أساطيل الدولة العثمانية وحوصر الثوار وسقطت أثينا بيد الجيش العثماني في حزيران سنة ١٨٢٧م ولكن الحلف الثلاثي الذي عقده انكلترا وروسيا وبروسيا في السنة نفسها لتحرير الشعب اليوناني حال بين القوة المصرية وبين أى عمل عسكري جديد وقد دمرت أساطيل هذا الحلف اسطول الدولة العثمانية تدميرا كاملا^(٢٢) • ثم أعقبه اعلان روسيا الحرب على الدولة سنة ١٨٢٨م انتصارا لليونان حتى نالت استقلالها سنة ١٨٣٠م • غير أن اليونان لم تهدأ وانما أخذت تحرض جيرانها على الثورة فوَقعت بينها وبين الدولة العثمانية معارك اخرى ومن أهمها ما حدث سنة ١٣١٤هـ ١٨٩٧م وكان سبب هذه الحرب تحريض اليونان لسكان (كريد) في السنة نفسها بسبب ضغط الدول الاوروبية فعين أحد الامراء اليونانيين حاكما عليها^(٢٣) •

مع محمد علي الكبير :

لم تكن ثورة محمد علي والى مصر على السلطان المتبوع ثورة انفصالية مجردة وانما كانت تهدف الى أكثر من ذلك حين اندفعت جيوش مصر

(٢١) كان بعض شعراء الغرب وكتابه أمثال (بيرون) الشاعر الانكليزي • و (فيكتور هوغو) الشاعر الفرنسي من المؤيدين لهذه الثورة باشعارهما الحماسية •

(٢٢) تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٨ ج ٤ •

(٢٣) راجع تاريخ الاتراك العثمانيين ص ٦٣ ج ٣ •

لاحتلال السواحل السورية سنة ١٨٣٢م وعبرت الارض السورية فاحتلت (قونية) وبلغت (كوتاهية) حتى اضطر السلطان محمود الثاني الى الاستنجاد بالعدو التقليدي وهو روسيا ، ووصل الاسطول الروسى الى (السنفور) غير أن هذا العمل استفز انكلترا وفرنسا والنمسا وعقدت اتفاقية (كوتاهية) بين الدولة العثمانية وبين محمد على بالحاح من هذه الدول لتعود قوة روسيا من حيث أتت^(٢٤) ولكن الحرب عادت بين التابع والمتبوع سنة ١٨٣٩م ووقفت فرنسا الى جانب مصر التي احتل جيشها (نصيبين) في السنة نفسها ثم وقفت الحرب بسبب تدخل انكلترا وعقد مؤتمر (لندن) سنة ١٢٥٦هـ - ١٨٤٠م فأكرهت الجيوش المصرية على الخروج من سوريا^(٢٥) .

مع الوهابين :

كانت نجد خلال الاحتلال العثماني للاقطار العربية لم تخضع الخضوع المطلق للحكام والسلاطين من الأتراك^(٢٦) لذلك بقيت شبه مستقلة ولكنها مع هذا الاستقلال الذي يتعمده شيوخ البدو الرحل ورؤساء القبائل كانت مسرحا للفتن والحروب القبلية والغزو والنهب وكل ما تفرضه الحياة البدوية ، وكانت الى جانب خصائصها الموروثة من صدق وكرم ونجدة مرتعا خصبا للخرافات والعقائد الفاسدة كغيرها من الاقطار الاسلامية ، فالتبرك بالأحجار والاشجار والقبور والنذر لهذه كلها ، والاستعاذة بالجن والذبيح لهم من أجل شفاء المرضى ، وعدم التسمية على ما يذبح ليتم الشفاء^(٢٧) وما الى ذلك من الخرافات كان كله شائعا في هذا القطر العربي الذي انتشر فيه الجهل كما انتشر في غيره من الاقطار العربية . وفي هذه القطر ظهرت

(٢٤) المسألة الشرقية لمصطفى كامل ص ٩٠ - ٩١ .

(٢٥) تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٣٥ - ٣٦ ج ٤ .

(٢٦) لم يستطع العثمانيون بسط سلطانهم وتفوذهم الا على الاماكن

المقدسة في الحجاز .

(٢٧) عنوان المجد لعثمان بن بشر ص ٦ - ٧ ج ١ و (جزيرة العرب

في القرن العشرين) لحافظ وهبه ص ٣٣٦ الطبعة الاولى .

الدعوة الوهابية التي لم تكن جديدة على الدين الاسلامي ولكنها كانت جديدة على الدولة العثمانية وعلى السلطان نفسه .

ظهرت هذه الدعوة فلم يلتفت اليها في بادىء الامر ولكنها تطورت فاستفزت الدولة استفزازا شديدا^(٢٨) وأقلقت السلطان فاستنفر لها جيوشه وأتباعه وألب عليها رجال الدين واستثار عليها جميع المسلمين من مختلف العناصر والاجناس حتى وقعت الحروب الكثيرة وأريقت الدماء من العرب سنين عدة .

مؤسس الدعوة الوهابية ومبادئه :

كان رأس هذه الدعوة محمد بن عبد الوهاب النجدى^(٢٩) وقد بدأ حياته العلمية في تنقل بين نجد والحجاز والعراق وايران . وقرأ على أبيه الفقه الحنبلي ودافع بشدة عن مبدأ الاخذ بالحديث والاعتماد عليه مناوئا الاخذ بالرأى ، ودرس مؤلفات ابن تيمية وانتهت به الدراسة الى الاعتقاد بأن الاسلام في عصره مشوب بالمساوى^(٣٠) ، وقد جمع خلاصة دعوته في مؤلفاته العدة ومنها (كتاب التوحيد)^(٣١) و (تفسير القرآن) و (كشف الشبهات) وغير ذلك من الفتاوى والرسائل التي ضمنها آراءه ومعتقداته من وجوب العودة الى القرآن والسنة ، وهدم القبور وتحريم زيارتها والذبح لها ، والتوسل بالاولياء والصالحين الذين يعتقد المسلمون بقداستهم ، وكان يعتقد كفر من يفعل ذلك . فالتوجه الى الصالحين بالدعاء شرك أكبر ، والتسمية بما عبد لغير الله حرام ، وتعليق التيمية شرك ، وان كلمة (لا اله الا الله) وحدها لا تحرم المال والدم من قائلها ما لم يقل بكفر من كفرهم

(٢٨) كانت التقارير قد وصلت الى الدولة من شريف مكة سنة ١١٦٢هـ ١٧٤٩م وهي اول ما وصل الدولة عن هذا المذهب . راجع (دائرة المعارف الاسلامية) ص ١٩١ المجلد الاول .

(٢٩) ولد عام ١١١٥هـ ١٧٠٣م في بلدة العينينة وتوفي عام ١٢٠٦هـ ١٧٩٢م .

(٣٠) راجع : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ١٨ و ١٩ ج ٤ .

(٣١) طبع هذا الكتاب أكثر من مرة .

هو (٣٢) فمن أطاع فقد سلم ومن أبى فقد حل دمه وماله (٣٣) .

اتصل محمد بن عبدالوهاب ببعض الرؤساء ودعاهم الى تأييده فلم يستجيبوا له فاتجه الى (الدرعية) واتصل بمحمد بن سعود فأيده وتزوج ابنته (٣٤) . ثم كتب الى رؤساء نجد وقضاتها أن يطيعوه فمنهم من أجاب ومنهم من سخر به واستهزأ ولكنه مع ذلك بقي المشير الاكبر لابن سعود ، ولما مات محمد بن سعود سنة ١١٧٩هـ ١٧٦٥م تولى قيادة الدعوة عبدالعزيز ابن محمد ولم تكد تمر بضع سنوات حتى كانت الغارات الوهابية تشن على أنحاء نجد وغيرها وتغنم كل ما وقعت عليه يدها من أموال المغلوبين وأمتعتهم ومواشيهم حتى ملئت الدرعية بالفنائم الكثيرة وصارت تباع في سوقها خلال مواسم البيع (٣٥) .

الحرب في المرحلة الاولى : (٣٦)

ان أول حرب قام بها الوهابيون خارج ديارهم - بعد تأسيس الحكم - كانت مع بنى خالد في الاحساء (٣٧) بعد أن استولوا على الرياض وحريملا . وكانت المعركة الكبيرة مع بنى خالد سنة ١٢٠٧هـ ١٧٩٣م وفيها انتصر سعود ابن عبدالعزيز على بنى خالد وخضع له أهل الاحساء .

وأخذت الغزوات الوهابية تشتد على العراق والحجاز وكان شرفاء

-
- (٣٢) راجع (كتاب التوحيد) لمحمد بن عبدالوهاب ص ١٠ و ١٤ و ١٥ و ١٦ و ٤١ و ٧٣ طبعة دار الكتب العربية ومطبعتها بمصر .
(٣٣) جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٣٤١ .
(٣٤) Baghdad the city of peace. p. 234.
(٣٥) راجع عنوان المجد لابن بشر ص ١٣ ج ١ .
(٣٦) ينقسم الحكم السعودي الى ثلاث مراحل : الاولى تبدأ بتأسيس الحكم في الدرعية الى هجوم الجيش المصري ، والثانية تبدأ باسترداد تركيا وفيصل الحكم وجعل الرياض عاصمة وتنتهي بغزو ابن رشيد سنة ١٨٩٦م . والثالثة تبدأ من سنة ١٩٠٢م .
(٣٧) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢٠١ .

مكة يحاربون من جانب^(٣٨) وقبائل العراق تحارب من جانب آخر^(٣٩)
وسهول نجد تتحرك بين الحين والحين .

ولقد شق على الدولة هجوم الوهابيين على كربلاء سنة ١٨٠٢م
وهجومهم على المدينة سنة ١٨٠٣م لما تخلل هاتين الحادثتين من قتل ونهب
واعتداء على الاضرحة المقدسة وانتزاع ما عليها من الذخائر والتحف .
وكانت حادثة الهجوم على المدينة أشد تأثيرا على البلاد الاسلامية لما فيها من
تجاوز على المرقد النبوي^(٤٠) .

ولم تقف الحوادث الوهابية عند هذا الحد ولم يؤثر فيها مقتل
عبدالعزیز بن محمد^(٤١) ، فقد ولى الامر من بعده ابنه سعود وأخذ يوجه
الحمالات ذات اليمين وذات الشمال في نجد والحجاز والعراق وجنوب
سوريا ، وكانت أهم حادثة وقعت في أيامه فشقت على الدولة هدم القباب
في المدينة^(٤٢) عام ١٢٢٠هـ ١٨٠٨م ولما تفاقم خطر الوهابيين اهتمت الدولة
أيما اهتمام للقضاء على هذا الخطر ، وفي سنة ١٢٢٦هـ ١٨١٢م طلبت
من محمد على الكبير^(٤٣) والى مصر أن يستعد لمحاربة الوهابيين وأن يجهز
جيشا كافيا لذلك .

(٣٨) حدثت معارك متكررة بين شرفاء مكة والوهابيين . منها ما حدث
سنة ١٧٩٠م ومنها سنة ١٢١٠هـ ١٧٩٦م . وأصبها ما حدث سنة ١٢١٢هـ
١٧٩٨م وقد شارك الشرفاء كثير من المصريين والمغاربة الى جانب أهل
الحجاز .

(٣٩) سيأتي في القسم الثاني تفصيل ما يتصل بالعراق من هذه
الحوادث .

(٤٠) راجع تاريخ الشعوب الاسلامية - ص ٢١ ج ٤ . ودائرة
المعارف الاسلامية ج ٥ م ٥ .

(٤١) كان قتله في رجب سنة ١٢١٨هـ ١٨٠٣م . راجع (عنوان
المجد) لابن بشر ص ١٢٣ - ١٢٤ ج ١ .

(٤٢) راجع - عنوان المجد - لابن بشر ص ١٣٥ ج ١ .

(٤٣) كان الامر قد تم لمحمد علي سنة ١٢١٩هـ ١٨٠٧م وقد أقره
السلطان على ولاية مصر .

الحملة المصرية :

توجه جيش مصرى بقيادة أحمد طوسون^(٤٤) و ابراهيم ولدى محمد على ووصل الى الحجاز فاحتل مكة والمدينة بين سنى ١٢٢٧هـ و ١٢٢٨هـ وارسلت مفاتيح الحجرة النبوية الى الاستانة وخرج السلطان وحاشيته لاستقبالها^(٤٥) وسافر محمد على بنفسه الى مكة^(٤٦) ليشهد زحف قواته . وفى سنة ١٢٢٩هـ توفى سعود بن عبدالعزيز فخلفه ابنه عبدالله وقاد الجيوش بنفسه غير أن المعارك الطاحنة كانت تتكشف دائما عن انتصار المصريين . و انتهى المطاف الى احتلال الدرعية عاصمة السعوديين آنذاك ، وما كادت سنة ١٢٣٣هـ ١٨١٨م تنتهى حتى كان عبدالله بن سعود قد طلب الصلح فحمل الى مصر ثم الى الاستانة حيث شق^(٤٧) .

المرحلة الثانية :

بعد أن تم الانتصار للجيش المصرى أمر جميع آل سعود وأبناء الشيخ محمد بن عبدالوهاب أن يرتحلوا بأهلهم الى مصر ولم يهرب منهم الا القليل ومن هؤلاء الهاريين تركى بن عبدالله^(٤٨) وقد اغتتم هذا فرصة انسحاب الجيش المصرى من الحجاز ونجد فجمع قواه واحتل الرياض وأقام فيها

(٤٤) فى الخامس من صفر سنة ١٢٢٦هـ قلد طوسون السيف المرسل اليه من السلطان لهذه الغاية . راجع - (التوفيقات الالهامية) لمحمد مختار ص ٦١٣ الطبعة الاولى .

(٤٥) مطالع السعود - الورقة ٩٦ . وجاء فى (مباحث عراقية) ليعقوب سركيس ص ٢٢ من الجزء الاول ما يلى : « فى الخامس والعشرين من رجب سنة ١٢٢٨هـ ١٨١٣م قرىء فى البصرة فرمان بانتصار محمدعلى والى مصر على الوهابى ودعى للسلطان محمود واقيمت الافراح سبعة أيام . . . »

(٤٦) كان سفره فى ٢٨ شعبان سنة ١٢٢٨هـ ٢٥ آب (أغسطس) ١٨١٣م .

(٤٧) كان شنقه هو ومن معه فى ١٧ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨١٨م راجع - (دائرة المعارف الاسلامية) ص ١٩٤ من المجلد الاول .

(٤٨) تركى بن عبدالله بن محمد بن سعود . وابوه عبدالله شقيق عبدالعزيز بن محمد .

حتى قتل سنة ١٢٤٩هـ ١٨٣٤م^(٤٩) وكان ابنه فيصل في القطيف فلما سمع بقتل أبيه عاد الى الرياض واحتلها وقتل قاتل أبيه * ولكنه لم يلبث الا قليلا حتى وافاه جيش مصرى بقيادة اسماعيل آغا وخالد بن سعود وكان هذا منقيا في مصر مع المنفيين فاحتل الجيش الرياض وسبق فيصل بن تركي الى مصر سنة ١٢٥٤هـ^(٥٠) ولكنه استطاع أن يهرب سنة ١٢٥٩هـ من مصر ليعود الى الرياض فاستقر فيها وكتب الى البلدان المجاورة يدعو أهلها الى الطاعة^(٥١) واعترف بسيادة الاتراك وفاوض الانكليز سنة ١٨٦٢م لتوطيد صلات المودة والصداقة^(٥٢) بين البلدين وتوفى سنة ١٢٨٢هـ ١٨٦٦م وترك أربعة أولاد منهم سعود وعبدالله ولكن هذين الاخوين اختلفا في طريقة الحكم فقد كان عبدالله يريد استرجاع النفوذ السعودى بدون مناوأة الدولة العثمانية وكان معتدلا في أعماله لا يرى حاجة الى نشر الدعوة الوهابية بمثل ما دعا إليها أسلافه^(٥٣) ، غير أن أخاه سعودا كان لا يرى هذا الرأى فهرب الى عسير خوفا من أخيه ثم عاد بقوة كبيرة في سنة ١٢٨٦هـ ١٨٦٩م وحارب أخاه عبدالله وانتصر عليه داخل قلاع الاحساء والقطيف^(٥٤) ثم اتجه الى الرياض مقر أخيه فلم يجد هذا وسيلة غير طلب النجدة من والى بغداد وكان يومئذ (مدحة) فكتب هذا الى الدولة أيام السلطان عبدالعزيز وجاءه الرد بأن يحارب سعودا فسير حملة كبرى في سنة ١٢٨٨هـ ١٨٧١م واحتل الاحساء والقطيف وفر سعود مع أعوانه^(٥٥) .

-
- (٤٩) قتله ابن اخته مشارى بن عبدالرحمن . (عنوان المجد) لابن بشر ص ٤٨ ج ٢ .
 (٥٠) المصدر السابق ص ٨٤ .
 (٥١) راجع كتابه في ص ١٠٣ - ١٠٥ من عنوان المجد لابن بشر ج ٢ .
 (٥٢) كانت مفاوضات مع (بيلي) المقيم السياسى فى بوشير . راجع (جزيرة العرب فى القرن العشرين) ص ٢٦٢ .
 (٥٣) مذكرات مدحة ص ١٧٣ .
 (٥٤) راجع المصدر السابق والصفحة نفسها . وفيها اشارة الى ان سعودا ذهب الى الهند للاستعانة بالانكليز .
 (٥٥) ستأتى تفاصيل هذه الحملة فى القسم الثانى .

الحملة الدينية :

لم تكف الدولة العثمانية بحملاتها العسكرية لمحاربة الوهابيين بل استعانت بحملات دينية ضخمة قامت في وجه الدعوة الوهابية وقد استمرت هذه الحملات طوال القرن التاسع عشر وكان بعضها مراعاة لشعور السلطان (٥٦) وبعضها عن عقيدة خالصة ، وكان من الطبيعي أن يثور رجال الدين في وجه هذه الدعوة التي زيفت العقائد وحرمت من الاعمال ما اعتاده المسلمون معتقدين مشروعيتها .

وكان من الطبيعي أن يثور هؤلاء حين يرون الايدي الوهابية تمتد الى الاضرحة والقبور فتهدم وتأخذ الحلى والنفاثس وأن تزيل ما على قبر الرسول الكريم من تحف وقناديل وأن يمنع الوهابيون زيارة القبور ويكفروا من لم يكفر الزوار (٥٧) وبعثوا جميع من يقدسون النبي وآل البيت والاولياء والصالحين في عداد المارقين غير المؤمنين (٥٨) .

ولهذه الاسباب كانت الحملات الدينية ترد الكيل بمثله ، وقد بدأ الهجوم الشيخ سليمان بن عبدالوهاب شقيق صاحب الدعوة ، وتبعه آخرون في الاحساء والعراق وغيرهما . وكان أبو الثناء الالوسي في بغداد يرى في الدعوة الوهابية أنها بدعة تسود القلوب (٥٩) ، كما تصدى لها علماء الشيعة بالرد والظعن ، وكانت ثورة القبائل ضدها لا تقل عن أية ثورة سياسية أو دينية .

(٥٦) لقد شق على السلطان ان تبطل الخطبة باسمه . وشق عليه أيضا ان يمنع الحجاج القادمون من البلاد العثمانية . وفيهم احدى قريباته من دخول مكة . راجع (دائرة المعارف الاسلامية) ص ١٩٢ من المجلد الاول . و (جزيرة العرب في القرن العشرين) ص ٢٥٢ .
(٥٧) راجع (الصواعق الالهية في الرد على الوهابية) للشيخ سليمان بن عبدالوهاب ص ١٠ الطبعة الثانية .

Modern trends in islam. by A. R. gibb. p. 26-31. 2nd (٥٨)

(٥٩) راجع (غرائب الاغتراب) ص ١٤ .

القسم الثاني

الحالة السياسية في العراق

كان العراق في القرن التاسع عشر ينقسم الى ثلاث ولايات هي : بغداد والموصل والبصرة . ولكن هذا التقسيم لم يكن مستمرا فيما عدا بغداد ثم استقر في الربع الاخير حتى نهاية الاتراك . ولقد مر على هذه الولايات الثلاث دوران من أطوار الحكم لا يفرقان في شيء من خصائصه ولكنهما يختلفان في نوع الحكام وتباينهم من حيث الاجناس والشعوب . فقد كانت بغداد تخضع لحكم امتدادى وهو حكم المماليك الذى ابتداء في منتصف القرن الثامن عشر ثم انتهى سنة ١٨٣١م وارجعت بغداد الى الحكم التركى المباشر ولكنها لم تحكم من قبل وال عراقى قط .

وكانت الموصل تخضع لحكم امتدادى أيضا وهو حكم الاسرة الجليلية الموصلية^(٦٠) ثم انتهى هذا الحكم سنة ١٢٥٠هـ ١٨٣٤م وأخضعت للحكم التركى المباشر^(٦١) . أما البصرة فقد استقبلت القرن التاسع عشر بموظفين من المماليك تابعين لوالى بغداد وبقيت تابعة بعد نهاية المماليك ثم تحولت الى مركز ولاية سنة ١٢٦٧هـ ١٨٥٠م ومرت بأطوار مختلفة من الصعود والهبوط فى شكل الحكم^(٦٢) .

(٦٠) تنتسب هذه الاسرة الى عبدالجليل وهو من ديار بكر ، وأول من ولى الموصل فيها اسماعيل بن عبدالجليل سنة ١١٣٩هـ ١٧٢٦م .
(٦١) بقيت الموصل ولاية حتى سنة ١٨٥٠م فانزلت الى درجة متصرفية تابعة لبغداد ثم عادت الى مركز ولاية سنة ١٨٧٩م والحقت بها السلطانية مقر امارة البايانيين وكان هؤلاء قد انتهى نفوذهم سنة ١٨٥٠م .
(٦٢) هبطت الى درجة متصرفية سنة ١٢٧٩م ١٨٦٢م ثم عادت الى مركز ولاية فى سنة ١٢٩١هـ ١٨٧٥م ثم هبطت الى درجة متصرفية حتى سنة ١٣٠١هـ ١٨٨٤م فاعيدت الى مركز ولاية وبقيت كذلك حتى نهاية الحكم التركى .

الولاية الكبرى والممالك :

لقد تعددت أن أسمى بغداد بالولاية الكبرى لانها محور الدائرة وبؤرة العدسة ، ولانها حافظت على مركزها الرسمي من صفة الولاية ونفوذ الولاية على بقية الحكام في العراق . ولعل تاريخها السياسي والاحداث التي مرت بها أوضح صورة لاستجلاء الحكم العثماني في العراق ومعرفة أساليبه وألوانه . وليس معنى ذلك أن ما عداها غير واضح في مباحث التاريخ لكنها - وهي مركز النقل - كانت أكثر نصيبا من عناية المؤرخين . لذلك رأيت أن أتخذ هذه الولاية أهم موضوع لبحث الحالة السياسية في العراق ابان القرن التاسع عشر .

شاهدت بغداد في القرن التاسع عشر ولاية لم يكن من الهين على العراق أن يغفر للزمن خطأه في فرضهم وتسليطهم ، اذ لم تكن لهؤلاء الولاية صفة الحاكم الذي ينسجم مع المحكومين وطباعهم وعاداتهم ، ولم تكن لهؤلاء الولاية حسنات ذات شأن في العد والحساب الى جانب السيئات التي ضاق بها التاريخ ، وحين يتسلسل المرء مع هؤلاء الولاية من بداية القرن الى نهايته لا يلبث أن يقول ما يريد في وصف الحكم حين يصل الى أدنى مظاهره وأخطها ، ولعله قد يعثر بما يرضيه من بعضهم أو قد يعجب ببعض ما يقرأ من أعمال نافعة قام بها بعضهم ولكنه سيحد من رضاه ومن اعجابيه اذا عرف أن هؤلاء الولاية لم يكونوا سوى ممالك أو أتراك أو من أجناس أخر ليست من العرب والعراق . وأنهم لم ينصرفوا الا الى جمع المال لانفسهم وأهلبيهم ومقرببيهم ، وتوزيع الارضين الزراعية على من يتصل بهم من ذوى الحظوة والقوة .

وكان الممالك أوضح صورة لهذا النوع من الحكم الى جانب ما انفردوا به من القتل والاغتيال وسوء السير وفساد الاخلاق . فقد كان بعضهم يقتل بعضا طمعا بالحكم وشغفا بالمنصب حتى تعبوا وأتعبوا العراق معهم ، وانتهوا كما تنتهي العاصفة لا ليعقبها هدوء بل لتخلفها عاصفة أخرى مثلها !!

وإذا كانت ولاية بغداد في بداية القرن المذكور تمتد من منطقة
الاکراد فيما وراء ماردين شمالا الى مصب شط العرب في جنوب البصرة
فان من الطبيعي أن تكون مطمح هؤلاء ومسرح فتنهم وحروبهم فيما بينهم .
وكانت بغداد نفسها قد ألفت - مكرهة - هذه الفتن والحروب
الداخلية بين المماليك وأنصارهم ، ولم يكد يمر عام من الاعوام دون فتنة
وخوف وذعر ومجاعة بسبب هذه الفتن التي كان يسببها الطمع والتهاك على
المناصب . واذا كان سليمان الكبير المملوك قد مات موتا في سنة ١٨٠٢م فان
الولاية الذين جاؤا بعده قد انتهت حياتهم بالقتل^(٦٣) ولم يسلم منهم الا داود
المملوك الاخير .

وكانت قلعة بغداد هدف الطامحين الى منصب الولاية فاذا أحس أحد
المماليك من نفسه القدرة على الوصول الى الحكم جمع أنصاره من المماليك
والعرب وهجم على القلعة وقتل من فيها ثم تتع الوالى الحاكم فقتله واستقر
في مكانه ، وقد يستعين بالمال يرسله الى السلطان ليقره في منصبه أو يجمع
تركة من سبقه ويبعث بها الى الدولة ، وقد يستعين بالمقيم البريطاني في بغداد
ليتوسط له لدى الباب العالي لاقراءه في منصب الولاية ، وقد حدث هذا كله
للكتخدا (على) الذي خلف سليمان الكبير^(٦٤) . أما داود المملوك الاخير
فقد استفاد من صيرفي يهودى في الوصول الى منصب الولاية^(٦٥) .

وبمثل هذه الاساليب كان المماليك يصلون الى الحكم الذى وطدوه
بالقوة والسلاح وباستخدام الاجانب في تدريب الجنود^(٦٦) ، على أن بعضهم

(٦٣) حين مات سليمان الكبير ولى الحكم بعده صهره الكتخدا
على اثر فتنة كبيرة ثم قتل سنة ١٢٢٢هـ ٧ - ١٨٠٨م وخلفه صهره سليمان
الصغير وقتل سنة ١٨١٠م ثم عبدالله وقتل سنة ١٨١٣م ثم سعيد بن سليمان
وقتل على يد كتخداه داود سنة ١٢٣٢هـ ١٨١٧م .

(٦٤) راجع (المماليك في العراق ، لاحمد على الصوفى ص ٨٩ - ٩١ .

(٦٥) راجع التفاصيل في (تاريخ المماليك) لسليمان فائق

الورقة ١٣ و p. 245. Baghdad the city of peace.

(٦٦) كان داود باشا قد استعان بضابط فرنسي من ضباط نابليون

اسمه (دى فو) . راجع المصدرين السابقين : الورقة ١٥ و ص ٢٥٤ .

كان أميا لا يحسن شيئا سوى اعتماده على صداقة المقيم البريطاني (٦٧) ، وكان بعضهم مأخوذا بالنساء والملاذات والبطانة المستهتره أمثال الشاب النزق الضعيف سعيد بن سليمان الكبير الذى أخفق فى الحكم بسبب استهتاره واعتماده على أمه فى تدبير الحكم (٦٨) فحل محله داود باشا .

وإذا كان بعض المماليك قد انفرد بصفات خاصة فإن أكثرهم قد تشابه فى أهم الصفات من حب الفطرسه والاستعانة بأنصار من المجانين المتعصين والبذخ والاسراف والظهور بمظهر الملوك والامراء لذلك أحاطوا أنفسهم بقواد ومساعدين وكتاب وخدم وعلمان من المماليك وقصروا الوظائف على أنفسهم غير مباليين بمن حولهم من أبناء العراق اذ ليس باستطاعة أى عراقى أن يطمح الى منصب من المناصب الكبيرة فى بغداد بل ما دون الكبيرة أيضا (٦٩) .

وكانت قصور هؤلاء الولاة مملأى بالجوارى الناعمات والعلمان الذين يغدون ويروحون بملابسهم المذهبة الثمينة وهم من (الكرج) الصباح الوجوه ، بل لقد كان هؤلاء العلمان من المديرين على وظائف القصر واستقبال الزائرين من الاجانب وغيرهم ، أما مواثد الطعام فى قصر الوالى فقد كانت حافلة بأواني الذهب والفضة من الاطباق والملاعق والاباريق الى الكؤوس والمباخر الثمينة المزخرفة (٧٠) ، ولقد كانت مواكب الولاة لا تقل عن موكب السلطان حين يخرج الى صلاة أو نزهة فلا يدخل الوالى أو يخرج الا وهو مسبوق بفصيحة من الفرسان من عبيده وخلفه فصيحة اخرى من الرجال وهم بملابسهم العسكرية وبنادقهم الانكليزية وموسيقاهم التى تتألف من الطبول

(٦٧) هو عبدالله الذى قتل سنة ١٨١٣ م .

(٦٨) راجع (تاريخ المماليك) الورقة ١٢

(٦٩) اسند فى هذه الفترة بعض الوظائف فى الكتابة والديوان

الى عراقيين ولكنهم قليلون جدا ومنهم عبدالباقى العمرى الشاعر .

(٧٠) راجع (رحلة بورتر) ص ٢٤٩ من الجزء الثانى - الاصل

الانكليزى .

والمزامير • وكانت هذه المواكب المصطنعة ذات أثر في نفوس المشاهدين فقد كانوا يشعرون ازاءها بالرهبة فيقف من كان ماشيا ويقوم من كان جالسا ولا تدخين ولا شرب ولا حديث بل انحناء للسلام من بعضهم ورفع يد الى الشفة والجهة والصدر من بعضهم الآخر ، والوالى يرد التحيات بايماء خفيفة دون أن يحول اتجاهه الى أحد^(٧١) • ولم يكن موكب نائب الوالى (الكتخدا) بأقل أهبة من مواكب الوالى نفسه^(٧٢) •

ان هذه الحياة كان لا بد لها من موارد تغذيها وتسد نهم الوالى ونهم حاشيته وخدمه وعبيده ونسائه وجواريه ولم تكن هذه الموارد سوى الضرائب التى لا حصر لها ولا عد والتي كانت تفرض دون نظام أو قيد فقد كانت تجبى ولا تسجل ، وتؤخذ ولا يعطى بها مستند ، وتزداد كلما ازدادت الحاجة الى المال • وكانت لا تجبى الا من الطبقات الفقيرة كالفلاحين والكسبة والتجار الصغار ، أما الطبقة العليا من زعماء واقطاعين فقد كانت غير خاضعة لاية ضريبة الا ما ندر ، وانما كان هؤلاء عرضة للظرد ومصادرة الاموال والمقاطعات حين يغضب الوالى على أحد وكثيرا ما يغضب •

ولقد كانت هذه الضرائب المختلفة المتعددة لا تستند الى شرع ولا تتصل بعدل وكثيرا ما يلتزمها المتنفذون و (الاغوات) وشيوخ العشائر وكثيرا ما يضيف هؤلاء ضرائب اخرى غير ضرائب الوالى وقد يعجز السكان عن دفعها - وكثيرا ما يعجزون - فلا تجبى الا بالقوة والسلاح ولا تنتهى الجباية الا بخراب البيوت وبيع الاناث البالى والماشية •

وكان لا بد أن يقابل هذا الظلم المسرف بالثورات وبالتذمر غير أن هذه الثورات كانت تقابل بالشددة ويقضى عليها بالسلاح ويستخدم لها بعض العشائر أنفسهم الى جانب الاغوات والمماليك •

وكان الولاة لا يكتفون من النافرين على هذه الضرائب أو أى ظلم

(٧١) راجع (رحلة بكنغهام) ص ٥٠٦ و ٥٠٧ - الاصل الانكليزى •

(٧٢) راجع (تاريخ جودة) ص ٢٠٦ ج ٨ •

بالقمع والقتل بل كانت لديهم وسائل أخرى من التعذيب هي أشجع ما يتخيله
الإنسان في عصور الوحشية والهمجية . وكان أيسر وسائل التعذيب الضرب
بالسياط حتى تتفجر الدماء . ورش الزيت المغلي على وجه المتهم وعينه حتى
يموت . أو كى صدغيه وبعض المواضع الحساسة من جسده ، وقد يوضع
على وتد يدخل في أسفله ويمزق أحشاءه . أما الخنق فهو أيسر ما يكون ،
وأما الاغراق فلم يكن سرا من أسرار دجلة .

وكان كل شيء ينظر فيه الوالي وإذا حكم فحكمه قطعي نافذ ، ولا
شرع ولا قانون بل كان هو الشرع والقانون !! وماذا يصنع بالشرع ورجال
الدين معه وفي خدمته فإذا شاء جعلوه من رجال الدين وفي طليعة العلماء!! (٧٣)
ولقد كانت الدولة تعد هؤلاء الولاة لصوصا وسراقا فإذا مات أحدهم عمدت
إلى مصادرة تركته إما بإرسال موظف من قبلها أو بتكليف من يرشح نفسه
لمنصب الولاية ، وقد احتال بعض هؤلاء على انتقاد تركاتهم من مصادرة
السلطان إياها فعمدوا إلى طريقة الوقف وذلك بأن يبني الوالي مسجدا أو
أكثر ويسمى ذلك باسمه ويقف عليه كل ما اغتصبه وصادره ونهبه وكل ما
جمع من الضرائب والرشا ويشترط في وثيقة الوقف أن تكون التولية لابنائه
وأحفاده فإذا انقرضوا فلرجال الدين . وكان داود من أكثر هؤلاء
أوقافا (٧٤) وهي لكثرتها ولكونها في أكثر من مدينة واحدة من مدن العراق

(٧٣) ممن اتصف بهذه الصفة المملوك داود فإنه بعد أن اعتق وأسلم
درس شيئا من مبادئ العلوم فأجازوه وصيروه عالما كبيرا ، وممن أجازوه
الشيخ علي السويدي وقد جاء في إجازته قوله : « أمرني من تجب طاعته
ولا يمكنني مخالفته الا وهو الدستور الأشهر ذو الفضل الفاخر الخطير
حضرة الوزير الأكبر داود باشا ٠٠٠ أن أحرر لحضرتة السامية الحديث
المسلسل ٠٠٠ » .

راجع هذه الاجازة وغيرها في (مطالع السعود) الورقة : - ١٦٢ -

١٦٥ .

(٧٤) ترك داود أوقافا كثيرة في بغداد والكاظمية وكربلاء والحلة
والنجف وخلف أكثر من ثلاثين ولدا ذكرا وانثى وادخل نساءه الكثيرات
في الاستفادة من الوقف . راجع تفاصيل الوقفية في جريدة (الشعب)
البغدادية بتاريخ ٢٩-٥-١٩٥٥ م .

تدعو الى الشك القوى في ملكيته اياها^(٧٥) .

بعد المالك :

شاء القدر - جرما عي سنته - أن يعصف بالممالك فتم له ذلك على يد السلطان محمود الثاني الذي أراد أن ينهى حكم الولاة المتمردين أو الذين يحاولون الاستقلال المطلق فانتدب لذلك واليه في حلب وهو الحاج محمد علي رضا اللاظ وجهاز هذا الوالى جيشا واتجه الى العراق وانضم اليه جيش من الموصل وسار الجميع الى بغداد ليحتلوها ويخضعوا (أمير الامراء) كما سمته الدولة و (شيخ الوزراء) كما سماه العراقيون واستعد الوالى داود من جانبه للدفاع وأذعنت بغداد لظلم البشر وقسوة الطبيعة ، وفي أشهر قليلة من أواخر سنة ١٢٤٦هـ وأوائل سنة ١٢٤٧هـ ١٨٣١م كانت العاصفة الجامحة تعوى في شواطئ دجلة وتزمرجر في جانبي بغداد ، معارك بين الزاحفين والوالى داود وطاعون فاك يحصد الارواح بلا عد ولا حساب وطوفان من الماء يغمر المدينة فيهدم ويجتاح المباني والبيوت .

وانتهى الطاعون والفيضان وانتهى معهما عصر الممالك في بغداد وأشرقت شمس الصيف على مدينة خربة خاوية قد بعثر سكانها^(٧٦) في الحفر وانحدروا مع الامواج ، وانتشرت بيوتها منهارة على الجانبين ، ودخل جيش اللاظ فاتحا منتصرا فلم ير الا اطلالا وجثثا ، واستسلم داود^(٧٧) بعد

(٧٥) نقل المؤرخ الفاضل الاستاذ عباس العزاوي وصفا مسهبيا لظلم داود وحيفه وبخله وكثرة الضرائب التي فرضها على السكان ، وجاء في الوصف ما يشير الى الشك في اسلامه لشدة ظلمه . راجع (العراق بين احتلالين) ص ٣٣٠ و ٣٣١ من الجزء السادس .

(٧٦) انتهى عصر الممالك وبغداد لا يتجاوز عدد سكانها عشرين ألفا .

(٧٧) ارسل داود مع من بقي من أهله الى الاستانة ، ووجه على رضا كتابا يطلب فيه من السلطان أن يصدر عفوه عن هذا الوالى رعاية لشيخوخته ومكانته ثم قضى أواخر أيامه في المدينة المنورة وتوفى فيها سنة ١٢٦٨هـ ١٨٥١م . راجع مضمون رسالة علي رضا في العدد الاول من جريدة (تقويم وقائع) التركية بتاريخ ٢٥ جمادى الاولى سنة ١٢٤٧هـ ٢١ تشرين الاول سنة ١٨٣١م .

جلجلة المدافع ودوى الرصاص وبعد أن أخذت المعركة نصيبها من النفوس وقتل فيها عدد غير قليل (٧٨) .

واستقر على رضا في بغداد لبدأ الحكم المباشر وتعاقب بعده ولاية الاتراك تعينهم الاستانة وتنقلهم وتعزلهم متى شاءت .

ولقد كانت سياسة هؤلاء الولاة لا تختلف عن سيقهم الا بالارتباط المباشر بالدولة ، اما شراء المناصب وارهاق السكان بالضرائب المختلفة وأخذ الرشوة والترفقة بين المواطنين فذلك أيسر ما كان يفعله هؤلاء . واذا أحصينا عدد الولاة الذين تعاقبوا على بغداد والموصل والبصرة (٧٩) أدركنا بسهولة نوع الحكم الذى كان يسود العراق فقد كان عدم الاستقرار وتكرار الثورات فى الشمال والجنوب من أبرز مظاهر الحياة العامة فى العراق اذ لم يكن لهؤلاء الولاة أدنى ميل الى الاصلاح - ما عدا القليل منهم - وكان تعصبهم لدولتهم ولجنسهم سببا فى نفور السكان منهم فلم يكونوا يعرفون من أمر البلاد شيئا الا فى مواسم الضرائب .

أما الفتن والحروب والثورات وتحريض القبائل بعضها على بعض فذلك من الامور التى اعتاد عليها العراق ومن الصفات التى لازمتها فى ظل تلك السياسة المنحطة .

ولقد مرت على بغداد ظروف قاسية بحيث « لا يستطيع الطير أن يطير ولا الاسد الوثاب أن يسير ما بين باب حلتها وبصرتها»^(٨٠) بل ما بين كرخها ومقبرتها ، وتعذر على الساعى الخريت الذهاب من باب الكاظم الى هيت أو

(٧٨) بعد أن استولى على رضا جمع المماليك فى القصر بحجة أنه سيقراً عليهم بياناً من السلطان ثم أمر جنوده بقتلهم فقتلوه ولم يسلم منهم الا من لم يحضر أو من فر من بغداد .

(٧٩) كان عدد الولاة الذين حكموا بغداد طيلة القرن التاسع عشر ٣١ واليا ، وحكم البصرة أكثر من هذا العدد ومثلها الموصل . راجع (سالنامه بغداد) الدفعة ٢٢ سنة ١٣٢٩ هـ . و (سالنامه البصرة) الدفعة الثانية سنة ١٣٠٩ هـ و (سالنامه الموصل) سنة ١٣٣٠ هـ ١٩١٢ م .

(٨٠) كانت لبغداد أبواب يسمى كل باب باسم المدينة التى يتجه اليها .

تكررت حيث كثر القتل والنهب في جهاتها الاربع» (٨١) .
 وكان التعصب التركي واضحا في سلوك بعض الولاة مع السكان (٨٢) .
 وكان بعضهم يفرض الضرائب باستمرار ويجيها بغنف وشدة ليرضى سيده
 السلطان (٨٣) . حتى وصل العراق الى درجة خطيرة من اضطراب الحالة
 السياسية فيه وتردى الحياة العامة وحتى « خلقت ثيابه بل أتت لحمه
 وشحمه واهابه ، ففدا جيفة يشق نشق ريحها المراثر ويصعد الى أقصى
 الجو فيصدع رأس النسر الطائر ، قد تصدر فيه كل خب سفيه ، واستولى
 عليه من يأبى أن يلوكة القلم بشدقيه » (٨٤) .
 وقد بلغ من تردى الحالة أن العاقل لا يستطيع أن يقول كلمة الحق
 خوفا من الظلم والبطش (٨٥) . بينما كان المنافقون من سكان بغداد يتمرغون
 على أعقاب الولاة ويطيعونهم طاعة عمياء أقرب ما تكون الى التأليه
 والعبادة (٨٦) وكان في طليعة هؤلاء بعض رجال الدين والوعاظ والخطباء
 والشعراء والمرترفة ورجال التجارة من مسلمين ويهود .

ولم يخفف من حدة الفساد السياسي غير الوالى (مدحة) (٨٧) فقد
 جاء بمنال جديد من الحكم كان من الممكن أن ينفع به العراق لو قدر له
 أن يقضى فى الولاية أكثر من السنوات الثلاث التى لم تخل من متاعب

(٨١) كان هذا فى أيام الوالى محمد نامق (١٢٦٧هـ ١٨٥٠م) راجع
 (نشوة المدام) لآبى الثناء الالوسى ص ٤٩ وقد ذكرت هنا النص المسجوع
 للتأكيد على الحالة .

(٨٢) اشتهر بالتعصب التركى الوالى محمد نجيب وقد ولى بعد
 على رضا سنة ١٢٥٨هـ ١٨٤٢م .

(٨٣) كان محمد نامق يفعل ذلك ولاسيما فى ولايته سنة ١٢٧٨هـ
 ١٨٦١م ليرضى السلطان عبدالعزيز . راجع (أربعة قرون من تاريخ العراق
 الحديث) ص ٢٧٠ .

(٨٤) هذا النص المسجوع من مقامات الالوسى ص ١٣ .

(٨٥) نشوة الشمول للالوسى ص ٨ .

(٨٦) مقامات الالوسى ص ١٦ .

(٨٧) دخل بغداد واليا فى ١٨ محرم سنة ١٢٨٦هـ ٣٠ نيسان
 (ابريل) سنة ١٨٦٩م ونقل منها فى أول صفر سنة ١٢٨٩هـ ١٨٧٢م .

داخلية وخارجية ، وكان من الممكن أن يستفيد الفلاحون من النظام الذى سنه لتمليك الارضين الزراعية ولكن خيبة الامل ما لبثت أن عادت بعده فرجع الظلم والفساد وعمت الرشوة جميع طبقات الموظفين . وملك الارض للزعماء والتجار وذوى النفوذ والمال من اليهود وغيرهم وكان نصيب من يدفع الرشوة الدسمة أوفر الانصبا فملك فى الفرات الاوسط كثير من تجار اليهود وغيرهم من سكان بغداد ، وملك أراضى المتفق أسرة آل السعدون ، وحرّم معظم العشائر لانهم لا يستطيعون دفع الاثمان المطلوبة أو الرشوة التى لا بد منها لمن يشرف على تسجيل المستندات والوثائق .

وتسافت أخلاق الموظفين أكثر من ذى قبل وازدادت التفرقة بين السكان ، والنفرة بين الطوائف وبخاصة فى أيام السلطان عبدالحميد فقد استأثر هذا بكثير من المقاطعات الخصبة وسجلها باسمه وسماها (الاملاك السنية) وعين لها الموظفين وأعفاها من الرسوم والضرائب واحتص بالاقواف فكانت وارداتها ترسل اليه ، وكان من الطبيعى أن يكون هذا العمل قدوة سيئة للموظفين .

وقد استخدم هذا السلطان العقيدة السنية لناواة الشيعة وجهاز لها علماء الدين وقضاة الشرع من الاكراد والأتراك وبعض العرب . وفرض الموظفين الذين لا يحسنون اللغة العربية وأنشئت المحاكم لتحاكم الناس بقوانين سقيمة ولم تكن لغة المرافعات سوى اللغة التركية التى يجهلها المدعى والمدعى عليه ، فعزف معظم الناس عن الشكاوى لضياح حقوقهم فى مثل هذه المحاكم ولكنرة الرشا التى لا يفى بها أى حق يدعى من أجله ، وعين القضاة ليحكموا على مذهب الدولة^(٨٨) فى المدن الشيعية فكان اولئك القضاة

(٨٨) كان لكل مدينة قاض من الاتراك وكانت مدة بقائه لا تتجاوز السنين ونصف السنة ثم ينقل الى مكان آخر وهو لا يقضى بغير المذهب الحنفى حتى فى المدن الشيعية ، وقد ضربت نشرات الدولة الرسمية أمثلة كثيرة لاختلاف المحاكم والمحكومين فقالت (سالنامه البصرة) فى دفعتها الاولى سنة ١٣٠٨هـ ١٨٩١م : « ان ثلاثين بالمائة من سكان البصرة سنة وخمسين شيعة والباقي يهود ونصارى . وسكان أبى الخصيب عشرون =

يدخلون ويخرجون وهم لم ينظروا في دعوى ولم يستمعوا الى مرافعة الا ما ندر وقل مما يجبر عليه السكان . وكان باستطاعة أى قاض أن تظهر عليه علامات الثروة فى أيسر مدة^(٨٩) . أما المفتون والوعاظ والخطباء فلا نصح منهم لوال ولا ارشاد لحاكم سوى الدعاء للسلطان والدولة ، والتعلق للولاية وسائر الموظفين والطنن بالديانات والمذاهب الأخر .

ولم تكن هذه المظاهر التى يسخر منها التاريخ الا لفرض السلطة شكليا واشعار السكان بهيمنة الدولة وعظمتها ، وليس بين الموظفين من الوالى الى أصغر موظف أحد من أبناء العرب سوى المفتين وبعض القضاة ومن ترك ذلك فكان نصيبه ما حقر وصغر من الوظائف .

وكان باستطاعة أى تركى أو مستترك أن يقدم رجله للوظيفة وان كان جاهلا أميا بشرط أن يدفع الثمن ، وقد يتجاوز هذا الثمن مجموع المرتبات السنوية ولكنه بأسرع وقت يستعيد أكثر مما دفع . بل كان كثير من طلاب الوظائف لا يتورع فى طلب الوظيفة عن سلوك أحقر السبل وأحطها^(٩٠) . وقد اشد التهاوت على الوظائف والنفاق والملق من أجلها حتى عند من يتصدى لوظيفة الاقضاء والوعظ !! بل كان المتنافسون على وظيفة الفتياشى بعضهم بعض ويدس أحدهم على الآخر^(٩١) ويتزلفون للدولة والسلطان والولاية طمعا بها حتى أصبحت لا قيمة لها^(٩٢) سوى الوجاهة وقبض المرتب !!

= بالمائة سنة والباقي شيعة . وسكان مدينة الناصرية كلهم جعفريون شيعة ولسانهم عربى ما عدا المأمورين . وكذلك سكان سوق الشيوخ والشطرة والحى وقلعة سكر . أما لواء العمارة فلسان أهله على الاطلاق عربى ومذهبهم جعفرى ما عدا المأمورين .

وقالت فى الدفعة الثانية الصادرة فى سنة ١٣٠٩هـ ١٨٩٢م : (ان كثيرا من الموظفين الصغار فى ولاية البصرة من أهالى كركوك) .
(٨٩) العراق - دراسة فى تطوره السياسى . ص ٤٩ من الترجمة العربية .

(٩٠) مقامات الالوسى . ص ٨٧ و ٨٨ وفيها تفصيل للسبل المخزية .

(٩١) الزوراء - العدد ٢٢٦ من السنة الثالثة .

(٩٢) مقامات الالوسى ص ٥٢ .

وكانت مهزلة الوظائف والموظفين جميعا من أكبر المهازل التي مثلت في العراق ، واذا كان تعيين الموظف يجري من غير ضابط ولا نظام فان المرتبات الضئيلة التي كانت تدفع قد تتأخر أشهرا كثيرة^(٩٣) ، وكان تأخير دفعها من أسباب تفشي الظلم والرشوة والنهب ولا جزاء ولا عقاب ، واذا كان الموظفون قد تعودوا للملق والنفاق لاولياء الامور الكبار فان انغماسهم بالملذات وأنواع اللهو كان من أبرز صفاتهم^(٩٤) .

واذا كان المحكومون من الفلاحين وغيرهم قد أرهقوا بهذا الحكم المتفسخ وأغرقوا بالضرائب^(٩٥) التي كانت تجبى بقوة الجند من غير رحمة ولا شفقة^(٩٦) فانهم قد كانوا عرضة لاعمال اخرى ليس لها حدود كالعمل بالاكراه وبدون أجره^(٩٧) وقد كان هذا الاكراه من أيسر ما يأمر به الموظف التركي مدنيا أو عسكريا وكثيرا ما يصحب الامر عنف وشدة فيسرع المأمورون الى تلبية الامر وينجزون العمل بأجسامهم الهزيلة وقد لا يكتفى منهم بذلك بل يؤمرون بجمع المال ووسائل العمل .

أما الجندية التي فرضت على السكان^(٩٨) فقد كانت موردا خصبا للموظفين والدولة ، فللدولة البديل المرهق ممن لا يرغب في الجندية وللموظفين الرشوة لكي يتسامحوا مع المكلفين ولاسيما الاغنياء منهم ، أما

(٩٣) قد يتأخر دفع المرتب عشرين شهرا . (الزوراء) العدد ٥٤٢ من السنة السابعة .

(٩٤) الزوراء - العدد ٥٥٥ من السنة السابعة .

(٩٥) من أغرب هذه الضرائب ما كان يفرض على سكان بيوت الشعر فقد كان على كل بيت ضريبة سنوية وقد تدفع مكررة اذا ضاع المستند وكثيرا ما يضيع أو لم يعط من قبل الجابي . راجع (الزوراء) العدد ٥١٦ من السنة السادسة ١٤ محرم ١٢٩٢ هـ .

(٩٦) مجلة (لغة العرب) الجزء الثاني من السنة الثالثة (شباط) ١٩١٤ .

(٩٧) كان هذا العمل يسمى (سخرة) والعمال مسخرين . راجع عنه (الزوراء) العدد ٥٥٢ السنة السابعة .

(٩٨) بدأ التجنيد الالزامي في العراق سنة ١٨٣٥م وطبق في الموصل من غير رحمة . ولكنه لم يطبق في الجنوب قبل سنة - ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠م .

الفقراء فقد كانوا يضطرون الى بيع الماشية والبقرة ومتاع البيت لكي ينفقوا
أنفسهم .

وكانت القوة المتوط بها حفظ الامن منشطة لا نظام لها وكان الذين
يديرون شؤونها ضباطا أميين متفسخي الاخلاق ولم تكن وظائفهم في الغالب
سوى جباية الضرائب وخدمة الموظفين الكبار (٩٩) .

وكانت السجون أحقر ما ينظر اليه المرء من مباني الحكومة ، وكان
المساجين لا يعتمدون على غير أهليهم في الطعام ، وكان كل موظف في
السجن من الحاكم الى الحارس ، يبيع الامتيازات للمساجين حتى اطلاق
الحرية (١٠٠) . بل كان لا يسمح لاقرباء المسجين بزيارته دون تقديم
رشوة .

الكذب على السكان :

واستغل الولاة سذاجة السكان وجهلهم والعاطفة الاسلامية فيهم فكانوا
يستأجرون بعض الاقلام الخاوية لحشد الكلمات المفككة الهزيلة في مدح
السلطان والولاة ولاسيما في أعياد الجلوس التي كانت تقام في بغداد
وغيرها ، وكانت النشرات الرسمية تواصل مثل هذا الملق بين حين وآخر
لتوهم الناس بالباطل أو لتوهم من كان يقرأ على الأقل ، والذين يقرؤون
كانوا من ذوى الزلفى والتأثير على السكان ، وكانت أساليب الكذب المقصود
تختلف باختلاف المناسبات وقوة السلاطين والخوف منهم ، فالسلطان
عبدالعزيز :

« مؤسس العدالة وباني مباني المدنية والسعادة ولى نعمتنا بلا منة
متبوعنا الافخم الاعظم السلطان ابن السلطان حضرة أفندينا عبدالعزيز خان
أدامه الله تعالى على (التخت) العالى العثمانى الى آخر الدوران ، (١٠١) .

(٩٩) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث - ص ٢٩٩ .

(١٠٠) المصدر السابق ص ٣٠١ .

(١٠١) جريدة (الزوراء) العدد ٤٥٦ من السنة السادسة .

أما السلطان عبدالحميد فانه « حامى حياة كافة العالم سلطان البرين
وخاقان البحرين أمين الله وخليفة رسول الله وأمير المؤمنين وحامى حمى
الدين الذى ليس له ند ولا مدانى ... السلطان عبدالحميد الثانى » (١٠٢) .

ولعل هذا قليل من كثير مما كان ينشر فى صحف الدولة وتقويمها
الرسمية . ولا شك أن مثل هذه الاساليب كان يؤثر فى السكان ويدفعهم
الى مؤازرة الدولة فى كل حرب تقع لها مع الاجانب ، وفى كل كارثة
تصيبها وتحل بها فيبعثون بالشباب الى ميادين القتال (١٠٣) أينما كانت ،
ويجمعون الهبات والاموال الكبيرة لدعم الجيش أو لمساعدة مدينة أو قرية
نكبت بفيضان أو حريق أو أى شئ .

وكانت الدولة اذا أعلنت حربا أو حلت بها كارثة تتملق السكان وتثير
فيهم الاريحية العربية أو العاطفة الاسلامية أو الشعور العثماني العام حسب
درجاتهم وطوائفهم فينسبون الجراح والآلام ويساندون الدولة ، على أن
كثيرا من الولاة كانوا يفرضون ما تحتاجه الدولة فرضا ويجمعون المال
بالاكراه كما كانوا يجندون الشباب بالقوة والسلاح .

الموصل والبصرة :

لعل هذا الذى قدمته عن وصف الحالة السياسية فى ولاية بغداد كاف
فى تفسير الحالة نفسها فى ولايتى الموصل والبصرة وليس من شك فى أن ما
يحدث فى بغداد كان يحدث مثله فى هاتين الولايتين ، فقد كان حكام الموصل
من الاسرة الجليلية صورة لما كان عليه حكام بغداد اذ استأثرت هذه الاسرة
بالقسط الاوفر من خيرات الولاية واقتنت وبنّت لنفسها وعرضت مدينة

(١٠٢) سالنامه البصرة (التقويم السنوى) الدفعة الاولى سنة
١٣٠٨ هـ ١٨٩١ م .

(١٠٣) من أمثلة ذلك ان العراق أرسل عشرة آلاف جندي عدا
المتطوعين فى حرب الدولة مع روسيا سنة ١٢٩٣ هـ ١٨٧٧ م وذهب هؤلاء
الجنود الى قفقاسيا وبعد فشل الدولة لم يعد منهم غير نفر قليل .
راجع (مختصر تاريخ بغداد) لعلى ظريف الاعظمى ص ٢٤٥ .

الموصل وما يتبعها من القرى والارياف لثورات كثيرة وتمرد لا يفسر في الغالب الا بكونه رد فعل للقسوة وفرض الضرائب التي كان السكان ينوون بحملها ولاسيما الفلاحون وأرباب الحرف • ولقد كان الشعب بين أفراد الاسرة الجليلية لأجل الحكم شيئاً مألوفاً قد تسند سياسة بغداد أحياناً (١٠٠) •

وكان تصرف الحاكمين فيها تصرفاً قاسياً تصحبه القوة وتقابله الثورات التي يعقبها القتل والتشريد والنفي ومصادرة أموال الثائرين وأملاكهم وقد تؤدي الثورات الى قتل الوالى الجليلي نفسه (١٠٥) •

ولما انتهى حكم الجليليين سنة ١٨٣٤م أخذ الولاة الاتراك يتعاقبون على الموصل والقليل منهم من تجاوز بقاءه سنة واحدة (١٠٦) • وكان من الطبيعي ألا يعملوا شيئاً أكثر مما يعمله ولاة بغداد •

أما البصرة فقد حكمها خلال القرن التاسع عشر ما يزيد على الاربعين من ولاة ومتصرفين وكان العراقي الوحيد من بينهم ناصر السعدون ، أما جميع هؤلاء فقد كانوا من طراز ولاة بغداد أو ولاة الدولة على الاطلاق فلم تسلم البصرة من ظلمهم وظلم مأموريهم من كبير وصغير ، بل لم تسلم حتى من ظلم ناصر السعدون نفسه اذ استغل منصبه ومكانة أسرته فاستأثر بكثير من الاملاك والمقاطعات ومنح كثيراً من أفراد أسرته بساتين من النخل وضياعاً زراعية في جنوب العراق وكان هو وأخوه منصور سيفين من سيوف الدولة تضرب بهما من تشاء من العرب في داخل العراق وفي الاحساء •

وأما مناطق الاكراد فقد كانت خاضعة لنفوذ زعمائها في بداية القرن التاسع عشر وكان هؤلاء الزعماء العوبة بيد الحكومة الايرانية من جانب

(١٠٤) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث • ص ٢١٣ •
(١٠٥) في سنة ١٨٢٨م نار أهمل الموصل على الوالى عبدالرحمن الجليلي فاغتلوه هو وأخاه محمداً • راجع (الماليك في العراق) ص ١٨٧ •
(١٠٦) كان عدد من حكم الموصل من ولاة ومتصرفين اثنين وأربعين من بداية القرن التاسع عشر حتى سنة ١٩٠٠م (سالنامه الموصل) الصادرة بتاريخ ١٩١١ - ١٩١٢ •

وولاية بغداد من جانب آخر ثم انهار حكمهم بسبب نزاعهم المستمر وقسمت المناطق الكردية بين ولايتي بغداد والموصل .

الاجانب في العراق :

ازداد نفوذ الانكليز والفرنسيين أيام المماليك وبلغ من القوة حدا لا يستهان به وقد كثر عدد السياح والمبشرين يتقلون بين الموصل وبغداد والبصرة وكان لانكلترا وفرنسا ممثلون في العراق وكان ممثل انكلترا في بغداد يسمى (مقيما) ولهذا المقيم شأن ليس أقل من شأن الوالى نفسه ، وداره من أفخم الدور وأحسنها في بغداد ، وكان فيها - أيام المقيم (ريج) سنة ١٨٠٨-١٨٢١م - استعداد تام لان تكون شيئا منظورا من قبل السكان والحكومة ففيها جراح انكليزي وأمين سر طلياني ، وعدد من المترجمين والموظفين والخدم والسواس ولم يكن هؤلاء من جنس واحد ففيهم الارمنى والعربى والتركى والانكشارى والجورجى والفارسى والهندي ، وكان حرس المقيم من الهنود الطوال Sepoys وكانت طبول هؤلاء وأبواقهم ترسل أصواتها بانتظام عند بدء العمل وختامه ، وفى دار المقيم فصيلة من الفرسان الاوروبين وله (بخت) معد للرحلات النهرية يشرف عليه الهنود وكان كل شيء فى هذه الدار أعد ليلقى الهيبة فى نفوس السكان الذين كانوا يشعرون بأن المقيم أقوى شخص بعد الوالى ، بل كان بعضهم يظن أن الوالى لم يستبد كل الاحيان برأيه دون أن يستشير المقيم^(١٠٧) ، وقد مر بنا أن بعض ولاة المماليك كان يستعين بالمقيم فى الترشيح لمنصب الولاية وفى التجهيز بالسلاح والمدربين وملابس الجنود . ولم يكن عمل المقيم فى حدود رعاية المصالح البريطانية فى البواخر والتجارة والتنقيب الا ترى حسب بل كان يتجاوز ذلك الى التدخل فى شؤون البلاد واجتذاب قلوب الناس واستمالة بعض الزعماء^(١٠٨) . وكانت داره ملتقى أكبر

(١٠٧) راجع رحلة (بنكفهام) ص ٣٩٠ الاصل الانكليزى .

(١٠٨) كان المقيم (كلوديوس جيمس ريج) صديق البابانيين من

زعماء الاكراد وقد ذكر ذلك فى رحلته المطبوعة فى لندن سنة ١٨٣٦م .

الموظفين والاشراف ، ومرتادا للضيوف ، وكان أدنى اعتراض على سلوكه السياسي والاجتماعي من أي وال قد يسبب تعكير الجو السياسي بين الدولتين (١٠٩) .

وكانت شركة (لنج) النهرية تتمتع بامتياز تسيير البواخر بين بغداد والبصرة وقد أسست سنة ١٨٣٤م وازداد عدد بوآخرها أيام السلطان عبدالحميد بفضل الهدايا والرشا التي كانت تقدمها للدولة .

وقد ربطت بعض المقيمين البريطانيين رابطة الزواج ببعض الاسر المسيحية العراقية (١١٠) .

ولم يكن النفوذ الفرنسي ضعيفا وان كان أقل من نفوذ الانكليز ، فقد كان المبشرون الكرمليون من دعاة فرنسا في العراق ولهم مؤسسات دينية كما كان للايطالين مثلها . وكان اسقف بابل يشغل أحيانا الاسقفية ووظيفة القنصل الفرنسي معا . وكان للقنصل الفرنسي بالبصرة اتصال أو بعض الاتصال بوجوه المدينة ورؤساء القبائل (١١١) .

وكان الكاثوليك من أشد الناس عطفًا على فرنسا فقد كانوا يفرحون لفرحها وبألمون لما يصيبها من أذى . ولم يخفوا مظاهر فرحهم في عودة أسرة آل (بوربون) الى العرش الفرنسي فقد أقاموا في اليوم الخامس والعشرين من آب سنة ١٨١٦م قداسا في الكنيسة الكاثوليكية ببغداد على روح لويس السادس عشر وأشدت التراتيل بمناسبة عودة آل بوربون الى العرش (١١٢) .

ومهما يكن من شيء فان النفوذ الانكليزي كان أقوى وقد ظل محافظا على قوته طيلة القرن التاسع عشر وصار لبريطانيا وكيل سياسي في بغداد

(١٠٩) راجع : أربعة قرون - ص ٢٤٢ و ٢٤٣ .

(١١٠) كان المقيم البريطاني في البصرة (١٨١٠ - ١٨٢٤م) مانستي

متزوجا بمسيحية عراقية . راجع (رحلة المنشي) ص ٧ من مقدمة الناشر .

(١١١) أربعة قرون - ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

(١١٢) رحلة (بكنغهام) ص ٥٤١ .

ومساعد له وقنصل في البصرة ونائب قنصل في الموصل وكان لها دوائر بريد في بغداد والبصرة وقد انشئت هذه الدوائر عام ١٨٦٨م بموافقة والي بغداد^(١١٣) بينما لم تؤسس الدولة أية دائرة بريد في العراق الا بعد سنوات^(١١٤) .

وفي أواخر القرن التاسع عشر لم يقتصر التمثيل الاجنبي على بريطانيا وفرنسا فقط بل كان لكل من المانيا وروسيا والولايات المتحدة وكيل في بغداد .

ايران والعراق :

تعرض العراق في القرن التاسع عشر لحروب وحوادث كثيرة كانت تقع بينه وبين ايران فتهدد وتنذر بينه وبين الوهابيين فتستفز وتثير ولعل سرد هذه الحوادث ليس من أهداف هذا البحث غير أن علاقتها بالشعر وتأثيرها فيه يقتضى أن يشار إليها على وجه الاجمال .

ان الحروب الايرانية مع دولة الاتراك - أو حروب الدولة مع ايران - كانت أقدم من هذا العصر الذي نبحت فيه - كما أشرنا اليه في التمهد - وقد كان العراق من أهم الميادين التي تقابل فيها الخصمان مرارا ، وكانت الخصومات السياسية والمذهبية من أبرز العوامل في اثارة هذه الحروب التي لم تكن الا وبالاعلى العراق وشرا على حياة أهله ومعيشتهم واستقرارهم ، وقد شهد النصف الاول من القرن التاسع عشر صورا عدة من الاستفزاز الايراني وتعاقب الجيوش التي كانت تستهدف بغداد والبصرة وكان انقسام الاكراد بين العراق وايران عاملا مشجعا لتدخل الايرانيين فقد كان من السهل على أي زعيم كردي يطرد أو يحارب من قبل الدولة العثمانية أو يريد السيطرة أن يستعين بالحكومة الايرانية لترده الى مركزه أو تبني له مركزا

(١١٣) كان يومئذ نقي الدين .

(١١٤) راجع التفصيل في أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث -

ص ٣٠٣ .

جديداً ، وقد حدث مثل ذلك في سنة ١٨٠٥م اذ تدخل الجيش الايراني لمصلحة زعيم السليمانية عبدالرحمن بابان وأعادته الى مقره بعد أن كان مندحراً أمام جيش بغداد^(١١٥) . وفي سنة ١٢٢٧هـ ١٨١٢م تعرضت بغداد لهذا الحادث فقبل بقوة السلاح . وفي سنة ١٢٣٧هـ ١٨٢١م تعرضت بغداد لتهديد القوات الايرانية وازداد الخطر المزعج حتى أدى الى اعلان الحرب على ايران من قبل السلطان نفسه ، وانهت هذه الحرب بالصلح الذي توسطه رجال الدين من الشيعة والسنة ، بينما كان الجيش الايراني على مسافة يوم واحد من بغداد ولولا الصلح وتفشى مرض (الهیضة) بالجيش الايراني لكانت حياة سكان بغداد معرضة لاكثر من الهرب الذي لاذ به مئات الناس . وفي السنة التالية استجمع الايرانيون قواهم وعاودوا الكرة فقابلهم جيش بغداد في الشمال^(١١٦) ولكن ضباط هذا الجيش - وأكثرهم من المماليك - عقدوا مؤتمراً قرروا فيه الانسحاب وتركوا الجيش الايراني وشأنه حتى تصدت له بعض القبائل العربية وبددته ورجع ما بقي منه الى ايران^(١١٧) .

وقد تعرضت البصرة لمثل هذه الحوادث التي كانت استمراراً لما سبق في القرن الثامن عشر ، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر خفت الحوادث بين العراق وايران وبقيت لها ذبول متقطعة انتهت بنهاية القرن .

الحوادث الوهابية :

مر في القسم الاول من هذا الفصل عرض وايضاح لقيام الدعوة الوهابية وحروبها وحروب الدولة معها في الحجاز وتجد وقد بقي من ذلك

(١١٥) كن هذا يدفع الى الحكومة الايرانية اتاوة قدرها عشرة آلاف (تومان) في السنة . راجع - تاريخ جودة - ص ١٠٧ من المجلد العاشر ط ٢ .

(١١٦) جاء في الورقة ١٣٣ من مطالع السعود : ان السلطان محموداً وجه جيشاً بقيادة محمد أمين رؤوف والي ديار بكر ووجه معه عساكر اناتولى والموصل وكانت الرياسة الكبرى لداود باشا .
(١١٧) أربعة قرون ٠٠٠ ص ٢٣٤ .

ما يخص العراق ويتصل به سواء أكان من جانب الوهابيين أم كان من جانب العراق نفسه لذلك رأيت أن استكمل البحث عن الحوادث التي تتصل بالعراق في هذا القسم •

لقد تعددت الحوادث الوهابية طوال القرن التاسع عشر وكان خطرها قد أندر قبيل هذا القرن وفي بدايته المبكرة وكانت الضفة الغربية من الفرات أقرب هدف لسلاح الوهابيين بل كان القسم المتاخم لنجد من البصرة الى الشمال الغربي معرضا للغزو الوهابي بين حين وآخر فلم تكد تمر سنة واحدة على حادثة من الحوادث الا تبعتها حادثة اخرى •

وكان الوالي المسؤول عن حماية العراق شيخا كبيرا (١١٨) لا يعتمد على غير المماليك من أبناء جنسه لذلك كانت اولى الحملات التي توجهت من العراق الى نجد حملة قلبية قام بها تويني بن عبدالله شيخ المنتفق سنة ١٢١٢هـ ١٧٩٧م وقابل الوهابيين في الاحساء ولكن هذه الحملة فشلت وقتل قائدها الشيخ (١١٩) أثناء عودته وتمزق جيشه ، وفي سنة ١٢١٣هـ ١٧٩٨م توجهت حملة اخرى بقيادة (الكتخدا) على وكان معظم الجنود من المتطوعين العراقيين ودارت المعارك في الاحساء مع عبدالعزيز بن محمد ولكن عوامل كثيرة أدت الى هرب الكتخدا ونكوص جيشه فلم يستطع الاستمرار في القتال وعاد الى بغداد سنة ١٧٩٩م (١٢٠) •

(١١٨) هو سليمان الكبير الملوك - راجع التمهيد وبداية هذا

الفصل •

(١١٩) قتل في جهة الشبراك من نجد وهو في خيمته وقد قتله عبد اسمه (طعيس) بخنجر • راجع التفاصيل في (مطالع السعود) الورقة ٧٢ ، و (عنوان المجد) لابن بشر ص ١٠٨ من الجزء الاول •
(١٢٠) يذكر ابن سند في مطالع السعود (الورقتان ٨٠ و ٨١) نص رسالة من سعود بن عبدالعزيز الى الكتخدا يطلب فيها الصلح ويعلل سبب احتلال الوهابيين الاحساء بأن سكان الاحساء روافض ثم يذكر جواب الكتخدا والشروط التي طلبها لعقد الصلح • ويعزو ابن سند فشل هذه الحملة الى خيانة وقعت من ابراهيم بن ثاقب بن وطبان وكان مع جيش الكتخدا ، غير أن عوامل الفشل أكثر من ذلك •

وفى بداية القرن التاسع عشر تعرض الوهابيون لحجاج خزاعة (الخزاغل) من العراق وهم بالقرب من نجد وهوجم الحجاج الايرانيون وكان طريقهم على العراق ونهبوا فى الموضع نفسه (١٢١) . وفى صيف سنة ١٢١٥ هـ ١٨٠٠ م سافر محمد الشاوى مبعوثا الى نجد ليفاوض بالصلح فلم يجد لدى الوهابيين رغبة فى ذلك (١٢٢) . وازداد خطر الوهابيين فأغاروا على بلدة (عانة) (١٢٣) فى السنة نفسها وقتلوا ونهبوا وأغاروا على قرية (الكيسية) فقابلهم أهلها بالقوة (١٢٤) . وكان أشد هجوم قام به الوهابيون على العراق ذلك الهجوم الذى استهدف مدينة كربلاء فقد قاد سعود ابن عبدالعزيز جيشا يقدر بألف محارب أو أكثر وغزا به هذه المدينة ، وفى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة سنة ١٢١٦ هـ الموافق للثانى والعشرين من نيسان سنة ١٨٠٢ م (١٢٥) كانت مدينة كربلاء تموج بالذعر وقد أخذ سلاح الوهابيين من أهلها مأخذة كبيرة وتبع الفارين منهم بل تناول حتى الذين لاذوا بضريح الامام الحسين (١٢٦) وغصت المدينة باشلاء القتلى من رجال ونساء وأطفال ، ونهبت الدور والحوائيت ، وكان أهم الغنائم ما نهب من ضريح الامام الحسين وفيها النفائس والتحف والمجوهرات (١٢٧) ، ولم

-
- (١٢١) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢٠٤ .
(١٢٢) المصدر السابق والصفحة نفسها . وفى (مطالع السعود الورقة ٨٤) أن المبعوث عبدالعزيز شقيق محمد .
(١٢٣) غاية المرام الورقة ١١٠ . ومباحث عراقية ص ٥٠ ج ١ .
(١٢٤) غاية المرام الورقة ١١٠ .
(١٢٥) يروى (بروكلمان) فى ص ٢١ ج ٤ من (تاريخ الشعوب الاسلامية) أن هذه الحادثة وقعت فى ٢٨ نيسان سنة ١٨٠١ م وفى عيد الفطر وهذا مخالف لأكثر المؤرخين .
(١٢٦) قدر عدد القتلى فى الضريح بخمسين قتيلاً ، وفى الصحن بخمسمائة قتيل ٠٠ أما مجموع القتلى فى المدينة فهو موضوع خلاف بين المؤرخين . وقد قدره بعضهم بسبعة آلاف .
(١٢٧) راجع تفاصيل هذه الحادثة فى (مطالع السعود) الورقة ٨٥ . ومختصر مطالع السعود المخطوط لامين الحلوانى الورقة ١٣ والمطبوع ص ٢٨ . و (شهداء الفضيلة) للششيخ عبدالحسين الامينى ص ٢٨٨ . و (ماضى =

تستطع حكومة بغداد أن ترد هذا الغزو الذي كان الوالي الشيخ علي علم به (١٢٨) .

وفي سنة ١٢١٩ هـ ١٨٠٤م قاد سعود حملة نحو البصرة (١٢٩) . وفي سنة ١٢٢١ هـ ١٨٠٦م هوجمت مدينة النجف فتصدى السكان وعلى رأسهم رجال الدين وهزموا المغيرين . وتجدد هجوم آخر على النجف سنة ١٢٢٥ هـ (١٣٠) . وتكررت الحوادث على الفرات ومدنه وقراه (١٣١) .

وفي المرحلة الثانية (١٣٢) من حكم السعوديين قام العراق بحملة عسكرية ضخمة اتجهت الى الاحساء لمحاربة سعود بن فيصل وكان هذا قد حارب أخاه عبدالله سنة ١٢٨٦ هـ وانتصر عليه واحتل قلاع الاحساء والقطيف واتجه الى الرياض فاستجد عبدالله بحكومة بغداد وكان الوالي يومئذ (مدحة) وقد علم مدحة أن الانكليز أيدوا سعودا لمحاربة أخيه حليف الدولة العثمانية فكتب الى الباب العالي واهتم الصدر الاعظم (عالي باشا) بالامر فأوعزت الحكومة بانفاذ قوة تحل محل الجيش المرابط في

= النجف وحاضرها) للشيخ جعفر محبوبة ص ٢٣٤ ج ١ . و (تاريخ جودة) ص ١٦٧ ج ٧ ط ٢ . و (عنوان المجد) لابن بشر ص ١٢١ و ١٢٢ ج ١ . و (غاية المرام) الورقة ١١٢ . و (مباحث عراقية) ص ٥١ ج ١ . و (الشرق الاسلامي في العصر الحديث) لحسين مؤنس ص ٣٥٩ . و (قلب جزيرة العرب) ص ٣٢١ . و (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ص ٢٠٥ .

(١٢٨) جاء في (تاريخ جودة ص ١٦٧ ج ٧ : « ان شيخ المنتفق حمود الثامر أخبر حكومة بغداد بهذه الحملة فوجهت قوة للدفاع ولكن بعد جلاء الوهابيين . وقد أرسل الوالي سليمان الكبير كتابين أحدهما الى الدولة يطلب فيه النجدة ، والثاني الى حكومة الشاه (فتحعلي) . وبعث الشاه باحتجاج شديد اللهجة الى حكومة بغداد لاهمالها الدفاع مع علمها بنيات الوهابيين واعلن عن عزمه على محاربة الوهابيين واحتلال بغداد . وقد تسلم الوالي هذا الانذار وهو في آخر رمق . »

(١٢٩) عنوان المجد لابن بشر ص ١٣٠ ج ١ وفيه تهويل لما أصاب مدينة الزبير في هذه الحملة .

(١٣٠) ماضي النجف وحاضرها ص ٢٣٥ و ٢٣٦ ج ١ .
(١٣١) عنوان المجد لابن بشر ص ١٣٥ - ١٤٠ ج ١ وفيه التفاصيل .
(١٣٢) راجع الحوادث الوهابية في القسم الاول من هذا الفصل .

بغداد ليذهب هذا الى نجد^(١٣٣) . وسارت أول قافلة من الفيلق السادس من بغداد في اوائل سنة ١٢٨٨هـ ١٨٧١م بقيادة (نافذ) ورافق الحملة كثير من المتطوعين العراقيين وعلى رأسهم ناصر السعدون وأخوه منصور والسيد محمد سعيد نقيب البصرة ، وجماعة من أهالي الكويت^(١٣٤) التابعة لولاية البصرة ، وانتهت المعارك باحتلال القلاع التي استولى عليها سعود في الاحساء والقطيف ، وفر سعود مع أعوانه^(١٣٥) . وكوفي مدحة بسيف مرصع من قبل السلطان عبدالعزيز^(١٣٦) وأنعم السلطان كذلك برتب مختلفة على رؤساء المتطوعين ومنهم نقيب البصرة^(١٣٧) وسافر مدحة الى الاحساء^(١٣٨) بعد أن وصله السيف ومر بالبصرة ثم بارحها الى نجد في أوائل رمضان سنة ١٢٨٨هـ وألقى كلمة على المحاربين وقدر لهم جهودهم وتحملهم مشقات السفر^(١٣٩) الى بلاد بعيدة . ثم جعل من نجد لواء يتألف

-
- (١٣٣) راجع (مذكرات مدحة) ص ١٧٤ و ١٧٣ .
 (١٣٤) جاء في (مذكرات مدحة) ص ١٧٦ ما يلي : « ان عبد الله الصباح شيخ الكويت وضع تحت تصرف الجيش ثمانين سفينة كبيرة وصغيرة وبقيت تنقل الذخائر وتخدم بدون اجرة حتى انتهت الحملة .
 (١٣٥) روت جريدة (الزوراء) في العدد ١٩٥ من السنة الثالثة بتاريخ ٢٨ شعبان سنة ١٢٨٨هـ ما يأتي :
 « عندما أراد سعود الفيصل الهجوم على الاحساء ومعه من الحشرات مقدار خمسة آلاف نفر هاجمته قوة برياسة حمدي المير لواء يساعدهم مبارك الصباح أخو قائم مقام الكويت فدمروا النجديين وفر سعود مجروحاً . »
 (١٣٦) حمل هذا السيف القائم مقام سليمان بك أحد مرافقي السلطان ووصل بغداد في يوم الثلاثاء أول رجب سنة ١٢٨٨هـ . (الزوراء) العدد ١٧٤ و ١٧٩ من السنة الثالثة .
 (١٣٧) الزوراء - العدد ٢٤٢ من السنة الثالثة .
 (١٣٨) كان سفره من بغداد في ١٤ شعبان سنة ١٢٨٨هـ - (الزوراء) العدد ١٩٢ من السنة الثالثة .
 (١٣٩) راجع نص الكلمة في العدد ٢٠٨ من الزوراء السنة الثالثة وقد جاء فيها ما يلي :
 « . . . وهذا السيف السلطاني الذي أنا حامله هو نيشان الافتخار لخدماتكم المدوحة ، والحق أن شرفه ومفخرته عائدة للفرقة العسكرية بل وراجعة لهيئة الاوردي الهمايوني . »

من (قطر) (١٤٠) و (المبرز) و (الهفوف) • ولكل من هذه القواعد (قائمقام) واستدت متصرفية اللواء عامة الى (نافذ) باشا قائد الفيلق اضافة الى وظيفته العسكرية (١٤١) • وأمر مدحة بأن تطهر العيون المنذرة وأن تزرع البساتين وكانت هذه العيون قد دمرها الوهابيون (١٤٢) •

واتخذت الهفوف - وهي أكبر المدن - قاعدة للفرقة العسكرية (١٤٣) وبعد هذه الاعمال الحربية والادارية عاد مدحة الى العراق (١٤٤) ليستقبل المهثين بالظفر والنصر •

ومما مر من الحوادث الوهابية وأعمالها في مختلف المراحل يتضح أنها تطورت من دعوة دينية ترمي الى نبذ الترف والبذخ وترك الاعمال التي لا توجه لغير الله • تطورت من كل ذلك الى حركة سياسية تريد بناء ملك واتشاء دولة ولكنها تعثرت في كل خطواتها خلال القرن التاسع عشر لانها كانت ذات مسلك ضيق في الدين وشدة لا لين فيها ولا مران ، ولانها كانت في السياسة غير موفقة مع العرب والدولة فقد كانت أعمالها المثيرة تحمل بين طياتها ما يبعث على الكره والحقد ، حاربت العرب في الحجاز ، وفي البحرين وفي الاحساء وفي العراق وفي الشام أيضا • وجمعت مع الحروب رمى المسلمين بالشرك فاستحلت دماءهم وأموالهم وتناولت معتقداتهم بالهدم والطعن فناروا عليها متألين وحاربوها في كل مكان حتى امتلأت الصحراء وما جاورها دماء وأشلاء نتيجة لذلك الضيق الذي رافق الدعوة وللإغلاط

-
- (١٤٠) عين شيخ قطر - واسمه قاسم بن ثاني - قائمقاما لها •
(١٤١) الزوراء - العدد ٢٠٩ من السنة الثالثة •
(١٤٢) منها (عين نجم) وكانت حارة النبع شتاء ، وكان الناس يستشفون بمائها ولشعراء الاحساء قصائد في وصف هذا العين وما حولها من المزارع • راجع (تاريخ نجد) للالوسي ص ٣٢ - ٣٥ •
(١٤٣) الزوراء - العدد ٢١٠ س ٣ •
(١٤٤) كانت عودته عن طريق البصرة ، وقد وصل بغداد في ١٦ شوال سنة ١٢٨٨ هـ • راجع (الزوراء) - العدد ٢٠٨ س ٣ •

التي رافقت السياسة^(١٤٥) ولقد كان من الممكن أن تكون هذه الدعوة موفقة في اصلاح النفوس وتهذيبها والعمل على الحد من الفوارق الطبقيّة بين المسلمين ولاسيما اذا عرفنا أن هذه الدعوة أقرب ما تكون الى طبيعة البدو الذين لم يعرفوا ترف المدن وأخلاق المجتمعات المتحضرة ، غير أن الشدة المفاجئة كانت صدمة عنيفة قوبل بها المسلمون في مختلف أقطارهم عندما أعلن مروّقهم عن الدين •

ولقد كان علماء القصيم أنفسهم يلقون تبعه ما وقع في نجد من تخريب وتدمير على أسرة الشيخ محمد بن عبدالوهاب لان هذه الاسرة كانت تسيطر على السياسة وتملى على آل سعود الشدة والعداء العام للناس^(١٤٦) •

الحوادث الداخلية :

سجل القرن التاسع عشر كثيرا من الثورات والحوادث القبليّة في الشمال والوسط والجنوب ولم تكن المدن بأهدأ حالا من القبائل ، وكان من البديهي أن تؤدي سياسة الظلم والتفكيك وغطرسة الولاة والحكام الاجانب الى وقوع حوادث كثيرة في المدن والقرى والبوادي فقد بقيت الثورات مستمرة لم يخل منها عام ولم يسلم منها موضع وكانت هذه الثورات تقابل بالشدة والسلاح ويستخدم لها - الى جانب الجيش - كثير من القبائل نفسها فلا تكاد تحدث ثورة في مكان من العراق الا انتدب لها بعض الزعماء والشيوخ من العرب والاكراد حتى صار العربي يضرب الكردي والكردي يضرب العربي بل صار العربي يضرب أخاه العربي بدون رحمة ولا شفقة •

ولما كان كثير من هذه الحوادث والثورات ناشئا من طبيعة المجتمع - وان كان للسياسة أثر كبير فيه - فان الاستقصاء والشمول ليس مما يسهل لدى الباحث بل ليس الا من طبيعة التاريخ وحده ولكن هذا لا يعفى من

(١٤٥) راجع (جزيرة العرب في القرن العشرين) ص ٢٤٦ و ٢٤٩ و ٢٥٢ •

(١٤٦) المصدر السابق ص ٢٥٦ •

ذكر الحوادث التي شغلت الولاة وهزرت البقاع التي حدثت فيها وكان لها أثر في الشعر العراقي لذلك أرى لزاماً أن أشير هنا إلى أهم تلك الحوادث .
 ففي سنة ١٢٣٦هـ - ١٨٢١م أيام الوالي داود كانت الحياة غير مستقرة في المناطق الكردية بسبب تنافس الامراء على الحكم وكانت بغداد مضطربة بسبب الجمعيات السرية التي كانت تناوى الحكومة^(١٤٧) ، وقد أدى تنافس البابانيين على الحكم الى التجاء عبدالله بابان الى حكومة ايران طمعا بالمساعدة العسكرية بينما كانت بغداد تؤيد حليفها (محمود بابان) وقد اضطر والي بغداد أزاء ذلك أن يبعث جيشا لمحاربة عبدالله بابان المتمرّد وكان هذا الجيش بقيادة محمد آغا (الكتخدا) فذهب هذا الجيش بينما كان عبدالله بابان يزحف بجيشه المعزز بخمسة آلاف ايراني نحو (شهرزور) وقد انتهى هذا الصدام بهزيمة جيش بغداد ومحمود الباباني وانتصار عبدالله أما الكتخدا فقد التحق بشاه ايران حذرا من بطش داود^(١٤٨) . وفي سنة ١٢٤٠هـ - ١٨٢٥م عاد هذا الكتخدا الهارب ولاذ بمدينة الحلة وادعى الوزارة لنفسه وأيده بعض السكان كما أيدته بعض القبائل فاندفع داود الى مهاجمة الحلة حتى هرب الكتخدا ثم عاد الى الحلة سنة ١٢٤١هـ وحرص أهلها على الثورة وكان معه جماعة من الزعماء منهم قاسم الشاوي وثارَت الحلة واختار أهلها واحدا منهم ليكون حاكما^(١٤٩) فوجه داود جيشا بقيادة سليمان (الميرآخور)^(١٥٠) ومعه عشيرة عقيل فاستولى على الحلة وهرب معظم سكانها مذعورين^(١٥١) الى بعض القبائل المجاورة - وهي قبيلة قشعم -

-
- (١٤٧) تاريخ السليمانية - لمحمد أمين زكي - ص ١٤٢ من الترجمة العربية لملا جميل . و ص ١٤١ من الاصل الكردي .
 (١٤٨) راجع مطالع السعود - الورقة ١٢٦ - ١٣٠ .
 (١٤٩) هو صالح آغا أخو شوكة وقد فر أيضا مع المحرضين . راجع (الروض الازهر) ص ١١ .
 (١٥٠) (المير آخور) : كلمة مركبة من الكلمة العربية (أمير) ومن الفارسية (آخور) بمعنى الاسطبل .
 (١٥١) راجع (مطالع السعود) الورقة ١٥٤ ومجموعة الشيخ محمد رضا الشيبيني المخطوطة . و (مختصر تاريخ الحلة) للشيخ يوسف كركوش ص ٧٠ و ٧١ .

فاستقبلوا بمثل ما فروا منه (١٥٢) ، وقد فر أيضا زعماء الثائرين واجتمعوا في (عفك) بين الديوانية والحلة وألبوا العشائر هناك على الثورة ، وفي سنة ١٢٤٢هـ كان جيش الوالي داود بقيادة سليمان يحاصر الثائرين وقد ساعده على محاربة هذه القبائل أمثالهم من قبائل زيد وعقيل والمتفق وقوة من الاكراد اللاوند (١٥٣) وأسفرت المعارك عن انتصار جيش الوالي ومن معه وهزيمة الثائرين وفي مقدمتهم المحرضون وارسلت رؤوس القتلى الى بغداد فأمر الوالي داود ببناء منارتين منها (١٥٤) . وقد حدث أثناء ذلك أن نارت مدينة كربلاء بعد معركة الحلة السابقة وقبل معركة عفك وكان أهل كربلاء قد انقسموا الى شطرين شطر مع داود وشطر عليه ونشبت المعارك بين الفريقين ثم اصطلحا وطرده الزعماء الممالئون لداود فلجأ هؤلاء الى متبوعهم يستجدونه ، ووجد داود الفرصة مناسبة لاحتلال مدينة كربلاء فوجه اليها جيشه وأعوانه في شوال سنة ١٢٤١هـ وكان أكثر جنده من عرب العراق وعلى الاخص شمر وعقيل وكان القائد سليمان (الميرآخور) وحوصرت المدينة وقطع عنها الماء وأطلقت عليها المدافع غير أنها ثبتت في وجه الجيش ولما شعر القائد بخيبة الامل استنجد بالعشائر المجاورة فلم يفلح وفر أصحابه فاضطر الوالي داود الى تجهيز حملة اخرى مؤلفة من عقيل القصيم والاحساء ، وقطع الماء عن السكان مرة اخرى ولكن مصابرة هؤلاء واستمراهم على الدفاع أدى الى فك الحصار وتخلى المدينة من قبل الجيش المحارب فأكتفى الوالي داود بأن أمر عرب الشامية بالسيطرة على طريق كربلاء وقطع الصادر والوارد حتى اشتدت الحالة بالسكان وآثروا المفاوضة بالصلح (١٥٥) .

-
- (١٥٢) مجموعة الشيببي ومختصر تاريخ الحلة ص ٧١ .
 (١٥٣) (ديوان مزيد السرور ومزيل الحزون) وهو مخطوط ركيك الاملوب غير مرقم لعبد النبي البغدادي .
 (١٥٤) المصدر السابق و (مطالع السعود) الورقة ١٥٧ .
 (١٥٥) جريدة (دار السلام) العدد ٩ و ١١ من المجلد الاول سنة ١٩١٨م وتشير الى أن أهل كربلاء صنعوا مدفعا .

وفي أيام الوالي علي رضا وقعت حوادث غير يسيرة في الشمال والجنوب وقد قابل هذه الحوادث بحملات عسكرية متعددة ، منها حملة وجهها الى الاكراد لمساعدة جيش الدولة الزاحف للقضاء على امارة راوندوز (١٥٦) وقد ثلث السهم جيش من الموصل (١٥٧) . وفي سنة ١٢٥٢ هـ ١٨٣٦ م كانت هذه الجيوش الثلاثة تطبق على الامارة الصغيرة وتطارد أميرها الكردي (محمد باشا) الذي انتهى أمره بالاعدام في سيواس (١٥٨) .

وفي أول شعبان سنة ١٢٥٣ هـ ١٨٣٧ م زحف الوالي علي رضا بجيش ضخم الى الجنوب لاختراع قبائل (المحمرة) (١٥٩) في الضفة الشرقية من شط العرب وكان ادعاء كل من ايران والدولة العثمانية بملكية هذه المقاطعات سببا في النزاع المستمر ، ولهذا الادعاء صمم الوالي علي رضا أن يلحقها بالدولة العثمانية مباشرة وكان الجيش الذي قاده مكونا من جنود الدولة (الارناؤد) ومن قبائل العراق ومنهم زبيد وعقيل وطيء والمتفق وغيرهم ، وقد انتهى هذا الزحف باحتلال المحمرة وطرد زعيمها الشيخ جابر بعد معارك عنيفة مخربة .

وبعد عودة علي رضا من المحمرة كانت قبائل خزاعة الضاربة أطباها على الفرات الاوسط تحرك أصابعها في وجه الوالي الذي أناط الزعامة على الفرات الاوسط بالشيخ (وادي الشفلح) زعيم زبيد سنة ١٢٥٢ هـ ١٨٣٦ م (١٦٠) ولم يكن هذا العمل الذي تدعمه قوة الوالي مما يرضى به

-
- (١٥٦) كان جيش الدولة بقيادة الصدر الاعظم رشيد محمد . راجع (خلاصة تاريخ الكرد وكرديستان) لمحمد أمين زكي ص ٢٤٦ و ٢٤٧ .
ترجمة محمد علي عوني .
(١٥٧) كان قائد جيش الموصل الوالي محمد باشا (اينچه بيرقدار) وهو ثاني وال تركي بعد الجليلين . راجع : (تاريخ الموصل) ص ٣١١ - ٣١٤ ج ١ .
(١٥٨) خلاصة تاريخ الكرد وكرديستان - ص ٢٤٧ .
(١٥٩) هذه القبائل عربية واشهرها : كعب المحسن وتميم وغيرهم .
(١٦٠) تاريخ الديوانية قديما وحديثا للحاج وداي العنطيه ص ٣٩ .

(ذرب آل مغامس الشلال) شيخ خزاعة ، وفي ذى الحجة من سنة ١٢٥٣هـ
كانت خزاعة مبعثرة بسلاح الوالى ، وزعيمها ذرب قد انهزم مع أعوانه .

وفي أوائل ولاية محمد نجيب (١٢٥٨هـ ١٨٤٢م) هبت زوبعة متمرده
فى بغداد سببها تعصبه التركى وغلطسته وتكليف السكان بما لا
يطيقون^(١٦١) من الضرائب ومساندته حكامه وحاشيته من المرتشين ولكنه
تغلب على هذه الزوبعة ونفى رؤوس الثائرين^(١٦٢) .

وحدثت فى السنة الاولى من حكمه ثورة فى كربلاء فوجه اليها حملة
أراد بها القضاء على نفوذ الزعماء الذين كانت صلتهم ضعيفة بولاية بغداد^(١٦٣)
وكانت حملته هذه بموافقة الباب العالى لقدسية المدينة وفى عيد الاضحى من
سنة ١٢٥٨هـ كانت مدافعه تضرب كربلاء فقتل من أصابته النار ونجا من لاذ
بالهرب الى الارياف والقرى المجاورة ، وقد اهتز سكان الفرات لهذه
الحادثة^(١٦٤) التى عدت من سيئات هذا الوالى^(١٦٥) ولم يكن مبعث الاستياء
ناشئا الا من كون هذه المدينة تضم قبر الامام الحسين^(١٦٦) ولو جردت من
هذه القداسة لكان من المحتمل أن يكون للوالى عذر فى محاربة جماعة من
التمردين (الفتيان) الذين تسببوا فى اصابة المدينة وبعض سكانها الابرياء .
وفى الشمال كانت لمحمد نجيب حملة قاسية وجهها لاختضاع الأكراد
التمردين فى السليمانية وكان ذلك سنة ١٢٦١هـ ١٨٤٥م وقد أسفرت هذه
الحملة عن هزيمة الزعيم الكردى أحمد بابان الى الحكومة اليرانية ، ومن

(١٦١) الروض الازهر للسيد مصطفى الواعظ ص ٨٥ .

(١٦٢) وفى هذه الحادثة عزل أبو الثناء الالوسى من منصب الافتاء .

(١٦٣) الزوراء . العدد ٥٦٤ من السنة السابعة ١٤ شعبان

١٢٩٢هـ .

(١٦٤) تاريخ الديوانية قديما وحدينا ص ٤١ .

(١٦٥) جريدة (العرب) البغدادية العدد ١٢ من السنة الاولى .

(١٦٦) تقول جريدة (الزوراء) فى العدد ٥٦٤ من السنة السابعة

عن محمد نجيب : انه « ٠٠٠ فتح كربلاء المعلاة بضرب السيف ، ولعمري
لقد علّتها من كؤوس الحرب عله شفى بها لها علة » !! وفى مجموعة الشيخ
محمد رضا الشيببى شىء من التفصيل لهذه الحادثة التى قدر عدد القتلى
فيها باثنين وعشرين ألفا ما بين رجل وامرأة وطفل .

الغريب أن هذا الزعيم كان قبل ذلك يعد العدة لرد جيش إيراني يريد الزحف على السلمانية !! وقد احتجت الحكومة الإيرانية لدى الباب العالي على تصرف هذا الزعيم فأدى ذلك الى محاربته من قبل الوالى محمد نجيب وطرده الى ايران التي أراد محاربتها (١٦٧) .

ولكن أعمال محمد نجيب التي تبدو في أكثر صورها قاسية شديدة كان الجانب التركي يراها أعمالا موفقة لان ولاية محمد نجيب كانت في نظر الاتراك فتحا جديدا للعراق اذ أعاد للدولة ما كان بيد القبائل من المقاطعات الزراعية وبخاصة ما كان في وسط العراق وجنوبه ، ويعتقد الاتراك أن هذه القبائل اغتصبت هذه الارضين من الدولة (١٦٨) .

وحدثت بعد ذهاب محمد نجيب ثورات اخرى وعلى الاخص حين كانت الدولة مشغولة بحرب القرم مع روسيا سنة ١٨٥٤-١٨٥٥م فقد كان انشغالها هذا سببا في ثورات داخلية في العراق ، وبعد انتهاء حرب القرم صممت على قمع هذه الثورات والقضاء على نفوذ الزعماء فانتدبت لذلك قائدها في حرب القرم (عمر باشا) المعروف بشدته وكان هذا القائد نمساوي الاصل (١٦٩) ورافقه الى العراق زميله في حرب القرم (سبلي) العريان الدرزي (١٧٠) ووصل هذان الى بغداد سنة ١٢٧٤هـ ١٨٥٧م فامتأ العراق بالجيوش ، وانتشر الرعب بين السكان ، وفي شوال من السنة نفسها أخذ

-
- (١٦٧) راجع التفاصيل في (تاريخ السلمانية) ص ١٥٩ - ١٦٠
من الترجمة العربية و ص ١٥٩ - ١٦٠ من الاصل الكردي .
(١٦٨) راجع (الزوراء) العدد - ٥٦١ السنة السابعة .
(١٦٩) كان اسمه (ميخائيل) وقد ولد في (بلاسكى) على حدود بوسنة وأبوه ضابط في الجيش النمساوي فسلك مسلك أبيه ثم ترك وطنه وهو في الثامنة والعشرين والتحق بالدولة العثمانية وأسلم وسمى نفسه (عمر) وأشرف على تعليم (عبدالمجيد) قبل توليه السلطنة ، وشارك في حرب الدولة ضد ابراهيم باشا في سوريا سنة ١٨٣٩م وحارب في الجبل الاسود سنة ١٨٥٣م وشارك في حرب القرم ومنها جاء الى بغداد . راجع (تراجم مشاهير الشرق) لجرجي زيدان ص ١٤٩ - ١٥٠ ج ١ ط ٢ .
(١٧٠) كان متصرفا للحلة وتوفي سنة ١٢٩٢هـ ١٨٧٥م . راجع - (الزوراء) العدد ٥٦١ من السنة السابعة .

الوالي (عمر) يجند الشبان اللاتقين تطبيقاً لنظام الجندية الجبرية • واشتد ضغطه على التجنّف وكرهه فهدد وسجن وأخذ السلاح (١٧١) وآزره شبيهه بالشدّة والصرامة (خلف آغا) حاكم الحلة فقد كان هذا يعاقب المتهمين بفرض التجنيد عليهم (١٧٢) وكان العراقيون يكرهون التجنيد ويهربون منه لانّ الجندى العراقى كان يرمى به فى أماكن بعيدة ومن النادر أن يعود الى بلاده ، وكانت سيرة الولاة وكثرة الحروب وعدم العناية بالجند من أهم العوامل فى تنفير العراقيين من الجندية (١٧٣) ولهذا قامت الثورة فى العراق ضد هذا الوالى ، وكان الغليان قد اشتد فى الفرات ووقعت معارك عدة بين السكان وبين القائد شبلى ، ولم يسترح العراق الا بعد عزل الوالى عمر فى ربيع الثانى سنة ١٢٧٦هـ ١٨٥٩م وكان يوم تركه العراق عيدا للسكان (١٧٤) وليس لاختفاه فى الحكم من سبب سوى صرامته لمصلحة الدولة ولكن على الطراز القديم (١٧٥) الى جانب ما عرف به من شدة البطش وصعوبة المراسم (١٧٦) •

أما الثورات فى أيام محمد نامق (١٧٧) فانها ليست الا كعاصفة هبت مرة واحدة ومدت أطرافها فى كل مكان ولاسيما الفرات الاوسط وديار المنتفق وكان سببها صرامة هذا الوالى وتعصبه التركى وكونه رجلا عسكريا خاليا من المرونة • ولم تسلم الفترة التى قضاها (مدحة) فى العراق من قيام ثورة فى الفرات الاوسط وقد قضى عليها بشدّة ، وشنق بعض الرؤساء وكان سببها العجرفة التركية التى أبداها متصرف الحلة (١٧٨) فقتله الثائرون من

(١٧١) تاريخ الديوانية قديما وحديثا - ص ٤٥ •

(١٧٢) مختصر تاريخ الحلة ص ٧٣ •

(١٧٣) كان الريفيون الاتراك أنفسهم يهربون من الجندية •

(١٧٤) تاريخ الديوانية قديما وحديثا ص ٤٥ •

(١٧٥) أربعة قرون ٠٠ ص ٢٧٠ •

(١٧٦) مشاهير الشرق - ص ١٥٠ ج ١ •

(١٧٧) راجع الهامشين ٢٥ و٢٧ من هذا الفصل والصفحة التى

تنصل بهما •

(١٧٨) اسمه توفيق وهو ابن أخت الوالى مدحة وكان قتله فى سنة

١٢٨٦هـ ١٨٦٩م •

العشائر لانه اعتدى على أحد الرؤساء بأن لطمه على عينه .

لم تكن هذه الصور التي عرضتها من الثورات الا بعض النماذج مما حدث في العراق طيلة القرن التاسع عشر ، وسواء أكانت هذه الثورات لحق^(١٧٩) أو غير حق فإنها دليل تفسخ الحكم العثماني وعدم انسجامه مع المحكومين ودليل اشمئزاز العراقيين أو معظم العراقيين من حكام لا يحسنون السياسة ولا يتمون الى العراق بصلة ، وقد خفت وطأة الثورات في أواخر القرن التاسع عشر الى حد ملموس بسبب تقرب بعض الزعماء ومنحهم مقاطعات كثيرة واستعداد الدولة بالقوى الكافية وتزويد هذه القوى بالسلاح والزوارق البخارية وانتشار أسلاك البرق التي سهلت اتصال المدن ببغداد وبغداد بالاستانة .

العراق والتيارات الحديثة :

قبل أن أبين مدى صلة العراق بهذه التيارات الجديدة أود أن أذكر بإيجاز موقف الدولة العثمانية منها ومدى صلة البلدان العربية الأخرى بها .
لم تكن التيارات الفكرية الحديثة التي ظهرت في أوروبا عند بداية القرن التاسع عشر ذات أثر بارز في المظهر العام لكيان الدولة العثمانية فقد كانت الجامعة الإسلامية تسيطر على الرأي العام الى جانب الجامعة العثمانية التي يشترك فيها المسلم وغيره بل تشترك فيها الاجناس والعناصر التابعة للسلطان العثماني ، وعلى الرغم من ظهور الطباعة والصحافة في الاستانة^(١٨٠) واحتكاك بعض أدباء الأتراك بالأدب الأوروبية والفلسفات

(١٧٩) جاء في مذكرات مدحة ص ١٦٣ و١٦٤ تعليلاً مقبولاً لمعظم هذه الثورات ولاسيما تلك التي تحدثت في المناطق الشيعية فهو لا يعزوها الى اختلاف المذهب كما يرى أنصار السلطان ولا الى تحريض رؤساء القبائل على محاربة الحكومة للتخلص من الاموال الاميرية وانما يعزوها الى مشكلة الاراضي التي سببت انتشار الفقر بين الفلاحين وعدم استقرارهم .
(١٨٠) انشئت الطباعة في تركيا عام ١٧٢٧م وقد سبقها في القرن الخامس عشر انشاء مطبعة يهودية تطبع بحروف عبرية لمنفعة اليهود .
راجع (لغة العرب) ج ٥ ص ٢٠٢ اما الصحافة فقد انشئت في تركيا عام ١٨٣١م وأول صحيفة (تقويم وقائع) .

الحديثة والثقافات المختلفة ولاسيما الثقافة الفرنسية - على الرغم من كل ذلك - كان تيار الرجعية أقوى ثباتا في ميدان الشعور العثماني من أية فكرة جديدة^(١٨١) حتى في مرحلة التطور التي حدثت في أواخر القرن التاسع عشر وظهور بوادر الفكرة الطورانية بين الاتراك^(١٨٢) فقد كان كل شيء يسير وفق ارادة السلطان عبدالحميد الذي تمسك بالجامعة الاسلامية أشد التمسك وقد أدى وقوف الرجعية التركية موقف المناوء لكل حركة أو فكرة أن تعرض الدولة العثمانية لصراع مستمر مع الشعوب الخاضعة لها ممن أدركتها الفكرة الحديثة وتسرب فيها الشعور بالافصال والاستقلال على أساس الجنس والوطن كما حدث لها مع شعوب البلقان .

أما البلدان العربية فانها أخذت تمللمل من رقدهتها في القرن التاسع عشر وتطلع الى أشعة الشمس من خلال الكوى الضيقة ، وكانت مصر وسوريا ولبنان من أسبق الشعوب العربية الى هذا التطلع بل كانت مصر أول بلاد عربية أقامت بينها وبين الغرب جسرا من البعث المتعاقبة وساعدت على تكوين النهضة الشرقية العربية^(١٨٣) ، غير أن اليقظة العربية بمفهومها الحديث ظهرت بوادرها في سوريا ولبنان وذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وقد استغل المبشرون من الامريكان والفرنسيين شعور المسيحيين في لبنان فدفعوهم الى المطالبة بالاستقلال والتحرر من الدولة العثمانية وأسسوا المعاهد الكثيرة التي فتحت أبوابها للمسلمين أيضا وشجعوا دراسة اللغة العربية^(١٨٤) وعنوا باحياء التراث العربي ليتمكنوا من التبشير في حين

(١٨١) كان بعض رجال الدولة أيام سليم الثالث على علم بفلسفة جان جاك روسو وغيره ولكن هؤلاء كانوا يعدون الفلاسفة من الزنادقة .
 راجع مجلة (الطليعة) ج ٧ س ٥ من مقال للدكتور كامل عياد .
 (١٨٢) القومية التركية جاءت متأخرة عن القومية العربية . راجع :
 (العرب تاريخ موجز) لفيليب حتى ص ٢٥٤ .
 (١٨٣) راجع (نشوء الفكرة القومية) لساطع الحصري ص ١٥٣ ط ٢ و (النهضة العربية في العصر الحاضر) لشكيب ارسلان ص ٨ .
 (١٨٤) كان استخدامها للتبشير . راجع (العقد) ديوان ابراهيم اليازجي ص ١١ .

كانت الطبقة الحاكمة في مصر عند بداية النهضة تعنى بالادب التركي أكثر مما تعنى بالادب العربي^(١٨٥) ان لم نقل انها لم تلتفت اليه أدنى التفاتة^(١٨٦) .

أما العراق فقد بقي طيلة القرن التاسع عشر بعيدا عن التيارات العربية الحديثة على الرغم من اتصال بعض أدبائه بأدباء سوريا ولبنان ولم يكن يعرف عن العالم الخارجي شيئا عدا ما كان يعرفه بعض السكان عن السياح الاجانب والمقيمين المثلين للدول الاجنبية في بغداد والبصرة والموصل لذلك كان تأثر العراق بالغرب أقل من تأثر البلدان العربية^(١٨٧) التي أشرنا اليها مع أن الطباعة قد شقت طريقها اليه في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر ثم أعقبها ظهور الصحافة ممثلة في جريدة (الزوراء) وغيرها ، ولكن الطباعة لم تفده في نشر كتاب جديد الاتجاه ولا الصحافة كانت ذات توجيه مؤثر ، وكان الى جانب ذلك أسباب اخرى تتصل بالسياسة والمجتمع أما السياسة فانها عمدت الى استخدام الزعماء وشيوخ العشائر بمنحهم المقاطعات الكثيرة ليكونوا عونا لها ، وفي أيام الوالي (مدحة) كان ناصر السعدون وأخوه منصور من السلاح الطيع بيد الحكومة لتنفيذ الروح العثمانية وكذلك كان فرحان بن صفوق شيخ شمر الذي أصبح كناصر السعدون خاضعا للاتراك بتوطئه في الاراضي الزراعية وتقيف أبنائه ثقافة تركية ومثل هذا الاستيطان ما حدث للمقائيل الاخرى حتى أخذت الميزات القديمة تضيع بسرعة بين هذه القبائل وحتى تغفل النفوذ التركي أكثر من ذي قبل وساعد على تقوية هذا النفوذ الوسائل الحديثة التي سهلت سرعة الاتصال وأعمال السقي التي تشرف عليها الحكومة^(١٨٨) .

وقد مال السلطان عبدالحميد الى الاكتراد فاستخدمهم في أعمال

(١٨٥) (تاريخ الشعوب الاسلامية) ص ٩٩ ج ٤ .

(١٨٦) (في الادب الحديث) لعمر الدسوقي ص ٣٧ ج ١ .

(١٨٧) (الزهاوي الشاعر) لاسماعيل أحمد أدهم ص ١٦ .

(١٨٨) راجع : (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ص ٢٩٤ -

الجندي واستعان بهم في دعم أغراضه السياسية في بعض جهات العراق ،
وفي أواخر القرن التاسع عشر تحولت تلك الثورات العامة الى شبه انتفاضات
محلية يقوم بها بعض المتمردين ولكنها سرعان ما تنطفئ . * وكانت سياسة
التعليم من أقوى الاسباب في منع احتكاك العراق بالاتجاهات الفكرية الحديثة
فقد كانت المدارس على قلتها وضعف التدريس فيها وكونه باللغة التركية
وحدها لم تنشأ الا لدعم الروح العثمانية وتخريج موظفين صغار . *

وأما المجتمع فقد كان انقسام السكان الى عناصر وطوائف من أهم
الاسباب في تعويق الوعي الوطني فان هؤلاء لم يوحدتهم هدف ولم يجمعهم
شعور واحد ولم تمزج بينهم الحوادث والخطوب فتؤلف منهم أمة واحدة
تسعى الى حريتها واستقلالها فقد كان للاكراد طريق وللغرب طريق ، وكان
السنة في جانب والشيعة في جانب آخر وكذلك بقية الطوائف الدينية
الاخري ، وكان الموسرون من طبقات المجتمع بين مالك أرض لا ينظر الا
لمن يخفف عنه الضرائب وشيخ لا يريد سوى الابقاء على مقاطعاته وارضاه
الحكام ، وتاجر لا يتجاوز شعوره حدود استتباب الامن واستقرار الاحوال .
وهكذا انتهى القرن التاسع عشر والعراق قفر ياب وسكانه جهلة
أميون الا القليل من رجال الدين ومقربي الدولة وقد نسي معظمهم لذة
الحرية ويشوا من أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم وقد ساعد على هذا اليأس
بل على الظلم بجميع ألوانه ما كان يفعله بعض العراقيين أنفسهم من تحريض
الولاة وتسييد خطاهم في محاربة السكان وتهوين كل ذنب يرتكبه الوالى
أو القائد أو أى حاكم . *

ولكن هذا كله لا يعنى أن الحس العربي كان مفقودا أو أن الشعور
بالظلم كان غير موجود وانما كان ذلك ضعيفا بالنسبة للمفاهيم الحديثة التي
شاعت في اوروبا وتسربت في بعض الشعوب الاخرى . *

الفصل الثاني

الحالة الاجتماعية

صعوبة التصوير :

ان دراسة الحالة الاجتماعية في العراق خلال القرن التاسع عشر ليست أمرا سهلا مسورا للباحث الحديث لان المؤرخين الذين تناولوا دراسة العراق في تلك الفترة لم يرسوا صورة واضحة للناحية الاجتماعية من كل جوانبها ولعل انصرافهم الى الناحية السياسية - على ما فيها من نقص - وتقليدهم المؤرخين القدماء قد جعلهم يهتمون بتصوير المجتمع ورسم خصائصه ومظاهره كما يجب ، وما كتبه مؤرخو العراق لم يتجاوز الحوادث السياسية العامة والحروب والثورات وعلاقة القبائل والمدن بالدولة عامة والولاة والموظفين خاصة ، أو أعمال الدولة والولاة في تدبير الحكم وقمع الثورات والخوض في المعارك والحروب ، وهؤلاء المؤرخون - ان صح أن أسميهم مؤرخين - على اختلاف بيناتهم ومداركهم المحدودة لم يتجهوا فيما كتبوا من التاريخ الا الى مجازاة الدولة والولاة وتسجيل الحوادث في ظل القوة الحاكمة الا القليل منهم ، فاذا لمسنا شيئا من صور المجتمع وحياة السكان في كتاب أو مجموعة فانا نجد ذلك قد جاء عرضا ولم يقصد اليه لذاته بل لحاجة سياسية اقتضت الاشارة اليه ، ولعل قليلا من المؤرخين

والرحالة الاجانب تناول بعض مظاهر المجتمع العراقي ولكن الاعتماد على الرحالة والسياح والمؤرخين الاجانب لا يغني الغناء الكافي في دراسة الاحوال الاجتماعية في العراق لان هؤلاء لم يكونوا جميعا قد تغفلوا فيه ودرسوا مظاهره دراسة عميقة أو اطلعوا على تقاليده وعاداته اطلاعا دقيقا ، ومهما يكن من شيء فان ما كتبه مؤرخو العراق والرحالة وغيرهم من الاجانب ليس الا مفتاحا لتبع الاقوال التي تعترض طريق الباحث الحديث ، وان اتباع نظرية القياس - هنا - قد تزدل صعوبة البحث لان المجتمع العراقي كان في قراه وأريافه وبواديه مجتمعا بدائيا أو قريبا من المجتمعات البدائية التي يسير فيها التطور ببطء شديد ولاسيما في عصر كانت سياسة الحكم فيه سياسة هدم وتخريب لا سياسة بناء وتطور فما كان مألوفاً في العراق قبل القرن التاسع عشر كان هو نفسه خلال هذا القرن ولاسيما في القرى والارياف والبوادي .

نظرة موجزة :

لا أريد في هذا الفصل أن أتناول كل نواحي الحياة الاجتماعية وخصائص المجتمع العراقي ومميزاته وانما أكتفي من كل هذا بما يتصل اتصالا مباشرا أو غير مباشر بالشعر وبما يمكن أن يسمى مؤثرا أو عاملا من عوامله وسأتجنب التفصيل فيما دأب عليه مصورو الحالة الاجتماعية في أية بيئة من تناول الجزئيات الى جانب المظاهر العامة فان تناول الجزئيات شيء غير سهل الى جانب كونه قد يعد غير ذي جدوى في هذه الدراسة كوصف المدن والقرى والارياف والمساكن والازياء والمرأة والتقاليد والعادات واختلافها باختلاف السكان وبيئاتهم وكوصف الخرافات والاهام التي كانت شائعة حتى في المدن^(١) ، وحسبنا من هذا كله أن نعرف باختصار أن المساكن في العراق كانت لا تعدو الطين والقصب وسعف النخل وشعر الحيوانات في

(١) راجع عن بعض الخرافات في بغداد مجلة (لغة العرب) البغدادية ج ٨ من السنة الثالثة و ج ١ من السنة الرابعة .

القرى والبادى والارياق ، وخليطا من بعض هذا ومن الأجر والصخر فى المدن ، وليس فى العراق من بناء يستحق الذكر بعد التخریب وكوارث الفيضان التى تابعت عليه غير آثار قديمة كتب لها البقاء وغير مساجد وأضرحة شيدت على قبور آل البيت فى المدن المقدسة ولعل القليل جدا من بيوت الاغنياء وموظفى الدولة كان يمكن أن يوصف بأنه شىء لا بأس به فى مظاهر الزخرفة والهندسة الشرقية ولاسيما فى بغداد^(٢) . أما الازياء والملابس فقد كان العراق منها أشبه ما يكون بمسحف كبير يضم مختلف النماذج والصور ولعل فى بقاء الكثير من تلك الازياء حتى الآن ما يفتنى عن وصفها فى القرن التاسع عشر^(٣) . وأما المرأة فهى فى المدن جليلة بيتها فإذا خرجت فهى محجبة ، وقليل من المسنات والعجائز من يخرجن للبيع والشراء فى الاسواق ، ولكنها فى الريف والبادية تسهم مع الرجل فى معظم أعماله فى الزراعة والرعى وصنع ما يحتاج اليه البيت ولها شأن فى المعارك والحروب ان لم يكن فى حمل السلاح ففى الانارة والاستصراخ والتشجيع فى حين أنها لا تلقى من الرجل ما يدل على احترامها وتقديرها غير أن المرأة الكردية كانت تعامل من الرجل معاملة حسنة ولكن الكردية القروية كانت معرضة لتسلف الامراء والزعماء^(٤) .

هذه هى بعض الجزئيات التى لم أر بأسا فى الاشارة اليها تاركا التفصيل الى المراجع التى ذكرتها فى الهوامش . أما ما يمكن أن يعد شيئا

(٢) راجع عن وصف مدينة بغداد رحلة (فرازر) ص ٢١٧ ج ١ من الاصل الانكليزى و (تنزه العباد) لنابليون المارنى ص ٥١ و ٥٢ . و (قلب العراق) لامين الريحانى ص ٤٢ . وجريدة (الزوراء) العدد ١٤٥ من السنة الثانية الصادر بتاريخ ٣٠ صفر ١٢٨٧هـ فقد جاء فى هذا العدد : أن سكان بغداد فى سنة ١٢٨٧هـ ١٨٧٠م خمسون ومئة الف وفيها من الدور ثمانية عشر الفا .

(٣) راجع لكثير من وصف الازياء فى رحلة (ريج) ص ١٩٨ و ٢٠٢ و ٢٠٥ و ٢٠٦ . (تنزه العباد) ص ٥٣ . و Baghdad The city of Peace. p. 242.

(٤) رحلة (ريج) ص ٢٠٢ و ٢٠٤ .

ذا جدوى في الدراسة الموضوعية التي تتعلق بهذا البحث فهو دراسة عناصر السكان والمظاهر القبلية والافراح والاحزان ومظاهر الغنى والفقر والديانات والمذاهب والتصوف وأثر ذلك كله في حياة السكان ثم التباعد بين اولئك بسبب اختلاف العناصر والديانات والبيئات ، وبعود السبب في أهمية هذه الدراسة الى علاقة هذه المظاهر بالشعر بل يكاد كثير منها أن يكون مؤثرا قويا في توجيه الشعراء واثارة عواطفهم كمظاهر الاحزان واختلاف المذاهب والغنى والفقر وكالمظاهر القبلية التي كانت عاملا قويا من عوامل الثورات الكثيرة التي كانت هي الاخرى من بواعت الشعر سواء منه ما اتصل بالحكم وانحاز الى جانبه أم ما كان بجانب التأثيرين على ذلك الحكم .

عناصر السكان :

ان العراق كغيره من الاقطار التي تعرضت لموجات مختلفة من البشر يرتطم بعضها ببعض ويذيب بعضها بعضا وقد تذهب موجة لتحل محلها موجة اخرى وقد تبقى الاولى شيئا من أطرافها وقد تندمج الاثنان معا لذلك لا يمكن القول بأن العراق موطن لعنصر واحد - وان كان معظم سكانه من العرب - فقد كان موطنا لاجناس مختلفة أثرت في بعضها الحضارة العربية فصهرته ودمجته بالعنصر العربي الاكبر وبقي بعضها متمسكا بلغته وعاداته لقلة اختلاطه بالعرب ، وفي بعض المدن - ان لم نقل في معظمها - من ينتمي الى أصول غير عربية ولاسيما بغداد بوصفها مركزا سياسيا هاميا وملتقى للحركات التجارية والمهنية فقد كانت تضم عددا غير قليل ممن هاجر اليها من ايران والهند وغيرهما^(٥) الى جانب الاتراك^(٦) والمماليك الحاكمين . وكانت العناصر التي تدعى أنها بقايا الشعوب القديمة في العراق أمثال السريان والكلدانيين والآشوريين تقطن في الشمال ولاسيما المناطق الجبلية التابعة لولاية الموصل . وفي تلعفر وكركوك يقيم بقايا التركمان الذين

(٥) جاء في (الزوراء) العدد ٥٠٥ السنة السادسة : ان حول ضريح الشيخ عبدالقادر قرابة ثمانمئة دوريش من الاقوام المختلفة .
(٦) العنصر التركي وفد الى العراق منذ العصر العباسي .

هاجروا الى العراق فيما قبل هذا العصر ، ويقوم الاكراد فى المناطق الشمالية الجبلية التى تقع قريبا من حدود ايران وقد تفلت بعضهم فسكن بغداد وغيرها من المدن الاخرى طلبا للعيش • وأما العرب وهم العنصر الاكبر فان فريقا منهم يعيش على الانهار فى القرى المتناثرة على شاطئى دجلة والفرات وفريقا آثر حياة البداوة منتقلا مع الغيوم والامطار ومواسم الربيع • وفريقا ثالثا دفعته عوامل كثيرة الى سكنى المدن أو الى بناء مدن جديدة فكان لهم فى بغداد والموصل والبصرة شأن كبير ، وكانت المدن القديمة الاخرى كالحلة والنجف وكربلاء^(٧) تصطبغ بالصبغة العربية شأنها شأن المدن التى استحدثت خلال العصر العثمانى كالعمارة والكوت والناصرية والرمادى^(٨) وغيرها أو القرى التى توسعت ثم اطلقت عليها صفة المدن كالدوانية وسوق الشيوخ وكالمدن الصغيرة التى تقع على الفرات الاعلى فان هذه كلها كان طابعها الذى تتسم به طابعا عربيا فى كثير من العادات والتقاليد وان ضم بعضها اخلاطا من الامم الاخرى •

المظهر القبلى :

لعل المدن بما فيها من تنافر الاجناس والطباع لا يمكن أن ترسم صورة واضحة لحياة عامة مطردة ذات طابع متميز كالصورة التى ترسمها حياة القبائل بوصفها أقرب ما تكون الى الحياة البدائية منها الى الحياة المتحضرة • وقد مر بنا فى الفصل السياسى ما كان للقبائل من شأن فى تابع الثورات والتمرد على الحكم فالمجتمع القبلى فى العراق أكثر السكان عددا وأوضحهم تصويرا للعادات والتقاليد الشائعة لان هذه القبائل تخضع لزعامات ذات نفوذ وتلتزم بما تفرضه تلك الزعامات والعادات الموروثة التى لا يمكن الخروج

(٧) أدت حادثة داود سنة ١٢٤١هـ وحادثة محمد نجيب سنة ١٢٥٨هـ الى هجرة كثير من العرب من مدينة كربلاء •
 (٨) انشئت مدينتا الرمادى والناصرية فى أيام الولاى مدحة وقد استقدم لتخطيط الناصرية مهندسا بلجيكيا • راجع (لغة العرب) ج ١
 س ٢ •

عليها • ومثل هذه الظواهر والعادات قد يكون ضعيفا في المدن المحكومة التي ترهب القانون وتخشي الحكم وقد تحاول التقليد والمجاراة للسلطة في سلوكها وعاداتها ، أو المدن التي كان الحكم فيها ضعيفا ولكن سكانها أخلاط مختلفون • غير أن بعض المدن الصغيرة كان خاضعا في مظاهره العامة للعرف القبلي السائد لكونها سوق القبائل ومستودع حبوبها وأنعامها وما ينتج من تلك الانعام ولكون النفوذ الذي يسودها ليس الا لزعماء القبائل أنفسهم حتى اللهجة الدارجة فيها كانت لهجة القبائل المحيطة بها لان سكانها ممن تفرعوا من تلك القبائل وآثروا حياة المدن على حياة الارياف ولكنهم ظلوا محافظين على معظم الخصائص القبلية •

والقبيلة في العراق تختلف باختلاف العنصر ، فالقبيلة أو العشيرة الكردية ما كانت تعني الا الانتماء الى قرية أو مكان ولها رئيس يكون صلة التفاهم بينها وبين الامراء والملاك^(٩) • أما القبائل العربية فانها تسمى بأسماء الجدود وان قدم العهد بها أمثال ربيعة وخزاعة وبنى أسد وخفاجة وقشعم وزبيد وبنى لام وعنزة وشمر وطىء وعقيل وبنى تميم وغيرهم ، ومن هذه القبائل من تجمع أو تفرق وكثرت بطونه وأفخاذه فكثرت تبعا لذلك أسماء الفروع ، ولكل قبيلة كبيرة شيخ يسودها ويسمى شيخ المشايخ وهو الرئيس الاكبر المطاع وله الامر والنهي على الشيوخ والرؤساء الذين يسودون البطون والافخاذ • وشيخ المشايخ مسؤول عن رعاية قبيلته والدفاع عنها أمام الحكومة وهي مسؤولة عن الالتفاف حول رايته وتلبية نداءه اذا ثار على الحكومة أو حارب قبيلة •

أما عادات القبائل وتقاليدها والاحكام التي تصدرها في مشكلاتها فهي أهم ما في العرف القبلي وان خالفت الشرع والقانون • وكانت هذه القبائل تهتم أيضا اهتمام باقتناء الخيل وحمل السلاح وتعليم الفروسية والرماية وتنشئة الاولاد الصغار على هذه الصفات ما دامت تحتاج الى ذلك في ثوراتها والدفاع عن كيانها •

(٩) عشائر العراق رقم ٢ ص ١٣ و ١٥ •

لقد كانت سبل المعيشة فى العراق مختلفة باختلاف البيئات وهى لا تعدو سبل العيش فى أى مجتمع متأخر غير مستقر فى أحواله السياسية فقد أثر الاضطراب السياسى تأثيرا سيئا فجعل من السكان طبقات مختلفة ليس فيها من الاغنياء الا التجار الكبار والملاك وشيوخ الاقطاع وهؤلاء ليسوا الا جزءا يسيرا من السكان . أما الطبقات العامة فى المدن والارياف والى البوادي فانها كانت تنوء بأعباء الفقر والفاقة لقلة الزراعة وفقدان الامن والاستقرار وصعوبة النقل ورداءة الطرق ، وكان من أسباب انتشار الفقر أيضا كثرة الضرائب التى كانت تفرض على السكان وتجبى منهم بأقسى ما تكون الجباية وكان الفلاح العراقى فريسة دسمة^(١٠) فهو على استعداد فى الموسم وغير الموسم لاستقبال الجباة غلاظ القلوب بل كان عرضة لما هو أشد من ذلك عندما تحتاج الدولة الى المال فى حروبها وأعمالها فيطلب اليه أن يدفع قسما كبيرا من حصة الحكومة قبل موسم البيع وفى غمرة الارهاب والتنكيل يضطر الى بيع غلته قبل أوانها بثمان أقل بكثير من تقدير الحكومة وكان التجار الذين لا ذمة لهم يتربصون بهذا فيشترون بمثل ما يقدررون ويشاركون الدولة فى ظلمها^(١١) .

وكان غير الفلاح خاضعا لالوان من الضرائب التى لا حصر لها فقد كانت تفرض على الدور والحوانيت والمتاجر والسلع المستوردة والبقر والغنم والاسماك والملح والنخيل والاشجار عدا ضرائب الارض الزراعية . وكان من المضحك أن تؤخذ ضريبة سنوية على بيوت الشعر وقد تتكرر مرتين فى السنة^(١٢) . وكانت الطواعين والابوثة والى جانبها فيضان الانهر باستمرار من الاسباب التى تضعف حركة العمل والسعى وتبعث على تشريد السكان

(١٠) كان يدفع الخمس حصة للحكومة ، وحصة الجيش وهى ستة بالمائة وحصة للمعارف التى لم يستفد منها الى جانب حصة الملاك والرئيس .

(١١) (لغة العرب) الجزء الثامن من السنة الثالثة . شباط ١٩١٤ .

(١٢) راجع (الزوراء) العدد ٥١٦ السنة السادسة ١٤ محرم

١٢٩٢ هـ .

في القفر اليابس ثم لا يعودون الا بحذر وخوف وهم جياع عراة • وكانت بغداد نفسها تثير الاسى بمظاهر البؤس والفقر المنتشرين في أطرافها^(١٣) ولم تكن المدن الاخرى بأحسن حالا منها ، وكانت أرياف العراق التي اشتهرت قديما بالخصب والنماء ليست الا بلاقع موحشة فلم تكن المزارع تتجاوز الميل أو الميلين من ضفة النهر وقد تكون الارض البوار متصلة بحاشية النهر لا يفضلها فاصل من نخل أو زرع • وكانت مظاهر الفقر ماثلة في مناطق الاكراد وعلى ضفاف الانهار بين القبائل العربية فلا تكاد تقع العين الا على أجساد لا تسترها غير ملاءة من الصوف الخشن • أما المنازل في القرى فانها كانت أشبه شيء بمقابر قديمة ليس فيها غير العظام والرمل وقد كان الكثيرون من السكان لا يكادون يستقرون حتى يرحلوا الى مكان آخر لعلهم يجدون اللقمة اليابسة^(١٤) ، وقد حدث من جراء ذلك أن انتشرت اللصوصية وقطع الطرق ونهب القوافل والسفن ، وكثيرا ما كان قطاع الطرق يفرضون الاتاوة^(١٥) على المسافرين والزوار الذاهبين الى المشاهد المقدسة وقد تدفعهم القسوة الى ابداء الزائرين • ولم تكن هذه الوسيلة من قطع الطرق ونهب القوافل خاصة بسكان الجنوب بل كانت شائعة في الشمال أيضا فقد اشتهر الاكراد الهماوند بالقتل ونهب القوافل^(١٦) بل كان من الاكراد البلباس من يسبح الله ويصلي النوافل ولكنه يسفك الدماء البريئة^(١٧) ويعترض طريق القادمين والرائحين ومثلهم قبائل باجلان من الترك والاكراد^(١٨) • ولم يكن كل ذلك لو لا الحاجة الى العيش والاستقرار ولو لا فساد الحكم

Baghdad the city of peace. p. 297. (١٣)

- (١٤) راجع (عبرة وذكرى) لسليمان البستاني ص ١٤٤ - ١٤٥ •
(١٥) كانت هذه الاتاوة تسمى (الخاوة) وقد جاء وصفها في السكتيب المخطوط (ديوان مزيد السرور ومزيل الحزون) الورقتان ٢٤ و ٢٥ من نسخة يعقوب سرقيس • والورقتان ٤ و ٥ من المختصر الموجود لدى •
(١٦) عشائر العراق للمحامي عباس العزاوي رقم ٢ ص ٧٧ •
(١٧) المصدر السابق - ص ١٠٥ •
(١٨) رحلة المنشي - ص ٤٢ ترجمة المحامي عباس العزاوي •

في حين كان الكثير من الولاة والموظفين والطبقات الغنية قد انصرفوا الى اللهو والموبقات ولاسيما في بغداد^(١٩) .

مظاهر الافراح والاحزان :

في العراق مواسم للافراح وفيه مواسم للاحزان شأنه شأن غيره من الشعوب والمجتمعات وهذه المواسم منها ما هو فردي خاص ومنها ما هو جماعي عام فالاعياد الدينية مواسم عامة لاصحابها كعيدى الفطر والاضحى للمسلمين جميعا وكالاعياد الدينية عند النصارى واليهود ، وكان للشيعة عيد خاص بهم وهو عيد الغدير الواقع في الثامن عشر من ذى الحجة وكذلك المولد النبوي وهو في الثامن عشر من ربيع الاول عند الشيعة وفي الثاني عشر منه عند السنة ، وللاكراد عيد موسمي يحتفلون به وهو عيد (الثوروز) لانه بداية فصل الربيع ويشاركهم فيه الفرس المقيمون في العراق . ومظاهر الفرح في كثير من هذه الاعياد تبدو واضحة ان في المدن أو في الارياف ، ومثلها الافراح الفردية كحفلات الزفاف^(٢٠) عند العرب^(٢١) والاكراد^(٢٢) وللمختان وعودة الحجاج من مكة نصيب غير قليل من الفرح والابتهاج . أما الاحزان فانها كانت تسرف في حدتها عند سكان المدن وهي غير قليلة الشأن عند سكان الارياف ولاسيما المرأة التي تفقد عزيزا لها فانها قد تبقى مجللة بالسواد حتى يخلفه الكفن ، غير أن سكان البادية أكثر صبرا وجلدا وعدم اهتمام بهذا المظهر . وفي العراق مظهر كبير من مظاهر الحزن يتخلل أيام السنة وهو

(١٩) راجع - شعراء بغداد وكتابها ص ٢٨ و ٤٨ .

(٢٠) كانت تصحب الزفاف بنادق تدوى مقذوفاتها في الفضاء ولعل هذه العادة نشأت في بغداد وعنهما أخذت وسبب نشوئها ان جنود الدولة كانوا يفتصبون الاولاد والنساء ولاسيما العرائس منهن وكثيرا ما كانت المدايح تقع بين الجنود وبين مواكب الزفاف . راجع : (لغة العرب) ج ١٠ ص ٣ نيسان ١٩١٤ .

(٢١) راجع عشائر العراق - الجزء الاول ص ٣٤٣ - ٣٤٦ .

(٢٢) راجع التفصيل في رحلة (ريج) ص ٢٠٠ - ٢٠٤ .

خاص بالشيعة وذلك في وفاة النبي (ص) والائمة من آل البيت وتجلت ظاهرة الحزن بوضوح في العشرة الاولى من محرم فيشيع لبس السواد وتقام المآتم في المدن والقرى^(٢٣) وتلى سيرة الحسين وحادثه قتله في اليوم العاشر وتشهد قصائد الشعر من فصيح ودارج ويتجنب الشيعة خلال محرم وصفر - مهما استطاعوا - أى مظهر يدل على الفرح والبهجة كالزواج والختان مما يتنافى مع شعار الحزن والالم .

الديانات والمذاهب^(٢٤)

لقد كان العراق قديماً موطن الآلهة تنحت وتعبد وكان سكانه القدماء من بابليين وآشوريين وكلدانيين وسومريين يفتنون في صنع آلهتهم ويضعونها في الهياكل والمعابد ويتركون بها في المواسم والاعياد . وانطوت عبادة الآلهة من الاحجار والصخور والنجوم وغيرها لتحل محلها عبادة رب واحد أرسل الرسل وبعث الانبياء وأنزل الكتب ، ودان العراق وخضع للرب الواحد وآمن بالرسول والكتب ولكنه صنع من سكانه ما صنعت بابل من العجائب فالى جانب الديانات الثلاث - الاسلام والنصرانية واليهودية - ديانات اخرى منها القديم الموروث ومنها الطارئ المستجد ، وكان ميراث العراق من العصر العباسي ذى الفلسفات والمذاهب وحظه من العناصر المختلفة والامم الداخلة في الاسلام ميراثاً صعباً شاقاً رسم للتاريخ مناهج فيها كثير من الالتواء والتعقيد ورسم التاريخ منه صوراً فيها كثير من الابهام والغموض وهى ان وضحت

(٢٣) يقول عبدالباقى العمرى فى ص ١٣٠ - ١٣١ من (الترياق الفاروقى)

نحن أناس إذا ما
فكل شئ علينا
قد حل شهر المحرم
سوى البكاء محرم

(٢٤) أحصت حكومة الاحتلال سنة ١٩١٩م سكان العراق فكانت النتيجة كما يلى : (١) الشيعة : ١٥٠١٥٠١٥٠١٥٠ (٢) السنة : ١٥٠١٥٠١٥٠١٥٠ (٣) اليهود : ٨٧٤٨٨٠ (٤) النصارى : ٧٨٧٩٢٠ (٥) الديانات الاخرى : ٤٢٣٠٢٠ راجع جريدة (دار السلام) البغدادية العدد ٤ من المجلد الثالث السنة الثالثة ٢٢ شباط ١٩٢٠ .

فى شىء فان وضوحها هذا انما يدل على تيارات متضاربة فى المعتقدات ، ففى الشمال يقطن (العلى الالهية) الذين يؤلهون الامام عليا وينسبون له من الصفات ما ليس له • ويقوم الى جانبهم (اليزيدية) ولاسيما فى سنجار شرقى الموصل وهم يدعون أن ديانتهم سماوية أتى بها يزيد بن معاوية من لدن الاله الاعظم (٢٥) • وفى الشمال أيضا قليل من بقايا الباطنية والنصرانية • وبقايا الصابئة فى جنوب العراق يدعون أن نبيهم يحيى وهم يقدسون النجوم ويعظمونها محافظة على أصول ديانتهم فى أقدم عهودها (٢٦) • وقد انقسم النصارى الى عدة طوائف منهم الكلدان والسريان واليعاقبة والنساطرة والكاثوليك والارثوذكس واللاتين والبروتستانت والسبتية والملكانية (٢٧) ، ومعظم هؤلاء من سكان القرى المنتشرة فى الشمال ولهم أديرة فى تلك الانحاء (٢٨) ومثلها أديرة وكنائس فى الموصل والبصرة وبغداد (٢٩) حيث يقيم بعضهم •

وكان تقل اليهود (٣٠) فى بغداد (٣١) غير أن بعضهم سكن البصرة والعمارة والحلة وفى جوار المكانين المقدسين عندهم (العزيز) فى جنوب العراق (وذى الكفل) بين الحلة والكوفة (٣٢) •

أما الديانة الاسلامية وهى الديانة الكبرى فى العراق فانها قسمت

- (٢٥) اليزيدية لصديق الدمولوجى ص ١٦٤ •
(٢٦) رجع التفاصيل فى كتاب (الصابئون فى حاضرهم وماضيهم) لعبدالرزاق الحسنى •
(٢٧) لم يبق للملكانيين ذكر الآن •
(٢٨) راجع : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث • ص ٩ •
(٢٩) كان للنصارى فى بغداد ستة معابد فى أواخر القرن التاسع عشر • (تنزه العباد) ص ٤٦ •
(٣٠) جاء فى مجلة (سومر) المجلد ١١ الصادر سنة ١٩٥٥ : ان عددهم يربو على عشرة آلاف فى القرن التاسع عشر •
(٣١) كان لهؤلاء فى بغداد خمسة وعشرون معبدا • (تنزه العباد) ص ٤٧ •
(٣٢) لم يبق لهم ذكر الآن فى هذين المكانين •

المسلمين الى طائفتين هما طائفة السنة وطائفة الشيعة والثانية أكثر عددا من
اختها وكل أتباعها امامية اثنا عشرية ومذهبهم الذي يرجعون اليه الامام
السادس جعفر الصادق وقد انتشروا ما بين بغداد والبصرة على جانبي الفرات
ودجلة ، أما السنة فانهم موزعون بين المذاهب الاربعة غير أن معظم الموظفين
والمقرين لدى الدولة كانوا يدينون بالمذهب الرسمي وهو المذهب الحنفي
وكان أكثر الاكراد من أتباع المذهب الشافعي .

وقد ظهرت في العراق خلال القرن التاسع عشر بعض العقائد المتطرفة
ومنها العقيدة (البهائية) وقد قوبلت بهجوم عنيف من المسلمين وحاربها
رجال الدين من الشيعة والسنة وطرد أتباعها من بغداد أيام الوالي محمد
نجيب^(٣٣) ومن ثم ضعفت ولم يبق من أتباعها الا التز^(٣٤) .

اثر الدين في حياة السكان :

ان لكل هذه الديانات والمذاهب التي ذكرتها رجال دين يتدارسونها
ويبحثون فيها ويدافعون عنها وينشرونها بين أتباعهم ويشرفون على تعاليمها
واقامة شعائرها في المسجد والدير والكنيسة والبيعة ، وهم المسؤولون عن
المحافظة عليها والرد على من يطعن أو يعارض . واذا تركنا الطوائف القليلة
بتعاليمها المبهمة وكتبها غير المنشورة فانا نجد الديانات الثلاث ذات أثر في
أتباعها وذات شأن فيما يكتب عنها وينشر فللنصارى أديرة وكنائس ومدارس
لا تألو جهدا في ترسيخ التعاليم المسيحية بين أتباعها ولليهود مثلهم . أما
المسلمون فقد كانت رعايتهم للتعاليم الاسلامية في حدود ضيقة وفي طبقات

(٣٣) كان داعيتها المسمى ملا علي البسطامي قد جاء الى بغداد سنة
١٢٥٨هـ ثم نفى منها .

(٣٤) من أشهر دعائها الداعية المعروفة (قرّة العين) التي يسميها
أتباعها (الطاهرة) وقد جاءت الى كربلاء سنة ١٢٦٣هـ ثم انتقلت الى بغداد
واتصلت ببعض رجال الدين من بيت الالوسي ولكنها أخرجت من العراق .
راجع التفاصيل في (الرسالة التسع عشرية) لاحمد سهراب ص ١٠٥ -
١١٢ في الملحق لمحمد مصطفى البغدادي .

خاصة كطبقة رجال الدين أنفسهم وغيرهم من المتدينين الذين يقيمون في المدن وفي بعض الطبقات الاخرى فيما يتصل بالفرائض والمعاملات ، أما تطبيق الحدود فقد كان أمرا صعبا لان الدولة نفسها ما كانت تهتم بذلك فقد كان الكيرون من موظفيها يقترفون الموبقات فيكونون قدوة سيئة لمن يتصل بهم ويسايرهم من ضعاف النفوس .

وكانت القبائل البدوية لا تعرف الا السير من الدين وأحكامه بل كانت تجهل الاحكام التي تتعلق بالمعاملات والزواج والطلاق والارث وما يتصل بالفرائض العامة . أما سكان الجبال فقد كان الوازع الديني ضعيفا عندهم وقد عرف عن الاكراد أن أكثرهم يؤدون العبادات ولكن معظمهم يجهل حقوق الله في المجتمع ولا يبالي بقتل الابرياء^(٣٥) . ومنثلهم القبائل العربية المستوطنة على دجلة والفرات فقد كانت هي الاخرى تجهل الواجبات والاحكام الا القليل ممن تعهدوا بعض رجال الدين الذين كانوا يتفقهون في النجف والحلة وسائر المدن المقدسة وكان معظمهم من تلك القبائل نفسها ، ولم يكن هذا العمل من رجال الدين مما يرضى بعض الموظفين في بغداد أو السائرين في ركبهم فهو في نظرهم وسيلة من وسائل انتشار التشيع بين القبائل وفي هذا خطر على السلطان^(٣٦) .

التصوف واثره :

لا أريد أن أبحث في التصوف هنا بحثا موضوعيا لان هذا ليس من منهج البحث وانما أريد أن أتناول هذه الظاهرة بمقدار ما لها من مساس بحياة السكان وبما لها من علاقة بالشعر وان كانت ضعيفة في السياسي

(٣٥) راجع عشائر العراق رقم ٢ ص ١٠٥ .

(٣٦) راجع هذا الرأي في جريدة (الزوراء) العدد ٥٦٩ السنة السابعة رمضان ١٢٩٢هـ و (عنوان المجد في بيان احوال بغداد والبصرة ونجد) لابراهيم فصيح الحيدري ص ٢٠ من النسخة المخطوطة في مكتبة الآثار - بغداد .

منه^(٣٧) . وقبل أن أبين مدى انتشار التصوف في العراق أود أن أشير الى أن التصوف قد شاع خلال القرن التاسع عشر في الدولة العثمانية شيوعاً مفرطاً فقد كان السلطان وكثير من وزرائه وحاشيته والولاة والموظفين يشجعون طرق الصوفية بل كان السلطان نفسه يلوذ بالمتصوفة أيام الحروب^(٣٨) وكانت والددة السلطان تتردد على المتصوفة وتتزود من بركاتهم^(٣٩) حتى كثرت الربط والتكايا في الأستانة وحتى صار بعضها فحاً للاصطياد عند بعض الشيوخ^(٤٠) الذين لا يحط من قدرهم حتى شرب الخمر^(٤١) . وكان السلطان عبدالحميد الثاني^(٤٢) قد عرف بتقريبه أصحاب الطرق الصوفية ومنهم محمد أبو الهدى الصبدي المتوفى سنة ١٣٢٧هـ ١٩٠٩م وكان هذا زعيم الطريقة الرفاعية وقد اشتهر بنفوذه وصلاته برجال الدين والشعراء^(٤٣) وكان يحث بعضهم على التأليف في الطرق ولاسيما الطريقة الرفاعية^(٤٤) .

أما الطرق المتبعة آنذاك فأشهرها القادرية نسبة الى الشيخ عبدالقادر الكيلاني المتوفى سنة ٥٦١هـ ، والرفاعية نسبة الى السيد أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨هـ والنقشبندية نسبة الى الشيخ أحمد بهاءالدين النقشبندی البخاري المتوفى سنة ٧٩١هـ والبكتاشية نسبة الى الحاج محمد بكتاش المتوفى

(٣٧) في (الترياق الفاروقي) لعبد الباقي العمري اثر بارز للتصوف . وفي (الطراز الانفس) للاخرس البغدادي بعض القصائد ومنها القصيدة التي يمدح بها الشيخ عبدالقادر الكيلاني في ص ٣٧ - ٣٩ وفيها شكوى حارة من فساد الحياة والحكم .

(٣٨) التصوف في مصر للدكتور توفيق الطويل ص ٢٦ .

(٣٩) غرائب الاغتراب ص ١٦٢ .

(٤٠) المصدر السابق ص ١٥٧ .

(٤١) المصدر السابق ص ١٩١ .

(٤٢) انشئ في أيام هذا السلطان ست عشرة تكية . راجع :

(سالنامه البصرة) الدفعة ٢ سنة ١٣٠٩هـ .

(٤٣) زار أبو الهدى بغداد سنة ١٢٨٣هـ وقد مدحه الاخرس راجع

(الطراز الانفس) ص ١٦٩ - ١٧١ .

(٤٤) راجع : (الاسرار الالهية) للسيد محمود شكري الالوسي

ص ٤ .

سنة ٧٣٨ هـ . واذا كانت هذه الطرق ذات أثر كبير في نفوس الاثراك فان لها في العراق أتباعا من المعممين والدرائش ومن التف حولهم^(٤٥) وقد شاعت النقشبندية الى جانب القادرية بين الاكراد ، وكان معظم أتباع الطريقة الرفاعية من العرب المتحضرين ، أما البكتاشية فان لها تكايا في بغداد وكر بلاه والنجف ولكنها لم تكن ذات أثر بارز بين شيعة العراق كما لم يكن للطرق الاخرى أى اهتمام عندهم وليس معنى هذا أن التشيع خلا من الدراويش والمتصوفين في غير العراق ، الا أن معظم شيعة العراق كثيرهم من سكان البوادي والارياف تغلب عليهم النزعة القبلية التي لم تؤثر فيها أعمال المتصوفة تأثيرا ملحوظا يضاف الى هذا أن انصراف الشيعة الى ما يقرب من ذلك بالنسبة لآل البيت قد شغلهم عن اتباع الطرق الصوفية ولاسيما سكان المدن منهم^(٤٦) . واذا استثنينا القبائل العربية التي لم تسرب فيها هذه الطرق تسربا محسوسا فاننا نجد بعض سكان المدن قد بالغوا في الطرق واعتقدوا بمشايخها اعتقادا مسرفا وانقادوا لاوامرهم انقيادا مفرطاً^(٤٧) ، وقد شجع

(٤٥) مما لاشك فيه أن للسياسة أثرا في اتباع هذه الطرق فان كثيرا من رجال الدين والوجهاء أرادوا بذلك أن يتقربوا الى السلطان والولاة .
(٤٦) كان اهتمام الشيعة بمواليد آل البيت ووفياتهم واضحا في اقامة محافل الافراح والاحزان مما يشبه حلقات الذكر عند المتصوفة ، وان ما نسب الى مشايخ الطرق من الخوارق والكرامات كان لدى الشيعة ما يشبهه من نسبة المعاجز والكرامات لآل البيت ورجال الدين . أما الغلو المفرط بمؤسسى الطرق والمشايخ عند المتصوفة فقد كان لدى بعض فرق الشيعة ما يشبهه ولا سيما فرقة الشيخية وهم أتباع الشيخ أحمد بن زين الدين الاحسائي وكان هذا قد درس في النجف وكر بلاه ثم انتقل الى المدينة وتوفي فيها سنة ١٢٤٢ هـ ١٨٢٦ م ودفن بالبقيع . وله عدة كتب دينية ومنها كتاب في الرد على الصوفية وأعمالها وقد رماه بعض علماء الشيعة بالافراط والغلو بآل البيت .

راجع : (روضات الجنات) للسيد محمد باقر الخونسارى . ص ٢٥ طبع طهران .

(٤٧) جاء في (تذكرة الشقيق الجامعة لمعرفة الطريق) للشيخ عبدالقادر الكيلاني . (الورقة ٢) من نسخة دار الكتب المصرية ما يلي :
اعلم اخي ان شرط الصحبة لكل من زاد عليك رتبه
تبجيله حق وحفظ سره ثم قبول نهيه وأمره
وكن لديه خاضعا كالعبد ولا تعارض قوله بالرد

على اتباع هذه الطرق ما كان يديه بعض الولاة من اهتمام بها للتبرك بل للتزلف واستخدام المشايخ لتحقيق ما رُب سياسة^(٤٨) ، وقد بلغ من تمسك المرادين أن المرء منهم لا يذكر اسمه الا مقرونا بالانتساب الى الطريقة التي اتبعها والمذهب الذي ارتضاه ، أما الكرامات والخوارق التي نسبت الى مشايخ الطرق والمؤسسين فانها كثيرة وقد بولغ فيها أشد المبالغة كالذي نسب الى الشيخ خالد بن أحمد الشهرزوري^(٤٩) رئيس الطريقة النقشبندية في أول القرن التاسع عشر من شفاء المرضى وغيره^(٥٠) وكوضعه في مصاف الانبياء^(٥١) وكالذي نسب الى الشيخ عبدالقادر الكيلاني من احياء الموتى ورد الارواح وقلب الانشي ذكرا ونزول المائدة من السماء وتسليم الاسماك عليه عندما يذهب الى دجلة ومخاطبة الله اياه بالهام خاص^(٥٢) واشارته على السلطان مراد في عالم الرؤيا بأن يصنع المدافع لفتح بغداد سنة ١٦٣٨م^(٥٣) أما ألقابه فمنها الغوث الاعظم والكنز العرفاني والغوث الكيلاني والقطب الصمداني^(٥٤) وغير ذلك •

وقد وقف بعض رجال الدين من هذه الطرق موقف المؤيد وأصدر حكمه على المناوئين لها والمنكرين عليها وعلى أصحابها ما يأتون به من أعمال

(٤٨) كان الوالي محمد نجيب يدعى مرة بأن قادري الطريقة ومرة أخرى بانه نقشبندي • وكان (علي أشقر) أحد ولاة الموصل وهو من مماليك السلطان قد جاء الى بغداد مع الوالي علي رضا سنة ١٢٤٧هـ واتصل بمشايخ الطرق طمعا بولاية بغداد فلما ينس منها عدل عن المتصوفة • (راجع عن الاول : العراق بين احتلالين ص ٨٣ ج ٧ والترتياق الفاروقى ص ٢٤٦ • وعن الثاني : غرائب الاغتراب • ص ١٥٨ - ١٥٩) •

(٤٩) ولد سنة ١١٩٠هـ وتوفى في دمشق سنة ١٢٤٢هـ ١٨٢٦م •

(٥٠) المجد التالد في مناقب الشيخ خالد - لابراهيم فصيح الحيدري ص ٢٤ •

(٥١) رحلة (ريج) ص ٩٨ •

(٥٢) راجع (تفريغ الخاطر في ترجمة الشيخ عبدالقادر) لمحمد صادق القادري الشهابي • وهو مترجم عن الفارسية ومطبوع في مصر •

(٥٣) مجلة (لغة العرب) ج ٨ ص ٣ سنة ١٩١٤ •

(٥٤) جريدة (الزوراء) العدد ٥٠٥ من السنة السادسة ١٢٩١هـ •

وعد هذا الانكار عرضة لغضب الاله لانه يؤول الى انكار الكتاب والسنة^(٥٥) وحث بعضهم على حسن الظن بالسادة الصوفية وعدم الوقعة بهم لانها مهلكة^(٥٦) . على أن هذه الطرق - بالرغم من التأييد القوي الذي حظيت به من السلطان وأتباعه - لم تلق رواجاً محسوساً بين القبائل العربية - كما قلنا - فقد استنكر بعضهم احترام شيخ الطريقة في بغداد والوقوف له في أحد المساجد^(٥٧) ، وفي بغداد أيضاً كان بعض الناس يسخر من الصوفية ويستهزئ بهن بحلقات الذكر^(٥٨) ، بل كان بعض الاكراد قد نسب الضلال الى الشيخ خالد النقشبندی وأراد قتله^(٥٩) ، وبعضهم رماه بالكفر والزندقة لانه لم يشف نجل (الباشا) كما ادعى^(٦٠) حتى اضطر أن يهرب الى دمشق ويبقى فيها حيث توفي .

التباعد :

لعل الذي قدمته من وصف موجز لأهم المظاهر في المجتمع العراقي خلال القرن التاسع عشر أقرب الى الواقع في رسم الصورة الكاشفة عن خصائص السكان وأخلاقهم وعاداتهم ، ولعل هذه الصورة التي رسمتها لم تكن صورة مشرفة جميلة فان أيسر ما يدركه المتأمل في حياة سكان العراق اختلاف العادات وتضارب الاهواء ، وكان من الطبيعي أن يكون هذا الاختلاف بين السكان في حياتهم وتفكيرهم وسلوكهم ما داموا مختلفي الاجناس واللغات والديانات والمذاهب وما دام كل فريق يتعصب لتقاليدهِ وعاداتهِ الموروثة ولعنصرهِ ولغته ، واذا كان في بعض المدن اختلاط لطف بعض الشيء من طباع المتباعين فانه لم يستطع أن يمزجهم مزجاً كاملاً بحيث

-
- (٥٥) راجع : المجد الثالث ص ٢٤
 - (٥٦) مقامات الالوسي ص ٥
 - (٥٧) عشائر العراق ص ٣٩٨ ج ١
 - (٥٨) المجد الثالث ص ٣٩
 - (٥٩) المصدر السابق : ص ٤٠ - ٤١
 - (٦٠) رحلة (ريج) ص ٢٢٧

يجعل منهم علما واحدا يخضع لعادات موحدة ويشعر بشعور واحد ، والفرق كبير جدا بين الجمع والمزج وبين الاختلاط والاندماج لذلك بقى سكان المدن في القرن التاسع عشر خاضعين لتلك المؤثرات والعوامل التي باعدت ما بينهم وجعلت منهم أصحاب مدن مختلفة بل جعلت من أهل المدينة الواحدة أصحاب أطراف ومحلات يخاصم بعضها بعضا ويصطدم بعضها بعضا وكانت بغداد أوضح صورة لهذا اللون من السلوك ، فالسنة يعيشون في محلاتهم الخاصة والشيعة كذلك واليهود والنصارى أيضا والأتراك والاكراد كل في علمه الخاص لا صلة ولا ترابط الا في الاسواق وأماكن البيع والشراء . وقد يخفف الزواج بين السكان من حدة الخلاف ولكن هذا كان مفقودا بين المسلمين والممل الاخرى ونادرا جدا بين الشيعة والسنة ، وهكذا عاشت بغداد وأهلها في تباعد وتدابير ان لم يكن في الاعمال ففي قرارة النفوس ، ومثل بغداد في هذا التباعد بقية المدن الاخرى فان فساد الحكم وخشونة الحياة وصعوبة المواصلات كل ذلك قد باعد ما بينها وجعل كل مدينة تعيش في عزلة أو شبه عزلة . وكانت المدن الشيعية المقدسة غير خالية هي الاخرى من انعدام التجانس والتفاعل وتجاوب الطباع فقد كانت النجف نفسها مسرحا لحوادث مزعجة بين السكان وكانت ثورات المحلات بعضها على بعض وقتل الابرياء شيئا مألوفاً^(٦١) على الرغم من كثرة رجال الدين فيها وسيطرتهم الروحية على الشيعة في العراق وغير العراق .

ولم تكن ظاهرة التباعد من صفات المدن وحدها فقد كانت بارزة بين القبائل العربية والكردية وبين القبائل وسكان المدن بل بين البدو وسكان الارياف فالاكراد المديون يعتقدون ببلادة القرويين منهم^(٦٢) والعرب يرون الاكراد أقل شأنا ، وأهل الريف والبادية يكرهون سكان المدن ، وسكان المدن يرون أبناء القبائل أناسا متوحشين ، أما البدوي فانه يرى نفسه أسمى

(٦١) ان حوادث الزكرت والشمرت قد شغلت مدينة النجف طيلة القرن التاسع عشر .
 (٦٢) رحلة (ريج) ص ٦٣ .

من الريفى ، وكان بعض أصحاب الحرف محتقرا لدى عامة المجتمع • ولم
ينعدم التباعد بين طوائف النصارى أيضا ، فقد كان لكل فريق كنيسة ومعد
خاص •

أما الخصام بين السكان جميعا وموظفى الدولة من كبيرهم الى صغيرهم
فدليله تلك الثورات التى مر ذكرها فى الفصل الاول ، ولم تكن قصائد
المديح التى قيلت فيهم لتقيم برهاننا على تقارب سليم بين السكان ورجال
الحكم وانما هى خطرات الشعراء التى لا تتبع الا عن رغبة أو رهبة فى
معظم الاحيان •

الفصل الثالث

الحالة العلمية والادبية

قبل البحث :

في حوض الرافدين تاريخ قديم وأمم عريقة كان لها شأن كبير في الحضارة والتفكير وفي العلم والادب ، وقبل آلاف السنين كانت الحياة تسير في دأب واستمرار لتعمر الارض الخضراء وتغذي الجسم والعقل ، وقبل آلاف السنين كانت الارض الخضراء تحيط بالبلور المذاب وتستمع الى حفيف الغصون وأغاريد الطيور وقصائد الشعراء .

ونشط الجسم للعمل فكانت الارض الخضراء تفيء الملايين من أبنائها . ونشط العقل فكانت الشرائع تسير حياة اولئك وكانت بابل مصدر تلك الشرائع ، ونشط الفكر ونبض القلب فكثبت الاناشيد والملاحم وغنيت القصائد بين أيدي الآلهة على مزامير الارض الخضراء . وجاء الاسكندر ليرى مهد الاعاجيب ، وعبرت جيوش الفرس لتلتقي معه في سهول الشمال وبين جباله الشامخة . وفتن الشرق والغرب بهذه الارض ثم انطوت العصور ودرجت الامم واخفت المعابد والهياكل والآلهة والنقوش والاساطير والقصائد والملاحم وتلاقت فوقها الرمال وبقايا الجدر والصخور .

ولكن الارض الخضراء بقيت تحتفظ بكثير من خصائصها ومقوماتها وظل الفرات ودجلة يتهاوسان متعاقبين تحت أفياء النخيل والغصون ، وورث

الارض أبناء الصحراء الذين لوحت وجوههم الشمس وشدت أجسامهم
لوافح الهجير فأسسوا وبنوا وخططوا وهندسوا وزرعوا وأفادوا وكان الفرات
يداعب أقدام العرب في الحيرة والانباء ويستمع الى قصائد النابغة وعمرو
ابن كلثوم والحارث الشكري •

ثم جاءت القافلة الثانية تحمل علم الاسلام لتقيم في الارض الخضراء
حضارة جديدة في العلم والعمل وأسست الكوفة والبصرة وسار العلم
والعمل في تلك المعاهد والصفاف جنبا الى جنب ثم أسست مدينة واسط
بين الكوفة والبصرة لتسهم بنصيب من العلم والعمل ثم قامت بغداد على
دجلة فشغلت التاريخ وماجت بالعقول المبدعة المنشئة ونشطت المدرسة
الاسلامية العربية تعطى وتأخذ وتمد أشعتها في مسافات بعيدة من دنيا
المسلمين ودونت الكتب في الدين والعقائد والمناظرات والفلسفة والادب
والتاريخ واللغة وتعددت دواوين الشعراء ومجاميع النثر وألف للجسم ما
ألف للعقول والقلوب وبقي كل شيء من ذلك ميراثا للأجيال يتحدث به
الغادي والرائح والمقيم والراحل والعربي والاعجمي •

وانطوى عصر بغداد بين الفتن والحروب والخصام على الدين والملك
وتشتت العلماء والشعراء وهاجر الكثير منهم الى حيث يكون الامن
والاستقرار ، وتحولت الارض الخضراء الى رمال وسهول خالية وجفت
الانهار والجداول وانقطعت صلة الكثير منها بالرافدين الكبيرين بعد أن
ردمت الصفاف وتلاقت الرمال والحواشي وبقي الفرات ودجلة وحدهما
يضيقان بالتيار فيقذفان به على الرمال والسهول ليغرق ويدمر ويشرد ويهدم
حتى تحولت المدن الى قرى والقرى الى أطلال ومعالم !!

وتبع ذلك كله ما كان لا بد منه نقص في الاموال والانفس والثمرات
وخوف واضطراب وحكومة تأتي واخرى تذهب ، وجيوش تعبر وتزحف
واخرى تنكسر وتنهزم ، وحروب تشغل الناس والتاريخ ، واخرى ينتظرها
الناس والتاريخ ، وجنس يصارع جنسا ولسان لا يعرف لسانا ، وبقايا
رواسب تخفي تحت الاحجار والاطلال كأنها بذور قديمة سقطت من قافلة

عابرة تنتظر الظل فتخضر بلا رعاية وتتمو بلا ثمر •

واستسلم العراق لعصر مظلم لا يرى فيه من خلال الكوى الضيقة
غير شعاع ضئيل كأنه بصيص يتراقص على أمواج البحر من بعيد فيلوح
للسفينة المضطربة حيناً ويختفي أحياناً آخر •

ومنذ عصر المغول حتى بداية القرن التاسع عشر كان العراق غير
العراق الاسلامي أو العباسي وكان العلم فيه ترديدا للصدى وترجيحا للنعيم
ولكن في حناجر ضيقة وعلى أوتار رخوة تختلط فيها الاصوات وتتطلق من
غير انسجام ولا ايقاع •

وبقيت بغداد معبر القوافل وقنطرة المسافرين تعتمد في مدارسها على
الجوامع المتأكلة وفي دروسها على السطوح والشرفات لا الاسس والدعائم
وفي علومها على ما كان يلقيه الملقنون لا الشراح والمفكرون • وفي شعرها
ونثرها على الخليل من سمين معاد وهزيل مستحدث • وتلاقت اللغات
الاربع من تركية خالية الا من التراكيب الثقيلة وفارسية لا يفهمها الا
القليل وكردية تدمدم بين الجبال وعربية تصارع من غير قوة الا ما كان لها
من قداسة القرآن وشرف الحديث وجمال الشعر •

ونسيت الموصل - أو كادت تسي - ما لها من تراث عريق فشغلتها
الحياة والسياسة المضطربة عن الانتاج والابداع وفتحت أبوابها للقوافل من
الشرق والغرب عابرة أو مقيمة • ومثلها مدينة البصرة فقد أفقرت هذه من
أناشيد المربد وروائع الجاحظ وفلسفة اخوان الصفا •

ولكن الخيط الدقيق بقي متماسكا بين العواصف والغيوم فلم تخل
هذه كلها من صلة تربط الحاضر بالماضي وتدافع عن لغة القرآن والحديث
وكان لا بد أن تبقى الصلة ما دام الغزاة الفاتحون يدعون الاسلام ويحكمون
باسمه فحافظ الفقه على طريقته وبقى التفسير على سجيته ولكنها طريقة
التقليد وسجية النقل ، واندثرت واسط. بعد أن شغلت جانبا من جوانب العلم
حتى العصور المتأخرة فطويت بين الرمال والصخور •
وبقي الخيط الدقيق يربط الحاضر بالماضي في أساليب الشعراء المتكلمين في

بغداد والموصل والبصرة ، ولكن النقل قد وجد مستقرا في مدينة الحلة^(١) على الفرات ففتحت هذه المدينة أبوابها لابناء العرب يتدارسون العلم واللغة والادب وتخرج فيها مئات من العلماء ونبغ فيها عشرات من الشعراء لم يكن صفى الدين الحلي بأكبر منهم شأنًا ، واستمرت هذه المدينة متسمة بطابع العلم والشعر لم تفتقر ولم تقصر طوال القرون المظلمة .

وكانت مدينة النجف الى جانبها على مسافة قليلة من ضفة الفرات الغربية موطن العلماء ومناجاة الدارسين من مختلف الاقطار وقد بدأت نهضتها العلمية في منتصف القرن الخامس للهجرة واستمرت في هذه السبيل طوال الفترة المظلمة ، وكان لمدينة كربلاء نصيب من العلم والادب ولكنه جاء متأخرا كما كان مزوجا باللون الفارسي الوافد من ايران ، وكان لأربيل وشهرزور في الشمال حظ من دراسة الفقه وغيره من العلوم الاسلامية .

نصيب الدولة من العلم والادب :

ليست تلك المقدمة الوجيزة الامفتحة لدراسة الحالة العلمية خلال القرن التاسع عشر ودراسة هذه الناحية في العراق تقتضى الاشارة الى مقدار اهتمام الدولة العثمانية نفسها بالعلوم والثقافات الاسلامية على الاخص ، والاشارة هنا لا تستلزم التفصيل أو تناول الجزئيات بل يكفي منها بالمظهر العام .

أسست الدولة العثمانية سلطاتها باسم الاسلام وتوسعت فتوحاتها بصيغة الخلافة الاسلامية وكان عليها أن تنظر الى مقومات الناحية الدينية من العلوم الاسلامية وأن تعطى هذه الناحية ما تستحق من العناية غير أن انشغالها بالحروب الكثيرة وتعصبها للغة التركية حال دون الوصول الى أية غاية مطلوبة من العلم فقد كان بعد الاتراك عن اللغة العربية وعدم فهمها حاجزا من الحواجز التي حالت بينهم وبين الاطلاع على أسرارها ، وما فهم

(١) أسس مدينة الحلة الامير سيف الدولة صدقة بن منصور الاسدي سنة ٤٩٥هـ .

اللغة الا مفتاح لفهم علومها وآدابها ، لذلك لم تكن الجهود العلمية التي بذلت الا جهودا سطحية وقد انحطت فيما بعد ذلك أشد الانحطاط وبقيت المدارس القديمة تضم بين جدرانها أشباه الاميين ، ولم تكن المدارس الدينية فى الاناضول والاساتنة والروم أبلى الا صورة من صور انحطاط فلم تخرج الا تلاميذ مبتدئين يتولون الوظائف الدينية أما العالم الكبير منهم فانه لا يحسن غير النقل والاختصار والجمع مع ركافة أعجمية بادية^(٢) ، وكانت الوظائف الدينية لا توجه الا بطريقة الارث من الاب الى الابن ولو لم يكن له نصيب من العلم بل كانت توجه الى الصغار من أبناء المتوفين رعاية الى مكانة آباؤهم حتى صارت هذه الوظائف وقفا على بعض الأسر لا تتعدها^(٣) الى غيرها ، وقد سيطر الجهل والتعصب على من يدعون العلم فى الاساتنة حتى صاروا يفضون كل من يرد على بلدهم من الافضل وان كان نبيا ٠٠٠ وكانت رؤية العالم العربى فى أعينهم الموت الاحمر^(٤) . أما الطلبة فقد كانوا مقصرين بل كان الدرس يختم والكثير منهم نائم ، وكان معظم المدرسين فى غاية الاستكبار والانانية ومثلهم الوعاظ الذين لا يقابلون بغير الضحك من المستمعين^(٥) .

وبقيت المدارس الدينية على حالتها من الانحطاط وعدم النظام وقد شعرت الدولة فى أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر بضرورة الاخذ بالنظم الحديثة غير انها لم تفكر باصلاح المعاهد القديمة بل تركتها وشأنها وأنشأت معاهد جديدة مستقلة ولكن انشاء هذه المعاهد كان بدافع عملى لا منطقى اذ بدأت باشاء المدارس العسكرية من عالية ثم اعدادية فرشدية وكانت المدارس العالية فى العاصمة وحدها أما الاعدادية والرشدية فلمراكز الولايات نصيب منها ثم انشئت بعد ذلك المدارس المدنية للهندسة

-
- (٢) الاسلام والحضارة العربية ص ٣١١ من الجزء الاول .
 (٣) المصدر السابق ص ١٥ و ١٦ من الجزء الثانى .
 (٤) غرائب الاغتراب ص ١٦٩ .
 (٥) راجع : المصدر السابق ص ١٧٣ .

والطب والصناعة والزراعة والتعليم والحقوق والادارة والسياسة والقضاء والتجارة^(٦) وكان التعليم فيها كلها باللغة التركية ثم الفرنسية •

أما الادب التركي فانه كحضارة الترك مستمد من الفرس فأوزان الشعر مأخوذة من العروض الفارسية ومواضيعه أكثرها صوفى دينى ، والنثر كان متكلفا ضعيف النسيج^(٧) ولم يتطور الادب التركي الا فى القرن التاسع عشر بعد أن اتصل بالآداب الاوروبية وتأثر بها عن طريق الدراسة والترجمة ونبغ فيه شعراء وكتاب^(٨) غير أن هؤلاء - على الرغم من اتصالهم بالثقافات الاجنبية - كانوا اذا عالجوا الموضوعات السياسية أو الاجتماعية فبالتمسح والاشارة لا بالصراحة والجرأة وكانوا لا يعرفون عن الدولة الا بالزهرة الذابلة والغادة المطروحة على سرير الموت^(٩) وان كان منهم من استطاع أن ينتقد بعض الاعمال التي لا صلة لها بالسياسة العليا •

الحركة العلمية فى العراق - المدارس العثمانية :

سار التعليم فى العراق ابان القرن التاسع عشر فى خطين متوازيين لا يلتقيان عند نقطة واحدة أولهما الخط الذى رسمه الاتراك لتعليم بعض العراقيين وثانيهما الخط الموروث الذى حافظ عليه العراقيون أنفسهم بقدر

(٦) راجع - حولية الثقافة العربية - ص ٤ - ٧ •

(٧) راجع (تاريخ الاتراك العثمانيين - ص ٢٨ و ٢٩ ج ٣ •

(٨) منهم عاكف ورشيد وشناسى منشىء جريدة (تصوير أفكار) وقد توفي سنة ١٨٧١م ومنهم محمد نامق كمال المتوفى سنة ١٣٠٦هـ وكان شاعرا وكاتبا ، والروائى المشهور حامد عبدالحق ، والشاعر المعروف توفيق فكرة ، والكاتب أحمد مدحة الذى صحب الوالى (مدحة) وحرر فى جريدة (الزوراء) البغدادية وكان من الموجهين الى الثقافة الفرنسية وقد حرر بعد عودته الى الاستانة فى جريدة (بصيرت) وانتقد الوالى مدحة وسياسة التعليم فى العراق (راجع عنه (الزوراء) العدد ٢٢١ س ٣ و (دائرة المعارف الاسلامية) ص ٤٩٨ - ٤٩٩ من المجلد الاول • ومنهم الوزير أحمد جودة المتوفى سنة ١٣١٢هـ ١٨٩٥م وكان مؤرخا معروفا وشاعرا بالفارسية والتركية والعربية (مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر ص ١٦٨ - ١٧١ ج ٢ ط ٣) ومن المتأخرين الدكتور رضا توفيق الفيلسوف •

(٩) تاريخ الاتراك العثمانيين - ص ٢٧ ج ٣ •

ما يستطيعون من المحافظة ، وما رسمته الدولة كان معولاً أراد هدم اللغة العربية وتراثها فلم يأت بأكثر من تخريج موظفين جهلة ، وقد أردت أن أبدأ بعمل الدولة فأصفه بإيجاز لانه شيء تافه لا أثر له في تكوين عقلية علمية أو خلق احساس أدبي ولانه جزء من عمل الدولة في عاصمتها وفي الولايات التابعة لها .

عندما انتهى عصر المماليك الذين أرادوا الاستقلال بالحكم في العراق وجاء الولاة الاتراك يتعاقبون من قبل السلطان تغير الاتجاه وتحولت السياسة العثمانية الى جعل العراق تركيا بلغته وتفكيره وقطع الصلة بينه وبين ماضيه العربي فتركوا المدارس القديمة تسير كما كانت بل أهملوا منها ما كان ذا أثر كبير في العصور السالفة^(١٠) ، وأخذوا ينشئون مدارس تركية في بغداد وغيرها ولكن هذا العمل لم يبدأ الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بعد أن أسست المدارس الحديثة في الاستانة وبعض الولايات الاخرى فقد أنشئ (مكتب رشدي)^(١١) في بغداد في أيام الوالي محمد نامق في ولايته الثانية (١٢٧٧-١٢٨٤هـ ١٨٦٨-٦٦م)^(١٢) ثم أسست ثانوية للبنين عام ١٨٧٠م في عهد الوالي مدحة وتبعتها مدرسة للصناعة ، وفي عام ١٨٩٨م أنشئت ابتدائية للبنات وتبعتها ابتدائيات اخرى في الالوية . وفي الموصل أسس مكتب رشدي سنة ١٨٦٦م وبقي وحده حتى سنة ١٨٩٠م^(١٣) . وكان الاهتمام بالتواحي العسكرية في مقدمة العمل المدرسي فقد أنشأ مدحة في بغداد ثانوية عسكرية سنة ١٢٨٨هـ ١٨٧١-١٨٧٢م ، ومما يجب ذكره أن الحكومة المحلية أخذت تحت في أواخر القرن التاسع عشر على التعلم وتدعو السكان للتبرع لانشاء مدارس في الاماكن التي يسكنونها^(١٤) غير أن هذه

(١٠) من ذلك اهمالهم المدرسة المستنصرية وجعلها مخزناً للملابس العسكرية ثم دائرة للمكوس .

(١١) المكتب الرشدي يعنى المدرسة الابتدائية .

(١٢) راجع (الزوراء) العدد ٥٨٥ من السنة السابعة .

(١٣) تاريخ الموصل ص ٢٢٢ ج ١ .

(١٤) الزوراء - العدد ٤٣١ من السنة الخامسة والعدد ٦٠٣ من

السنة السابعة .

الدعوة لم تجد مجالا واسعا ما دام معظم السكان فقراء وما دام التعليم يجرى بلغة غير لغتهم . أما الطلاب الذين كانوا يرتادون مدارس الحكومة فان معظمهم من أبناء الموظفين الاتراك لان القليل من السكان من كان يرغب في التعلم ولان المواد التي كانت تدرس انما تدرس باللغة التركية حتى النحو والصرف والمنطق والجغرافيا والحساب ، وكان التدريس منحطاً والنظام أجوف والمدارس غير كافية والمعلمون ليست لديهم ثقافة صحيحة^(١٥) وكانت المواد غير مفهومة بل كان المدرسون والمعلمون جهلة سيئى الاخلاق ، وكان الطلاب يتخرجون ولا يعرفون الكتابة حتى باليسير من اللغة العربية^(١٦) وقد بلغ الشأن بأحد كتاب الاتراك أنفسهم أن يثور على التعليم الحديث في العراق وأن يصف المعلمين بأنهم جهلة لا يساوون حتى كتاب العرائض وكان يفضل مدارس اليهود ويحث المسلمين على ادخال أبنائهم فيها^(١٧) . وبالرغم من أن الدولة كانت تعلن أن تربية الاطفال ونشر المعارف المهمة (ملتزمة) لدى (الجناب العالى) وكل نوع من السكان والاتباع سواء لدى السلطان^(١٨) !! أقول بالرغم من كل ذلك كانت المدارس لا تفتح أبوابها لكل من يرغب فقد كان الشيعة وهم أكثرية السكان لا يلقون تشجيعا في تعليم أبنائهم^(١٩) .

وقد اهتم اليهود ازاء هذا التعليم المنحط بتأسيس مدارس لابنائهم وبناتهم فأسسوا أول مدرسة يهودية في بغداد عام ١٨٦٥م بأشراف الحلف العالمى اليهودى^(٢٠) ثم أسسوا مدارس الاتحاد (الاليانس) واستقدموا لها

(١٥) العراق - دراسة في تطوره السياسى - ص ٨٨ الترجمة العربية .

(١٦) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٣٠٢ .

(١٧) هو الكاتب (أحمد مدحة) . من مقال له في (بصيرت)

التركية . راجع عنه الزوراء العدد ٢٢١ من السنة الثالثة .

(١٨) منقول ببعض التصرف من الزوراء العدد ١٩٢ من السنة الثالثة

١٢٨٨هـ .

(١٩) العراق - دراسة في تطوره السياسى - ص ٨٨ .

(٢٠) Baghdad the city of peace. p. 242.

أساتذة من أوروبا^(٢١) وجمعوا المال المطلوب لتمشية هذه المدارس واهتموا بتعليم الفرنسية والفارسية والعربية والتركية^(٢٢) الى جانب المواد الأخرى . وكان المسيحيون مثلهم في العناية بأبنائهم من لدن المبشرين الأمريكيين والفرنسيين والانكليز وكانت مدارسهم بالموصل^(٢٣) وبغداد عامرة بتدريس العلوم واللغات الى جانب اللاهوت والديانة المسيحية . أما المسلمون فقد بقوا في جهلهم وانحطاط مداركهم ، وكانت القبائل أشد السكان انحطاطا وجهلا حتى بمبادئ القراءة والكتابة .

وفي سنة ١٩٠٠م كانت نسبة المتعلمين تتراوح بين الخمسة والعشرة بالمائة^(٢٤) ، وإذا قلنا ما تقوله المصادر الحكومية آنذاك فيمكننا أن نقول : ان ما يقرب من ثلثي الأهالي كانوا لا يعرفون قراءة ولا كتابة^(٢٥) لذلك كانت نسبة المتعلمين في غير المسلمين أكثر منها في المسلمين^(٢٦) وقد أدى هذا الى رسوخ اللهجة الدارجة بين السكان^(٢٧) واتخاذها لغة التخاطب والحديث بل لغة بعض المؤرخين وكثير من الشعراء وكانت في بغداد وبعض المدن ممزوجة بكلمات أجنبية كالتركية والفارسية بل كانت اللغة التركية

(٢١) الزوراء - العدد ٢٢١ من السنة الثالثة .

(٢٢) المصدر السابق - العدد ٥٨٥ من السنة السابعة .

(٢٣) ان المرسلين الدومنيكين قدموا الى الموصل سنة ١٧٥٠م ١١٦٤هـ باجازة من البابا مندكتس الرابع عشر واسسوا مطبعة سنة ١٨٦٠م ١٢٧٦ = ١٢٦٧هـ لطبع الكتب المدرسية بالعربية والكلدانية والفرنسية وفتحو مدارسهم لمختلف الطوائف . وكان للراهبيات المعروفات بأخوات المحبة أثر في تعليم المرأة بالموصل اذ فتحن مدارس للاناث سنة ١٨٧٣م وكن يقبلن المسلمات كالمسيحيات . راجع - تاريخ الموصل ص ٢٢٣ - ٢٢٥ ج ١ . وراجع أيضا عن الطباعة في الموصل مجلة (لغة العرب) ج ٣ و ٤ و ٥ من السنة الرابعة و ج ٩ من السنة الخامسة .

(٢٤) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٣٠٢ .

(٢٥) الزوراء - العدد ٥٦٩ من السنة السابعة ١٢٩٢هـ .

(٢٦) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٣٠٢ .

(٢٧) كانت عامية العراق أقدم من هذا العصر وهي تختلف باختلاف المناطق غير أن السكان يفهم بعضهم بعضا فيها وان اختلفت في بعض الكلمات والاصوات .

في بغداد أكثر ذيوغا من العربية العامية وان كان كل منهما رديئا^(٢٨) أما المصطلحات المهنية فان أكثرها خليط من التركية والفارسية وكان سكان المدن أكثر من غيرهم تقبلا لهذا الدخيل بحكم الاختلاط والاتصال بالسيادة العثمانية .

المدارس القديمة :

اذا كان ثمة فضل على اللغة العربية في بقائها وسيلة من وسائل التأليف والنثر والشعر في العراق فانما هو للمدارس القديمة التي بقيت تصارع الجهل والعجمة من كل جهة ، والبحث في هذه المدارس من كل نواحيها أمر ليس بالسهل المستطاع لانها كانت موزعة في الموصل وبغداد والنجف والحلة وكربلاء والكاظمية والبصرة وسامراء وكانت في مناهجها غير المنظمة مختلفة باختلاف الحاجة اليها وباختلاف البيئات والمذاهب ومثل هذا العمل يحتاج الى دراسة موضوعية ليس هذا مكانها غير أن عرض أهم الجوانب في هذه المدارس شيء لا بد منه لبيان القيم العلمية والادبية التي تتصل بالبحث .

تبدأ المدرسة القديمة بتعلم القرآن وأكثر ما يكون هذا لدى الكتائب ثم تعلم الخط ولو بأبسط أشكاله ، واذا كان تعلم القرآن موجودا في القرى والارياف ولو بقله وندرة فان الدراسات التي تليه تكاد تكون محصورة في المدن وفي طبقات خاصة من سكان المدن كالاسر الدينية وبعض التجار ومن يفد الى المدن من القرى والارياف أو من خارج العراق بغية الافادة من العلوم الدينية ، وكانت المدارس القديمة في مناهجها وطرق التدريس فيها لا تعدو تلك التي أنشئت قديما في العصور السابقة . وكانت المباني ليست الا ما بقي من القرون الماضية أو الذي استحدث في القرن التاسع عشر من قبل الموسرين وذوى البر الى جانب المساجد التي كانت ملتقى كثير من الطلاب ، وكانت هذه المدارس والمساجد التي شهدت حلقات الدرس منتشرة

Baghdad the city of peace. p. 242. (٢٨)

في بغداد والموصل والتنجف والحلة وكر بلاء والكاظمية وسامراء والبصرة ولكنها كانت تختلف قوة وضعفا فهي في بغداد والموصل والتنجف والحلة أقوى منها في بقية المدن وكان الطلاب يصبحون وقد يمسون في هذه المدارس والمساجد ليستمعوا الى ما يناسب عقولهم ومداركهم ، وقد تضم المدرسة والمسجد أكثر من حلقة واحدة يرأسها استاذ يلقى ويفسر ويشرح ويستمع الى استيضاح أو مناقشة .

وكان الطالب يبدأ بدراسة النحو والصرف ثم المنطق فالاصول فالفقه لذلك كان يتلقى هذه العلوم على أساتذة مختلفين في الغالب ، وقد يتصدى الاستاذ الواحد لتدريس هذه العلوم ويحضر لديه طلاب مختلفون في أوقات مختلفة . وكان في المدن الشيعية ما يسمى بالبحث الخارجى في الاصول والفقه وهو أشبه شيء بمحاضرة يلقيها أحد الاساتذة الكبار أو المجتهدين على حلقة كبيرة من طلابه فيشرح مادة أو أكثر ويستمع الى نقاش الطلاب معه فيؤيد أو يفند ، وهذا البحث لا يحضره الا من فرغ من دراسة كثير من الكتب في النحو والمنطق والاصول والفقه وصار أهلا لمثل هذه البحوث الخارجية . وقد يكون طالب البحث الخارجى استاذاً لمن دونه وهكذا . وكانت أمكنة الدرس والبحوث ليس فيها استعداد من كتب أو أفرشة سوى ما تحويه المساجد من الحصر وما يشبهها . أما المذاكرة والتحضير فانهما ضروريان للطالب التابه قبل الدرس وبعده فلا يحضر الا أن يكون قد استوعب الدرس السابق وأعد العدة للدروس الجديد . وكانت حياة الطلاب - الا القليل - حياة قاسية خشنة وكان معظمهم يقيم في حجر أعدت لهذا الشأن في المدارس القديمة أو التي استحدثت أما وسائل الراحة فهي مفقودة لدى الكثير منهم ، ولم تكن مصادر العيش غير دراهم من وقف أو زكاة أو ما يرسله أهل الطالب اذا كان وافداً من مكان بعيد وكان أهله قادرين على اعانتة ، أو ما يوزعه ذوو اليسار ، وقد يستعين الطالب أو العالم الشيعى بعشيرته أو قريته فيذهب في الموسم - اذا كان من أهل القرى والارياف - ثم يعود الى الدراسة بعد أن يزود بشيء من مال الزكاة قد

لا يكفى حاجته ، وقد يجد الطالب فى عيشه مشقة تعرضه للاستعطف والاستجداء .

مراجع الطالب :

لا يشك أحد فى أن أهم مصادر الدراسة والثقافة وجود الكتب مسيرة سهلة التناول لمن يشاء ، وفى الحق أن العراق كان غير فقير من هذه الناحية - وان كانت حاجته الى الكتب تزيد عما فيه منها - فقد كانت مساجد بغداد ومدارسها الشهيرة غير خالية من عشرات المخطوطات النافعة وكانت فى النجف مكتبة ثمينة فيها بضعة آلاف من المخطوطات وهى من أوقاف الضريح العلوى ولم تخل كربلاء والحلة والكاظمين والبصرة من أنواع المخطوطات كما كان فى الموصل مثل ذلك وكان الكثيرون من رجال الدين فى المدن التى أشرنا اليها معنيين بجمع الكتب ولكن هذه كلها كانت غير مسيرة لطالب العلم فقد كان يحال بينه وبينها فى الاغلب ولا يسمح له أن يستعير وقد يتعذر عليه نسخ ما يحتاج اليه واذا استطاع ذلك فقد يخطئ فى الاستنساخ وقد يضطر الى مشاركة رفيقه فى كتابه . أما الوراقون والنساخون فقد كانوا قلة نادرة ولم تكن ثمة أسواق أو أماكن عامرة يرجع اليها طالب العلم فيشتري منها ما يحتاج واذا وجدت هذه الاسواق والاماكن فليس للطالب قدرة على استنساخ أو شراء . أما الكتب المطبوعة فانها لم تعرف الا فى أواخر القرن التاسع عشر وكان بعض هذه الكتب يؤتى به من الاسنانة ومصر والشام وايران والهند وهذه أيضا كانت قليلة لا يستطيع اقتناءها الا ذوو اليسار من رجال الدين وأمثالهم . وعلى الرغم من وجود الطباعة فى العراق منذ أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر^(٢٩) لم تكن ثمة طلائع تبشر بحركة طبع ونشر يستفيد منها العراق فقد كانت مطبعة الدومنيكيين فى الموصل لا تعدو ما يفيد المسيحيين من الكتب ، وكانت مطبعة الحجر فى كربلاء

(٢٩) انشئت المطابع فى الموصل وكربلاء سنة ١٨٥٦م وفى بغداد على أشهر المصادر سنة ١٨٦٩م .

لا تستطيع أن تهض بأى عبء من أعباء النشر ، أما مطبعة الحكومة في بغداد فانها كانت مشغولة بطبع الجريدة الرسمية . وفي مثل هذه الظروف القاسية كانت الدراسة تشق طريقها وتلمس أسباب البقاء والانتشار وتذلل المصاعب بالقليل من الزاد والكتب وتعتمد - فيما تعتمد عليه - على الذكاء الموروث والقابليات النشطة .

اختلاف المناهج وتنوع الدراسات :

شاهد القرن التاسع عشر في العراق مدرستين هما امتداد للعصور السالفة وأعنى بهاتين المدرستين مدرسة الشيعة الامامية ومدرسة السنة وكانت قاعدة الاولى مدينة النجف وفروعها القوية في الحلة وكربلاء والكاظمية وسامراء ، وصدى غير قليل في بغداد والبصرة أما الثانية فقد كانت قاعدتها بغداد ولعلها في الموصل لا تقل شأنًا عما كان لها في بغداد ، وفي ظل هاتين المدرستين حافظت العلوم العربية والدينية على ما بقى لها من تراث قديم على الرغم من وقوعها بين تيارات أجنبية تجذبها ذات اليمين وذات الشمال . وكان اتفاق المدرستين في بعض المناهج يقابله اختلافهما في بعض المناهج الاخرى فقد كان الاتفاق في النحو والصرف والمنطق والبيان وما يتصل باللغة والادب ، وكان الاختلاف في الفقه والتفسير والحديث والكلام وما يتصل بالعلوم الدينية فالسنة لا يعولون في النواحي الدينية على غير ما أثر عن طرفهم ، والشيعة لا يأخذون بغير ما صح عن آل البيت عن طرفهم أيضا . واستمرت هاتان المدرستان في طريق التقدم والنشاط وقد كانت بداية القرن التاسع عشر بداية كريمة استطاعت فيها الخطا أن تتسع وقد صادف هذا التقدم رعاية من بعض الولاة في بغداد وعناية من الولاة الجليلين في الموصل وتشجيعا من أغنياء الشيعة ورؤسائهم في العراق وايران والهند لمدارس النجف وكربلاء والكاظمين وبقيت المدرسة السنية في بغداد والموصل بعد نهاية المالك والجليلين مستمرة على سيرها العلمي معتمدة على الاوقاف ما قدم منها وما استجد ، واستمرت المدرسة الشيعية في سيرها العلمي معتمدة على الخيرات والحقوق الشرعية التي ترسل الى المجتهدين

من داخل العراق وخارجه ، ولم تكن الاوقاف هناك ولا الخيرات والهبات
والحقوق هنا لتسد عوز الطلاب فقد كان أكثرهم يعانى مرارة العيش وعسر
المورد وكان بعضهم قد لا يجد قوت يومه بل كان بعض رجال الدين الكبار
فى بغداد معرضا للفاقة الشديدة عندما يفضب عليه الوالى فيسلب منه الاوقاف
ووظيفة التدريس أو الخطابة • ومثل هذا قلما يحدث للمجتهد الشيعى لانه
غير خاضع لنصب أو عزل من قبل أية سلطة • ومع كل هذا كانت الدراسة
نشطة وكان الأقبال عليها يزداد سنة بعد اخرى وكانت النجف وغيرها من
المدن الشيعية المقدسة مثابة لمئات الوافدين من داخل العراق وخارجه وكان
هؤلاء يفتدون للدراسة حتى اذا تزودوا منها عادوا الى مواطنهم لنشر التعاليم
الدينية وقد يبقى بعضهم لينال درجة الاجتهاد • غير أن عدم التنظيم فى
المناهج وعدم الرقابة والامتحان فى الدروس الى جانب الفقر الذى كان
يتعرض له كثير من الطلاب كان كل ذلك يحول دون مواصلة الدراسة
لاغلب المنتظمين فى هذا السلك فقد كان هؤلاء يقف بهم التحصيل عند
المبادئ القليلة وكان بعضهم يصل الى درجة لا بأس بها من العلوم الدينية
فيعود الى المدينة أو القرية التى جاء منها ليقوم بنشر الدين وأحكامه وقليل
من هؤلاء من أتاحت له الفرص لمواصلة الدراسة فى كل أنواع العلوم
والفنون المعروفة ، وقليل منهم من وصل الى درجة تهىء له قابلية التأليف
والابتكار أو اضافة شىء جديد الى القديم المعروف •

ولقد كان التخصص مفقودا أو فى حكم المفقود الا فى الفقه والاصول
فان العلوم اللسانية لم تكن فى الحقيقة الا وسائل يصل بها طائب العلم - أو
يحاول الوصول - الى الغاية التى درس من أجلها وهى الفقه على الاكثر ،
لذلك كان الفقهاء أكثر من اللغويين والنحويين ولذلك كثر المجتهدون فى
المدن الشيعية والفقهاء فى بغداد والموصل وقل المنصرفون الى الدراسات
العربية فى اللغة والنحو والصرف والبيان والادب الا ما كان جمعا أو تعليقا
أو شرحا مبسطا أو تأليفا ليس فيه من الجودة والطرافة ما يعنى عن
المصادر القديمة •

أما التاريخ الاسلامي القديم فقد كان الاطلاع عليه في حدود يسيرة
 الا ما كان من تاريخ النبي وغزواته وتاريخ آل البيت ، وقد اهتم بعض علماء
 بغداد والاكراذ (٣٠) بالنواحي الصوفية فكتبوا عن مشايخ الطرق وأربابها
 وأغرقوا في تراجمهم وكراماتهم . ولكن هذا كله لا يعني أن العراق في
 القرن التاسع عشر لم يأت بجديد فقد كان حافلا بعشرات من الفضلاء
 وكانت شهرته بعلمه وأدبه - ولاسيما الفقه والشعر - أوسع انتشارا وذيوعا
 منها في القرون السالفة التي خضع فيها للحكم العثماني غير أن من رجال
 العلم من اتخذ الدين وسيلة للدنيا وجمع المال ومنهم من كان اصبعا تحركها
 الدولة للشعب على السكان ومنهم من بنى وشيد وتملك الضياع والبساتين
 وتملق الحكومتين العثمانية والایرانية وهؤلاء لا يزال أبنائهم يبرون
 ما تركوه لهم في بعض مدن العراق (٣١) .

التأليف وأهم المؤلفات :

لعل فيما قدمته من هذه الدراسة ما يكشف عن نواحي التأليف في
 العراق ويوضح الخطوط العامة التي سلكها المؤلفون وقد كان للحاجة أثر
 كبير في توجيه رجل الدين وغيره الى الانتاج والكتابة فقد كان للفقه أولوية
 على كل شيء وكان لكل مجتهد شيعي أو عالم من فضلاء السنة كتاب ديني
 قد يكون من وضعه وقد يكون - وهو الاكثر - شرحا لكتاب قديم ، ثم يأتي
 بعد ذلك في درجات مختلفة تناول العلوم والفنون الاخرى كالتفسير
 والحديث والرجال والاصول والعقائد والمنطق والبلاغة والادب والتاريخ
 والتصوف والفلك وما كان مألوفاً في الدراسات آنذاك . وقد كان من هذه
 الدراسات ما يعد أساساً كالفقه والاصول والتفسير ومنها ما يعد متمماً قد

(٣٠) في الاكراذ فضلاء يكتبون بالكرديّة والفارسيّة والعربيّة
 ولكن قابليّاتهم في التدريس ليست كغيرهم . راجع - مقامات الالوسي -
 ص ٢٥ - ٢٦ .

(٣١) تاريخ هؤلاء معروف لدى العراقيين ولكننا أضربنا عن التفصيل
 والتسمية لثلا نثير ما نحن في غنى عن اثارته .

لا تقتضيه الحاجة أحيانا ، وقد يكون من هذه المؤلفات ما يقصد به ارضاء السلطان أو الوالى ، وقد يكون منها ما يقصد به ارضاء عالم دينى أو شاعر أو وجيه من ذوى اليسار ، أما الكتب التى تمثل الخصومات الدينية والمذهبية فقد شهد القرن التاسع عشر كثيرا منها .

ولعل ظاهرة المؤلفات الدينية لا تقل عنها ظاهرة المؤلفات الادبية وهى مؤلفات لا تعدو الجمع من القديم والحديث وتدوين آثار الشعراء وجمع القصائد التى تقال فى مدح عالم أو وجيه متنفذ أو رثاء أحد هذين . ومن أهم المؤلفات التى ظهرت فى هذا القرن كتاب « روح المعانى فى تفسير القرآن والسبع المثانى » للسيد محمود شهاب الدين الالوسى^(٣٢) المعروف بأبى الثناء وهو مأخوذ عن تفسير الامام فخرالدين الرازى مع حذف وازافة وأخذ كثير من تفاسير المتصوفين وقد طبع فى مصر سنة ١٣٠١هـ . وكتاب « جواهر الكلام فى شرح شرائع الاسلام » للشيخ محمد حسن صاحب الجواهر المتوفى سنة ١٢٦٦هـ فى النجف وهذا الكتاب من أمهات كتب الفقه عند الامامية أما الاصل فهو للعالم الحلى المشهور جعفر بن الحسن الهذلى المعروف بالمحقق المتوفى سنة ٧٢٦هـ . وكتاب (الفصول فى علم الاصول) للشيخ محمد حسين بن عبدالرحيم المتوفى سنة ١٢٦١هـ وهو من علماء كربلاء . وكتاب (ايضاح الكلام فى شرح شرائع الاسلام) للشيخ عبدالحسين الطريحي النجفى أما الاصل فهو للمحقق الحلى مار الذكر غير أن هذا الشرح لم يشتهر كشرح صاحب الجواهر الذى سبق ذكره . ومنها كتاب (متن المقال فى أحوال الحديث والرجال) للشيخ الطريحي أيضا . وكتاب (كشف الطرة عن الغرة) لأبى الثناء الالوسى وهو اختصار لدرة الغواص وشرحها وقد طبع بمصر سنة ١٣٠١هـ . وكتاب (شرح البرهان فى اطاعة السلطان) للالوسى أيضا . وكتاب (شهى النعم فى ترجمة شيخ الاسلام وولى النعم) للالوسى أيضا وقد ترجم فيه للشيخ عارف حكمة شيخ الاسلام فى الاستانة .

(٣٢) ألفه بطلب من الوالى على رضا اللاظ .

وللالوسى رحلات وكتب اخرى اعتمدنا عليها فيما اعتمدنا عليه من
المراجع . ومنها كتاب (مطالع السعود فى أخبار الوالى داود) للشيخ عثمان
ابن سند البصرى الوائلى وهذا الكتاب لا يزال مخطوطا فيه تاريخ وفيه شعر
للمؤلف نفسه وهو من أهم المراجع التى تتصل بهذا البحث . وكتاب (نزهة
الدنيا فى مدائح الوالى يحيى) لعبدالباقى العمرى وقد جمع فيه ما نظم
الشعراء فى مدح يحيى الجليلى والى الموصل .

ومنها كتاب (وشاح الرود والجواهر والعقود فى نظم الوزير داود)
للشيخ صالح التميمى ولكن هذا الكتاب قد اختفى مع كتابه الثانى المسمى
(شرك العقول فى غريب المنقول) الذى أرنخ فيه اربعين السنة الاولى من
القرن الثالث عشر للهجرة .

ومنها كتاب (العقد المفصل) للسيد حيدر الحلى وهو على غرار الامالى
وقد ألفه لصديقه العالم الشاعر الحاج محمد حسن كبة أحد تجار بغداد
وقد طبع هذا الكتاب فيما بعد سنة ١٣٣٢هـ فى بغداد . و (دمية القصر)
للمؤلف نفسه . ومن كتب العقائد كتاب (النفحات القدسية فى الرد على
الامامية) لابي التناء الالوسى .

وقد شاع فى هذا العصر شرح القصائد الدينية والصوفية وممن اشتهر
بذلك أبو التناء الالوسى فقد شرح لعبدالباقى العمرى قصيدة فى مدح الامام
على واخرى فى مدح الشيخ عبدالقادر الكيلانى ، وهذا الذى ذكرناه ليس
كل المؤلفات التى ظهرت فى القرن التاسع عشر أما دواوين الشعر فانها
كثيرة استعرضنا معظمها فى الباب الثانى من هذا البحث .

نثر المؤلفين والادباء :

ليس من الاجحاف أو الغبن أن نقول : ان النثر فى العراق كان
امتدادا لخط يبدأ أوله من عصر الانحطاط فلم يكن كل نثر قد طاوغته
الاداة ومكنه الذهن من تطويع المعانى . نعم كان فى العراق نثر علمى ألفت
به كتب الفقه والاصول والحديث والتفسير وأمثالها ولكن هذا النثر ليس

دليل الابتكار والتجديد لتظهر فيه الميزة الأدبية بل هو إعادة وتكرار للقواعد القديمة مع شيء من إضافات المؤلف ، والمفروض في النشر العلمي أن يخلو من المبالغات والخيال والزخرفة وأن يسلم من الأخطاء النحوية واللغوية لانه يتعلق بمسائل وأحكام يجب أن توضع في قوالبها الخاصة بها وأن لا يكون فيها زيادة أو نقصان . أما النشر الأدبي فإنه غير خاضع للقيود العلمية والمنطقية الا في حدود واقعه وصوره التي وضع من أجلها وهي تأدية الغرض والتعبير عن فكرة سليمة تعبيراً جميلاً مقبولاً ، ولكنه كالنشر العلمي في خضوعه لقواعد اللغة والنحو غير أنه لا يمتنع عن الخيال والعاطفة والمبالغات في حدودها المألوفة فلا اغراق ولا تهويل ثم هو في مقياسه الصحيحة ما كان بعيداً عن التكلف والزخرفة المصطنعة وعن استخدام فنون البديع استخداماً لا جمال فيه ولا فنية ، ومثل هذا النشر قلّ أن شهده القرن التاسع عشر في العراق بل قلّ أن شهد من سما بالاسلوب عن مستوى القاضي الفاضل وترفع به الى ابن العميد فلا ترسل في الاسلوب ولا دقة في المعاني وانما كان هدف الناثر أن يأتي بالاسجاع والفواصل وأن يجنس ويورى ويكثر من المترادفات وأن يزخرف ويلون وقد يأتي بأمثلة وشواهد من الشعر تتخلل نثره كأنه يكتب مقامة أو يضع خطبة . وحتى ذلك التاريخ القليل الذي كتب عن العراق كان خاضعاً للسجع والفواصل وعدم العناية بالحقائق التاريخية التي كان أكثرها يضع خلال الاسجاع والمبالغات^(٣٣) .

(٣٣) مما يمكن الحاقه بهذا النشر ما كانت تنشره جرائد الحكومة التي صدرت في أواخر القرن التاسع عشر وهي جريدة (الزوراء) وقد أنشأها الوالي مدحة وصدر العدد الاول منها في يوم الثلاثاء الخامس من ربيع الاول عام ١٢٨٦هـ الموافق للسادس عشر من حزيران عام ١٨٦٩م ، وجريدة (الموصل) وقد صدرت عام ١٣٠٣هـ ١٨٨٥م وجريدة (البصرة) وقد صدرت عام ١٣١٣هـ ١٨٩٥م وهذه الجرائد - ولاسيما الزوراء - كانت تراعى اللغة التركية الى جانب اللغة العربية الضعيفة بل كانت تطفئ عليها العامة المبتذلة الا القليل مما كتب في أواخر القرن التاسع عشر ، وقد ذكرت بعض النماذج مما كانت تكتبه جريدة الزوراء . راجع الحواشي ٧٩ و٨٣ و١١٠ من الفصل الاول .

ولم تكن موضوعات النشر على شيء من التجديد فيما هو معروف قديما فهي لا تعدو مقدمات الكتب وبعض دواوين الشعر والتقاريط والرسائل والرحلات والعرائض التي كانت ترفع الى السلطان والولاة والحكام في التماس شيء أو طلب منفعة ، ومهما يكن من شيء في أمر هذا النشر فإنه لا يعدم بعض الصور التي يمكن أن تؤدي وظيفتها في مجال النشر العام من حيث الاسلوب والموضوع وهو - على ما فيه من قصور عن اللحاق بالشعر - كان لا يعدم ألوانا من تصوير السياسة والمجتمع (٣٤) .

نهضة الشعر :

ان الادب العربي في نهضاته القديمة لم يكن وليد المصادفات بل كان وليد حركات قوية وملكات أصيلة وبيئات مهيئة فقد ساعد على نموه وتطوره خلفاء وملوك وأمراء ووزراء وساعد على نموه وتطوره مواهب فذة وعبقريات خلاقة مبدعة وبيئات تثبت المواهب وترهف الشعور وتغذي الاحساس وتنمي الملكات ، وتلاقى هذه الاسباب وغيرها فأنتجت أدبا عربيا خالدا لا يستغنى عنه ما دامت اللغة العربية قائمة حية ، وشعرا لا يمل ما دامت النفوس تهتز للغناء وتطرب للانشاد .

أما في القرن التاسع عشر فقد خلا العراق من خليفة يثيب أو أمير يهب أو وزير يرعى عدا ما سجله الثلث الاول منه لواليين من ولاة بغداد هما داود المملوك على ظلمه وتعسفه وعلي رضا على قوته وبطشه ، وعدا ما سجله أيضا للولاة الجليليين في الموصل ، أما في الثلثين الاخيرين فقد قل أن شهد العراق واليا أو حاكما قرب الشعراء وأنابهم الا القليل ممن كان الوقوف على أبوابهم مشوبا بكثير من الذل والاستعطف وقد ذهب هؤلاء وليس لهم أثر بارز في نهضة أدبية أو حركة علمية . والذي عرفناه من تاريخ القرن التاسع عشر في العراق أن أكثر الشعراء - ومنهم رجال الدين

(٣٤) راجع ما نقلناه من عبارات أبي الثناء الالوسي في الفصل الاول ص ٤٣ و ٤٤ .

البارزين - قد عاشوا في ضيق ونكد^(٣٥) ، وكان بعضهم يعمل في الاسواق للحصول على رغيف الخبز^(٣٦) ولم يدفعهم الى نظم الشعر غير حب الشعر وقد سجل الكثير منهم صوراً تمثل الى مدى بعيد ما كان يعانيه اولئك من شظف العيش وضيق منابع الرزق ومن ذلك قول السيد حيدر الحلبي أشهر شعراء الفرات آنذاك :

لا عدا ميسم الهجاء أناسا كان وسم المديح فيهم غريبا
صبغ الله أوجه البيض والصفير بحظ الذي يكون أديبا
كم أعارت محاسن الدهر قوما ملؤا عيبة الزمان عيوباً

وقوله :

وحسب نفسي وان أصبحت ذا عدم من تروة أنتى مر من الادب^(٣٧)

أما الاخرس البغدادي فقد أكثر في هذا الموضوع ومن ذلك قوله :

أسفا للشعر لا حظ له في زمان الجهل والقوم اللثام^(٣٨)

وقوله :

وأنفقت أيامي على غير طائل فلا منهلا عذبا ولا عيشة رغدا^(٣٩)

وقوله :

ومن ممرض الأيام مدحى عصابة بذلت يدا فيهم وما نلت اصبعاً^(٤٠)

ومثله السيد ابراهيم الطباطبائي فقد قال :

لقد قسم الله رزق الورى وقر بالرزق أقساميه

(٣٥) يقول أبو الثناء الالوسي بعد تخليه عن منصب الافتاء وانصرافه الى اتمام تفسيره معبرا عن عوزه : « حتى كدت أكل الحصير وأشرب عليه مداد التفسير ٠٠٠ » راجع (غرائب الاغتراب) ص ٢٥ .

(٣٦) راجع (نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر) للدكتور محمد مهدي البصير ص ١٣ .

(٣٧) ديوان السيد حيدر الحلبي ص ٦٩ و ١٠٣ .

(٣٨) الطراز الانفس ص ٣٤٩ .

(٣٩) من مجموعة للاخرس لم تنشر ص ٣٤ من نسختي الخطية .

(٤٠) الطراز الانفس ص ٢٥٢ .

وهل نأفئ أنتى شاعر تضر وتنفع أشعاريه
أديب وتدركنى حرفة الأديب فتعسا لأدائيه^(٤١)

أما السيد جعفر الحلبي فإنه يقول :

ملكتم فكرتى بكار المعانى والى الآن ما ملكتم كتابا^(٤٢)

ولعل الشاعر هنا لا يذهب بعيداً في خياله فيدعى أن الشعر كان يأتيه
وحياً والهاماً دون أن يقرأ كتاباً وإنما كان محتاجاً لا يستطيع أن يشتري
الكتاب ليقرأه فجمع بين الفخر بنفسه وبين واقع حياته .

وإذا عرفنا أن كبار الشعراء في القرن التاسع عشر كانوا لا يجدون
ما يكفيهم من وسائل العيش أدركنا تعليل تلك الظاهرة الأدبية التي بنت
على ضفاف الرافدين في القرن التاسع عشر ، وتعليل تلك الظاهرة لا يعدو
قوة الاستمرار وعامل البيئة الطبيعية والبؤس الذي يدفع إلى التذمر وإرهاق
الشعور إلى جانب شيء من الرعاية كان يلقاه بعض الشعراء من بعض الأسر
الغنية في العراق وإلى جانب الحركة العلمية التي نشطت في المدن الشهيرة ،
ومما لا شك فيه أن البيئة العراقية بمناخها المتغير المتقلب وبحارارة صيفها
وبرودة شتائها وبأنهارها وجداولها ونخيلها وحقولها وبأريافها وصحاريها قد
شجذت المواهب ودفعت بها إلى الانتاج وإن الحركة العلمية التي نشطت في
بعض المدن قد ساعدت عامل البيئة الطبيعية على النشاط الأدبي وتطور الشعر
من جمود الفترة المظلمة إلى التلملم والأرهاص .

وقد انفردت مدينة النجف ومثلها مدينة الحلة بهذه العوامل المؤثرة في
تكوين نهضة شعرية عزيزة الجاب . كانت الحلة في موقعها الجغرافي
الجميل موطناً من مواطن الشعر بل كاد الشعر أن يكون فيها سليقة يجرى
على كل لسان وحسبنا أن نعرف من موقعها أنها تطل على جانبي الفرات
بالقرب من بابل القديمة وقد تعانقت عليها ظلال النخيل وأقياء الشجر
الوارف وعلى مدى غير بعيد منها تنساب الفروع والجداول خلال الواحات

(٤١) ديوان السيد إبراهيم الطباطبائي ص ٢٧٢ .

(٤٢) سحر بابل ص ١٠ .

الخضر ، وكان لها من تاريخها القديم ميراث ضخم من العلم والادب والشعر الكثير وقد حافظت على هذا الميراث وسارت على نهجه وتعدد فيها الشعراء وقالة القريض الرقيق والثائر وكان نظم الشعر لدى سكانها سهلا مطاوعا حتى على ألسنة الاميين الذين لا يقرؤون ولا يكتبون فيأتون به عذبا جميلا لا خروج فيه على قواعد اللغة وأوزان العروض (٤٣) .

أما مدينة النجف فانها تختلف عن مدينة الحلة في موقعها اذ هي أشبه ما تكون بصومعة أقيمت على جبل صحراوي لا ماء فيه ولا شجر (٤٤) وكانت ترتفع عن الفرات القريب منها شرقا ارتفاعا غير قليل فلا يصل اليها ماؤه وكانت حاجتها الى الماء قد تشدد في كثير من الاحيان فتصل الى درجة العطش وقد بقيت هذه المدينة داخل سورها تطل على بحيرة جافة في المنحدر الغربي منها وليس في تلك البحيرة أو ذلك المنحدر من النخل والشجر الا القليل أما المدينة فانها تستقبل الشمس من أرياف العراق الوسطى وتودعها في صحراء نجد وتقلبها الفصول بين سموم الصيف الشديد وزمهرير الشتاء الجاف ويعانى أكثر سكانها مرارة الفقر والعسر وقد ساعد على بقائها شامخة في هذا المكان المنعزل كونها ملتقى الشيعة يؤمنونها لزيارة ضريح الامام علي وكونها مدينة علمية نشطت فيها البحوث الشيعية على مذهب الامام جعفر الصادق وجمعت فيها أسفار كثيرة من المخطوطات منذ القرن الخامس للهجرة ، هذه المدينة بما فيها من علم وأدب وبما في حياتها من خشونة وبما لبيتها من تقلب بين الحر والبرد ولأفقتها من صفاء وجمال كانت ذات أثر كبير في تفتح الاذهان وتوقد الشعور وارهاف الحس فقد تخرج فيها كثير من الشعراء وغصت نواديها ومحافلها بعشرات منهم واستمعت الى مسجلاتهم

(٤٣) راجع نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر ص ٢٩٤ -

٢٩٥ .

(٤٤) كانت النجف عامرة بالعرب أيام المناذرة وكانت الاديرة منتشرة فيها حتى مدينة الحيرة القريبة منها ، وفيها عيون نابغة تمتد الى الصحراء . راجع (البلدان) لابن الفقيه ص ٦٨٧ .

ومطاراتهم والى جدهم وفكاهاتهم وكانت محافل الانشاد ومواسم الشعر في أيام الافراح والاحزان تشجع على نظم الشعر وتدفع الشعراء على الاستمرار والصعود .

وقد شهدت بغداد نهضة شعرية مرموقة ايام الوالى المملوك داود فالوالى علي رضا . واستمرت تلك النهضة ولكنها كانت أضعف مما كانت عليه . وقد أسهمت مدينة الموصل بنصيب غير قليل في بناء النهضة الشعرية في عصر الولاة الجليليين ثم ضعفت الحركة فيها بعد هؤلاء .

أما الاسر التي ساعدت على نمو النهضة الادبية فهي غير قليلة في المدن العراقية ومن هذه الاسر من جمع بين العلم والادب كآل الشيخ جعفر الكبير المعروفة بأسرة (آل كاشف الغطاء) وأسرة بحر العلوم والأعسم وغيرهم في النجف ، وكال القزويني في الحلة وآل الالوسي والجميل في بغداد ، وآل العمري والغلامي في الموصل . ومن الاسر الغنية التي قربت الشعراء آل باش اعبان والزهير وأمراء كعب في البصرة وأطرافها وكان في آل كبة والشاوي أدباء وشعراء كما كان فيهم من أخذ من العلوم الدينية بنصيب غير قليل .

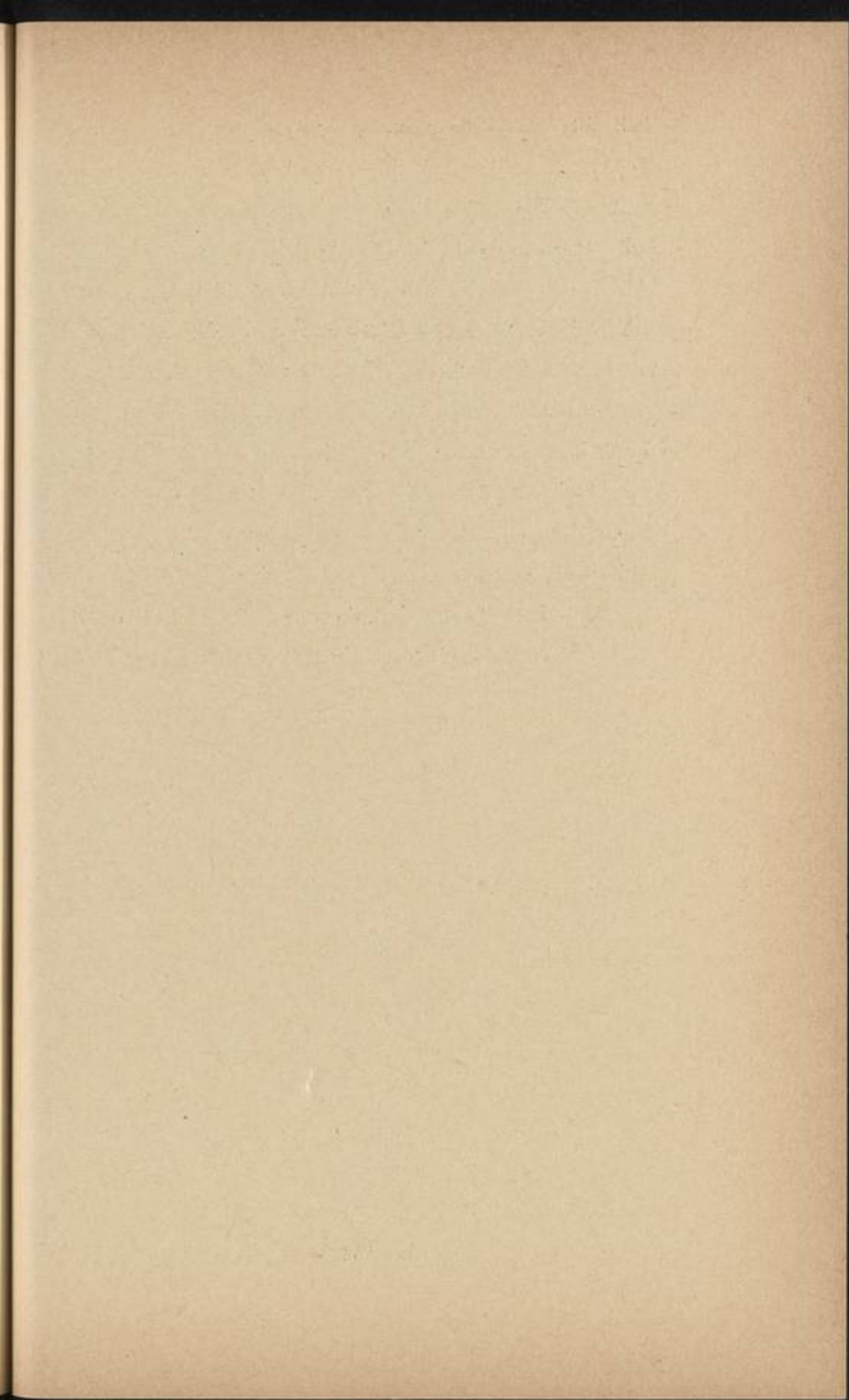
موضوعات الشعر وطريقة الاداء :

لم تختلف موضوعات الشعر في القرن التاسع عشر عما كانت عليه في القرون السابقة ولم يستطع الشعراء أن يجددوا تجديدا بارزا ملحوظا الا فيما ندر من وصف بعض المخترعات كالترامواي^(٤٥) والباخرة^(٤٦) وأسلاك البرق^(٤٧) والساعة^(٤٨) وصفا غير فني ، فقد التزموا بالموضوعات القديمة

(٤٥) راجع : ديوان السيد ابراهيم الطباطبائي ص ٧١ - ٧٢ -
ونهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر ص ٢٨٢ .
(٤٦) راجع : الطراز الانفس ص ٤٢٧ .
(٤٧) راجع الترياق الفاروقى ص ٣٥٤ - ٣٥٦ .
(٤٨) راجع ديوان السيد ابراهيم الطباطبائي ص ٤١ وسحر بابل ص ٣٧ .

من المدح والتهاني والرثاء والغزل والمداعبات والاخوانيات ونظم التواريخ
للحوادث والمنشآت وأكثرها من مدح آل البيت وراثتهم كما أكثرها من
شعر التوسل والتصوف ولهم في الحماسة والفخر والتذمر والشكوى
والتنديد بالظلم شعر غير قليل ولم تخل بعض الدواوين من شعر الهجاء
ولكنه قليل بالنسبة للموضوعات الأخرى •

أما طريقة الأداء فقد كانت تختلف باختلاف المناسبة فالرثاء لا يعدو
القصيدة ذات القافية الواحدة والمدح كالرثاء ولكنه قد يأخذ طريقة الموشح
كما في شعر السيد محمد سعيد الجبوبي وبعض قصائد السيد حيدر الحلبي •
وأبرز شيء في موضوع المدح والتهاني ما في القصيدة من مقدمة تقليدية قد
تكون غزلا أو وصفا للخمر وقد تكون نسيبا مصطنعا يخرج فيه الشاعر عن
بيته وبيته في صحراء نجد ووديانها • وكان التخسيس والنشيط من طرق
الأداء التي شاعت في هذا العصر ولاسيما في موضوعات المدح والتهاني
والفخر والحماسة والشكوى • ولعل في الفصول الآتية ما يكشف عن
جوانب كثيرة من خصائص الشعر في القرن التاسع عشر •



الباب الثاني

الشعر السياسي

- ١ - تمهيد - الشعر السياسي : معناه وتطوره .
- ٢ - الفصل الاول : الشعر والحوادث الوهابية .
- ٣ - الفصل الثاني : الشعر بين الحس العربي والشكوى العامة .
- ٤ - الفصل الثالث : ثورة الشعر في ظل العقيدة .
- ٥ - الفصل الرابع : الشعر في ركاب الدولة .
- ٦ - الفصل الخامس : القيم الفنية والموضوعية .

تقديم

الشعر السياسي - معناه وتطوره

لعل من الضروري في دراسة الشعر السياسي الحديث أن نقدم له بشيء من الايضاح والتفسير لمعنى السياسة عند القدماء والمحدثين ولمعنى الشعر الذي يلامسها ويتصل بها فيسمى شعرا سياسيا . وأن نشير بايجاز الى هذا النوع من الشعر في تاريخ العرب وآدابهم .

ان كلمة (سياسة) عند العرب تعنى تدبير شؤون الناس وتولى أمورهم والرياسة عليهم و نفاذ الامر فيهم^(١) وهى أيضا استصلاح الخلق بارشادهم الى الطريق الصحيح^(٢) . أما عند المحدثين فهى تعنى : حكم الامم أو فن هذا الحكم . وهى كما تتصل بنظم الدولة فى الداخل تتصل أيضا بنظمها والتزاماتها مع الدول الاخرى^(٣) . وما دامت السياسة كما حددناها فى هذه التعاريف المشهورة فان الشعر الذى يلامسها ويعبر عنها يسمى شعرا سياسيا سواء تناول نظم الدولة الداخلية أو مس مكاتها الخارجية بين الدول والاقطار وسواء التزم جانبها ودافع عنها أو وقف مناوئا لها ولاعمالها . وليس من الضروري فى هذا الشعر أن يعبر عن رأى يقره المجتمع فقد يكون الرأى خاصا بالشاعر أو بفتة قليلة ممن تتظلمهم تلك الدولة ، كذلك

(١) راجع لسان العرب . والقاموس . فى مادة (سوس) .

(٢) راجع (رسائل اخوان الصفا) ج ١ ص ٢٠٧ طبع مصر .

(٣) تاريخ الشعر السياسى . لاحمد الشايب ص ٣ و ٤ ط ٢ .

ليس من الضروري في الشعر السياسي أن يلتزم البراهين والتفاصيل بل يكفيه أن يلمح ويوجز ويترك التفاصيل والجزئيات للتاريخ وللناس لانه وليد العاطفة والخيال ومثل هذا الشعر الذي لا يلتزم البرهان والاحتجاج يدخل فيه المدح والهجاء والحماسة والفخر والوصف والرناء والغزل أيضا^(٤) متى ما كانت هذه الفنون تتصل بحكم أو مذهب وان لم تعالج النظريات السياسية بالشرح والتفصيل • هذا هو الاصل في الشعر بوصفه فنا يقاس بغايته التي يرمى اليها غير أنه لم يهمل الناحية التفصيلية في كل صورته بل عالجهما فاحتج وساق البراهين وتناول المعاني الجزئية مع احتفاظه بخصائصه الفنية •

وليس من الضروري في الشعر السياسي أيضا أن يكون تعبيره عن السياسة - سلبا أو ايجابا - ناشئا عن عقيدة يؤمن بها الشاعر ويدين بها بل قد يكون ذلك ناشئا عن طمع في مال أو منصب أو خوف من شر أو عن صلة خاصة بين الشاعر والحاكم ومثل هذا يعد تأييدا سياسيا غير مباشر^(٥) • هذا الضرب من الشعر كان في كل عصوره وآفقه من أبرز المقاييس في رسم الجانب السياسي لحياة العرب ونظمهم حتى البدائية منها أو الشبيهة بالبدائية ، وكان وسيلة هامة من وسائل التعبير التي تناولت السياسة منذ العصر الجاهلي فقد كانت القبيلة العربية آنذاك أشبه ما تكون بالصورة المصغرة للدولة^(٦) بوصفها ذات مكان ووحدة ونظام ورئيس يشرف عليها ، وكانت صلتها بالقبائل الاخرى تشبه صلات الدول الآن^(٧) ولو الى حد قليل • واذا استعرضنا الشعر الجاهلي في جملته وتفصيله وجدناه قبليا يخضع في تجاربه لسيادة القبيلة ومكائنها بين القبائل الاخرى وان كان غنايا يشمل معظم الموضوعات ، فهو يستمد مقومات القبيلة في اطارها الداخلي حين يعتر بها ويمدح رجالها وأعمالها وقد يثور عليها ويؤنبها لانها قصرت

(٤) راجع المصدر السابق ص ١١ و١٢ و٢١٤ و٢١٥ •

(٥) هذا الشعر اعتمد عليه الامويون أيام عبدالملك بن مروان •

(٦) تاريخ الشعر السياسي ص ٤ •

(٧) في الادب المقارن - لعبدالرزاق حميده ص ١٠٧ •

في حماية أو تخاذلت في موقف ، وهو يستوحى مكانتها الخارجية حين
يفتخر بها أمام القبائل ويذكر أيامها ويهجو أعداءها وينازل خصومها من
الشعراء . ولقد كان الى جانب هذه الانواع نوع آخر نادر لا يمس القبيلة
في شيء من ذلك بل كان يمس النظام القبلي عامة من حيث اضطرابه ويمس
النظام الاقتصادي من حيث تقصيره في حماية الافراد من الجوع والحاجة ،
وهذا النوع من الشعر يكاد ينفرد به الشعراء الصعاليك الذين كانوا يثرون
على الفقر والعوز^(٨) .

وإذا تركنا العصر الجاهلي لنستعرض العصور التي تلته فانتا يرى
الشعر السياسي قد تطور واتسع نطاقه من حيث الموضوعات نتيجة لتطور
الحكم والنظم عند العرب بعد ظهور الدعوة الاسلامية وقد شهد صدر
الاسلام صورا كثيرة تؤيد الحكم الجديد المتمثل في الدين الاسلامي وتدافع
عنه وترد على الجانب المناوي الذي تمثله صور اخرى ليس لها حظ في
الدراسات كحفظ تلك ، وجاء العصر الاموي فنشطت الاحزاب التي اتخذت
من الدين الاسلامي شعارا لها وكان اقواها الحزب الاموي الحاكم ثم حزب
العلويين الثائرين في وجه الحكم الاموي ، ثم الخوارج الذين استمر
صراعهم طيلة الحكم الاموي ودون هؤلاء حزب الزبيريين الثائرين على بني
أمية أيضا ، وفي عصر هذه الاحزاب كانت النزعات القبلية قد عادت الى ما
هو أشد من الجاهلية في الصراع والتنازع وكان هذا كله مؤثرا قويا في
توجيه الشعر السياسي الى حيث يتمثل فيه الصراع القائم بين تلك الاحزاب
وتلك القبائل والى حيث يمثل الآراء والعقائد السياسية ويصور الحالة العامة
حتى الفقر والحاجة .

ولما أدبيل الحكم الى العباسيين انتقل الشعر الى تأييد البيت الهاشمي
من عباسيين وعلويين ثم انقسم بعد برهة وجيزة الى شطرين أحدهما مع
الجانب العباسي وهو الغالب وثانيهما مع الجانب العلوي بعد أن ظهر عداء
العباسيين لآل علي ، على أنه كان الى جانب هذا صور غير قليلة ليست في

(٨) استمر هذا النوع من الشعر طوال العصور .

جانب اولئك أو هؤلاء كالشعر الذى مدح به بعض الامراء والوزراء أو رؤساء القبائل من غير العباسيين أو العلويين وكالشعر الذى فيه تلميح أو تصريح بالاستياء من الحكم والسياسة ، هذا فى العراق أما فى الشام ومصر والمغرب والاندلس فانى أترك التفصيل الى المراجع الكثيرة التى عنيت بتسجيل هذا اللون من الشعر •

ولقد استمر الشعر السياسى فى طريقه المرسوم له يؤيد ويناوىء ولكنه فى أواخر العصر العباسى حتى نهاية القرن التاسع عشر قد استحال معظمه الى مدح وتأييد للحكم أيا كان ذلك الحكم وفى أى قطر من الاقطار العربية وقد فقد قوته فى فنه وموضوعاته الا القليل مما كان يصدر عن بعض الشعراء الذين لم يرافقوا الحكم أو يتصلوا به اتصالا مباشرا والا ما كان للشعراء العلويين الذين طبعوا شعرهم بطابع التشيع والولاء لآل علي •

ولقد تركت التفصيل فى دراسة التطور الذى رافق الشعر السياسى فى كل أدواره لان ذلك لم يكن من عناصر الموضوع الذى تناوله هذه الدراسة الخاصة بالقرن التاسع عشر وانما استعرضت هذا التطور بايجاز - الى جانب توضيح المعنى - لكى أقف على مظاهر التشابه بين الشعر السياسى فى القرن التاسع عشر وبينه فى العصور القديمة ولكى أربط الصور التى رسمها شعراء العراق فى القرن التاسع عشر بأمثالها من الشعر القديم ان لم يكن فى الفن والاداء وفى الموضوع والغاية فان فى هذه الصور ما يخضع للحكم ويؤيده كمدح السلاطين والولاة ومن دونهم من الموظفين سواء جاء هذا المدح فى مناسبة عامة أو جاء فى مناسبة خاصة أو كان صادرا عن ضمع فى مال أو منفعة يقصدها الشاعر لنفسه^(٩) ، وان فى هذه الصور ما يدل على تدمير واستياء من الحكم وفساد النظام وان كان قليل الصراحة والجرأة ، وفيها ما شاع من مدح الزعماء العرب ومن الحماسة والفخر والاعتزاز

(٩) فى بعض دواوين الشعراء قصائد فى مدح بعض الحكام الايرانيين كناصر الدين شاه وابنه مظفر الدين وغيرهما وهى تتصل - فى الغالب - بما يقوم به هؤلاء من تعمير العتبات المقدسة وقد تركت ذكر هذه القصائد لقلتها ولانها لا تؤلف موضوعا سياسيا واضحا •

بالنفس أو بالامة التي ينتمى اليها الشاعر • وفي هذه الصور ما يتصل
بالشكوى والتذمر من الحياة وما يعبر عن الحاجة والفقر نتيجة لفساد الحكم
وفساد النظام الاقتصادى • وهناك نوع هام من الشعر السياسى فى القرن
التاسع عشر وهو الذى صور اتجاه الشيعة وأثر السياسة والحكم فى حياتهم
العامة فقد برز هذا الشعر واضحا فى شعر المرثى لآل البيت وفى القصائد
الكثيرة التى وجهت الى المهدي المنتظر •

والى جانب هذا وجدنا لونا آخر من الشعر السياسى ظهر فى العراق
خلال القرن التاسع عشر وهو الشعر الذى حارب الوهابيين وعقيدتهم ،
ولعل هذا اللون الذى رافقت بعضه مؤثرات من العقيدة الشيعية الى جانب
قصائد الرثاء للامام الحسين وآل البيت وقصائد التوسل بالمهدي يمكن أن
يشبه الى حد كبير تلك الصور التى ظهرت فى الشعر الحزبى خلال الاعصر
الاول • على أن هذا الشعر فى كل موضوعاته لا يستطيع أن يسامى الشعر
القديم فى قوة الاداء والتعبير وأن أشبه معظمه فى المسلك والاتجاه •

الفصل الاول

الشعر والحوادث الوهابية

لقد مر في الفصل الاول من الباب الاول توضيح غير قليل لتاريخ الدعوة الوهابية والحروب والحوادث التي تمخضت عنها وقيام الدولة العثمانية بحملاتها العسكرية المتابعة للقضاء عليها ، وكانت الغاية من توضيح تلك الحوادث على وجه الاجمال لا التفصيل والعناية بها في الفصل السياسي توضيح الجانب الادبي الذي رافقها في مختلف مراحلها وسجلها في أهم أعمالها ، وأعني بالجانب الادبي الشعر الذي نظمته شعراء العراق في تلك الحوادث مستجيبين لعوامل الدين والسياسة منطلقين مع البواعث النفسية والاجتماعية لتناولها تناولا يعبر عن واقع الرأي الاسلامي العام أو العراقي على الاخص آنذاك^(١) .

ولقد كان من حق المنهج الذي وضع أن يوزع هذا الشعر بين الفصول الاخرى لان منه ما يتصل بالدولة ومدح أعمالها التي نهضت بها لمحاربة الوهابيين وللدولة وأعمالها فصل خاص ، ومنه ما يتصل بالعقيدة الشيعية التي أثرت في توجيه الشعراء ورسمت لهم طريق الثورة على الوهابيين

(١) لقد وجدت فيما وقع في يدي شاعرا عراقيا واحدا مدح الدعوة الوهابية وأصحابها وسيأتي ذكره في آخر الفصل . اما شعراء نجد فإن لهم قصائد في مدح الوهابيين .

وللعقيدة الشيعية فصل خاص أيضا ، غير أن حق التاريخ الادبي كان أكبر في نظري من حق المنهج الذي رسمته واتبعته في معظم فصول الرسالة لان الدعوة الوهابية لم تكن دعوة صغيرة تذهب كما يذهب بعض الظواهر الضعيفة الشأن ولان حوادثها وحروبها واهتمام الدولة بها لم يكن في حدود ضيقة ولان الشعر الذي قيل فيها لم يكن خطرات عابرة لا شأن لها ولم يكن من القلة وعدم الجدوى بحيث يتناثر هنا وهناك . لهذه الاسباب ولكون هذا الشعر جديدا في موضوعه وموحياته رأيت أن أفرد له فصلا خاصا به ليكون ذا وحدة تاريخية مترابطة الاجزاء وليسلم له شكله وموضوعه دون تفكيك وتناثر ، ولقد رأيت أن أدرس هذا الشعر الذي قيل في الحوادث الوهابية وفق المراحل التي مرت بها وأن أتابعه في مرحلتين هما أهم مؤثر في تكوينه وخلق صورته على اختلاف قيمها وأساليبها .

في المرحلة الاولى :

لقد كانت المرحلة الاولى التي بدأت بالحركات الوهابية وانتهت باحتلال نجد والحجاز من جانب الجيش المصري^(٢) مرحلة حادة في حوادثها المؤثرة التي استجاب لها الشعراء استجابة الناقم المغضب وكان هؤلاء الشعراء فيما نظموه ازاء هذه الحوادث لا يقلون اندفاعا عن رجال الحكم والدين وزعماء القبائل وقد سجلوا معظم تلك الحوادث - ولاسيما التي تعرض لها العراق - تسجيلا لا يقل في اسلوبه وتعبيره عن قوة العاطفة الدينية والشعور السياسي المناوئ للوهابيين ، فلقد كان في جانب منه يعبر بلوعة وحسرة عن مدى تأثير الغزو الوهابي للمدن الشيعية المقدسة وأعمال الوهابيين التي عدت انتقاما واعتداء واهانة لمراقد آل البيت ، بينما يعبر من جانب آخر عن مدى تأييد الشعراء للخليفة العثماني ومن يمثله في العراق على محاربة الدعوة الوهابية واتباعها .

ولقد سجلت بداية القرن التاسع عشر حادثة خطيرة هزت عواطف

(٢) راجع الفصل السياسي - القسم الاول .

الشعراء وأثارت فيهم الالم الشديد والاستنكار الصارخ وهي حادثة غزو كربلاء سنة ١٢١٦هـ - ١٨٠٢م^(٣) ومن الطبيعي أن تثير هذه الحادثة شعراء الشيعة على الاخص لانها استهدفت المدينة التي تضم مرقد الامام الحسين بن علي وانتهت بنهب الضريح المقدس وهدمه وقتل كثير من المجاورين له وفيهم رجال الدين والاطفال والنساء .

وقد نظر الشعراء الى هذه الحادثة كأنها تجديد لمأساة الحسين يوم استشهد في كربلاء مع اخوته وأبنائه وأنصاره فبكوا وسخطوا واستنهبوا وأثاروا ونقموا على الوهابيين أشد النقمة وهددوهم وناظروهم وجادلوهم . وكان من أبرز الشعراء الذين استفزتهم هذه الحادثة الحاج هاشم الكعبي المتوفى سنة ١٢٣١هـ - ١٨١٦ - ١٨١٧م فقد كانت عاطفته الشيعية حافزا مثيرا لتجربة طافحة بالالم الشديد وقد انطلقت هذه التجربة الحادة في قصيدة صبغها بالدماء وحشد فيها صورا متجاسرة كل جانب منها كان حزينا ، وقد استعرض فيها أسماء من قتلوا من رجال الدين وبكى فيها اولئك القتلى وصور زعر النساء وما أصابهن من الدهول لفقد رجالهن وقتل أطفالهن . ثم بكى الامام الحسين وأشار الى أن هذه الحادثة انما هي تجديد ليوم قتل فيه الحسين ، ثم استنفض قومه للاخذ بالثأر وجادل الوهابيين جدلا فيه نورة الشاعر وعاطفة الناغم وحمم القصيدة باستنهاض تقليدى للامام المهدي . أما أول القصيدة فنسيب تقليدى يتألف من خمسة أبيات تبدأ بقوله :

أنت الملموم فمن يكون الألوما فلك الظما هيهات معسول اللمي

ثم يبكى القتلى فيقول :

يا سعد قف بي في المنازل ساعة
نبكى نفوس تقى تراق على الظبا
نبكى لصرعى في التراب تخالها
نبكى حرائر هتكت أstarها
نبكى فربت عبرة تروى ظما
ظلما وأجسادا تغسلها الدما
في الليل من فوق البسيطة أنجما
بعد الحجاب فأصبحت مثل الأما

(٣) راجع ص ٣٢ و ٥٦ .

ويشير الى مدينة كربلاء :

قد كنت أحسب أن غاية كربها يوم قضي « ابن محمد » فيه ظما
فاذا الرزايا لا تزال بربعها فذا تطرق بالخطوب وتوأما

والى الحسين يوم قتل ويوم غزا قبره الوهابيون :

لم تَفْتَقَ قارعة تحل بربعه حياً وتزعجه ريمما أعظما
كتب البلاء على علاه كأنما فُرض البلاء على علاه وحتما
حيا وميتاً لا يزال مجرعا بأكف أهل البغي صايا علقما
ويروح يوما صدره متحطما فيهم ويوما قبره متهدما
خلفا توارثه البغاة وسيرة يقفو بها المتأخر المتقدما

وبعد أن يبكى ويتألم لما وقع يعلن سخطه على من بقى حيا لم يسلك
سبيل اولئك القتلى المجاهدين فيخطبه أو يجرد من نفسه شخصا
يخطبه فيقول :

شأن الغواني صار شأنك لم تكن الا تقيم عزا وتنصب ماتما
ان كان همك ليس الا بالبكا فتكون نائحة وتسمع مغرما
فلم ادخرت من السيوف مصمما لكريهة ومن الرماح مقوما؟

وينظر الوهابين ويجادلهم فيقول :

يا للرجال الا معود شيمة ان صح قول (سعود) ألا مسلما
أفلم يكن فيكم مراع حرمة ان كنتم من ليس يخشى محرما
ان صح أن ولاء آل محمد وهوام قد كان شركا أعظما
ان صح أن الواصلين نبيهم فى آله يستوجبون جهنما
ان صح أن المسلمين بأسرهم ما فيهم لله من يحمى حمى
ان صح لا خلفاء بعد نبيهم أو لا أئمة حرموا ما حرما
بل كلهم باغ مضل مبدع الا اسعود فتوره يجلو العمى !!

ويختم الشاعر قصيدته باستنهاض الامام المهدي فيقول :

يا ناصر الاسلام يا ابن محمد أكرم به نسبا وأعظم منتمى

يا ابن الكرام أما تمن بلفتة عظم البلا وتجاوز الماء الفما
ثم يصرخ بخلجة نفسية يعانها كل من يصاب بفادحة وله أعداء
وخصوم يشمتون به ويفرحون لمصابه :

قوت عيون الكاشحين شماتة واقتر ثغر الشامتين تبسما^(٤)

والقصيدة طويلة تتألف من سبعة وثمانين بيتا غير أن فيها تكرارا للصور
الحزينة الباكية وفيها استعراض غير قليل لهذا المشهد الدامي ، وإذا كانت
عاطفة الشاعر في هذه القصيدة عاطفة دينية أكثر منها سياسية - بما لهذه
الكلمة من مدلول - فإن استهزاء الناس ممن بقوا أحياء ثم استهزاء الأمام
المهدي لدليل على سخط الشاعر وبأسه من الحكم الذي خلا من القوة
المدافعة عن السكان والمدن المقدسة .

وقد اهتز لهذه الحادثة شاعر آخر هو الحاج محمد رضا الأزرى
التميمي^(٥) فقد نظم هذا الشاعر أكثر من قصيدة وكان شعره يجمع بين
وثبات العقيدة والحس العربي التقليدي ولم يكن بتصوير الحادثة من
زاوية القلب والعاطفة بل حاجج الوهابيين وناظرهم ودافع عن عقيدته ودينه
دفاع المتبع المطمع وسلك في بعض قصائده مسلك الكعبى فاستهزئ
واستصرخ ، ونظر الى حادثة كربلاء هذه كما نظر اليها الكعبى وعدها
الحادثة الثانية بعد قتل الحسين ، وقد لاحت طلائع كربلاء في أول بيت
من احدى قصائده فقال :

أريحا فقد لاحت طلائع كربلا لتقبر أشلاء ونسعد مرملا

ثم قال فيها :

وهل عاد رزه الطف^(٦) في الطف ثانياً أجل جلّ ثان تابع اليوم أوّلاً

(٤) راجع ديوان الكعبى ص ٤٨ - ٥٢ وشهداء الفضيلة للشيخ
عبدالحسين الامينى ص ٢٨٩ - ٢٩٣ .

(٥) توفى سنة ١٢٤٠ هـ ١٨٢٤ - ١٨٢٥ م وهو أخو الشاعر الشيخ
كاظم الأزرى .

(٦) الطف من أسماء كربلاء .

واستمر يصف الحادثة والقتلى من الرجال والاطفال والذعر الذى
انتاب النساء من ثواكل وغيرهن ثم انتقل بعد هذا الوصف الى الاستنهاض
والاستصراخ فقال :

فيا قائد الجيش العرمم محبه تزاھر عن ليل من التقع أيللا
بحيث لواء النصر أسدل فوقها ونص خطيب السيف بالوحي فيصلا
كثائب دلت بالجبال سوائرا اذا انماط عنها جحفل مدّ جحفلا
الأمّ وها ضاق الزمان بوافد يضح ولا ساح يجير ولا ولا ؟
فمن لى؟ وهل (من لى) يعود بشأوهم ويرجع صرعى بالتداني مكلا
واسحبها فى روقى الملك برودة تكاد بمعناها تمد السججلا

ولكن الشاعر لم يصرح باسم من خاطبه فى الايات السابقة فلعله أراد
المهدى ولعله أراد الامام عليا لانه قال بعد ذلك :

لك الله لو شافهت حوماه (حيدر) وشاهدت أنوارا هناك ومحفلا
فقف بازاء القبر من منكب الحمى وناد يناديه الكميّ المفضلا
ألا يا (عليّ) القدر دعوة مرهج يرود بصدر بالهموم قد امتلا
ملاذا فقد طال المدى وجلا الندى وقام العدى مستسنى سبق العلا

ثم يقارن بين عمر بن سعد فى حادثة مقتل الحسين وبين ابن سعود
فى هذه الحادثة فيقول :

فتم (ابن سعد) سنّ افعال حقه ونجل (سعود) قد توطاه لا تلا^(٧)

ووصف هذه الحادثة بقصيدة اخرى جاء فى أولها :

خطب على الطف قد غشى بطوفان فجلّ عن جانبيه كل تيسان
فما انجلت عن ضواحيه غياهبها حتى التقى الدم غدراانا بغدران

ويستمر فى شيء من التفصيل لما وقع من قتل الرجال والاطفال وارهاب
النساء ويتألم :

لقتل خمسة آلاف بأونة من النهار سوى المستشرف العاني

(٧) راجع (شهداء الفضيلة) ص ٢٩٣ - ٢٩٦ .

ثم ينهى القصيدة بيت يؤرخ فيه عام الحادثة فيقول :
يقول في رزئها الأدهى مؤرخة في كربلاء دهانا رزؤها الثاني^(٨)

ولهذا الشاعر قصيدة ثالثة يخرج فيها عن مجال الالم والبكاء الى المناظرة والجدل فينكر على الوهابيين أعمالهم ورميهم المسلمين بالزيغ والضلال وقد شرح بعض النواحي من العقيدة الاسلامية في ضوء ما يعرفه منها وهو فيما شرح وناظر كان غير قليل الحظ من الاطلاع على الاصول والفروع وقد أطل الجدل والحجاج وبعد أن انتهى من جدله ومناظرته انتفض واهتز وهدد ووعد على طريقة الشعراء القدماء وقد بدأ القصيدة بقوله :

ألم يأن أن يصنى الى الحق غافل	ويسلك نهج الاستقامة مائل
فهايتك سبل المسلمين تفرقت	وشطت برأى المبدعين المحامل
فقل للألى حادوا عن الدين ضلة	وبدر الهدى في هالة الدين كامل
تعالوا الى قول سواء فيتنا	وبينكم ما فيه خلف وباطل
فان تجنحوا للسلم نجح لها وان	أبيتم فحد السيف بالحق فاصل

ويسألهم عن عقيدتهم الجديدة :

ولم أدر ذا وحى عن الله جاءكم	حديثاً فلم تدرك مداه الاوائل ؟
أم الامر ممن قد حكم بشركهم	أناكم وكل في الشريعة باطل

وبعد أبيات من الجدل والحجاج يقول لهم :

وان تسألوا عن بعض ما اقترف الورى	من الانم فالرحمن للتوب قابل
هبوا أنهم جاؤا بكل كبيرة	فما ذاك كفر بل فسوق وباطل
بل الكفر تحليل الدماء التي أنى	بتحريمها الأجماع والذكر نازل

والقصيدة طويلة ساق الشاعر فيها البراهين والادلة على ما احتج به من آراء وذكر الوهابيين بوقائع التاريخ التي مرت ليعتبروا بها ثم هددهم بأبيات غير قليلة من هذه القصيدة ان لم ينتهوا عن أعمالهم فقال :

(٨) المصدر السابق ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

ويا قوم سمعا ما أقول فانها لتذكرة فيها هدى ودلائل
حذار فقد أنذرتكم بزواجر تاشد غطفانا فتسع وائل ؟
فان تتهوا يغفر لكم ما مضى وان تعودوا فما غير البنود وسائل
وساء صياح المنذرين اذا هوت صواعقها فى أرضكم والزلازل^(٩)
ولا شك ان الازرى كان يمثل العقيدة الشيعية ويدافع عنها بحرارة

وايمان ويرد على الوهابيين وهو كصاحبه الكعبى من قبله لم يتعرض لذكر
الدولة العثمانية ولا لحكومة العراق آنذاك وسر هذا الاغفال ان الدولة لم
تفعل شيئا ازاء الحادثة هذه وان اليأس قد بلغ بالشاعرين - الكعبى
والازرى - حدا لم يستطيعا معه أن يذكررا الدولة بشيء أو يشيرا اليها وانما
بقيا فى اطار العقيدة التى لا ترى فى ذلك الحكم المسيطر ما يملأ رغبتهما
ويزيل عنها الشعور بالحيف الذى لحق بالسكان أو يلحق بهم .

واذا كان الكعبى والازرى قد أهملوا ذكر الدولة والحكومة القائمة فى
بغداد آنذاك لانها لم تدافع عن المدن المقدسة فان شاعرا من الحلقة قد سلك
خيال الوهابيين مسلكا حكوميا لان المناسبة كانت تستدعى ذلك فوقف الى
جانب الوالى (علي)^(١٠) ومجد حملته التى وجهها سنة ١٢١٩هـ - ١٨٠٤ -
١٨٠٥م لمحاربة السعوديين ، أما الشاعر فهو حسين بن سليمان الحلى
المعروف بالحكيم وقد مدح الوالى وندد بالدعوة الوهابية وأنصارها ووصف
الوالى بأكثر مما يستحق واستغل اسمه فى الاطراء فشبّهه بالامام علي وشبه
سيفه الذى حارب به سعود بن عبدالعزيز بذى الفقار فقال يخاطب الوالى :
أقمت اعوجاج الملك بالسيف والعزم^(١١)

وشيدت ركنيه على مفرق النجم

ثم يقول :

فلا سيف الا سيفه للممة وليس فتى الاه عن حرم يحمي

(٩) المصدر السابق ص ٢٩٧ - ٣٠٢ .

(١٠) كان هذا كتحدا لسليمان الكبير وقد عين واليا بعده كما مر

سابقا .

(١١) وردت فى الاصل (القرم) ولا معنى لها هنا .

وليس في القصيدة سوى التهديد وهي أقرب ما تكون الى هجاء
الوهابيين منها الى الجدل المنظم أو النظرة السياسية المركزة^(١٢) .
ولم تكن حادثة الهجوم الذي قام به الوهابيون على مدينة النجف عام
١٢١٩هـ ١٨٠٤م لتمر على الشعراء دون أن يلتفتوا اليها ولكن الذي وصل
الينا من هذا الشعر لم يكن من القوة والمثانة بحيث ينسجم مع مكانة النجف
فقد نظم السيد أبو الحسن كوثر مقطوعة ركيكة الاسلوب سقيمة المعاني
وقد استهلها بقوله :

بشرى لمن سكنوا كوفان والنجفا وجاوروا المرتضى أعلا الورى شرفا
ولكن الظريف في هذه الايات أن الشاعر عين الشهر واليوم والوقت
فقال مشيرا الى زحف سعود بن عبدالعزيز :

وقد أتى الناس قبل الفجر في صفر بتاسع الشهر نحو السور قد زحفا
ويؤرخ هذه الحادثة في البيت الاخير من المقطوعة^(١٣) .

وهذا شاعر آخر لم يكن نصيبه من المعرفة بأقل من غيره من الشعراء
المشهورين وهو عثمان بن سند البصرى الوائلى^(١٤) فقد سجل تعصبه
الشديد ضد الوهابيين بقصائد ومقطوعات كثيرة وناوأهم أشد المناوأة وكفرهم
ووسمهم بالزيغ والضلال في ثره وشعره على السواء ودعا الى حربهم باسم
الدين لانهم - كما زعم هو وغيره - مارقون خارجون عن اجماع المسلمين
وعلى طاعة السلطان ، وثورة ابن سندر مثار عجب لانه نجدى الاصل ومن
قبائل عنزة التي يتسمى اليها السعوديون ، غير أن العجب يزول اذا عرفنا أن
هذا الشاعر كان في العراق وكان متصلا بالوالى داود وكانت صلته به تدعوه

(١٢) ذكر المؤلف أن هذه القصيدة في مدح الوالى على رضا وهذا غير
صحيح لان هذا الوالى لم يحارب الوهابيين . راجع القصيدة في (شعراء
الحلة) للشيخ على الخاقانى ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ج ٣ .

(١٣) راجع (ماضى النجف وحاضرها) ص ٢٢٧ ج ١ .
(١٤) اختلف المترجمون له في وفاته ففي (مختصر مطالع السعود)
المخطوط بالقاهرة وفي المسك الاذفر ص ١٤٦ أن وفاته في سنة ١٢٤٦هـ .
وفي (مختصر مطالع السعود) المطبوع بالهند انه توفى سنة ١٢٥٠هـ وفي
مجلة (لغة العرب) ج ٤ س ٣ ان وفاته في سنة ١٢٤٢هـ ١٨٢٦م .

الى الممالة اوتباع سيامة الارضاء والتقرب وهو بوصفه سنيا متعصبا كان يرى وجوب طاعة السلطان والخضوع للوالى الذى يمثله فى بغداد لذلك كان شديد التكبر على الدعوة الوهابية وأنصارها • وقد سلك ابن سند فى شعره الذى قاله فى الحوادث الوهابية مسلكاً تاريخياً راعى فيه تسلسل تلك الحوادث التى كتب عنها فى تاريخه (مطالع السعود) فهو حين يذكر الحادثة يضع الى جانبها مقطوعة أو أكثر وقد ينظم فيها قصيدة أو أكثر وكل الحوادث الوهابية التى كتب عنها كانت أقدم تاريخاً من وقت تسجيلها • ومعظم الشعر الذى قاله فى تلك الحوادث كان شديد اللهجة والاندفاع ضد الوهابيين وكان مليئاً بمدح الدولة والسلطان وأتباعه من الولاة والقواد الذين حاربوا السعوديين فى الحجاز ونجد وكان فى بعض المقطوعات يقتصر على النواحي الدينية فيهدد الوهابيين بعذاب النار فى الآخرة لانهم سفكوا الدماء وكفروا المسلمين^(١٥) • ومن شعره ما قاله حين كتب عن ثوينى بن عبدالله وقتله سنة ١٢١٢هـ بعد عودته من حرب السعوديين^(١٦) فقد رثاه بقصيدة جاء فيها قوله :

فشكّلت يمين من (طعيس) سطلت به تأفف طلاب الجدى بعده اليم
جدعت به يا كلب عرين قومه وأشملهم بذلا اذا كلح الأزم
قتلت ابن عبدالله والحاكم الذى سجيته التقوى وديده الرحم
ومن هو للاسلام وجه ومقلّة ومن حكمه لم يعر ساحته ظلم^(١٧)

وحين كتب عن زهاب الكنخدا (علي) الى محاربة الوهابيين سنة ١٢١٣هـ وعودته بالفشل وخيانة بعض أتباعه^(١٨) قال :

أسلمتهم للمهلكات رجال عن هدى الله للمطامع مالوا
واستحلوا مال الوزير وقالوا ان مال الوزير لله مال

(١٥) راجع (مطالع السعود) الورقة ٦٨ •

(١٦) راجع ص ٥٥ •

(١٧) مطالع السعود • الورقة ٧٥ - ٧٦ •

(١٨) راجع ص ٥٥ •

أبطنوا العنق للوزير وراموا كل ما فيه للوزير اختلال^(١٩)
ويشير في بيتين آخرين الى أن الكتخدا قد استشار في الصلح الذي
عقده مع الوهابيين من لم يكن ناصحا له :

لم يشاور من كان في النصح جدا ككتخداهم فخاب سعيها وجدا
من برم خيبة يشاور عدوا برداء الخداع دأبا تردى^(٢٠)
ويكرر هذا المعنى في أبيات اخرى معتقدا بأن الخيانة كانت من
ابراهيم بن ناقب بن وطبان لانه من أقارب سعود وكان ابراهيم قد رافق
الحملة فيقول :

لسان الحال قال لهم غزوتهم سعودا كي يعز وكى تذلوا
تمسوا أن يلاقوه بنجد فلما أن دنا جنوا وذلوا
عذيري من أناس عظموه بعين الكتخدا فعمره ذل
ومن يجعل معاديه مشيرا فما لنصيحة فيه محل^(٢١)
وحين كتب عن حادثة كربلاء التي وقعت سنة ١٢١٦هـ أوردتها بقوله
عن سعود :

سفك الدماء وظن أن صنيعه ينجيهِ
ولقد تجاوز حده في كل ما يجنيه
فلسوف يعلم غب ما أبداه من تمويه^(٢٢)
ولعل التهديد بعذاب الآخرة كان أقرب شيء الى ذهن الشاعر لانه
كتب عن هذه الحادثة بعد وقوعها بسنين وبعد أن مات سعود +
ولما أرخ جلوس السلطان محمود الثاني عام ١٢٢٣هـ نظم بعض
الايات والقصائد في مدحه واستغل ذهاب الجيش المصرى الى نجد في أيامه
وما انتهى اليه ذلك من القضاء على عبدالله بن سعود سنة ١٢٣٣هـ فقال :
همام من بنى عثمان صلت براحته رسوب الحد صلت

-
- (١٩) مطالع السعود - الورقة ٨٠
 - (٢٠) المصدر السابق والورقة نفسها
 - (٢١) المصدر السابق . الورقة ٨١
 - (٢٢) المصدر السابق . الورقة ٨٦

حمى دين النبي به فأمسى ولا عوج يشان به وأمت
 أزال به ضلالة عارضى (٢٣) لتضليل الورى أبدا يمت (٢٤)
 وحين أرخ استيلاء جيش محمد علي على مكة والمدينة سنة ١٢٢٩هـ (٢٥)
 وإخلاءهما من الوهابيين شفع ذلك بقصيدة مدح بها السلطان محمودا ونوه
 بأعماله في هذه الحوادث وطعن على الوهابيين طعنا شديدا فقال :

منجّد من بنى عثمان قال له زمانه : يا عديم المثل فافتخر
 أطلقت قبلتنا من أسر ذى أسر بالسيف يبرق والعسالة السم
 لو لم تكن بالظبي والسمر مطلقها ما حجها قط سنى من البشر
 دعاك محمود هذا العصر كل فنى يراك فى الحرب مثل الصارم الذكر
 لو لا حسامك لم يصدق مؤذنا فى المسجدين ولم تمدد يد الظفر
 ولم يزل عنهما رجس ولا درن من عارضى رمى الاسلام بالغير
 مخاصم كل أهل الحق قاطبة من بغيه لم يدع شيئا ولم يذر
 ثم يشبه السلطان بالخلفاء الاربعة فيقول :

خلفت فينا أبا بكر وكنت لنا عثمان يقفو سديد الرأى من عمر
 وكنت فينا عليا فى ماصعة والافق لولا بريق السيف لم ينر
 لولاك ما نظرت عين الى ملك لكن لاجلك كانوا مطمح النظر (٢٦)
 ولما كتب عن انتهاء الحكم السعودى على يد ابراهيم بن محمد علي
 سنة ١٢٣٣هـ واحتلال ما كان يسيطر عليه عبدالله بن سعود (٢٧) وضع
 مجاورة فى مقطوعتين من الشعر اولاهما على لسان عبدالله بن سعود والثانية
 على لسان ابراهيم بن محمد علي وقد اعترف فى الاولى بشجاعة السعوديين
 وعدم انقيادهم للسلطان فقال فيها :

(٢٣) نسبة الى (العارض) من نواحي نجد ويسمى بوادى حنيقة
 واليامة وفيه الدرعية مقر السعوديين وفيه الرياض التى انتقلوا اليها .
 (٢٤) مطالع السعود . الورقة ٩٥ .
 (٢٥) راجع : مطالع السعود - الورقة ٩٦ .
 (٢٦) المصدر السابق - الورقة ٩٧ .
 (٢٧) قدم لهذه الحادثة بقطعة من النثر شديدة اللهجة (مطالع
 السعود) الورقة ١١٨ .

انا اذا الحرب شبتها صوارمنا أن يلقنا الاسد عن أسيفنا حادوا
 شبابنا صبر في الحرب مد نشأوا والشيب كم بنفوس أغليت جادوا
 أوصت أوائلنا قدما أوأخرنا ألا يدينوا لسلطان وينقادوا

غير أن هذا الاعتراف يتضاءل أمام سجيته في تعظيم السلطان ويظهر ذلك في الابيات التي وضعها على لسان ابراهيم فيقول :

انا الملوك اذا سلت صوارمنا على الألى مرقوا عن أمرنا بادوا
 انا على اثر سلطان أوائله سادوا الورى قبلما أمثاله سادوا
 متابرون على دين النبي كما كانت أوائلكم عن دينه حادوا
 مجاهدون فكم أرووا صوارمهم من كل من لم يكونوا للهدى هادوا
 فسوف تعلم ان لاقيت ناشئنا انا لدى الحرب أسيف وآساد (٢٨)

وليس معنى هذه المحاورة أن الشاعر تقمص الشخصيتين حسب فوضع على لسان كل واحد منهما ما يناسبه ويشعر به وانما كان يصدر ذلك عن رأيه ايضا ولكنه آثر جانب الدولة ملقا وتزلفا .

وليس أدل على مقت عثمان بن سند دعوة الوهابيين من رسالته التي بعث بها الى ابراهيم بن محمد علي عندما نزل الدرعية وحرضه بها أشد التحريض وذيلها بقصيدة جاء فيها :

ولا تبق منهم واحدا تستطيه اذا خبت الآباء لم يطلب الولد (٢٩)

على أن ابن سند كان غير مكلف بهذا التحريض الشديد لو لم يكن متأثرا بالجو السياسي في العراق والعقيدة الدينية المسيرة .

واستغل ابن سند حادثة (المورة) سنة ١٨٢٦م (٣٠) فنظم فيها قصيدة معظم أبياتها خارج عن هذه الحادثة الى الطعن على الوهابيين ومدح السلطان محمود الذي حاربهم ، وتبدأ القصيدة بأبيات فيها تمجيد عام للسلطان

(٢٨) مطالع السعود - الورقتان : ١١٨ و ١١٩ .

(٢٩) لم أجد من القصيدة غير هذا البيت اما الرسالة ففي (مطالع

السعود) الورقة ١٢٠ .

(٣٠) راجع ص ٢٨ .

وجيوشه وتنتهى بأبيات قليلة فى ذكر حادثة (المورة) (٣١) وقد تخللت
 البداية والنهاية أبيات غير قليلة فى وصف العقيدة الوهابية وأتباعها وأعمالهم
 والتوفيق الذى حالف السلطان فى القضاء على هذه الدعوة وأنصارها ومن
 تلك القصيدة قوله :

بشرى أمير المؤمنين فانى أبصرت فيك على العدى المستنصرا
 أصبحت فينا واتقا متوكلا بدرا اذا ليل التواب أعكرا
 اذ زرتهم بكتائب دينية فقربتهم بالبيض موتا أحمر

* * *
 أمطرت (عارضهم) بعارض بندق فجرى به وادبهم فندمرا
 * * *
 فتنافس الحرمان منك بعادل أمضى من الليث المهور وأغيرا (٣٢)

وللشيخ صالح التميمي بيتان قالهما فى عودة عبدالعزيز الشاوى (٣٣)
 من نجد وهما :

ركن الفخار بركن البيت محتجب فاعجب لركنى علا فى ساحة جمعا
 كأن شيطان نجد حين شاهده عفريت جن رمته الشهب فاقمعا (٣٤)

الشعر فى المرحلة الثانية :

كان الخلاف الذى اشتد بين عبدالله وسعود ولدى فيصل قد أدى الى
 استتجاد عبدالله بالدولة العثمانية لطرده أخيه سعود من الاحساء ، وفى أيام
 الوالى مدحة كان هذا الاستتجاد ولم تكد سنة ١٢٨٨هـ تحل حتى كانت أول
 قافلة من الفيلق السادس فى طريقها من بغداد الى الاحساء وانتهت المعارك
 بانتصار الجيش العثمانى ومتطوعى العراق (٣٥) وقد كانت هذه الحملة

-
- (٣١) ستأتى هذه الابيات فى مكانها المناسب من الفصل الرابع .
 - (٣٢) مطالع السعود ، الورقة ١٥٢ .
 - (٣٣) راجع ص ٥٦ وقد ورد فيها اسم محمد الشاوى .
 - (٣٤) ديوان التميمي ص ٧٧ .
 - (٣٥) راجع ص ٥٨ .

مناسبة قيمة لشعراء العراق فقد تناولوها من زاوية المدح للدولة وللسلطان والوالى (مدحة) وأنصاره من العراقيين وغيرهم وقد تباروا فى التهنته بالانتصار وبالاوسمة والنياشين التى منح بها السلطان عبدالعزيز من كان ذا أثر فى هذه الحملة ولاسيما والى الذى ظفر بسيف ثمين حمل اليه من الاستانة .

وكان عبدالغفار الاخرس من أبرز الشعراء الذين أسهموا فى تخليد هذه الحملة فقد نظم بعض القصائد فى مدح والى مدحة والسيد محمد سعيد نقيب البصرة و (نافذ) قائد الفيلق وغيرهم وصعد بممدوحه صعود الشاعر المبالغ لانهم عصموا نجدا من الاشرار وبدلوا أنفسهم فى خدمة الدولة ، أما (مدحة) فانه استرد الملك الضائع واسترجعه لاهله .

وهذه احدى قصائده وقد نظمها عندما وصل والى مدحة الى البصرة متوجها الى الاحساء بعد الاستيلاء عليها وبعد وصول السيف اليه من لدن السلطان ، وفى القصيدة مدح ممزوج بشيء من الآراء فى تفسير أعمال السعوديين وأولها :

سعدت نجد اذا وافيت نجدا	بقدم منك اقبالا وسعدا
واذا أصبحت فى احسانها	قبل للشر عن الاحساء بعدا
أقبل الخير عليها كله	منجزا فيك بلطف الله وعدا
وأراد الله أن يعصمها	من شرار كادت الاخيار كيدا
كان كالضائع ملكا مهملا	فاسترد الملك أهلوه فردا

ولولا الاعتقاد بالخلافة العثمانية لما اندفع الاخرس الى هذا الرأى الذى كان يدين به الكثيرون من أمثاله وهو أن بلاد العرب ملك للسلطان العثمانى .

ويسجل الشاعر انتصار مدحة فى هذه الحملة بعد فشل الحملات السابقة التى وجهت من العراق لاسترداد هذا القطر فيقول :

اذ تصديت لأمر لم نجد قبل عليك له من يتصدى

أما الانصار والاعوان من الجنود والمتطوعين فانهم :

بدلوا أنفسهم في خدمة أورتهم بعدها عزا ومجدا
ثم يوصى مدحة بأن يحكم ما استنقذه حكم المستبد :

فاركب البحر وخض لجزته يا شبيه البحر يوم الجدمدا
وانظر الملك الذي استنقذته واجر ترتيك فيه مستبدا
ويهنئه بالسيف المهدي اليه من السلطان :

يهنك السيف الذي أهدى من ملك أهدها انعاما وأسدى
ويعبر عن الدولة بقوله :

دولة قد آيدت واتخذت من جنود الله أنصارا ووجدنا (٣٦)

وليس من المفارقات الغريبة أن يزعم الآخرس بأن الدولة انتصرت
بجنود الله على السعوديين الذين كانوا يحاربون باسم الدين كما يزعمون
فان كلا الفريقين كان يدعى الحق الديني لنفسه لا لغيره وبهذا الزعم
سبق أن احتل الوهابيون الاحساء وحاربوا أهلها (٣٧) لانهم ليسوا
على مذهبهم (٣٨) .

وهذه قصيدة اخرى لبعدهالفار الآخرس قالها في مدح السيد محمد
سعيد نقيب البصرة مطريا بها أعماله في مساعدة الدولة العثمانية ولم يقتصر
على مدحه بل مدح السلطان والوالى ومعاونيه أيضا ومنها :

حتى اذا العيد وافانا بغرته أقر شوال في عيني أبي رجب (٣٩)
هو السعيد الذي يشقى العدو به من ذا يعاديه في الدنيا ولم يخب
لما دعاه ولي الأمر متديبا أجابه وأراه خير متديب

(٣٦) راجع (الطراز الانفس) ص ١٢٥ - ١٢٧ .

(٣٧) راجع الحاشية ٦٤ من الفصل السياسي .

(٣٨) جاء في (عنوان المجد) لصيغة الله الحيدري (الورقة ٨٨) :

أن أكثر من ثلثي سكان الاحساء شيعة اما القطيف فكل أهلها شيعة .
وجاء في (الزوراء) العدد ١٥٨ من السنة الثالثة : أنهم شكوا من
آل فيصل والتجأوا الى العساكر السلطانية . وجاء في (الزوراء) أيضا
- العدد ٢١٠ من السنة الثالثة : أن أكثر سكان قرى الاحساء شيعة .

(٣٩) كان نظم هذه القصيدة في عيد شوال سنة ١٢٨٨هـ وأبو

رجب كنية المدوح .

لقد كفى العسكر المنصور نائبة تجشوا لها نوب الدنيا على الركب
وقومت كل معوج صوارمه وسكنت منذ وافى كل مضطرب

* * *

أما وربك لولاء لما خمدت نار لها غير فعل النار والحطب
أما الذين ذهب النقيب الى محاربتهم فانهم :

بغوا لما نزع الشيطان بينهم والبغى يسلم أهليه الى العطب

ثم يشير الى الوسام الذي منحه السلطان هذا النقيب وما أسداه الوالى
الى المدوح :

ليهنك النصر والفتح المبين وما بلغت من جانب السلطان من أرب
لئن جباك بنشان تسر به فانه بك من بين الرجال حبي
هذا المشير أعز الله دولته أبان فضلك اعلانا لكل غبي (٤٠)

وما حول النص هنا يدل بصراحة على ما كان للزعماء والوجهاء من
تهافت لارضاء الدولة واكتساب عطفها وأوسمتها لكى يظهرها أمام الاهلين
بأنهم هم المقربون والمتنفذون .

ويكرر الاخرس تهنته بهذا (النيشان) الممنوح للنقيب فيقول له :
دمت بالنيشان والعيد سعيدا فترى أيامك الغراء عيدا (٤١)

أما القائد (نافذ) فان له نصيبا من مدح الاخرس لانه شارك فى هذه
الحملة مشاركة فعالة ، ومن ذلك قوله :

ألا من مبلغ عنى سلامى رئيسا فى العراق على النظام (٤٢)
رآه مفخر الدنيا حساما وقد يفنيه عن حمل الحسام
فقدمه المشير ليوم بأس يقدّم من الخوارج (٤٣) كل هام

(٤٠) الطراز الانفس ص ٦١ - ٦٣ .

(٤١) راجع : المصدر السابق ص ١٣٨ و ١٣٩ .

(٤٢) يريد بالنظام : (الجند) وهو تعبير عصره .

(٤٣) يرى (جب) أن الوهابيين وقعوا فى مثل ما وقع فيه الخوارج
من الخطا فتعرضوا لاضطهاد الاكثرية وقضى عليهم سياسيا . راجع :
Modern Trends in Islam. p. 26-32. 2 nd

ويمدح بهذه الايات الوالى مدحة لانه بذل خدمة عظيمة للسلطان :
رمى من بالعراق عصاة نجد وزير ما زمى مرماه رامى
وأدى خدمة عظمت وجلت بهمته لسلطان الانام (٤٤)
وهذا شاعر من مدينة كربلاء التى تطلب الوهابيين بنار كبير يقدم
تهانيه للوالى مبتدئا بمدح السلطان أما الشاعر فهو السيد أحمد رشدى (٤٥)
وهذا بعض ما قاله :

بدا نور ظل الله يشرق كالصبح فطبق وجه الارض بالعدل والنجح
ملك على العرش استوى ولعزه جميع ملوك الارض تعلن بالمدح
أما الوالى مدحة فانه :

وزير على متن الوزارة قد رفى أحاط بها خبرا فما احتاج للشرح
وسير جيشا نحو نجد فحفظت قلوبهم خوف العساكر فى جنح

ولا أرى حاجة للتعليق على ما فى البيت الأخير من ركة ومن استعمال
كلمة (جنح) بدل جناح لتم الاستعارة ، ومهما يكن من شىء فقد أراد
الشاعر أن يظهر براعة فى التاريخ فقال متمما هذه الايات :
ومذ فتحت نجد دعا السعد أرخوا لقد جاء نصر الله يزهر بالفتح (٤٦)

وهذا شاعر آخر من كربلاء أيضا وهو الشيخ (فليح) (٤٧) يمدح
السلطان عبدالعزيز ويمجد الوالى مدحة والجيش الذى سار لفتح الاحساء
ويتطرق لفرار سعود بن فيصل فيقول بأسلوبه الضعيف :

ألا فليسر المجد اذا فنت نجد ديار تولى فتحها الجند والجند
لعبدالعزيز المستطيل بعزه على كل موجود لقد وجب الحمد
شهنشاه ظل الله راعى عباده ملك هدى ملك الملوك له عبد

(٤٤) الطراز الانفس ص ٣٨٦ - ٣٨٧ .

(٤٥) لعله الرشتى .

(٤٦) الزوراء - العدد ١٥٨ من السنة الثالثة ١٥٠٠ ربيع الاول سنة

١٢٨٨هـ .

(٤٧) يلفظ بتشديد الياء وهو تصغير فلاح وقد يكون عند العامة

تصغير فالح .

به جهز الوالى تبارك جده جنودا عليها رفرف النصر والسعد
ولما تعالى سعد (مدحة) رفعة بأوج المعالى واستار به المجد
سعود (سعود) الشر غابت فأرخوا بحزم عزيز الجند قد فتحت نجد^(٤٨)

وتهز هذه الحادثة شاعرا آخر من موظفى الدولة وهو أحمد عزة
العمري^(٤٩) فيمدح السلطان والوالى ، ويؤرخ الحادثة أيضا فيقول :

من أرض بغداد الى قطر الحسا عند الصباح حمد القوم السرى
جهز جيش النصر منا مدحة والى حمى الزوراء فخر الوزرا
أركب نصف شقه اليد ضحى وأركب النصف الاخير الأبحرا
سخر نجدا وقطيفا بعدما صاحبها لقد بغى واستكبرا
أحاطها الجيش بغزم (نافذ)^(٥٠) أضحى على تسخيرها مقعدرا
جند أمير المؤمنين قد غدا أرخ بنجد أبدا مظفرا^(٥١)

ولم يكف أحمد عزة بهذه المقطوعة بل نظم قصيدة اخرى يصف بها
السيف المهدي الى الوالى مدحة ويمدح هذا الوالى لانه عمر العراق وأنقذ
الاحساء كما يرى الشاعر فيقول :

لله سيف لاح وهو مذكر فى حده غدت الأعادى تنحر
ويخاطب الوالى قائلا :

يا أيها المولى المشير ومن به بدر الوزارة يستير ويزهر
عمرت أطراف العراق وانه لولاك ما كان الولاية تعمر

ثم تأتي العامية المبهمة التى لا تربط بين شطرى البيت ربطا موفقا فيقول
مستخدما الجناس :

(٤٨) الزوراء العدد ١٥٨ من السنة الثالثة .

(٤٩) كان اذ ذاك مديرا لشركة (الترامواى) فى بغداد ثم صار
محررا لجريدة الزوراء فكاتبا فى ديوان الوالى ومترجما من التركية الى
العربية وهو ابن أخى عبدالباقي العمري ، توفى فى الاستانة سنة ١٣٠٩هـ
وله شعر غير قليل فى (الجوائب) و (منتخبات الجوائب) .

(٥٠) يورى بالقائد نافذ الذى قاد الحملة .

(٥١) الزوراء - العدد ١٦٤ من السنة الثالثة .

قطفت يده من القطيف ثمارها والغصن يكثر حسنه اذ ينمر
ثم احتسى الأحسا بكأس تعرض والكأس في بعض المواضع تسكر
ثم يلتفت الى الوالى ويشير الى القطر الذى كان متعلقا ففتحه فيقول :
وفتحت قطرا كان عنا مغلقا ففدا به ماء العدالة يقطر
وجعلته فوق العراق ضميمة والمملك فى حين الضميمة يكبر
فجباك سلطان الانام بسيفه كرما وفضلا شكره لا يحصر

ويؤرخ وصول السيف الى الوالى فيقول :

وغدا الفخار يقول فيه مؤرخا سيف ترصع بالكمال مجوهر (٥٢)
ونظم محمد أمين العمري (٥٣) أبياتا بهذه المناسبة فهنا الوالى ووصف
خصومه بالبغي وعبر عن نجد بأنها فرع من بغداد وان الفرع قد ضم الى
الاصل وطلب من الوالى ألا يكتفى بنجد بل يمد يده الى جنوب الجزيرة
العربية أيضا فقد كان الجنوب ولاسيما اليمن فى صراع مستمر مع
الدولة فقال :

أيا والى الزورا الذى لجلاله جميع ولاة الارض تدنو وتخضع
لك المنشآت الغر فى البحر انها تروح بنصر الله طورا وترجع
أضفت الى الزوراء نجدا بأسرها ولا شك أن الفرع للاصل يتبع
ومن ظلم أهل البغي أنقذت أهلها فأضحت بجنات العدالة ترتع
عليها جعلت الجند سورا مشيدا وحصنا حصينا للمفاسد يمنع
فأنعم ظل الله سيفا مجوهرا عليك به أنف الشقاوة تجدع

وانى لأرجو أن تكون ضميمة * * * عليها بلاد حازها قبل تبع (٥٤)

(٥٢) الزوراء - العدد ١٨١ من السنة الثالثة .

(٥٣) كان (كهية - كتحدا) فى بغداد أى : (باب العرب) وهذه
الكلمة تعنى الآن مدير شؤون العشائر وهو ابن أخت عبدالباقى العمري
وقد توفي سنة ١٢٨٨هـ أى : فى السنة التى نظم فيها هذه الابيات .
راجع (المسك الاذفر) ص ١٥٥ .

(٥٤) راجع (العراق بين احتلالين) ص ٢٦٥ - ٢٦٦ من الجزء
السابع .

وهذه مقطوعة اخرى لشاعر لم أهتد الى معرفة اسمه وهي مثل سالفاتها من حيث التعبير والفكرة ففيها مدح للسلطان والوالى وذم للذين حاربهم الجيش وفيها يقول :

بشائر الفتح فتح نجد قد أسفرت مثل ضوء صبح
اذ جهز الجيش جيش نصر من اسمه شائع بمدح
والى العراق الذى تولى بعزمه مع جميل صفح
طاعت وحوش الاعراب^(٥٥) طرا لبأسه بعد حسن نصح
بظل سلطاننا الملقى سامى الفتوحات رب منح
من العزيز القحاح وافى أرخت هذا عزيز فتح^(٥٦)

وهذه أبيات لشاعر من شعراء النجف وهو السيد ابراهيم الطباطبائي المتوفى سنة ١٣١٩هـ وقد أغفل ذكر المناسبة الا أن الابيات صريحة فى أنها نظمت فى هذه الحادثة لان فيها مدح السلطان عبدالعزيز وذكر نجد وقد جاء فيها قوله :

أعز ملوكنا عبدالعزيز أذل عداه بالأسل العزيز
فيا بحر العروض جرى طويلا بظهر البر يرشح بالنزير
ويا نجدا به نجد استقلت مشرعة العماد على النشور
رسا جبلا على الجبل المسامى تبيرا لا يزلزل بالهزير
أبى السيف الصنيع سوى قراع بكفك والقناة سوى الغموز^(٥٧)

شاعر مع الوهابيين :

لقد كان الشعر الذى قدمته فى الصفحات السابقة موجها ضد الدعوة الوهابية وأنصارها مستكرا أعمالها وحروبها مادحا مقاوميا من رجال الدولة العثمانية ، وجميع هذا الشعر على اختلاف منابه وعواطف أصحابه وعلى

- (٥٥) هذا التعبير من أساليب حكومة بغداد آنذاك . راجع العدد ١٩٥ من جريدة الزوراء - السنة الثالثة . ٢٨ شعبان ١٢٨٨هـ .
(٥٦) العراق بين احتلالين . ص ٢٦٦ - ٢٦٧ من الجزء السابع .
(٥٧) ديوان السيد ابراهيم الطباطبائي ص ١٤١ - ١٤٢ .

ما بين بعضه وبعض من بعد في الزمن وتفاوت في الاساليب يلتقى عند نقطة واحدة وهى مناهضة الوهابيين وأعمالهم ، ولكن شاعرا عراقيا واحدا انفرد بتمجيد الوهابيين وسار في ركابهم ومدح عقيدتهم وبرر أعمالهم وتملق رؤسائهم ، وهو السيد عبدالجليل^(٥٨) الطباطبائي البصرى المتوفى سنة ١٢٧٠هـ غير أن هذا الشاعر لا يستطيع أن يضع نفسه فى مصاف شعراء عصره من حيث الاسلوب والصيغة بل كان شعره وسطا وقد يسف فيه الى ما دون الوسط فيأتى به ألفاظا لا تخضع لغير الوزن كما أنه لم يستطع أن يسلك فى مبدئه السياسى طريقا واحدا لا ينحرف عنه فهو مع السعوديين حين يكون فى نجد وعلى ساحل البحر العربى وهو مع الدولة العثمانية وسلطينها وولاتها حين يكون فى البصرة موطنه وموطن أسرته وهو مع شرفاء مكة حين يحج بيت الله الحرام ، والدولة العثمانية وشرفاء مكة خصوم الدعوة الوهابية ، لذلك خلا شعره من الصدق وحرارة العاطفة ولكنه على كل حال يمثل لونا من ألوان الشعر العراقى فى تصوير جانب من جوانب الحركات السياسية وبخاصة تلك الحركات التى مثلتها الدعوة الوهابية فى نجد والاحساء وعلى الساحل العربى . ولو لم يكن السيد عبدالجليل يتردد على الأقطار الساحلية بين الاحساء والكويت والبحرين لاعماله التجارية ولو لم تلجئه الضرورة لما رضى أن يقعد فى مكان المعارضة لمعاصريه من شعراء العراق ففى الوقت الذى كان فيه هؤلاء الشعراء يرون الدعوة الوهابية مروقا على الاسلام وخروجها على الاجماع كان عبدالجليل يرى فيها احياء للدين وتشييدا لاركانه وقمعا للبدع وهو فى ذلك لا يختلف عن أى شاعر يعيش مع السعوديين آنذاك .

وأول قصيدة ينظمها فى مدح الوهابيين كانت بمناسبة حرب سعود بن عبدالعزيز مع أمراء البحرين سنة ١٢٢٤هـ وكان هؤلاء قد رفضوا الخضوع

(٥٨) أسرته معروفة فى البصرة ولها بساتين من النخل وقد ولد عام ١١٩٠هـ وسافر الى البحرين واشتغل بتجارة اللؤلؤ وكان كثير الاسفار وتوفى بالكويت وترك ديوان شعر سماه (روض النخل والخليل - ديوان السيد عبدالجليل) .

لسعود عن طواعية فأرسل اليهم جيشا أخضعهم وأمر رؤساءهم بالذهاب الى الدرعية فوصلوها في محرم من سنة ١٢٢٥هـ^(٥٩) وكان هؤلاء من آل خليفة أصدقاء الشاعر وكان هو في البحرين عندما غلبوا على أمرهم ولحقه من الضرر ما لحقهم فقد أسره أتباع سعود وبقي في أيديهم من صفر سنة ١٢٢٥هـ الى صفر سنة ١٢٢٦هـ^(٦٠) وقد قضى من هذه المدة ثلاثة أشهر في الدرعية عند سعود وسعى لفكك آل خليفة^(٦١) وكانوا قد بقوا في الدرعية الى رمضان سنة ١٢٢٥هـ^(٦٢) .

ويشير الشاعر الى أنه نظم هذه القصيدة في ذى الحجة سنة ١٢٢٤هـ^(٦٣) وأرسلها الى سعود بن عبدالعزيز ومعنى ذلك أنه أرسلها بعد المعركة التي وقعت بين سعود وأمراء البحرين^(٦٤) وقبل أن يقع هو أسيرا بأيدي السعوديين واذا صح ما زعمه فانه يكون قد خاف من الضرر فأراد أن يتجنبه بنظم القصيدة ولكنه وقع فيما خاف منه .

والقصيدة طويلة بدأها بالشكر للباري الذي أتحف الناس بدين (محمد) فأثار القلوب به فقال :

تباركت يا مولى الملوك الأعظم (وعزيت)^(٦٥) يا مبدى الجميل وراحمي

(٥٩) عنوان المجد لابن بشر ص ١٤٧ من الجزء الاول .

(٦٠) مباحث عراقية - ص ١٩٥ من الجزء الاول .

(٦١) المصدر السابق والصفحة نفسها .

(٦٢) هذه رواية الشاعر كما جاء في (مباحث عراقية) ص ١٩٦

ج ١ . اما عثمان بن بشر فيشير الى أن عودتهم كانت سنة ١٢٢٦هـ باذن من سعود . راجع (عنوان المجد) ص ١٥٤ ج ١ .

(٦٣) روض الخل والخليل - ص ١٤ طبع مصر و ص ٢٠ من طبعة

الهند .

(٦٤) حدثت حرب أخرى بين قوات سعود وبين أبناء الامراء من آل

خليفة سنة ١٢٢٥هـ وكانت بحرية أكثر منها برية وقد تغلب فيها آل

خليفة . راجع (مباحث عراقية) ص ١٩٥ ج ١ و (عنوان المجد) لابن

بشر ص ١٤٧ و ١٤٨ ج ١ .

(٦٥) يريد بها : (عززت) وهي لغة من يقلب الحرف الثاني من

المضعف ياء .

ثم قال :

جزى الله رب العرش بالصفح والرضى وبالخير من قد كان أصدق قائم

هو الورع الاواه شيخى (محمد) هو القات السجاد فى جنح فاحم

وبعد أن يستمر فى مدح محمد بن عبد الوهاب ودعوته التى جاء بها

فى زمن كثرت فيه البدع وانتشر الفسوق والعصيان وقل الناهون عن المنكر

والأمرون بالمعروف بعد هذا كله ينتقل الى مدح عبدالعزيز بن محمد الذى

آزر محمد بن عبد الوهاب فى بداية الدعوة ومكن للمعدل حتى تساوت لديه

الرعايا وفازت بالعيش الرغيد ، وقاد الجيوش مثل السيول :

فألبس أهل الشرك أثواب ذلة بأسر وقتل واكتساب المغانم

وبعد أن يحكم الشاعر على المسلمين بالشرك كما حكم عليهم

الوهابيون يقول :

الى أن أباد الله كل معاند وفرق شمل الباطل المتراكم

ورد جموع المشركين بغيظهم وما قط نالوا غير شر الهزائم

ثم يمدح سعود بن عبدالعزيز فيقول :

سعود أدام الله أيام سعده وكان له الاقبال خير ملازم

امام الهدى بحر الندى من سقى العدا كؤوس الردى حتى اهتدى كل راغم

وبعد أن يسبغ على سعود ما شاء من الصفات والنعوت يستعرض حادثة

آل خليفة أمراء البحرين والجيش الذى زحف عليهم من نجد والقواد

البواسل الذين قادوا ذلك الجيش فأخضعوا أمراء البحرين :

وألقى اليهم أمره ابن خليفة وعض لأمر غره كف نادم

فأولاه غفرانا وصفحا امامنا وناصحه فى أخذه للكرائم (٦٦)

(٦٦) بعد أن أفلت الشاعر من السعوديين ناقض نفسه فقد جاء فى

رسالة بعث بها الى صديقه فتح الله بن نعمة الله الحلبي مشيرا الى عودة أمراء

البحرين بعد أن أعطوا ابن سعود الموائيق بالطاعة وانهم نبذوا الموائيق .

جاء فى الرسالة قوله : « والذى ألجأهم الى نقض العهد هو ما أذاقهم سعود

من الذل والهوان وأخذ كريم الاموال من الخيل والركاب والسلاح . . »

راجع الرسالة فى (مباحث عراقية) ص ١٩٦ من الجزء الاول وهى مؤرخة

ويختم القصيدة بقوله مخاطباً سعوداً :

هنيئاً لك الملك الذي أنت أهله ومانعه من سوء باغ وظالم

وقد حذفنا من القصيدة أكثرها مكتفين بالإشارة إلى ما تضمن القسم المحذوف من أهداف وأغراض تتصل بالدعوة الوهابية ومؤسستها وأنصارها على أن قسماً منها غير قليل تعرض للحالة الاجتماعية في نجد وغيرها ولاسيما ما يتصل منها بالبدع والخرافات والمفاسد وسواء أكانت القصيدة بدافع من خوف أو طمع فإنها تصلح أن تكون متناً من متون التاريخ لتلك الدعوة في بدايتها^(٦٧) .

وفي موقف آخر من مواقف الطمع والتقرب ينظم هذا الشاعر قصيدة أخرى في مدح سعود بن عبدالعزيز عندما وفد إليه مع آل خليفة سنة ١٢٢٥هـ فيقول فيها :

عليك سلام أيها الملك الذي إليه ملوك العصر قد ألفت الأمرا
جمعت شتات المكرمات سجية فسدت الورى مجدا وفتتهم فخرا
وظاهرت دين الله بالبيض والقنا وبرهانك القرآن والسيرة الغرا^(٦٨)

والذي أراه أن هذا الشاعر لم يكن قد نظم هذا الشعر بدافع ديني ولم تكن مواقفه هذه بوحى من عقيدة بل كانت بدافع من الخوف والطمع لأنه حضري لا يقوى على مواجهة البدو ولا يطيق خشونتهم ودليل على تملق الشاعر وعدم صدقه فيما نظم من مدح للدعوة الوهابية وأنصارها ما جاء في رسالته التي بعث بها إلى صديقه الحلبي وهو قوله :

• لما كنا في أرض ابن سعود كنت في أسوأ حال كارها معاشره غير المشاكل والمجانس وفي أرض لا نعرفها وناس ما ألفناهم ٠٠٠ ثم ان جماعتنا من بني عتبة - يعنى بهم أمراء البحرين - بعدما من الله عليهم بالنصر والظفر على عدوهم وقطع دابرة ابن سعود من جميع ساحل البحر استراحوا

(٦٧) راجع القصيدة في (روض الخل والخليل) ص ١٤ - ١٦ من طبعة مصر و ٢٠ - ٢٢ من طبعة الهند .

(٦٨) راجع (روض الخل والخليل) ص ١٧ طبعة مصر .

واستقروا» (٦٩) . فأين نضع هذه الرسالة من ذلك الشعر ؟

في المرحلة الثانية :

وبعد أن استقل تركي بن عبدالله في الرياض معيدا الحكم السعودي أرسل اليه السيد عبدالجيليل هذا مقطوعة مع كتاب تأييد ريك الاسلوب وكان ارسال المقطوعة مع الكتاب في سنة ١٢٤٨هـ وهي جواب على كتاب ورد من تركي كما يدعى الشاعر (٧٠) ، وقد جاء في المقطوعة قوله :

أخذت بالهمة العلياء منفردا ما يعجز الجحفل الجرار مجتمعا
ونلت بالحزم ما لم يجز في خلد وأن يمد اليه طالب طمعا
صبرت محتسبا تحت المكاره لا من مسعد منجد أن تدعه سمعا
في قفرة ليس فيها للطريد حمى ولم تجد موثلا مهما تكن فزعا
لم يثك الهول عما رمت غايته ولم تكن في الذي كابدته جزعا
حتى امتطيت ذرى العلياء لا أشراً ولا فخورا ولا مستكبرا قذعا (٧١)

وبعد أن قتل تركي بن عبدالله سنة ١٢٤٩هـ على يد ابن اخته وجاء ابنه فيصل فقتل القاتل وحل مكان أبيه زحف جيش مصرى واحتل الرياض وسبق فيصل الى مصر سنة ١٢٥٤هـ ثم فر من مصر سنة ١٢٥٩هـ وعاد الى الرياض فاحتلها وأقام فيها يدعو الناس (٧٢) وفي هذه السنة أرسل اليه السيد عبدالجيليل قصيدة طويلة قال فيها :

امام أتنا بالمسرة والهناء وبالعز والعدل العميم وبالرشد

ومن المعروف أن أهل نجد من الوهابيين كانوا يطلقون كلمة الامام على كل من يتولى الحكم من آل سعود . ثم يشير الى ما حدث ليفصل في مصر :

فصل مصر عنه هل رأيت غير حازم أبي على حمل العنا صابر جلد

(٦٩) راجع : (مباحث عراقية) ص ١٩٦ ج ١ .

(٧٠) روض الخلد والخليل - ص ٦٥ و ٦٦ طبعة مصر .

(٧١) المصدر السابق ص ٦٦ .

(٧٢) راجع ص ٣٤ .

ففوض لله المهيمن أمره وعاد يحمد الله غير مدافع
وعاد يحمد الله غير مدافع عن الأمر ميمون النقية والقصد
ثم يصف حالة نجد بعد غياب فيصل في مصر فيقول :
وأهني اليك الحال مذغت غالنا بفيثك الدهر العبوس على عمد
جلاء وتنكيد وغرم وذلة ولا ناصر للحق ذو نخوة يجدي
ثم تتكشف الحقيقة عند الشاعر ويوضح عما في نفسه من أنه
لم يمدح عن عقيدة بل عن طمع وتقرب وأمل بالعطاء الذي يستريح به من
الكد والتعب فيقول :

وأرجو من الرحمن يبدل ما مضى بمال يريح القلب من وصمة الكد
واكفى من هذه القصيدة بما ذكرته لان معظم آياتها تكرار واعادة
للمعاني التي يعرفها الشاعر أو لا يعرف غيرها وهي معان مبتذلة لكثير من
النظاميين من أمثاله (٧٣) .

هذا ما استطعت أن أظفر به من الشعر العراقي الذي سار في ركاب
الدعوة الوهابية ومجد أصحابها وأتباعها والمحاربين باسمها ، وهذا الشعر
لم يكن من الرصانة والقوة بحيث يمكن أن يوضع من حيث المجموع الى
جانب تلك القصائد والمقطوعات التي ناهضت الدعوة الوهابية وأتباعها وان
كان بعضها ضعيف الاداء ركيك الاسلوب .

وهذا أيضا مجموع ما استطعت أن أظفر به من الشعر العراقي الذي
أوحته الدعوة الوهابية وحوادثها سلبا وايجابا وقد رأيت أن الشعر الذي
ناوأ الدعوة الوهابية وأصحابها كثير في الكم فهو لشعراء متعددين كان لهم
شأن في تاريخ الادب والشعر خلال القرن التاسع عشر وان أية موازنة
تعقد بينهم وبين شاعر واحد وقف في صف الوهابيين موقفا مضطربا تبدو
موازنة غير سليمة اذ ليس ثمة من تكافؤ في الاسلوب والعاطفة يجعل الموازنة
ذات أثر في البحث أو أنها من متماته ، وقد رأيت أيضا أن العاطفة الدينية

(٧٣) راجع القصيدة في (روض النخل والخليل) ص ١٤٦ و ١٤٧
طبعة مصر وعنوان المجلد لابن بشر ص ١٠٦ - ١٠٨ ج ٢ .

كانت أشد تأثيراً من غيرها في الشعر الشيعي الذي صور هجوم سعود على مدينة كربلاء وإذا كانت هذه العاطفة تلتقي مع النظرة السياسية ففي حدود اغفال الدولة العثمانية وعدم الاعتماد عليها في دفع الشر • أما بقية الشعر الذي وقف الى جانب الدولة العثمانية ومجد أعمالها في محاربة الدعوة الوهابية وأنصارها فانه شعر يدخل في باب المدح أكثر مما يدخل في باب العقيدة وان كان للعقيدة تأثير فيه كما في شعر عثمان بن سند الذي استعمل سلاح الوهابيين فحاربهم به ورماهم بالزيف والضلال ، وكما في بعض القصائد والمقطوعات الأخرى التي لم تغفل الجانب الديني في تبرير مواقف الدولة العثمانية من هذه الدعوة الجديدة •

الفصل الثاني

الشعر بين الحس العربي

والشكوى العامة

مر بنا في أواخر الفصل السياسي ما كان عليه العراق من تأخر في مجال التيارات الحديثة التي ظهرت في مصر وسوريا ولبنان وقد بينا الأسباب التي حالت بين العراق وبين التطور والاقبال وأدت الى بقاءه في تلك الدوامة العثمانية المطبقة فلم تسر اليه الأشعة التي امتدت الى البلدان العربية الناهضة ومنها الشعور بالحرية والاتفاض من سبات الجهل والحرمان وكان القصد مما أشرنا اليه أن نستعين على تفسير الشعر الذي يلمس منه استنكار للحكم أو استياء من مظاهره العامة في العراق وكذلك الشعر الذي قيل في الحماسة والفخر والاعتزاز بالعرب وأمجادهم القديمة وتأييد ثورات بعضهم هنا وهناك في تاريخهم الحاضر أو الشعر الذي شكاه فيه أصحابه من الفاقة والحرمان ونكد العيش مما له ارتباط بفساد الأحوال السياسية والاجتماعية ، ومما هو بديهي أن الشعر العراقي في القرن التاسع عشر كان يستمد مقوماته من التراث القديم ويستوحى في موضوعاته عصره وبيئته فلم يستطع الخروج عن هذا المحيط ليتلمس طريقه على ضوء المفاهيم الحديثة التي لم تصل الى العراق آنذاك لذلك بقيت الموضوعات والأساليب التقليدية أهم ما يرتبط به الشاعر فلم يكن باستطاعته أن يتناول الاهداف العامة التي تناولها بعض

الشعراء في مصر وسوريا ولبنان من المطالبة بحرية العرب واستقلالهم أو استقلال الشعوب التي ينتمون اليها على أقل تقدير بل لم يكن باستطاعة الشعر العراقي أن يدعو الى استقلال العراق وانفصاله عن الخلافة العثمانية التي كانت هي الاخرى موضوعا بارزا من موضوعات الشعر ، أما الشعر الذي يمكن أن يسمى ظاهرة من ظواهر الاستياء والمناهضة للحكم فانه كان يدور في أساليب محدودة لا يدل معظمها على سعة أفق وعمق تفكير وان كان بعضها قد ثار وحرص ودعا الى الانتفاض على الظلم وتناول سياسة الترك بما هي عليه من غدر وبطش ولكن هذا - كما قلنا - كان يدور في الافق الضيق المحدود ثم يذهب بذهاب فترة الاستيحاء ليعقبه شعر ممالىء للدولة وولاتها ان لم يكن من الشاعر نفسه فمن الشعراء الآخرين ولعل من النادر جدا أن نرى شاعرا خلا شعره من الجمع بين الضدين •

ومهما يكن من أمر هذا الشعر فانه يمثل الفكرة القومية في بداية المرحلة ويستطيع أن يشارك في بناء النهضة الحديثة للادب العربي الصاعد ، ومهما يكن من أمر هذا الشعر في ضيق النظرة فانه كان عدسة تلتقط في معظم الاحيان صورا مختلفة لتلك الظروف والاحوال السيئة ، وكانت توهج خلال ذلك الشعر التقليدي المكبل بأغلال المناسبات ومضات تطلق أشعتها في طريق المواطنين وان كانت ومضات ضعيفة متقطعة تبدو حيناً وتخفى أحيانا كثيرة •

طرق التعبير :

لقد سلك الشعراء في التعبير عن فساد الحكم واضطراب الحالة السياسية طرقا متعددة لا تقل عنها طرق التعبير عن النزعة العربية التي ظهرت في شعرهم فقد كان بعضهم ذاتيا لا يتجاوز حدود الشكوى من الفقر والفاقة والسخط على المجتمع وظلمه وقسوته وعلى الحياة وضيقها ، وكان بعضهم يخرج عن ذاته فيصرخ بقومه ويحثهم ويناديهم ويندد بالظلم ويتألم ويدفعه ألمه الى اليأس حيناً والى الرجاء حيناً آخر ، وكان بعضهم في شعره

القومي قبل النزعة لا يفاخر الا بنفسه ولا يتحدث الا عن آبائه وأجداده ومثل هذا الشعر لا يختلف في موضوعه عن أي شعر افتخر به القدماء في عصور الحكم العربي غير أن بعضهم كان يصور الاماني التي يفكر بها ويرسم لها طريق الوصول ولكن بحروب خيالية فيها كل خصائص الحروب ثم لا يقع شيء من ذلك الا في عالم الشعر وحده . والى جانب ذلك كان نوع من الشعر يعبر عن نزعة خاصة لا تريد الحكم الا لبيت خاص من بيوت العرب وهذا الشعر هو الذي يتغنى به بعض الشعراء العلويين فهم حين يصرخون ويفتخرون وحين تثور حماستهم لا يرون موضوعا لهذا الفخر غير الانتساب للنبي وآله ولا ينتظرون قيام حكم صالح الا على أيديهم^(١) في حين أن هؤلاء الشعراء مدحوا السلاطين والولاة في الدولة العثمانية شأنهم في ذلك شأن غيرهم من الشعراء الذين جمعوا بين الضدين فيما تناولوه من موضوعات ، وفيما يلي عرض لأهم تلك الطرق والصور التي عبر بها الشعراء عن نزعاتهم العربية أو عن ثوراتهم وسخطهم على السياسة وما فيها من اجحاف وقسوة .

الفخر والحماسة :

هذا اللون من الشعر ولد مع الشعر العربي وصوره شائعة في العصر الجاهلي وما بعده وعلاقته بالسياسة ناشئة من ارتباطه بالحياة القبلية أيام كانت القبيلة صورة مصغرة للدولة فالشعر الذي يفاخر بها انما هو تأييد لها ولسياستها ومثله الشعر الخاص الذي يعبر عن ذاتية الشاعر ونفسه دون الاشارة الى القبيلة أو البيت الذي ينتمي اليه اذا كان ذلك التعبير يتناول الدوافع والبواعث التي حملته على الفخر والحماسة ومنها الشعور بالذل وعدم الاستقرار ، غير أن هذا الذي قلناه لا ينطبق على القرن التاسع عشر تمام الانطباق فان وجود القبيلة العربية في العراق لا يعنى أنها مستقلة سياسيا وانها تحكم نفسها بنفسها فما يقال فيها من الشعر يعد شعرا سياسيا

(١) سيأتي فصل خاص بالشعر السياسي عند الشيعة .

لانه يدافع عنها ويفاخر بها ، أو ما ينظمه بعض الافراد لذاته ونفسه يعد أيضا شعرا سياسيا اذا كان فيه تعبير عن البواعث والدوافع ، ولهذا السبب لا يمكن الحكم على هذا اللون من الشعر بأنه يمثل رأيا سياسيا واضحا وانما تبدو أهميته في كونه تعبيرا عن نزعة لا تريد الذوبان في تيار العجبة الحاكمة وفي كونه من عوامل التنبيه الى مواطن العزة والتماكب ازاء ذلك التيار المخيف وان لم يكن ذلك من قصد الشعراء في بعض الاحيان أو في كثير من الاحيان لانهم شعراء مقلدون في موضوعاتهم وشعر الفخر والحماسة قد تكون صلته بالتقليد والمحاكاة أقوى من صلته بالاستقلال النفسى والشعورى في القرن التاسع عشر ، ومثل هذا الشعر كثير لا يمكن استيعابه ولما كانت صورته متشابهة فان بعضها يكفي للدراسة والحكم ومن صورته قول عبدالباقى العمري في تخميسه قصيدة السموأل :

لئن نزت أعدادنا فزارنا جانا بما تحمى به الجار دارنا
فعر على كل البرايا جوارنا « وما ضرنا انا قليل وجارنا
عزيز وجار الأكثرين ذليل » (٢)

وللاخرس البغدادى صور كثيرة من الفخر الذاتى والحماسة المتدفقة ، وهو - وان أكثر من مدح السلاطين والولاة - لم يكن يردد في الغالب فخره وحماسه الا فى الشعر الذى يكون ممدوحه فيه عربيا أو علويا شريفا ومن ذلك قوله من قصيدة فى مدح أبى الثناء الالوسى :

اذا رأيت الذل رحلت له أنضاء أسفار وناوحت النوى
ونازعتنى شيمة لا ترتضى الا المعالى غاية ومنتهى
وكم هجرت موطننا من أهله والدار من سكانها قد تجتوى (٣)
وقوله فى قصيدة يمدح بها نقيب بغداد (٤) :

ولست مقيما ما أقمت بمنزل وعيشي أنكاد تسوء وأنكال

(٢) راجع (الترياق الفاروقى) ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(٣) راجع (الطراز الانفس) ص ٢٨ .

(٤) هو السيد على النقيب وقد توفى سنة ١٢٨٦ هـ .

وتصحبني في كل فجع عزيزتي وأبيض هندي وأسمر عسال
وما ملكت مني المطامع مقودا لصاحبها في موقف الضيم اذلال^(٥)

وإذا كان عيش الاخرس أنكادا وانكالا فانه لم يكن ذا سيف ورمح
ومغامرات وانما هي خطرات تقليدية فيها شيء من التعبير عن واقع
حياته المرة •

ويجرد الاخرس من نفسه شخصا آخر فيخطبه مثيرا مستفزا لحمل
السلاح وخوض الحروب فيقول :

فاترك الهزل يوم جد بجد ان هزل المقام بالشهم ذام
واطلب العز بالقنا والمواضي انما العز ذابل وحسام
فمرام المنى وتيل المعالي بسوى البيض والقنا لا يرام
واقحمها اذا نبت بك يوما فأرى المجد بابه الاقتحام
وادفع الشر ان علمت بشر ربما يدفع السقام السقام
وتقلد بالرأى قبل المواضي ليس يجدى بغير رأى صدام^(٦)

ان هذه المقطوعة من الشعر التعليمي وفيها حس قومي يؤمن بضرورة
العمل والكفاح ، وتثور حماسة الاخرس في قصيدة اخرى تدل على ما كان
يشعر به من ألم شديد في موطن لا يجدى الاحرار فيه غير حمل
السلاح فيقول :

ألا ثكلت أم الجبان وليدها وفازت بما حازته أم المخاطر
أحن الى يوم عبوس عصبب تنوق له نفسى حنين الأباغر
الى موقف بين الأسنة والطبي ومنزلة بين القنا والمشاجر
يكشر فيه الموت عن حدنا به وتعدو المنايا داميات الأظافر
ترفعت عن قوم اذا ما اختبرتهم وجدت كباراً في ثياب الأصاغر
اذا ما رأيت الحي بالذل عيشه فأولى بذاك الحي أهل المقابر^(٧)

(٥) الطراز الانفس ص ٣٠١ •

(٦) الطراز الانفس ص ٣٤٢ •

(٧) من مجموعة للاخرس لم تنشر • الورقة ١٢ من نسختي الخطية •

وهذا شاعر آخر من أسرة عربية معروفة في بغداد والعراق وهو
 عبد الحميد بن أحمد الشاوي المتوفى سنة ١٣١٣هـ ١٨٩٦م فقد ترك لنا هذا
 الشاعر من فخره وحماسه ما يدل على طموح وثورة واندفاع وتصوير
 لعصره وبلده الذي سعدت فيه الأندال والثام واستخذي الاماجد ، ومن
 ذلك قوله مفاخرا بنفسه وبأسرته :

أرقت وهل يهجع المقصد وليس لليل المعنى غد
 وبت أراقب سير النجوم كأنني بها ساهر أرصد
 بقلب قريح له لوعة تشب ضراما فما تخمد
 ويقول فيها معبرا عن استيائه من بغداد موطن أسرته :

فلولا عواد عدت جمّة لقلت - وان كنت لا أقصد - :
 سقى الله بغداد صوب الحيا وطالعها الطالع الأسود
 وان لم يكن لي في شظها - وان لج بي ظمأ - مورد
 ولكن تركت بها معشرا لهم طارف المجد والأنند
 هم الناس ان عدّ أهل العلا وان ذكر الاصل والمحتد

ثم يحن الى الكرخ موطن أسرته ويشكو من دهره غير آبه بأحداثه :
 وفي الكرخ لي كبد غودرت وقلب أضيع فما يشد
 لقيت من الدهر ما بعضه يذوب له الحجر الجلمد
 ولست لاحداته ضارعا ولا أنا مكثب مكمد
 ولكثي أنا جار على مدى همة شأوها أبعد

* * *

ولست أبالي اذا الحادئات عظمن الى أيها أعمد
 وقومي الألى الصيد سادوا الوري وشادوا من المجد ما يخلد
 فتعسا لدهر أخوه اللثيم وأكبر أعدائه الأمجد^(٨)
 وبرز الحسن العربي على لسان هذا الشاعر في قصيدة اخرى لعلها

(٨) أخذت بعض هذه القصيدة من الاستاذ محمد بهجة الاثري وبعضها
 الآخر من مجموعة مخطوطة لآل الشواف .

أشد عنقا من القصيدة السابقة وأوضح تصويرا لما كان يشعر به من غبن في بغداد وما كان يلاقيه من جفوة وعدم تقدير لكفائته وكفاية أسرته في بلد ساد فيه الاراذل والعييد - كما يقول - أو كما يشهد واقع الامر في رسم لنا صورة من صور هذا الانفعال وهو بعيد عن بغداد وكان قد أرسل من لدن الحكومة العثمانية الى نجد ليقوم بسفارة خاصة بين الدولة وبين رؤساء نجد ، وقد أرسل القصيدة الى أبيه أحمد الشاوي وفيها يقول :

تذكرت بغداد بعد الهدوء ونحن بنجد وقيعانها
وما ذكر بغداد من حبا ولا من مودة سكانها
ولكن تذكرتها اذ زهت بمطعام حبير مطعانها
بسيدها وابن ساداتها ملوك الوري حلي تيجانها
أبي وأبو كل أكرومة توارثها صيد قطحانها
وبعد هذا الفخر بأسرته وبأبيه يستنكر الإقامة في بغداد التي لم تعترف
بالجميل لآل الشاوي حين دافعوا عنها وصدوا الجيوش الايرانية عن
العراق فيقول :

فقم الإقامة في بلدة تناكرنا بعد عرفانها ؟
كأن لم نذد عن حماها الجيوش ناكسة نحو ايرانها
بيض يعجل تضاربها فراق الرؤوس لأبدانها
وسمر يزرن قلوب العدا ة خلف مضاعف أبدانها(*)
وخيل اذا أقبلت في الوغى حسبت تتابع عقيانها
حقنا دما أهلها بالدماء وصنا عقائل نسوانها
ولو لم ندافع لظلت تباع سايا بأبخس أثمانها

* * *
وبغداد تلقى بها جفوة وضيما لقله انسانها
يضام أفاضل أشرافها وتسمو أراذل عبدانها
تدنس فيها صدور الندى بعور القروود وعميانها

(*) البدن = الدرع القصيرة أو الدرع عامة .

فلا خير يرجى لدى شبيها وقبحا وتعسا لشبانها
تساوا بجمع خصال اللثام تساوى الحمير بأسانها^(٩)

وقد يخيل لبعضهم ان الشاعر كان يهجو أهل بغداد ويشتمهم ولكن الحقيقة التي تكمن خلال القصيدة وتستمد عنصرها من واقع الحياة انما هي غير ذلك ، انها اثاره الحس حين يخمد ، والشعور حين ينام ، انها نفثة شاعر عربي يريد أن يرى بلاده غير خاضعة لظلم مخيم عليها وأن يكون للمدافعين عنها من أبنائها مكان الصدارة بين الناس .

الشكوى من الحياة :

عندما يطفح الالم في قلب الشاعر ونفسه لا يلبث أن يتحول الى صرخة شاكية وكثيرا ما يكون ألم الشاعر من ضيق الحياة وقسوة الحوادث العامة وهذا ناشئ من اضطراب السياسة وفقدان العدل والامن ، وفي الصور التي سأعرضها ما يمثل هذا الرأي ويكشف عنه لانها لم تكن مقصورة على الشكوى والالم وعلى النظر الى الحياة من زاويتها السوداء التي يراها الشاعر بل سلك الى جانب ذلك مسلكا مثيرا وشكت من الضيم والذل والهوان وقد كان الاخرس البغدادي أكثر الشعراء تلمسا لهذه الناحية فقد استغل مدائح في (عبدالغنى الجميل) وأمثاله من العراقيين ممن لهم شأن في المجتمع للتعبير عن ألمه وشكواه وكانت وثباته خلال هذه المدائح شديدة الانفعال ومن ذلك قوله في قصيدة يمدح بها عبدالغنى الجميل سنة ١٢٦٤هـ :

أسفا على أيام عمر تنقضى كدرا وتذهب بالمني تأميلا
وبنات أفكار لنا عربية لا يرتضين سوى الكرام بعولا
تأبى المروءة أن أرانى واقفا في موقف يدع العزيز ذليلا
أو أنتى أرضى الهوان وأبتغى بالغر - لا عاش الذليل - بديلا^(١٠)

(٩) هذه القصيدة نشر كثير منها في بعض الكتب الحديثة وقد أخذتها من بعض المجموعات الخطية .

(١٠) راجع (مجموعة عبدالغفار الاخرس) ص ٢٩ - ٣١ وفي (الطراز الانفس) ص ٤٢٧ - ٤٢٨ .

ويقول في قصيدة اخرى يخاطب بها عبدالغنى الجميل وقد نظمها

سنة ١٢٦٥هـ :

اليك أبا (محمود) (١١) أشكو حوادنا كثير على الحر الكريم أذاها
أرى هذه الدنيا لمن ذل أصبحت ذلولا وان كان الأبى أباهما
تسئها من كان من دون خفها وكنا نراه تحتها فعلاها (١٢)

ويمدحه بقصيدة اخرى فى سنة ١٢٦٧هـ فيقول فيها :

متى أترك النوق الهجان كأنها لها - كلما ضل الدليل - دليل
وأخذ اليد القفار أخلة (اذا ما جفاني صاحب و خليل)
الى حيث لا يشقى النزيل بجواره ولا الدهر يعدو بالأذى ويصول
وأترك دار الهون مأوى لمعشر عزيزهم فى النابتات ذليل
وما عن قلى أجفو العراق وأهله ولكن روضى بالعراق محيل
ولو كنت ممن يشرب الماء بالقذى رويت وفى رى الذليل غليل (١٣)

ان هذه المقاطع ليست مجرد شكوى من الزمان والحياة وليست مجرد
ثورة نفسية ينفرد بها الشاعر لو لم تكن ثمة بواعث مثيرة ولو لم يكن
تجاوب بين المادح والمدحوق فى استبطان هذه البواعث والاحساس بها ، بل
لو لم يكن هناك ظلم وفساد نظام .

وهذه قصيدة اخرى لعل فيها شيئا من الظرافة ولكنها تنطوى على
جانب غير يسير من تصوير الحالة السياسية ، وظرافة القصيدة تأتي من أن
الشاعر سرقت داره فى ليلة التاسع والعشرين من شهر رمضان سنة ١٢٦٧هـ
فنظم هذه القصيدة ليخبر عبدالغنى الجميل بما حدث له ويصور الدار
والسرقة والاولاد الصغار وأمهم فيقول :

(١١) هو محمود بن عبدالغنى الجميل وقد توفى سنة ١٣٢١هـ

١٩٠٣م .

(١٢) راجع (مجموعة عبدالغفار الاخرس) ص ٣٣ - ٣٦ .

و (الطراز الانفس) ص ٤٣٠ - ٤٣٢ .

(١٣) مجموعة عبدالغفار الاخرس . ص ٥٦ - ٥٩ - والطراز

الانفس . ص ٢٨٠ - ٢٨٢ .

يا ليلة في آخر الشهر قد جئت بعد الصوم بالفطر
كشف الصباح لنا حوادثها وتكشفت عن مضر الغدر
أصبحت منها غير مفقرا أبدا الى حرس على وكر
وانما ذكرت هذه الايات لتكون دليلا على عدم استقرار الامن في
بغداد وعلى جرأة اللصوص الذين كانت أيديهم تمتد حتى الى بيت الشاعر
الآخرس وحتى في شهر رمضان *

ثم يأتي بعد ذلك تصوير الحالة السياسية في بغداد فيقول :

بعد الرجاء بموطن خشن يلقى الكرام بجانب وعر
بلد كبار ملوكه بقمر صاروا ولاة النهي والأمر
لا يفقهون حديث مكرمة فيزههم نظمي ولا نثري
أصبحت أشقى بين أظهرهم فكأنني أصبحت في أسر
يرقى الدني الى مراتبهم حتى يريك الثعل في الصدر^(١٤)

وفي الحق انها جرأة من الشاعر أن يشبه حكام بغداد بالبقر وأن يعبر
عن المقربين لديهم بأنهم ليسوا الا من الادنياء وان تظاهروا بالنفوذ والقوة *
ولكن صرخة الآخرس تشتد في مكان آخر وفي قصيدة اخرى يخاطب بها
عبدالقنى الجميل فيبدو أكثر صراحة وأشد ألما من الحياة ومن الظلام
الذي لا يريد أن ينجلي حتى صار العراق موردا عذبا للكلاب وصار الاحرار
لا يجدون متسعا فيه فيقول :

وحسبك منى صبر أروع ماجد بمستوطن ضاقت بمنلى رحابه
تذاد عن الماء النعير أسوده وقد تلغ العذب الفرات كلابه
ألم يحزن الآبى رؤوس تطامنت وفاخر رأس القوم فيه ذنابه
وأعظم بها دهبها وهي عظيمة اذا اكتف الضرعام بالذل غابه
متى ينجلي هذا الظلام الذى أرى ويكشف عن وجه الصباح نقابه
وتلمع بعد اليأس بارقة المنى ويصدق من وعد الرجاء كذابه^(١٥)

(١٤) مجموعة عبدالغفار الآخرس * ص ٥٩ - ٦٢ و (الطراز

الانفس) ص ١٩٧ - ١٩٩ *

(١٥) المجموعة ص ٨٨ - ٩٠ - والطراز ص ٥٢ - ٥٤ *

وفى قصيدة اخرى يثور الاخرس حتى كاد صبره أن يتمزق فيقول :
 أنى تغيرت البلاد وأهلها وأتى عليها الدهر وهو مفرق
 هذى هي الدنيا كما تريانها حرم الليب بها وفاز الأحق
 فصبرت فيها والخطوب متاحة لا ضاجر منها ولا أنا مشفق
 حتى رأيت الثائبات تقول لى : عجبا لصبرك كيف لا يتمزق^(١٦)
 ثم تأتي قصيدة اخرى فى مدح عبدالغنى الجميل ويندس خلالها
 مقطع نائر فيه شعور بالقومية الكريمة المهانة واحساس بهوان تلك القومية
 لدى الاعجاب الحاكمين وسخط على الاقامة فى موطن الذل والهوان ذلك
 الموطن الذى تساوى فيه الاشراف والانذال فيقول :

أسفى على عمر تقضى شطره فى خيبة المسمى الى الآمال
 وبنات أفكار لنا عربية رخصت لدى الأعجاب وهى غوالى
 عجبا لمثل أن يقيم بموطن مثابه الاشراف بالأنذال
 تقضى نواظره بأوجه معشر لا يعثرون بصالح الأعمال
 ولعت بهم أيامهم من دوننا ما أولع الايام بالجهال^(١٧)
 ويستغل الاخرس عزل أبى التناء الالوسى من وظيفة الافناء فى بغداد
 وحرمانه الاوقاف التى كان يعيش منها^(١٨) فينظم قصيدة يستعرض بها هذه
 الحادثة ويجعل لنفسه وتصوير حياته نصيبا منها فيقول :

أمثل يطفوف الارض شرقا ومغربا على أدب يرضى من الكثر بالقل
 وتقذفنى الاسفار فى كل وجهة فمن مهمه وعزالى مهمه سهل
 وتحرمنى الايام ما استحقه فلا كانت الايام اذ ذاك فى حل
 وأرجع أختار الاقامة خاملا حليف الجهول الوغد والحاسد النذل

(١٦) المجموعة ص ١١٥ - ١١٦ والطراز ص ٢٦٨ - ٢٧٠ .
 (١٧) مجموعة عبدالغفار الاخرس . ص ١٠٢ - ١٠٧ والطراز
 الانفس ص ٢٨٥ - ٢٨٨ .
 (١٨) كان تعيينه مفتيا لبغداد فى سنة ١٢٥٠هـ أيام الوالى على رضا
 وبسعى من الشاعر عبدالباقي العصرى وكان عزله فى سنة ١٢٦٣هـ ١٨٤٧م
 أيام الوالى محمد نجيب . راجع (غرائب الاغتراب) ص ٢٣ - ٢٤
 و (مقامات الالوسى) ص ٥٢ .

وقد عكفت قوم على كل جاهل كما عكفت أقوام موسى على العجل
فتبا لدهر تستذل قرومه وتستكبر الأبدال فيه وتستعل

الام أمني نفس حر أيبة * * *
شديد عليها في الدنا موقف الذل
ثم يخاطب الالوسي قائلا :

يحط سواك العزل عن شرف العلا ومثلك لا ينحط ما عاش بالعزل
وكم منصب قد قال يوما لأهله اليك اذا عنى فما أنت من أهلي^(١٩)

فالأخرس استاء وتألم لعزل الالوسي وندد بالسياسة التي اندفعت الى
مثل هذا العمل مع رجل في طبيعة رجال الدين ومن أعوان السلطان والولاء
والمدافعين عن الخلافة فيما ألف وكتب ولكن الآخرس لم يكن نائرا في
كل ما مدح به الالوسي كما كان موقفه في مدائحه لبعده عنى الجميل وسر
هذا انما يرجع الى شخصية بعده عنى نفسه والى موقفه من الحكم وصلابته
في ذلك الموقف أكثر من غيره من رجال بغداد حتى ملأ قلب الآخرس^(٢٠)
فاستجاب له بقصائد كثيرة *

ولم يكن الآخرس وحده الشاعر الناثر على الحياة وعلى فساد نظامها
بل كان لشعراء آخرين ما يشبه الصور التي رسمها في هذه الثورة النفسية
وان كانوا أقل منه تصويرا وحسا ومنهم بعده عنى الذي نال من
المكانة السياسية ما يمكن أن يحسد عليه مثله في عصر الولاية وغيرهم ولكنه
في بعض لحظاته الذاتية كان يشعر بالالام لقلق مركزه السياسي بين
العواصف التي كانت تهدده دائما حتى تعرض لما يتعرض له أى موظف في
الدولة وفي مثل هذه اللحظات استجاب له شاعريته فقال :

ما لزمانى دون كل الأزمن أوقعه الله بـداء مزمن

(١٩) الطراز الانفس ص ٣٠٩ - ٣١١ .

(٢٠) قال الآخرس : * ولم أر فى مدينة السلام من العلماء الاعلام
والسادات الكرام ٠٠٠ من يضاهيه فى علو الهمة وبعد المرام ، ومكارم
الاخلاق وشدة البأس والتوغل فى معالى الامور على أنى قد سبرت أغوارهم
واقترفيت آثارهم * ، راجع (مجموعة بعده عنى الآخرس) ص ٢٣ .

يقصى الأعلى ويقرب الدنى ويعتني بهم وعنهم يعتنى
فكل طاووس طويس المدنى وكل قرنان أويس القرنى
من زمنى واحربا واحزنى وأسفى والهفى من زمنى (٢١)

وهذا السيد راضى القزوينى (٢٢) يعبر عن ألمه من الحياة وفساد
الايوضاع فى قصيدة من الشعر الخمس فيقول :

أترجو أن تبلى صدى رجاء ببحر كالسراب لعين رائي
فوالهفى لآمال ظمء متى تصل العطاش الى ارتواء
إذا استقت البحار من الركايا

تساوى الناس منخفض وعال وذو نقص يعد كذى كمال
فزر يا موت أرباب المعالى إذا استوت الأسافل والأعلى
فقد طابت منادمة المنايا (٢٣)

شعراء علويون

مر بنا فى الصفحات السابقة نماذج من الفخر والاعتداد بالنفس
وتصوير الحياة القاسية وفساد الاوضاع العامة فى شعر عبدالغفار الاخرس
وراضى القزوينى وهما شاعران علويان فى نسبهما غير أن هذا النسب لم
يظهر أثره فيما عرضنا من الصور لهذين الشاعرين كظهوره فى شعر آخرين
من شعراء العراق فقد وجدنا شعرا يمثل النزعة العلوية الهاشمية ويفخر بها
كالذى حدث للشريف الرضى وأضرابه من الشعراء العلويين القدماء ، ومما
لا شك فيه أن تاريخ العلويين تاريخ مصبوغ بالدماء وقد بدأ هذا التاريخ منذ
صدر الاسلام ومنذ أن شعر هؤلاء بأن حقهم مغصوب فحملوا السيف
وخاضوا المعارك وقتل منهم عدد غير قليل ، ومنذ أن انتقل الحكم الى بنى

(٢١) الترياق الفاروقى . ص ٣٩٧ .

(٢٢) هو ابن الشاعر السيد صالح القزوينى وقد توفى سنة ١٢٨٧ هـ

فى تبريز .

(٢٣) راجع (ديوان السيد صالح القزوينى) الورقة ١٤١ من

مخطوطات مكتبة الآثار ببغداد .

أمية كانت حياة العلويين عرضة للقتل والتضييق بسبب ثوراتهم ومناواتهم للحكم ولم يختلف العصر العباسي عن العصر الاموي بالنسبة لمحاربة العلويين الذين لم يقف دون طموحهم قتل أو تشريد أو سجن وقد رافقت هذه الاعمال الطامحة من لدن العلويين خطرات من الشعر القوى النابض بالحركة والحس ولعل قصائد الشريف الرضي خير مثل لتسجيل ذلك الطموح ، أما القرن التاسع عشر فقد استمع الى أناشيد العلويين على ضفاف الفرات والى أمانيهم التي تعبر عنها تلك الاناشيد وهي لا تأتي على الاكثر الا في مراثي الامام الحسين فاروا ونادوا بحمل السلاح واستنهضوا قومهم لاختذ الثأر من أعدائهم وخصومهم واذا كان الاخذ بثأر الحسين قد انتهى بانتهاج بنى أمية فان من المؤكد أن العلويين كانوا يريدون حكما غير الحكم الذي يتزعمه العثمانيون آنذاك ، وقد سلك الشعراء العلويون في التعبير عن أمانيهم مسالك شتى فمنهم من اقتصر على الفخر والاعتزاز ومنهم من نادى بحمل السلاح ومنهم من مجد ثورة بعض الهاشميين العلويين هنا وهناك ، ومنهم من مزج بين السياسة والدين فيما نظم فاستوحى العقيدة الشيعية ودعا الى قيام حكم علوي وثار على أعمال الدولة العثمانية واستنهض الامام المهدي للقضاء على هذه الدولة ، وسيأتي في فصل خاص أثر العقيدة في الشعر لذلك لا أرى حاجة لاستعراض هذا الشعر الكثير المصبوغ بالدم وانما أكتفي ببعض النماذج التي تمثل خطرات العلويين في مجال الاعتزاز والفخر وتمجيد بعض الثورات التي حدثت لغير واحد من العلويين في البلاد العربية .

ولعل صور الفخر والاعتزاز والحماسة المتدفقة انما تظهر جلية واضحة في شعر السيد حيدر الحلبي المتوفى سنة ١٣٠٤هـ ١٨٨٧م ولاسيما في قصائده التي رثى بها الامام الحسين فقد كان هذا الشاعر في مراثيه من أدق الشعراء تعبيرا وأقدرهم على تصوير الالم والحزن واذا كانت هذه المراثي تتصل - أكثر ما تتصل - بمأساة تاريخية آلت جميع الطوائف الاسلامية فان صلتها بالعقيدة الدينية أشد من صلتها بالناحية السياسية الا اذا عرضنا الى هذه المأساة من زاوية التاريخ السياسي وظهور الاحزاب في

العصر الاموى ومنها الحزب العلوى المناوىء للسياسة الاموية ومن هذه الزاوية يمكن ربط الاندفاع فى شعر السيد حيدر الحلى الى مخاطبة الهاشميين وحثهم على النهوض بالخيطة السياسى الدقيق فى القرن التاسع عشر فهو لا يريد أن يستقر أو يهدأ حتى يرى العلويين قد استعادوا حقهم وأسسوا الحكم الذى يريدون ولو كان بعد هذه المأساة بمئات السنين ولما كان السيد حيدر الحلى قد أسهم اسهاما فعالا فى تكوين الفصل الخاص بالعقيدة الشيعية وأثرها فى الشعر فان مجاله هنا انما يأتى فى الخطرات المعبرة عن نزعة الهاشمية وحماسه واثارته العلويين لكى يحملوا السلاح فى وجه أعدائهم ومثل هذه الخطرات كثير فى شعره ، ومن ذلك قوله فى مقدمة قصيدة يرثى بها الامام الحسين :

يا آل فهر أين ذاك الشبا لست ظباك اليوم تلك الظبي
للضيم أصبحت وشالت ضحى نعامة العز بذاك الأبا

ما بقيت فيك لمستتهض * * *
بقية للسيف تدمى شبا

حتى على الموت بنى غالب * * *
ما أطيب الموت بحر الظبي (٢٤)

وقوله متحمسا فى قصيدة اخرى يرثى بها الامام الحسين وهى من أعنف قصائده أداء وتعبيرا :

ان لم أقف حيث جيش الموت يزدهم فلا مشيت بى فى طرق العلا قدم
عندى من العزم سر لا أبوح به حتى تبوح به الهندية الخدم

مالى أسالم قوما عندهم ترتى * * *
لا سالتنى يد الايام ان سلموا (٢٥)

ولكن الشاعر مات ولم يحمل سيفا ولم يقف فى معركة .
وفى لحظة اخرى من لحظات الانفعال ندد بموقف الاستسلام

(٢٤) ديوان السيد حيدر الحلى ص ٩٠ طبعة الهند .

(٢٥) المصدر السابق ص ٣٦٦ .

والركون الى الضيم وحث على حمل السلاح لدفع ذلك الضيم فقال :
 حلوك في محل الضيم داما وحد السيف يأبى أن تضاما
 وكيف تمس جانبك الليالى بذل أو تحل به اهتضاما
 ولم تضرم بحد السيف حربا الى كبد السماء ترى الضراما
 أتبذل للخمول جناب حر يحاذر أن يعاب وأن يذاما
 وآلك في الظبي شرعوا المعالي وجيش الموت يزدهم ازدحاما^(٢٦)

ومثل هذه المقاطع الحماسية النائرة ما قاله السيد صالح القزويني^(٢٧)
 في قصيدة رثى بها الامام الحسين :
 فما أنا ان لم أدرك المجد والاعلا بجدى وجدى من على وفاطم
 من الضيم أن يغضى على الضيم سيد نسته أباة الضيم من آل هاشم^(٢٨)

ومثله السيد ابراهيم الطباطبائي فانه يجدد لنا حماسة الشريف
 الرضى بقوله :

الام على الضيم اغضائيه وكم ذا على الهم اغماضيه
 وكم ذا أكم أسراريه أما أن يظهر اعلانيه
 فاما أنال المنى بالقننا والا المنية أولى ليه
 واما لأفضى العلا حقها والا فيا ليتها القاضيه^(٢٩)

أما السيد جعفر الحلي فانه يصدر قصيدة في رثاء الامام الحسين بمقطع
 حماسي مندفع الى الحرب وحمل السلاح فيقول :

في طلب العز يهون الفنا ولا يروم العز الا أنا
 لا يبد لي في العمر من وقفة بين الظبي البيض وسمر القف
 لا عشت ان لم استدر للوغى رحي سوى الهامات لن تطحنا

(٢٦) المصدر السابق ص ٣٦٩ .

(٢٧) توفى سنة ١٣٠١ هـ ١٨٨٤ م .

(٢٨) راجع (الدرر الغروية) الورقة ٦٠ من مخطوطات مكتبة الآثار

بيغداد .

(٢٩) ديوان السيد ابراهيم الطباطبائي ص ٢٧١ - ٢٧٣ .

وانتضيتها في وجوه العدى بارقة اما لهم أو لنا (٣٠)
 ان هذه التماذج والالوان التي ذكرتها لهؤلاء الشعراء العلويين ليست
 الا خطرات عرضت في مجال الرثاء أو لمجرد الحماسة والفخر اذ لم يعرف
 عن هؤلاء الشعراء أنهم حملوا سلاحا أو استعانوا بعمل حربي ليحققوا
 آمالهم غير أنهم كانوا بهذه الاناشيد والقصائد من الناقمين المحرضين على
 الثورات وقد كثر في شعرهم هذا استعمال كلمات الضيم والذل والظبي
 والرماح وهي من الكلمات المثيرة الدافعة •

ولكن الشعور العلوي لم يقف عند حدود الخيال الاسترجاعي ليتخذ
 من مأساة الحسين مصدرا للشعر الناقم الناثر بل كان بعض الشعراء قد
 استوحى الحوادث المعاصرة واتخذ من وثبات بعض الهاشميين مادة للشعر
 القومي وغنى واستبشر وفرح وهتف للارهاص الجديد بتطلع الهاشميين الى
 الملك والى مناهضة العثمانيين أو غيرهم ممن يقفون في طريق الحكم العلوي
 ومن ذلك ما استوحاه السيد جعفر الحلّي من ثورة امام اليمن محمد بن يحيى
 المتوفى سنة ١٣٢٢هـ فقد نظم قصيدة أرسلها الى الناثر في سنة ١٣١٢هـ وقد
 جاء فيها قوله :

مر وانه واحكم فانت اليوم ممثل والأمر أمرك لا ما تأمر الدول (٣١)
 عنك الملوك انتنوا عجزا وما علموا أنت زدت علوا أم هم سفلوا
 خلاص ذى التاج أن يعطيك طاعته لأمه - ان عصاك - الويل والهبل

* * *

(٣٠) سحر بابل ص ٤٢٢ •

(٣١) جاءت هذه القصيدة في ديوان الشاعر موجهة الى العالم الديني
 المعروف السيد حسن الشيرازي في سامراء وقد غير فيها الشاعر وأضاف
 وقدمها اليه في السنة التي أرسلها فيها الى امام اليمن وكان ارسالها الى
 السيد الشيرازي في مناسبة خطيرة وهي منح الحكومة الايرانية امتياز
 (التنبك) الى شركة اجنبية وكان هذا العمل قد اثار السيد الشيرازي
 فافتى بتحريم دخان التنبك وأدت فتواه الى فسخ عقد الامتياز ولعل الشاعر
 أراد أن يتخلص من مسؤولية سياسية ففعل ذلك • راجع (سحر بابل)
 ص ٣٥٨ - ٣٥٩ •

هذا سبيل رسول الله أنت به
الدولة اليوم في أبناء فاطمة
محمد اليوم قد أحيا بنى حسن
سيوفكم لم تزل يا آل فاطمة
أعطاكه أولياء الله والرسول
بشرى فقد رجعت أيامنا الأول
كأنهم قط ما ماتوا وما قتلوا
منها نجيع الطلا المحمر ينهمل^(٣٢)
ومن الواضح أن استيثار الشاعر بثورة امام اليمن على الترك دليل
ايمانه بشرعية تلك الثورة التي هي جزء من ثورات العرب على الحكم
العثماني ودليل تطلعه الى قيام حكم علوي يحقق آمال العلويين ورغباتهم .
ويوجه السيد جعفر الحلبي نداء الى شريف مكة فيقول له :

اشر لواءك مؤيدا منصورا
واقصد بخيلك يمنة أو يسرة
يا ابن النبي محمد وسميه^(٣٣)
أعطاك ربك بسطة في دينه
أوليس سيفك ذو الفقار به ظلماً
ماذا انتظارك بالألى جحدوا الهدى
عدلوا عن النهج القويم وغادروا
يا وارث العلياء عن آبائه
وصل العراق كتابكم - فتهللت
فكأنها قبل الكتاب ونشره
كم سيد لك بالعراق يود أن
حيا الاله لواءك المنشورا
الله جارك لا ترى محذورا
طابت حجورك أولا وأخيرا
فانهض وطهر بيته تطهيرا
لا يستقى الا الدم المهدورا
لم لا تصيرهم هبا مثورا
قرآن جدك خلفهم مهجورا
ما زال ذكرك بيننا منشورا
فرحا وأصبح من بها مسرورا
كانت ظلاما فاستحالت نورا
يلتقاك لو كان اللقا مقدورا

(٣٢) راجع هذه القصيدة في (تاريخ اليمن) للواسعي ص ١٣٤ -
١٣٥ وجواب امام اليمن عليها بقصيدة من الوزن والقافية ص ١٣٦ - ١٣٧
وفيها يقول :

انا نهضنا وللاتراك صلصلة
وشدة ضاق عنها السهل والجبل
(٣٣) يظهر من هذا البيت أن هذا الشريف اسمه محمد ولم يعرف
من بين الشرفاء المعاصرين للشاعر من اسمه محمد سوى محمد بن عبدالله
بن محمد بن عون وقد منح رتبة (الباشوية) سنة ١٣٠٠ هـ ١٨٨٣م وفي
هذه السنة نار بعض القبائل في اطراف مكة ففضى الشريف عون على
ثورتهم . راجع (خلاصة الكلام في بيان امراء البلد الحرام ص ٣٣١) .

لو لم تقم بحدود مكة حارسا ما حج شخص بيتها المعمورا (٣٤)
ومن هاتين القصيدتين يظهر أن ثمة صلوات بين النجف واليمن وبينها
وبين مكة ، وهذه الصلوات تدور في محيط الهاشميين وتعمل لاقامة ملك
فاطمي علوي ولعل كلمة (سيد) في البيت ما قبل الاخير صريحة في هذا
الاتجاه لانها لا تعنى في ذلك الحين غير العلوي الهاشمي ، ويتضح من
القصيدة الاخيرة أن شريف مكة كان يكتب بعض العلويين في النجف ولكن
الشك يحوم حول المناسبة التي نظمت فيها هذه القصيدة اذا أهمل ذكرها
كما أهمل ذكر مناسبات كثير من القصائد فلا يمكن القطع بأن هذه الدعوة
كانت ترمى الى محاربة الاثراك (٣٥) فقد تكون غير هذه وقد تكون في بعض
الحوادث القبلية أو الوهابية ولعل بعض الدراسات في الآتي تكشف عن
المناسبة فتضع القصيدة في مكانها من التاريخ ومهما يكن من أمر هذه
القصيدة والقصيدة التي قبلها فانهما لا تخرجان عن كونهما دعوة علوية
هاشمية لاقامة حكم هاشمي ان لم يكن في الحجاز ففى اليمن وهذا الحكم
أيضا كان سيجد له استجابة في نفوس العلويين في العراق ، غير أن القصيدة
الاولى أصرح من الثانية في هذه الدعوة العلوية .

الثورة الجريئة :

ان النماذج التي مرت كانت في حدود التعبير الذاتي والتفاخر بالبيوت
والأسر أو في حدود الشكوى العامة من الحياة والاضاع وليس فيها كثير
من الصراحة والجرأة حيال الحكم العثماني فقد كان الشعراء يحومون
بأجنحتهم الضعيفة دون الوصول الى هذا الهدف الكبير غير أن بعض الشعراء
قد لمس جانب الصراحة والجرأة وكشف عن أمانيه وغاياته وندد بالسياسة
الظالمة وصرخ في وجه الحكم وسار في طريق الاثارة والبعث واستمد من

(٣٤) راجع : (سحر بابل) ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٣٥) يرى الدكتور محمد مهدي البصير من مجرد الاستنتاج أنها

تدعو الى محاربة الاثراك . راجع : (نهضة العراق الادبية) ص ١٦٤

• ١٦٥ -

نفسه وحياته قوة الانطلاق ووضع أصابعه على الجراح الدامية وآله ما كان يجرى من الظلم والاستهتار ولكن كل ذلك أفرغ في قلب قديم ليس فيه ما يدل على اتجاه جديد في مناوأة السياسة ومن هؤلاء الشعراء عبدالغنى الجميل مفتى بغداد^(٣٦) ولعل شيئا هاما في تاريخ هذا المفتى يمكن أن يوضح أسباب ثورته واندفاعه وذلك أنه كان في الشام مسافرا عندما قدم الوالى علي رضا وقضى على المماليك في بغداد وعلى أثر هذا استدعاه من الشام وعينه مفتيا لبغداد سنة ١٢٤٧هـ غير أن التعسف الذى رافق حكم هذا الوالى وتضييقه على الاهلين لجمع اعانات للجيش وتقديم المال للسلطان واعتداء جنده على سكان بغداد كل ذلك أدى الى غضب عبدالغنى الجميل فبهه الى خطر ما يعمله الجند ، واشتدت النفرة بين المفتى والوالى وثار أهل بغداد يريدون قتل الوالى فاضطر عبدالغنى الجميل الى ترك بغداد ثم نهبت داره وأحرقت وأتلفت مكتبته ، وبعد أن هدأت الفتنة استدعاه الوالى مرة اخرى وعرض عليه المقاطعات الجسيمة فلم يقبل شيئا منها^(٣٧) وبقي غاضبا نائرا طوال حياته وقد عبر عن غضبه وثورته بقصائد شديدة اللهجة عربية الروح والاندفاع وكان يقف في وجه السياسة والحكام دون ما خوف أو وجل ويبعث صحاحته المؤثرة طالبا من كل عربى أن يقف معه ويشاركة في الدفاع عن الوطن الذليل ، وهذه احدى قصائده الطوال تعبر عن قوة جنانه ودعوته الى النهوض وقد تفاخر بها وتحمس وعاب خصومه وذم الجبناء الذين كانت الوظائف الحقيرة تستهويهم فيبدلون في سبيلها العزة والكرامة ، وأول القصيدة :

ألم يأن للاحباب أن ينصفوا معنا فزاعوا وما زغنا وحالوا وما حلنا

(٣٦) هو عبدالغنى بن محمد جميل بن عبدالجليل ولد في بغداد سنة ١١٩٤هـ ١٧٨٠م وتوفى في ذى الحجة سنة ١٢٧٩هـ ١٨٦٣م وقد سكنت اسرته بغداد في عهد المماليك قادمة من سوريا .

(٣٧) راجع التفصيل فى (مجموعة عبدالغفار الاخرس) ص ١١ و ١٢ . وفى (المسك الاذفر) ص ١٢٦ - ١٢٨ .

ومنها :

بلينا بقوم حافظ الود عندهم
وانا لنأبى الذل فى موطن الغنى
ولا نرتضى الا المروءة مذهبا
وما ساءنا حرب الزمان وبؤسه
وننكر ان شئنا خلائق معشر
هم زعموا أن كل برق يخيفنا
وطاشوا ببرق خلب لا أبا لهم

ويتساءل عن هؤلاء بأى الآباء يفتخرون وان تسنموا القمم :

فقل لى : بماذا يفتخرون على الورى
اذا عددوا الآباء أو ذكروا الابنا ؟
فهبهم على المجد الأئيل تسنموا
أما يعرفون المجد بالقول لا ببنى ؟
وما المجد الا دولة وحفاظها
صليل المواضى البيض والسمر اللدنا

ويفتخر بنفسه فخر الشامخ العامل لا القائل المتوارى :

أجامل أقواما حياء وعفة
فيزعم قوم أننا منهم خفنا
واسكت ابقاء لود علمته
وعندى مقال يقصم الظهر والبطنا
صحائف عندى جمعة قد طويتها
ولو نشرت يوما لعضوا لها الذقنا

ثم يصور حالة العراقيين آنذاك فيقول :

اجول بطرفى فى العراق فلا أرى
من الناس الا مظهر البغض والشحنا
فخيرهم للاجنى وقبحهم
على بعضهم بعضا يعدونه حسنا
وشبنا وما للصفو فى كدر شبنا
وشبنا متى غابوا بموقف حربهم
وان حضروا فى موقف للخنا غبنا
وسمرنا مع السمر العوالى لياليا
وهم سمروا فى ذكر سعدى وفى لبني
الى الله أشكو من زمان تخاذلوا^(٣٨)
خيار الورى فيه وساؤا بنا ظنا
وباع بفلس كل خل خليله
وعاد الكريم الحر يسترفد القنا

(٣٨) جرى فيها على لغة (أكلونى البراغيث) .

ثم يهدد خصومه فيقول :

وعصبة لؤم قد تاجوا لحربنا فيا ويحهم ماذا يلاقونه منا

وتشتد صرخة الشاعر فيدعو الى الثورة ودفع الظلم :

ألا نخوة منهم فيصحوا الى التي (٣٩)

ألا حازم للرشد شد حزامه لموزمة ينسى بها الطائر الوكنا

ألا مرشد منهم عن الغي قومه فيوقفهم منه على السنن الأسنى

ألا غيرة تدعو الصريخ اذا دعا ليوم عبوس شره يوقف الوسنى

ألا رافع عن قومه بغى ظالم اذا فقدوا فى الحرب من ينطح القرنا

ألا مبلغ عنى سراة بنى الوغى وأقبال عرب كيف صبرهم عنا؟

ثم يعود مفاخرنا حيناً وساخظا على بغداد حيناً آخر فيقول :

ألا لقل لقوم خامر الجهل عقلهم فجاؤا بما جاؤا ووطنوا به حسنا :

أنحن بعثنا للمقاعد نسوة بهن لجلب المال يوما توصلنا (٤٠)

أنحن نبذنا العهد خلف ظهورنا وهل نحن بعد العهد للوعد أخلفنا

سلوا الشام عنا والعراق وعنكم فانا رضينا بالذى أخبرنا عنا

طوبنا عن الزوراء لا در درها بساطا متى ينشر يعدونه طعنا (٤١)

وانى وان كنت ابنها ورضيعها فقد أنكرتنا لاسقاها الحيا مزنا (٤٢)

وفى سنة ١٢٦٦هـ ثارت عاطفة عبدالغنى الجميل ثورة عربية صارخة

وتفجرت عن قصيدة تتصرم حسرة وألماً وتسباب فى خلال صورها الحزينة

القائمة ومضات من الأمل والتفاؤل فقال :

(٣٩) فى الاصل (الذى) وهو غير صحيح .

(٤٠) فى (مقامات الألوسى) ص ٨٦ - ٨٨ تفصيل للوسائل الذميمة

التي تسلك للحصول على الوظائف .

(٤١) رفع جواب (متى) الشرطية على وهن القاعدة .

(٤٢) راجع هذه القصيدة فى (مجموعة الاخرس) ص ٢٣ - ٢٧

وقد نسبت خطأ الى الوالى داود فى مجلة (الرسالة) العدد ٧٠٦ من سنة

١٩٤٧م لان داود غير معروف فى نظم الشعر ولان البيت ما قبل الاخير

صريح فى نسبتها وهو :

وانى لعبد للغنى ولا أرى على لغير الله فضلا ولا منا

علام الإقامة في بلدة
ويسأل عن عمره كل من
فها را رحلنا الى غيرها
فلا بارك الله في بلدة
وفي كل يوم ترينا الخطوب
اذا بلدة أنكرت أهلها
ولكنه يتفأل بعد هذا الدم والمقت لبغداد فيقول :

فصبوا فان الليالى تحول
وقد يورق الغصن بعد الذبول
وقد تتجلى ظلم الحاديات
فلا تحزنن لأمر عرا
فقد خصص الله دار السلام
ويرجع للخيب من قد ظلم
وقد يسفر الصبح بعد الظلم
اذا ما ظلام الخطوب أدلهم
ولا تياسن لخطب هجم
بلطف خفى اذ الخطب عم

وبعد هذا التفاؤل والانتظار يستصرخ قومه استصراخ اليأس ويأسف
أشد الأسف لانه لم يجد في بغداد من يملأ نفسه فيقول :

أهم ومالى من مسعد
فأين سراة بنى هاشم
وأين الكماة الحماة الدعاة
أنادى وما لى من سامع
الى كم نراعى الخسيس الدنيء
فما لى فى الكرخ من مسكن
وكيف وقد سار عنها الكرام
وكل رفيع بها ضائع

وقومى كسالى ودائى الهرم
ومن لعظام الأعداى هشم ؟
اذا شب نار الوغى واضطرم^(٤٣)
وهل يسمع القول من فى صمم
ونرعى له حرمة كالحرم
ولا فى الرصافة مأوى العجم^(٤٤)
وقوض عنها حليف الشيم
وكل وضعى بها محترم

(٤٣) لعلها (جمر الوغى) وان كان حذف التاء مع المؤنث المجازى
جائزا ولكن العطف لا يستسيغ هذا الحذف لان الفاعل فى الثانى ضمير .
(٤٤) كانت الرصافة مقر الوالى وموظفيه والجنود وعوائلهم جميعا
وكانت لهؤلاء محلة قرب (السراى) سميت باسمه كما كان بعض الجاليات
من الامم الاخرى يقيم فى الرصافة أيضا .

وتضيق بغداد بالشاعر فلا يرى له فيها مكانا يسعه فيفكر في تركها لانه

أحس بالذل وفقد الأمل بالانصار والاعوان :

أميم دعيني أجوب الفلاة فأنى وعينك على الهمم
أما تعلمين بأنى امرؤ أبيت عن الضيم مهما ألم
وكنت أظن بقومى الوفاء فخابت ظنوني وحل الندم
وكم لى على الكرخ من وقفة تسيل دموعى لها كالديم
أسائل أين الرفاق الكرام وأين الأعزة أهل الشيم ؟
فلم أر لى من مجيب بها وأنى تجيب العظام الرمم (٤٥) ؟

وفى قصيدة اخرى يتشوق بها الى الشام نفثات حارة صدرت عن قلب
مكلوم قد آذاه ما كان يحدث فى العراق من ظلم وما كان يقابل به هذا انظلم
من سكوت وخضوع وقد بدأ القصيدة بمقدمة تقليدية فى الغزل والحنين ثم
قال بعد المقدمة :

يا ليت شعرى هل لجلق عودة يوما قألتم تربها بجفونى
وأبيت فى وادى السفرجل ليلة حيث النسيم يمر بالنسرين
ماذا أريد من العراق وكرخه بالعين ان شاهدته يقذبنى
ومن البلية اننى فى بلدة فيها ارتقى للمجد كل رعين
ويصول فيها كل محلول الوكا لا يرعوى لمؤنب ومشين
ويلاه من فتكات دهر جائر جعل الخيار بكف كل مهين

* * *

واذا المنازل بالكرام تغيرت فارحل بأنف شامخ العرينين
واختر لنفسك منزلا فيه العلا فالحر لا يرضى بعيش دون (٤٦)

وفى قصيدة اخرى يشتد غضب الجميل وتثور حماسه ويهتف بقومه
ويتمنى أن يلتف حوله البهاليل من العرب ليعمل ما يفكر به ، وهو بصيخته

(٤٥) راجع (مجموعة الاخرس) ص ٢٧ - ٢٩ .

(٤٦) نظم هذه القصيدة فى سنة ١٢٦٧هـ . راجع (مجموعة

الاخرس) ص ٤٢ - ٤٣ .

ودعوته لا يكتم استيائه من بغداد التي لا تريد أن تهض وتشب فقد ألفت
الذل وتخر الدم في عروق أهلها ، ومن هذه القصيدة قوله :

وكيف أرى بغداد للحر منزلا إذا كان مفري الأديم نزيلها (٤٧)
ويسطو على آسائها ابن عرسها ويرقى على هام السماك ضئيلها
فما منزل فيه الهوان بمنزل وفي الأرض للحر الكريم بديلها
وأصعب ما ألقى رياسة ناقص مساويه ان عدت كثير قليلها
وما ساد في أرض العرايين ماجد من الناس الافدما ورذيلها
فسر عن بلاد طوحت لا ترى بها مقل كريم للعثار مقليلها
ثم يجوب الآفاق ويقطع المفارز التي أعيت معالمها الدليل فلم يهتد الى
الطريق الا حين يستاف التراب ويشمه ليعرف أين مكانه من الصحراء وهو
في تطوافه هذا انما يفتش عن قوة من العرب تشد أزره وتساعدته في حمل
الاعباء التي ينوء بها :

عفا الله عنى كم أجوب مهامها من الأرض يستاف التراب دليلها
لعلى ألقى عصبة عشبية فروع مناجيب كرام أصولها
ينم بهم مجد رفيع ومنطق وينبى عن الخيل العتاق صهيلها
ثم يتلهف ويستفهم - مستبعدة مستبظنا - عن اليوم الذي يحقق
فيه رغبته :

متى يلثم اللبات رمحي وترتوى سيوف بأعناق اللثام صليلها ؟
وحولى رجال من معد ويعرب مصاليت للحرب العوان قليلها
إذا أوقدوا للحرب نارا تأججت مجامرها والبيض تدمى نصولها

(٤٧) ارسل هذه القصيدة الى أبي الثناء الالوسي عندما كان في
الاستانة أثناء رحلته التي قام بها في خلال ١٢٦٧ - ١٢٦٩هـ وقد خمسها
الاحرس البغدادي وأرسلت الى الالوسي في صفر سنة ١٢٦٨هـ مع التخميس
الذي بلغ ثمانية وخمسين خمسا كلها منشورة في مجموعة الاحرس اما
في ديوانه فلم ينشر منها سوى ثلاثة وثلاثين ويظهر أن الناشر حذف
ما لا يمكن نشره آنذاك . اما الالوسي فقد ذكر منها ثلاثة وأربعين خمسا
في (غرائب الاغتراب) ص ٢١٨ - ٢٢٤ ويلاحظ القارىء بعض الاختلافات
في الاسطر والكلمات وفي التقديم والتأخير .

ويشير الى النظرية القائلة بأن العز لا يكون الا عند سكان الخيام أما
سكان المدن فانهم قد يميلون الى الخضوع والذل^(٤٨) فيقول :

وما العز الا في بيوت تلفها عذارى وأبكار المطى حمولها
تحف بها من آل وائل غلمة لهم صولة في الحرب عال تليلها
ثم يستصرخ ويتألم :

ألا غيرة تقضى المنازل حقتها وتوقظ وسان التراب خيولها
عليها رجال من نزار وعامر مطاعين في الهيجا كريم قتلها
ويقتخر بنفسه :

فلم ألو للانزال جيدي ، ومعشري بها ليل مستن المنايا نزولها
ويسوؤه ما في بغداد من عدم تقدير للاكفاء :

وكم باسقات بالرصافة أقعدت على عجزها حيث استطلال فسيلها
رعى الله نفي لم ترد مورد القذى وتصدى وفي ظل الهجير ظليلها
وما المجد الا دولة ورجالها اسود الوغى والسهمرية غيلها
لحا الله دنيا نالها أحقر الوري وتاه على القوم الكرام سفيلها
سأحمل أعباء الخطوب وأنتى لانتظر العقبى وربى كليلها^(٤٩)

ويسجل عبدالغنى الجميل تاريخ بغداد السياسى فى عصره تسجيلا
واضحاً لا يحتاج الا الى شىء من الصراحة فى ذكر المسميات من الاشخاص
الذين يحكمون وذلك فى قصيدة أرسلها الى ابى التناء الالوسى ايضا عندما
كان فى الاستانة ، وقد صور بها الظلم الذى عم الناس والخراب الذى
شمل البلاد ومنها :

لهفى على بغداد من بلدة قد عشعش العز بها ثم طار
كانت عروسا مثل شمس الضحى لمستعير حليها لا يعار

كانت لآساد الوغى منزلا * * * والخائف الجائى بها يستجار

(٤٨) راجع (مقدمة ابن خلدون) ص ١٢٥ طبعة المكتبة التجارية .

(٤٩) راجع هذه القصيدة مع تخميسها فى (مجموعة الاخرس)

واليوم لا مأوى لدى فاقه
واليوم قد حلّ بها من ترى
حلّ بها قوم وهم في عمى
وأصبح القرد بها مقتدى
والليث قد غاب وفي غابه
وللخنا لما غدت مريضاً
بارت بها أسنى تجاراتها

* * *

قد نعق البوم على جدرها
والكرخ قد أفقر من أهله
ما سميت زوراء الا لما
قد حط فيها كل طود علا
وكل من كان بها واثباً
قد خلع الناس عذار الحيا
والكل فيها قادح زنده
لا يشتفى غيظ أخى نخوة

ثم يخاطب الالوسي بمثل ما سبق :

أيا شهاب الدين يا سيدي
بغدادكم أختى عليها الذي
قد بليت بالغمرات التي
يا نازحاً عنا وما قد درى
برمة من مسد رثة

قد هجم النذل علينا وغار
من أسره لا يستطيع الفرار
قد علمت مثلك خوض الغمار
من بعده ما قد جرى في الديار
بالذل قد قاد الصغار الكبار (٥٠)

ان تاريخ هذه القصيدة ينص على أنها أرسلت الى الالوسي في أثناء
رحلته الى الأستانة ورحلته قد بدأت في جمادى الاولى سنة ١٢٦٧هـ ١٨٥٠م

(٥٠) راجع (مجموعة الاخرس) ص ١٢٣ - ١٢٤ و (غرائب
الاغتراب) ص ٢١١ - ٢١٢ .

وانتهت في ربيع الاول سنة ١٢٦٩هـ^(٥١) المصادف لنهاية ١٨٥٢ وبداية ١٨٥٣ وفي هذه الفترة تعاقب على ولاية بغداد ثلاثة من الولاة كان ثالثهم (محمد نامق) في سنة ١٢٦٨هـ ١٨٥٢م واذا استعرضنا ما كتبه الالوسي نفسه في وصف بغداد خلال هذه الفترة وبخاصة زمن ولاية محمد نامق^(٥٢) أدركنا فداحة الخطب وتفاقم الظلم في بغداد ، واذا عرفنا ذلك أكبرنا لعبد الغنى الجميل هذه الثورة العنيفة التي تدل على ما للشاعر من حس عربي وشعور وطني .

ويسمعا عبدالباقي العمري صوتا من أصوات التذمر والاستياء مع كونه موظفا كبيرا في بغداد ولكنه لم يستطع أن يكتف ما يحسن به من المضايقات ولم يستطع أن يتجاهل فساد السياسة وحالة العراق آنذاك فقال :

قد استحال العراق مفسدة ليس سوى ضرب السيف يصلحها
وأهله كالانعام عاث بها أذوبة والكلاب تنبحها
هذا بساطور الشر يسلمها وذا بسكين القهر يذبحها
وكم تبوس على العراق نزت من أين لى ذو القرنين ينطحها
جاشت خلال ديارهم فئة أحسنها فى الخلال أقبحها
فى كل يوم من شر طائفة تطوف من حولها يصيحها
صدورها كالأعجاز خاوية على عروش قد ساء مطرحها
أعيانها كالعيون باكية أمامها للدموع تنزحها
تجير الشاعر الفطين بها يمدحها تارة ويقدها
أبواب خير غدت مقفلة عنها عسى رب الفتح يفتحها^(٥٣)

وهذا شاعر آخر من شعراء النجف استوطن بغداد وجاور مقر الحكم فيها وهو السيد صالح القزويني المتوفى سنة ١٣٠١هـ ١٨٨٣م ان هذا الشاعر ثار على الترك لانهم غدروا بزعيم خزاغة (مطلق بن كرىدى) وكان هذا قد ثار على الحكومة ثم سلم نفسه بعد أن أعطى المواثيق والعهود

(٥١) غرائب الاغتراب . ص ٢ و ٤٤١ .

(٥٢) راجع ص ٦٦ .

(٥٣) الترياق الفاروقى ص ٢٨٨ - ٢٨٩ مطبعة طبعة الحروف بمصر .

بألا يمس بسوء ولكن الحكومة سجنته في بغداد مع أصحابه ثم نفى الى الخارج وقتل في منفاه وكان ذلك في أيام ولاية محمد نامق الثانية (١٢٨٤هـ - ١٢٨٧م) وفي أثناء قيام شبلي العريان الدرزي على ادارة لواء الحلة (٥٤) ، وقد أثار هذه الحادثة بغددها وبطشها عاطفة السيد القزويني فنظم فيها المقطوعة الآتية :

وكم للموك الترك هتك لحرمة
وما خلقت حتى سرت في الفلك أنني
ولما نظمت الملك بعد بداده
سعوا سعي موتور بوآترة وقد
وانك لم تجنح الى السلم خفية
ووافيتهم لما دعوك وما وفوا
ولا عجب من غدرهم بعد أمنهم
يلوح لعيني شمس سعد خراعة
فلا تخش من سجن فانك مطلق
وان العلا والمجد والحلم والندی
ولكن السجين لم يطلق وانما غدر به بعد تلك المواقف (٥٦) .

ويسمعا أحمد الشاوي المتوفى سنة ١٣١٩هـ صرخة تبعث من أعماق قلبه في حين أنه كان موظفا في دوائر الدولة ولكن وظيفته هذه لم تحد من شعوره العربي وهو بهذا الشعور وبما يراه من الظلم الذي اشتد في أواخر القرن التاسع عشر والعنجهية المتعصبة التي تحاول أن تجعل العرب تراكا قد اندفع الى ما هو أشد وأعنف مما قاله الشعراء فقال :

ألا ليت شعري والأمانى ضلّة

وعمر القتي - ان عاش ما عاش - للهلك

(٥٤) راجع (تاريخ الديوانية قديما وحديثا) ص ٤٩ و ٥٠ .

(٥٥) ديوان السيد صالح القزويني . الورقتان : ١١١ و ١١٢ من

مخطوطات مكتبة الآثار - بغداد .

(٥٦) من المفارقات المضحكة ان السيد جعفر الخرسان استبشّر

بسجن مطلق . راجع (شعراء الغرى) ص ٢٠ ج ٢ .

أمحترمي ريب المنون ولم أكن
لأدرك للاسلام ثارا من الشرك

وأبرد من صهب العناين غلتي

واشفي واستشفي بسيفي من الترك^(٥٧)

ان هذه الايات الثلاثة تنطوى على رأى فيه عنف وشدة وهو اتهام
الترك بالمروق عن الاسلام ولعل هذا الشاعر قد قال هذه الايات فى لحظة
حاددة أسته صلته بالدولة ومدحه بعض سلاطينها وولاتها^(٥٨) وليس لهذه
الشددة من تفسير سوى طموح الشاعر وكونه من أسرة عربية ذات نفوذ
وزعامة فى بغداد التى هيمن عليها الترك وأذلوا أهلها أيما اذلال •

وبلهجة أخف يندفع السيد راضى القزوينى الى ذم الترك فى (تبريز)
ويؤثر النزعة العنصرية على النزعة الدينية وكان اذ ذاك عابر سبيل فيقول
متشوقا الى وطنه :

أجتبا بزوراء العراق لقد طال النوى فمتى التلقى

وما تبريز للفصحاء مأوى * * * وأين الترك من عرب العراق^(٥٩)

ويخمس السيد راضى القزوينى بيتين لعبدالغنى الجميل قالهما فى
ذم بغداد وفى وصف الذل الذى لحق الاحرار فيها فيقول :

أفى الزوراء ذو الهمم العوالى ينال من العلا أقصى المنال
فيا متكلفا طلب المحال (دع الزوراء ان رمت المعالى
وسر عنها تجد عنها بديلا)

وقم متبدلا رفعا بخفض بحكم المجد من ندب وفرض
ولا (ترضى) ببعض دون بعض (فان الحر لا يرضى بأرض
يرى فيها مهانا أو ذليلا)^(٦٠)

(٥٧) المدخل - لمحمد بهجة الاثرى ص ١٧٢ وورقة بخطه ارسلها
الى •

(٥٨) سياىتى هذا فى بحث الشعر الممالء للدولة •

(٥٩) راجع • ديوان السيد صالح القزوينى • الورقة ١٧٩ •

(٦٠) المصدر السابق • الورقة ١٣٧ •

وفى أخريات القرن التاسع عشر قدر لشاعر عراقي أن يخرج من القفص الضيق وأن يزور مصر ثم يسافر الى الأستانة ويطلع على بعض ما فيها من السياسة والاحوال العامة ثم ينتهي به المطاف الى وثبة من وثبات النفس . أما الشاعر فهو جميل صدقي الزهاوي وقد كان سفره في سنة ١٣١٢هـ ١٨٩٦م وفي ذلك الظرف قربه السلطان عبدالحميد وعينه واعظا لليمن فسافر ثم رجع بعد سنة وعندما نشبت الحرب بين الدولة العثمانية واليونان سنة ١٨٩٧م نظم الزهاوي قصيدة يمدح بها السلطان ويؤيد الدولة في حربها^(٦١) هذه غير أنه تأثر ببعض أدياء الأتراك ف شعر بالفجوة البعيدة بين الحكم والاصلاح فنظم قصيدة في حدود سنة ١٨٩٨م وهو في الأستانة^(٦٢) وكانت أول قصيدة نائرة تحمل عنوانا قبل أن يكون ذلك للشعر العراقي ، أما القصيدة فعنوانها : (حثام تغفل) وفيها يقول :

ألا فاتبه للامر حثام تغفل أما علمتك الحال ما كنت تجهل
أغت بلدا منها نشأت فقد غدت عليها عواد للدمار تعجل

ومنها :

وكم وعدوا أن يصلحوا قبل هذه فما بالهم زادوا فسادا وأوغلوا
لك الله كم ترجوا حياة لدولة ترى كل يوم أمرها يتعرقل
توالى عليها النائبات فكلمنا ترحل عنها مشكل حل مشكل

ويصف فيها الظلم الذي تعانيه الاقطار العربية آنذاك فيقول :

لهم أثر للجور في كل بلدة يمثل من أفعالهم ما يمثل
إذا نزلوا أرضا تفاقم خطبها كأنهم فيها البلاء الموكل
فمدت الى سورية يد عسفهم تحملها من ظلمهم ما تحمل
وبغداد دار العلم قد أصبحت بهم يهددها داء من الجهل معضل

(٦١) سيأتي ذلك في مكانه الخاص .

(٦٢) هكذا يستنتج من حياته التي كتبها بقلمه وأملأها على الصحف

ومن ديوان (الكلم المنظوم) ص ٦ .

وسل عنهم القطر اليماني انه
بلاذ بها الاموال من يد أهلها
يث بما يجرى عليه وينزل
تنزع غصبا والنفوس تقتل
ويقول عن السلطان عبدالحميد :

وذى سلطة لا يرتضى رأى ناصح
أيا امر ظل الله فى أرضه بما
يفقر ذا مال وينفى مبرأ
ويعده فىقول :

تمهل قليلا لا تغظ أمة اذا
وأيدك ان طالت فلا تغترر بها
تحرك فيها الغيظ لا تمهل
فان يد الايام منهن أطول (٢٣)

هذه الصور والنماذج التى عرضناها فى هذا الفصل تمثل النزعة
الساخطة على الحكم وعلى الاوضاع السياسية وهى فيما صورته من أمور
وأوضاع ليست على نسق واحد وفى اتجاه معين فقد كان بعضها شاكيا
ساخطا على الحياة ونكدها وبعضها كان يمثل جانب الحماسة العربية أو
الروح العلوى الناقم وبعضها صريح جريء يدعو الى الثورة والانتقام •
وليس فى تقسيم هذه الصور والنماذج الى الاقسام التى احتواها هذا
الفصل تحديد تام لاغراضها واتجاهاتها فقد يكون فى هذا القسم ما يصلح
للقسم الآخر بالنظر لتكرار المعانى وتشابه الصور غير أنى أردت بهذا
التقسيم أن أحدد جهد الطاقة ما يمكن أن يصور اتجاهها أو يعبر عن غاية
وهدف واذا لم يكن هذا التقسيم تاما واضحا فى كل هذه الصور والنماذج
فانه فى الكثير منها قد جاء سليما معبرا عن الاتجاه الذى سبق له والغاية التى
ذكر من أجلها •

(٦٣) راجع (الكلم المنظوم) ص ٦ - ٩ •

الفصل الثالث

ثورة الشعر

في ظل العقيدة

مر في بحث الحالة الاجتماعية توضيح للديانات والمذاهب التي تسيطر على سكان العراق وتقسيمهم فيما بينها وأهم هذه الديانات الديانة الاسلامية فان أغلبية سكان العراق من أتباعها غير أن هؤلاء الاتباع قد انقسموا فيما بينهم الى سنة وشيعة وكان القصد من هذا الايضاح - مضافا الى كونه جزء مهما من وصف الحالة الاجتماعية - أن أقدم به دراسة لون من ألوان الشعر السياسي يتصل بالعقيدة ويستوحىها وهو خاص بشعراء الشيعة ، ومن الواضح أن شيعة العراق امامية اثنا عشرية امامهم الاول علي بن أبي طالب وامامهم الثاني عشر محمد المهدي المنتظر وان اعتقادهم بالخلافة الاسلامية منذ البداية يختلف عن غيرهم فهم يرون أنها نص في الأئمة الاثنى عشر وقد جر هذا الاعتقاد عليهم مصاعب جمة في مختلف العصور ومنها العصر العثماني فقد كانت الدولة العثمانية ترى في هذا الاعتقاد ما يسبب لها المتاعب من عدم الخضوع للسلطان والولاية ولاسيما أن الشيعة لا يقرون بالامامة الحاضرة لغير المهدي الذي يتظرونه لينقذ الناس من هذه الحكومات المستبدة الظالمة فهو عندهم امام العصر وولي الامر وصاحب الزمان لذلك بقيت الدولة العثمانية نافرة من الشيعة وان كانوا معها في حروبها مع الدول

الاجنية أو فيما يتصل بخدمة الامة الاسلامية ولكنها ميزتهم عن غيرهم بكثير من المقاومة والمناوأة^(١) ودعت الى وقف دعاوتهم ونفوذ رجال الدين منهم وتسرب عقائدهم في البوادي والارياف السنية^(٢) ، وحث بعض رجال الدين ليكتبوا ويؤلفوا ضدهم وكان بعض رجال الدين من الشيعة أيضا يقابلون هؤلاء بالمثل ولم يكن كل ذلك سوى أكوام من الحطب تلقى في النار المتأججة^(٣) ، وإذا كان احترام آل البيت وتقديسهم ليس من مميزات الشيعة وحدهم^(٤) فإن الاعتقاد بالخلافة والامامة وما يترتب على هذا الاعتقاد هو السبب المباشر في جر المتاعب على الشيعة من جانب الدولة العثمانية وان كانوا شركاء في معظم هذه المتاعب مع غيرهم من بقية السكان الذين لم يكونوا بأحسن حالا منهم الا أن توجيه النقد والتجريح الى عقائدهم كان أشد عليهم من تلك الحوادث الكثيرة التي وقعت في مواطنهم واستنزفت دماء كثيرة منهم ، وقد فصلت في بحث الحالة السياسية كثيرا من تلك الحوادث التي كانت تتكرر دائما فنبث الرعب بين السكان وتمخض عن عدم الاستقرار والامن ، ان هذه العوامل وغيرها وكون العصر عصر توسل وتضرع بالاولياء والصالحين كل ذلك قد ترك لنا شعرا يمثل جانباً من جوانب الثورة على الظلم لعله أعنف الجوانب وأفضلها اثاراً للشعر السياسي المناوئ للدولة ، وإذا كانت مراثي الامام الحسين في القرن التاسع عشر تحوى على كثير من هذا الاتجاه السياسي فإن صوراً اخرى من شعر العقيدة كانت تشارك في رسم هذا الاتجاه وقد استوحى معظم هذه الصور عقيدة الشيعة بالامام المهدي فإنه في اعتقادهم قد غاب خوفاً من العباسيين واحتفى لبقى حياً يرزق حتى

(١) بلغ من مناوأة الدولة العثمانية للشيعة أنها حالت بينهم وبين دخول المجلس النيابي الاول الذي افتتح في ١٩ مايس من سنة ١٨٧٧م في حين أن اليهود - وهم اقلية - مثلهم نائب وهو (مناحيم) .

(٢) راجع (الزوراء) العدد ٥٥٦ من السنة السابعة ١٢٩٢هـ .

(٣) لا يزال كثير من هذه الكتب مخطوطاً في بغداد وغيرها .

(٤) في ديوان عبد الباقي العمري وغيره مدائح كثيرة لآل البيت .

يأذن الله له بالخروج^(٥) فيملاً الارض قسطا وعدلا بعدما ملئت ظلما وجورا
لذلك كان شعراء الشيعة يتخذون من المهدي مثابة لهم كلما حزبت حازبة
أو وقعت حادثة أو اشتد ظلم فيفزعون اليه ويتوجهون الى الله ليأذن له
بالظهور فينقذ الناس من الظلم ويعيد الدين الاسلامي الى مكانته الاولى من
القوة والعمل والتطبيق • ان هذا الاعتقاد قد ظهر أثره واضحا في كثير من
القصائد التي مزجت بين الدين والسياسة وتناولت الحوادث العامة والخاصة
وفي معظم هذه القصائد ما يمس الخلافة العثمانية التي وسمها الشعراء
- بطريق التلميح - بالمروق والزيغ ، وما يمس السلطان الذي احتل مكان
غيره ، وكانت المناسبات التي تحفز الشعراء وتستثيرهم مناسبات مختلفة أهمها
مقتل الامام الحسين فيقدمون الكثير من قصائد الرثاء يمثل هذه الاتجاهات
التي تستوحى العقيدة وتستنهض الامام المهدي ، وقد تكون المناسبة احتفالا
بمولد المهدي نفسه ، أو استجابة للحوادث والثورات التي كانت تحدث
بين حين وآخر فيستعمل فيها السلاح من جانب الدولة الى غير ذلك من
المناسبات الكثيرة التي شغلت العراق في القرن التاسع عشر •

وأخيلة الشعراء وانفعالانهم في هذا المجال تختلف قوة وضعفا تبعا
للاستعداد الذهني والفني وتبعا لطاقة الشاعر وقدرته ولكنهم لا يختلفون في
انتظار المهدي وقيام دولته وعودة الحكم الى آل البيت وهم لا يختلفون أيضا
في الاحساس بالظلم الذي عم العراق والفساد الذي شاع وانتشر في كل
مكان من الدنيا وكل هذا لا ينتهي ولا يقضى عليه الا بظهور المهدي
وقيام دولته •

وقد شاع هذا اللون من الشعر في القرن التاسع عشر مع ما شاع من

(٥) قال أبو الثناء الآلوسي في (غرائب الاغتراب) ص ١١٣ :
« .. وانكار مجيء المهدي أشبه شيء بانكار المتواتر نعم لا بأس بانكار ظهوره
على الوجه الذي يزعمه الشيعة .. » وقال في (نشوة المدام) ص ٧٨ :
« ولاخفاء في ظهوره بعد حين عندي ... وقد ذهب بعض علماء الشافعية
الى كفر من انكر ظهور الامام المنتظر .. »

مدائح آل البيت ومراثيهم^(٦) وتناوله معظم شعراء الشيعة واذا كان من عوامل انتشاره التأثير بمأساة الامام الحسين فانه لا يعدم عاملا هاما آخر وهو اشتداد القسوة والظلم والفرق البارز بين سلوك الحاكم وطبيعة المحكوم الى جانب الاعمال التي يلاحظ فيها مناوأة الشيعة ومضايقتهم في عيشتهم وعقائدهم *

ولما كان هذا اللون من الشعر متشابها في الهدف والفكرة فان الاجتزاء ببعضه كفيلا بتوضيح الدراسة ، والكشف عن الجانب السياسي المهم فيه *

قال الحاج هاشم الكعبي^(٧) في مقدمة قصيدة يرثي بها الامام الحسين ويستنهض المهدي للاخذ بثأر الحسين ، والقضاء على الظلم :

فيا آخذ الثأر المرجى لأجله

على فترة أفديك من آخذ ثارا

أمتظري طال انتظاري لطلعة

ملأت لها عيني قذى والحشا نار

أما آن للسيف الذي أنت ربه

يبعد رقابا فاجرات وفجارا ؟

فقم - سيدي - فالسيل قد بلغ الزبي

وقد عمت البلوى سهولا وأوعارا

(٦) ان مدح آل البيت ورتائهم كثير في الشعر القديم وفي شعر الفترة المظلمة ولم يقتصر هذا على العراق وحده أما التبشير بالامام المهدي فقد ورد أيضا في شعر القدماء ومنهم الشريف الرضي فانه ذكر الائمة الاثني عشر باسمائهم في قصيدة طويلة (ص ٣٥) من ديوانه - طبعة بيروت - وقبله دعبل الخزاعي فقد قال :

فلولا الذي أرجوه في اليوم أو غد تقطع قلبي اثرهم حسرات
خروج امام لا محالة خارج يقوم على اسم الله والبركات

راجع (روضات الجنات) ص ٢٧٨ - ٢٨٠ .

(٧) راجع فصل (الشعر والحوادث الوهابية) في أول قصيدة منه .

علانا - عداك - العار والثأر سيدي

خذ الثأر يا ابن المصطفى واكشف العارا^(٨)

امام منتظر ، وشاعر ينتظر بعين قذية وقلب ملتهب نارا ، وبلوى قد
عمت جوانب الارض ، وعار وثار ، !! انها كلمات شديدة توحى بأن حشدها
في هذا المقطع دليل النعمة من جانب ، واشتداد الظلم من جانب آخر .
وتؤثر حادثة كربلاء ايام الوالى محمد نجيب بالشاعر الشيخ صالح
الكواز^(٩) ، تأثيرا شديدا ، ويستاء لها استياء مرا لانها كانت في مدينة مقدسة
تضم أحداث الشهداء من الحسين وأنصاره ، ولانها وقعت في عيد الاضحى ،
ووجهت فيها المدافع الى السكان^(١٠) ، فوصفها الكواز وصفا مؤثرا وندد
بالسياسة التركية وبالعمل الذي قام به الوالى من غير رحمة ولا شفقة . وقد
صنع الشاعر هذه الصورة الحزينة بصيغة العقيدة فوجه خطابه الى الامام
المهدي طالبا منه النهوض لتدارك الدين الذى أوشك أن يتلف ، ودفع
الظلم الذى حاق بالناس ، واسترداد الخلافة المفضوبة . فقال :

وشعواء فيها الدهر يرعد خيفة

وينسد منها الافق ، والارض ترجف

تزاحم برج (الحوت) حتى يعومها

وتدنو من (الكف الخضيب) فتعرف^(١١)

ثم يخاطب المهدي :

أبا القاسم المهدي لا عز أو ترى لك الكتب تلى والكاتب تزحف^(١٢)

(٨) ديوان الكعبي ص ٧٣ .

(٩) ولد سنة ١٢٣٣هـ وتوفى سنة ١٢٩٠هـ وكان يتعاطى بيع
الكيزان والجرار لذلك لقب بالكواز . راجع (البابليات) للشيخ محمدعلى
اليقوبى ص ٨٧ - ٨٩ من الجزء الثاني .

(١٠) وقعت هذه الحادثة سنة ١٢٥٨هـ ١٨٤٢م وقد مر تفصيلها في
القسم الثاني من الفصل السياسى .

(١١) الحوت . والكف الخضيب نجمان معروفان ، وفى البيت
تورية .

(١٢) أبو القاسم كنية النبي ص ثم اطلقت على كل من اسمه محمد .

فقم طالبا حق الخلافة معلما
أتصدر ورادا لكم عن ركيها
وتوحش هاتيك المناير منكم
وهذا لواء المسلمين بزعمهم

من الواضح في هذه الايات أن السلطان العثماني أشقى الناس في
نظر الشاعر وانه يتقمص وظيفة ليست له ، ويرقى منبرا لم يكن لامثاله .
ويستمر الشاعر قائلا :

دعوتك للتوحيد قد غال أهله
دعوتك للقرآن راح ممثلا
دعوتك للمظلوم ضاعت حقوقه
أترضى - وأنت المستجار - بأننا

ثم يصور هروب السكان من كربلاء موجهها خطابه الى المهدي :
وأيسر ما يشجيك أن مجاوري
بعيدون قيد الرمح عنه مسافة
ومن لم تطلق حمل الرداء متونه

* * *
يحدد فيها حادث لا يكيف
تراع كما ريع القطاجين يغدق
غبي بأصناف اللعائن يقذف
وما نال من يعقوب فيه التأسف
من الناس يعقوب ينائه يوسف
فآه لارض الطف في كل برهة
وان نساء المسلمين ذواعر
يلاحظها رجس ويقذف عرضها
لئن ضرب الامثال في فقد يوسف
فها نحن في جيل به كل والد

ثم يلمس الشاعر الناحية القومية فيتألم للعرب أشد التألم لان الذي
يملك زمام أمرهم لم يكن منهم ، فلا بد لهم من حر يفار عليهم :
أيملك أمر العرب من لا أب له
ولم ينمه منهم نزار وخدق ؟

(١٣) يقصد بالتغيير والتحريف : عدم تطبيق نصوص القرآن كما
يجب .

لئيم فما للصفح عند اقتداره محل ولا للحلم - ان هاج - موقف
 أحب الورى من ليس يحنو عليهم لديه ، واعداهم له المتلطف !!
 وما لبني الاحرار الا ابن حرة يغار عليهم - أن يضاموا - ويأنف
 ولكن الشاعر لم يكن يائسا بل كان لديه شيء من الامل وان ضاق
 به الرجب :

اقول لنفسي - عندما ضاق رحبها وكادت على سبيل المهالك تشرف :-
 رويدا كأنى بالأمانى صدقتنى بانجاز وعد للمهدى ليس يخلف^(١٤)

ويعد السيد صالح القزويني البغدادي الى نظم ديوان خاص بالبيت ويسميه (الدرر الغروية في العرة المصطفوية)^(١٥) ، ولا تكاد قصيدة من قصائد هذا الديوان تخلو من استنهاض للإمام المهدي ، وتصوير للظلم والجور ، وعدم وجود حكم عادل تطبق فيه الشريعة الاسلامية كما يجب أن تطبق ، وكان الشاعر صريحا في آرائه ، وهذه احدي قصائده التي يمدح المهدي ويتنظره ويعاتبه فيقول :

ملك يرغم الملوك وتقا د أعزأؤها له اذلالا
 أصيد من بنى النبي ترى في وجهه نور جده يتلالا
 عاقدا راية الهدى ناشرا للأمن واليمن في الورى سربالا

* * *
 وينادي جبريل في الافق بشرا كم فقد أظهر الجليل ثمالا
 أقبلت دولة الرشاد وعنكم أذنت دولة الفساد زوالا^(١٦)

وصراحة الشاعر واضحة في وصف الدولة العثمانية بأنها دولة

(١٤) أرسل الى هذه القصيدة الشيخ محمدعلي يعقوبى معتمد جمعية الرابطة الادبية في النجف ، نقلها عن ديوان الشيخ صالح الكواز المخطوط ، في مكتبة يعقوبى نفسه .

(١٥) هذا الديوان مخطوط في مكتبة الآثار ببغداد برقم ٢٠٩٨ وهو غير ديوانه الكبير المخطوط أيضا .

(١٦) من الطريف ان الطحاوى ألف رسالة في بقاء دولة آل عثمان بعد انقراض دولة صاحب الزمان . راجع (نشوة المدام) ص ٧٨ .

فساد ، ثم يخاطبه قائلاً :

يا امام الهدى أطلت المدى فظهر وفك القيود والاعلالا
ما ترانا اليك فى كل يوم نشتكى منهم الأذى والنكالا ؟
كم على بعدك احتملنا رزايا من أعاديك لا تطاق احتمالاً (١٧)
ويقول فى قصيدة اخرى :

يا ابن الهداة متى تجرد للهدى سيفاً تفل به الضلال وتقمع ؟
ومتى نرى أنوار جدك أحمد وأبيك حيدر من جبينك تسطع ؟
والعدل يزهو مورقا والدين يز هر مشرقا والدمر غرض ممرع (١٨)
ويقول فى قصيدة اخرى وهو يستقبل الحوادث قبل أن تقع :

ملك يطبق أقطار البلاد له عدل يسيم به شاء وسرحانا
مؤيد بجنود ما لهم قبل بها له نزلت مثنى ووحدانا
تعم دعوته الدينيا مطبقة جميع أقطارها سهلا وأحزاناً (١٩)
يشفى به الله من أكبادنا قرحا وتنطفى حرق قرحن أجفانا
ويستفهم بلهفة :

منى ينادى المنادى فى السماء ألا بشراكم ظهر المهدي اعلانا
قد أظهر الله سلطانا لعزته تعنو السلاطين ارغاما واذعانا
ثم يخاطبه ويشكو اليه الجور والظلم :

يا غائبا لم تغب عنا رعايته ولا يزال بعين اللطف يرعانا
ألا ترانا وأعدانا تعاهدنا بالظلم مصبحنا فيه وممسانا ؟
اليك نشكو ويشكو الدين جورهم فاسمع لنا يا امام العصر شكوانا (٢٠)
ويخاطب المهدي فى قصيدة اخرى فيقول :

متى تطلق الأسرى وتستأسر العدا وتطفى لظى البلوى بفيض المراحم ؟
ويرقد من أشياعكم كل ساهر ويسهر من أعدائكم كل نائم ؟

(١٧) الدرر الغروية - الورقة ١٥ .

(١٨) الدرر الغروية - الورقتان : ٢٤ و ٢٥ .

(١٩) الاشهر جمع (حزن) على حزون .

(٢٠) الدرر الغروية - الورقة : ٥١ - ٥٣ .

أتفضى جفونا عن مواليك والعدا تسومهم جرما بغير جرائم^(٢١)

ويشتد في قصيدة اخرى فيصف الولاة وأتباعهم بأنهم وحوش
مفترسة ، وان الشدائد تقع كل يوم فتشعل القلوب نارا :

امام الهدى أدرك بطلعتك الهدى فقد طمست أعلامه والمدارس
نساء ولم يشهد لك الطرف مشهدا يسر الى أن تحتوينا المرامس !
قد افترسونا فالعمارس منهم ضوار غواش والضوارى عمارس
نمارس منهم كل يوم شدائدا لها بين أحناء الضلوع مقابس^(٢٢)

وبمثل هذه الصرخة يخاطبه أيضا فيقول :

طال انتظار الوعد منك لأمل ما آن أن تقضى له الموعدوا ؟
أدرك عباد الله منك بطلعة تبرى السقيم وتنعش المجهودا
وتلاف شمل العدل والتوحيد من قوم أبادوا العدل والتوحيدا
تفضى وتنظر فيكم متقسما وعبيدكم للملحدين عبيدا ؟^(٢٣)

وأظن ان هذا الشاعر لم يطل في استنهاض المهدي ويستصرخه ،
ويصف الحكم بأسوأ ما يوصف به لو لم يشعر بالجو الذي كان يخنقه بظلمه
وطغيانه ، واذا عرفنا أن الشاعر قد عمر فأدرك معظم القرن التاسع عشر أدركنا
مبلغ تأثره بالحوادث وشعوره بفداحة الظلم ، بل أدركنا بوضوح مقدار ما
وصل اليه الظلم في القرن التاسع عشر .

أما الشيخ حسن قفطان المتوفى سنة ١٢٧٩هـ فإنه يستفهم عن اليوم
الذي يرى نفسه فيه مبتهجا بدولة الامام المهدي الذي تعود الدنيا به شابة
بعدها شاخت ، فيقول :

متى امتطى نهد الجزيرة فارها بدولة سلطان الورى مدرك النار ؟
تعود به الدنيا شابا نعيمها لها زهو أزهار ويانع أثمار

(٢١) المصدر السابق - الورقة ٦٥ .

(٢٢) المصدر نفسه - الورقة ٦٩ .

(٢٣) المصدر السابق . الورقة ٧٧ .

ويملؤها بالعدل من بعد جورها ويكلؤها من موبقات وأخطار
وتخضب أقطار البلاد بنائل لها من نداء لا بوابل أمطار
وبعد هذا التخيل والتصور المبني على الروايات والكتب يخاطبه قائلا :
أمولاي يا ابن العسكري الى متى على الدين من أعداك اسمال أطمار ؟
اعزاء فينا نرتضيهم ، واننا أذلاء فيهم ، تلك قسمة اجبار !!
دعوا حرنا رقا لهم فمتى نرى عليهم سمات الذل رقا لأحرار !
فأسيفنا صدأى ، وظلمأى رماحنا وأيماننا غرثى الى جزر جزار
سجا ليلنا جورا ولم يعترض به من العدل فجر مستبد بأسفار (٢٤)

أرقاء وأحرار وليل لا فجر له !! ، ذلك ما يقوله الشاعر عن الحاكمين
والمحكومين وعن العصر الذى شاهده وعاش فيه ، ولا شك أنه لم يقل هذا
عبثا وجزافا لو لم يكن يشعر بهذا كله ، ولو لم يكن يحس بالذل والخضوع
لدولة جائرة ظالمة لا ترعى حقوق الناس ، ولا تقيم للدين وزنا فيما تجرى
من الاحكام والنظم .

وكان أقدر الشعراء تعبيرا وأشدهم عاطفة السيد حيدر الحلى فان
انعكاس الحياة فى نفسه انعكاسا داكنا قاتما وجهه توجيهها حزينا ظهر أثره
فى مراتبه للامام الحسين ، وكان نسبة الى الامام الحسين من عوامل هذا
التوجيه أيضا ، غير أن ثورته على الحياة لا تخلو من شعوره القوى بالظلم
الذى كان يراه فى الحلة وغير الحلة من مدن الفرات ، وما كان يسمع به
من ذلك فى جهات العراق عامة ، وقد دعاه كل ذلك الى التقاط صور غير
سيرة من صور الحكم الهزيل فى عرف الدول ، والقاسى الشديد القسوة
فى نظر الشاعر ، وفى ظل العقيدة هذه كان السيد حيدر يوجه عدسته
للالنقاط والتصوير ، فيصف الظلم فى قصائد كثيرة ويوجه خطابه الى
المهدى فى مقدمات بعض القصائد التى رثى بها الامام الحسين وقد يقصر
الموضوع على الامام المهدى وحده . ومن الاول قوله فى قصيدة يرثى
بها الحسين :

(٢٤) شعراء الغرى - ص ١٧ - ١٩ ج ٢ .

الله يا حامى الشريعة أتقر وهى كذا مروعه
بك تستغيث وقلبهـــــــــــــــــــــــا فك عن جوى يشكو صدوعه
ويقول فيها :

مات التصبر بانتظارك أيها المحيى الشريعه
فانهض فما أبقى التحمل غير أحشاء جزوعه

* * *

كم ذا القعود ودينكم هدمت قواعد الرفيعه ؟
فيه تحكم من اباح اليوم حرمة المنيعه (٢٥)
ويستهضه فى قصيدة اخرى فيقول (٢٦) :

من حامل لولى الله مالكة تطوى على نقات كلها ضرم
يا ابن الألى يقدون الموت ان نهضت بهم لدى الروع فى وجه الطبيهم
الخيلى عندك ملتها مرابطها والبيض منها عرا اعمادها السأم
لا تظهر الارض من رجس العدا أبدا ما لم يسل فوقها سيل الدم العرم

* * *

جرائم آذنتكم ان تعاجلهم بالانتقام فهلا أنت منتقم ؟ (٢٧)
وبمثل هذه العاطفة يخاطب المهدي فى قصيدة اخرى فيقول :

ان ضاع وترك يا ابن حامى الدين لا قال سيفك : للمنايا كوني
عجبا لسيفك كيف يألف غمده وشباه كافل وتره المضمون ؟
الله قلبك وهو أغضب للمهدى ما كان أصبره لهلك الدين !
فمتى أراك وأنت فى أعقابها بالرمح تطعن صلب كل ركين ؟
فتمهد الدنيا بامرة عادل وينهى علام وقسط أمين (٢٨)

ولا شك ان الحلى حين يستهض المهدي للاخذ بثأر الحسين يعرف
أن قاتليه قد استحالوا ترابا ، ولكنه يعتقد بأن الحكم متشابه وأن الدولة

(٢٥) راجع (الدر اليتيم) ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .
(٢٦) مر من هذه القصيدة مقطع فى الفصل الثانى .
(٢٧) الدر اليتيم - ص ٣٦٦ .
(٢٨) الدر اليتيم - ص ٣٩٤ .

القائمة آنذاك لا تخرج عن كونها غاصبة لحكم ليس لها • وبمثل هذا التعليل والتوجيه يمكن أن يقال عن كل ما نظم في رثاء الامام الحسين مصدرا باستنهاض المهدي •

غير أن السيد حيدرا لا يكتفى بذلك بل يستوحى الحوادث التي عاصرها وشهدها وينطلق معها في ثورة نفسية تتخذ من العقيدة مجالا للانتفاض فيصرخ ويحتدم ويشتد غضبه ويحيل الدنيا كلها الى غضب وثورة ، ولكنه لا يعدو الواقع فيما يصور من الظلم والعسف اللذين اشتدا مع السكان ، حتى صاروا كأنهم الانعام بأيدي الجزارين •
وهذه احدى قصائده وقد قصرها على استنهاض الامام المهدي وصور فيها الظلم الذي كان يلاقيه السكان فقال :

أقام بيت الهدى الطاهر	كم الصبر ؟ فئت حشا الصابر
يمد يدا تشكى ضعفها	لطبك في نبضها الفاتر
يرى منك ناصر غائبا	وشرك العدا حاضر الناصر
نهزك لا مؤثرا للقعود	على وثبة الأسد الخادر
ونوقظ عزمك لا بائنا	بمقلة من ليس بالساھر
ونعلم أنك عما تروم	لم يك باعك بالقاصر
ولم تخش من قاهر حيثما	سوى الله فوقك من قاهر
ولا بد من أن نرى الظالمين	بسيك مقطوعة الدابر
يوم به ليس تبقى ظباك	على دارع الشرك والحاسر
ولو كنت تملك أمر النهوض	أخذت له أهبة الناصر

وهذا البيت الاخير انعكاس للعقيدة التي تنص على أن المهدي لا يخرج حتى يأذن الله له لذلك يعذره الشاعر اذا تأخر ولكنه يرجوه أن يسأل الله تعجيل الظهور لينقذ الناس :

وانا - وان اضرستا الخطوب -	لنعطيك جهد رضا العاذر
ولكن نرى ليس عند الآله	أكبر من جاهك الوافر
فلو تسأل الله تعجيله	ظهورك في الزمن الحاضر

لوافتك دعوته فى النهوض بأمرع من لمحة الناظر
فقف عدلك من ديننا فما أعجمتها يد الأطر
وسكن أمنك منا حشا غدت بين خافقتى طائر

ولكن الشاعر لم يكتب بالتوسل وحده بل يشتد ويستنهض لقيام ثورة
يتزعمها المهدي ويستظل برايتها بنو هاشم ، فيقول :

أما لعودك من آخر أثرها فديتك من نائر
وقدها تميم ضحى المشرقين بظلمة قسطلها المائر
يردن بمن لا بغير الحمام أو درك الوتر بالصادر

* * *
اولئك آل الوغى الملبسون عدوهم ذلة الصاغر
هم صفوة المجد من هاشم وخالصة الحسب الفاخر

وأحب أن أسير مع الشاعر فى هذه القصيدة فان فى كل بيت منها
صورة من صور الامل الذى يتخيله الشاعر ، وفى كل بيت منها حركة
تعبيرية صادقة تجسد ما كان يحس به الشاعر من ظلم وجور :

ويا ابن الألى ورثوا كابرا حميد المائر عن كالبر
تدارك سيفك وتر الهدى فقد أمكنتك طلا الوائر
كفى أسفا أن يمر الزمان ولست بناه ولا آمر

ثم يسرع النبض عند الشاعر وتموج الصورة بالحركة القوية ،
وتطفى الثورة :

عليك امام الهدى عز ما غدا البر يلقي من الفاجر
لك الله حلمك غر البغاة فأنساهم بطشة الفادر
وطول انتظارك فت القلوب وأغضى الجفون على عائر
فكم ينحت الهم أحشاءنا وكم تستطيل يد الجائر
وكم نحن فى لهوات الخطوب تناديك من فمها الفاجر
أصبرا على مثل حز المدى ولفحة جمر الغضا الساعر ؟

أصبرا وهذى تيوس الضلال قد أمنت شفرة الجازر
 أصبرا وسرب العدى راتع يروح ويغدو بلا ذاعر ؟
 ويعتقد الشاعر أن ظلم العثمانيين متسلسل من الظلم القديم وأن
 السيف الذى حارب الشيعة فى العصور السالفة هو السيف نفسه الذى
 يحمله الاتراك :

نرى سيف أو لهم منتضى على هامنا بيد الآخر
 به تعرق اللحم منا وفيه تشظى العظام يد الكاسر
 وفيه يسومونا خطة بها ليس يرضى سوى الكافر
 فنشكو اليهم ولا يعطفون كشكوى العقيرة للعافر
 وحين التقت حلقات البطان ولم نرى للبغى من زاجر
 عجبنا اليك من الظالمين عجيج الجمال من الناحر
 وبتنا نود الردى كلنا لننقل عنهم الى قابر (٢٩) !!

صيحة مدوية ، وصرخة هادرة وتساوق بين الاسلوب والعاطفة ، ونفثة
 حارة مضطربة ، وخاتمة فيها بأس يود الشاعر معه الموت !! ولم هذا كله
 والعراق قد تساوى سكانه فى كل ما يعمله الاتراك ؟ لا شك ان الحلجى كان
 فى أدق ساعات الانفعال ، وان هذه القصيدة لابد أن تكون فى حادثة قاسية
 من الحوادث الكثيرة التى تقع بين حين وآخر وقد رآها الشاعر بعينه فهزته
 هزا عنيفا والتجأ الى العقيدة يستوحها ، والى الملاذ يستنهضه .

وهذه قصيدة اخرى تمثل ثورة السيد حيدر فى حادثة من الحوادث
 الهامة التى وقعت على الفرات سنة ١٢٧٤هـ ١٨٥٧م ، وعلى أثر عمل استفز
 أهل العراق وأزعجهم فناروا وتمردوا وجرأوا وحوربوا وأوذوا اينداء
 شديدا ، وقد كانت هذه الحادثة أيام الوالى (عمر) حين أعلن عزمه على
 تطبيق نظام التجنيد الالزامى ففعل ذلك بكل عنف وشدة (٣٠) وبطريقة مليئة
 بالرعب والارهاب زيادة على كره العراقيين للجنديّة ، ونفورهم منها لاسباب

(٢٩) راجع هذه القصيدة فى (الدر اليتيم) ص ١٨٣ - ١٨٦ .
 (٣٠) مر تفصيل هذه الحادثة فى القسم الثانى من الفصل السياسى .

واضحة (٣١) . وقد أثارَت هذه الحادثة شاعرية السيد حيدر الحلّي وكان عمره اذ ذاك ثمانية وعشرين عاما فأعلن ثورته وسخطه ، ولكنه لم يكن صريحا في مواجهة الحكم ولم يشر الى تلك الحادثة وانما تناول الصورة في مظهرها العام ورسما لتتطبق على كل حادثة مماثلة لا يعرف تاريخها ولا مسبها ، وقد لاذ بالعقيدة ليستمد منها الشعور ، وبالغ في الوصف مبالغة شديدة فاعتقد أن الدين تغير وان الضلال قد ملأ الارض ، وأن هذه الشدة لا تضاهيها أية شدة في العظم والعنف ، ثم استصرخ المهدي ليحمل سيفه لان الشيعة قد أخذوا ، والهدى قد مات !! الى أمثال ذلك في صور التهويل والمبالغات ، قال :

يا غمرة من لنا بمعبرها	موارد الموت دون مصدرها
يطفح موج البلا الخطير بها	يفرق العقل في تصورها
وشدة عندها انتهت عظما	شدائد الدهر مع تكرها
ضآفت ولم يأتها مفرجها	فجاشت النفس في تحيرها
الآن رجس الضلالة استغرق	الارض فضجت الى مطهرها
وملة الله غيرت فعدت	تصرخ لله من مفيرها

من مخبرى ، والنفوس عاتبة	ماذا يؤدي لسان مخبرها ؟
لم صاحب الأمر عن رعيته	أغضى ففصت بجور اكفرها ؟
ما عذره نصب عنه أخذت	شيعته وهو بين أظهرها ؟

(٣١) كان من كره العراقيين للجندية أن بعض الاسر العربية في النجف وغيرها أثر الالتحاق بالدولة الايرانية وسجل تابعيته لها وكانت الدولة لا تقبل هذا الادعاء في كثير من قضايا الجندية لانها على علم بأن هذا العمل انما هو هروب من الجندية . وللشيخ حسين الدجيلي المتوفى سنة ١٣٠٥هـ قصيدة تشير الى هذه الناحية وقد نظمها في مناسبة دعوة شاب للجندية ومنها :

ف قيل من أنت فارتاعت فرائصه	وقد كسا الخد ثوب الحمرة الخجل
فقال للفرس أنمي فامتوا غضبا	فقال أشهد من شئتم فما قبلوا

راجع هذه القصيدة في (شعراء الغرى) ص ٢٠٩ - ٢١١ ج ٣ .

والبيت الاخير يوضح جزءا هاما من العقيدة وهو الايمان بكون المهدي يرى هذه الاعمال بعينه ويطوف بين ظهراني شيعته . ولكن لم يهول الشاعر ؟ ولم يعتقد أن الشيعة قد أخذوا لان الوالى جند بعض شبانهم ؟ الجواب يكمن فى الرعب الذى بنه الوالى وفى الارهاب الذى أشاع بين السكان ، وفى نظرة الشاعر الخاصة وهى أن كل عمل مثير يوجه الى مناطق الشيعة لم يكن الاعمال عاديا مذهبيا !!

ويستمر الشاعر فى مثل هذه الصرخة :

يا غيرة الله لا قرار على ركوب فحشائها ومنكرها
سيفك والضرب ان شيعتكم قد بلغ السيف حز منحرها
مات الهدى سيدى فقم وأمت شمس ضحاها بليل عثيها
واترك منايا العدا بأنفسهم تكثر فى الروع من تعرها
لم يشف من هذه الصدور سوى كسرك صدر القنا بموغرها
وهذه الصحف محو سيفك للأ غماد منهم أمحى لاسطرها
فالله يا ابن النبي فى فة ما ذخرت غيركم لمحشرها
ماذا لاعدائها تقول اذا لم تنجها اليوم من مدمرها ؟
أشقة البعد دونك اعترضت ام حجبت منك عين مبصرها ؟
فهاك قلب قلوبنا ترها تفتطرت فيك من تنظرها !!
كم سهرت أعين وليس سوى انتظارها غوثكم بمسهرها
تغضى وأنت الأب الرحيم لها ما هكذا الظن يا ابن أظهرها !!
ان لم تغنها لجُرم أكبرها فارحم لها ضعف جرم أصغرها^(٣٢)
كيف رقاب من الجحيم بكم حررها الله فى تبصرها
ترضى بأن تسترقها عصب لم تله عن نايها ومزهرها
وبعد أن يستنكر الشاعر هذا الاسترقاق والخضوع لاقوام مشغولين
باللهو يتمنى الموت لانه أفضل من الحياة :

(٣٢) فى البيت جناس بين (جرم) بمعنى الذنب . وبين (جرم) بالكسر بمعنى الجسم .

أبعد بها خطة تراد بها لأقرب الله دار مؤثرها
الموت خير من الحياة بها لو تملك النفس من تخيرها
ثم يهدد أعداءه بغضب الله ، وان هذا الغضب اذا لم ينزل لان دعوة
الناس قد حجت لسوء أفعالهم فان دعوة الأمهات اللائي أخذ أولادهن منهن
ستكون السبب في غضب الله :

ما غرَّ أعداءنا بربهم وهو ملئ بقصم أظهرها
مهلاً فله في بريته عوائد جل قدر أسرها
فدعوة الناس ان تكن حجت لانها ساء فعل أكثرها
فرب حرى حشا لواحدنا شكت الى الله في حضورها
توشك أنفاسها وقد سعدت أن تحرق القوم في تسعها^(٣٣)

واذ أترك هذا الشاعر أود أن أشير الى أن قصائده هذه لا تمثل الا
اهتزاز النفس واضطراب الاعصاب وعدم الوقوف امام الحوادث بثبات وقوة ،
وان كانت هذه الحوادث في حد ذاتها مثيرة مزعجة ، ولكن الاتكال على
العقيدة وانتظار الفرج دون عمل وتنظيم كل ذلك جعل السكان عرضة
للاذلال والاستهتار بحقوقهم ، ولو كان ثمة وعى منظم لوجه السكان توجيهها
موحدا ولكانت قوة القبائل الموزعة بين الثورات الارتجالية قوة واحدة لا
يستطيع أى وال أن ينال منها أو يزعزعها .

ويستفهم السيد ابراهيم الطباطبائي عن اليوم الذى تشرق فيه الدنيا
بظهور المهدي فيطوى الغي وينشر الرشد بين الناس :

متى تشرق الدنيا بيوم محمد تنادى به الأملاك قد ظهر المهدي ؟
ويطوى لواء الغي من بعد نشره وتنشر فى الآفاق ألوية الرشد^(٣٤)

(٣٣) راجع هذه القصيدة فى (الدر اليتيم) ص ١٨١ - ١٨٣ .
وراجع للكشف عن مناسبتها (جنة المأوى) للششيخ حسين النورى ص
٢٩٠ . من بحار الانوار المجلد الثالث عشر و (البابليات) لليقوبى ص ١٥٤
ج ٢ .

(٣٤) ديوان الطباطبائي ص ٩٧ .

والبيت الثالث يحتاج الى ايضاح لان الشمس لا تطلع من الغرب وان
ذكرت بعض الروايات : ان من علامات الساعة طلوع الشمس من الغرب ،
ولكن الذى يريده الشاعر أن المهدي يظهر في مكة المكرمة لأول لحظة من
ظهوره ، ومكة تقع في الغرب من العراق .

أما السيد جعفر الحلبي المتوفى سنة ١٣١٥هـ فإنه يستهض صاحب
الزمان بأسلوب رقيق ليرد الحق الى أهله فالحكم عارية عند غير آل البيت
ولا بد أن يرد هذا المعار ، ولكنه لا ينسى أن يبين الاسباب التي دفعت الى
هذا الاستهزاء فيقول :

يا قمر التم الام السرار	ذاب مجبوك من الانتظار
لنا قلوب لك مشتاقه	كالتبت اذ يشتاقي صوب القطار
دجا ظلام النفي فلتجله	يا مرشد الناس بذات الفقار
يستنصر الدين ولا ناصر	وليس الا بكم الاتصـار
متى نرى بيضك مشحودة	كللاء صاف لونها وهي نار ؟
متى نرى خيلك موسومة	بالنصر تعدو فتثير الغبار ؟
متى نرى الأعلام منشورة	على كمامة لم تسعها القفار

ثم يشير الى الزعامة الدينية وأنها لآل البيت فيقول :

رياسة الدين لنا فصلت ابرادها والناس عنها قصار
أن يلبسوها اليوم عارية ففى غد سوف يرد المعار (٣٥)

ولكن شاعرا كان من رجال الدين البارزين في الحلة ومن المقربين
لدى الولاة والدولة العثمانية لا يكتم استيائه وتدمره من السياسة والظلم
الذى استباح الوطن ، والجور الذى عم البلاد فيجئح الى العقيدة متخفيا
وراءها ويوجه نداءه الى الامام المهدي . أما الشاعر فهو السيد محمد
القزويني المتوفى سنة ١٣٣٥هـ (٣٦) . وقد شارك غيره من الشعراء في

(٣٥) سحر بابل - ص ٢١٣ - ٢١٤ .

(٣٦) راجع (البابليات) ص ٢٧ من الجزء الثالث - القسم الثاني .

تصوير الظلم وكان موقفا في رسم الصورة غير قليل الحظ من صدق العاطفة
والحسن ومن الموسيقى المنسجمة المطاوعة ، قال :

أحلما وكادت تموت السنن لطول انتظارك يا ابن الحسن
وأوشك دين أيمك النبي يمحي ويرجع دين الوثن !
وهدي رعاياك تشكو اليك ما نالها من عظيم المحن

لا شك أن السلطان العثماني يفضب لو سمع مثل هذا القول وان
الناس - أو المسلمين - ليسوا رعايا الا لصاحب الزمان . وعلى لسان هؤلاء
الرعايا يستمر الشاعر ويخاطب المهدي :

تاديك معلنة بالنجيب اليك ومبدينة للشجن
وتذري لما نالها أدمعا جريرين فلم تحكهن المزن
ولم ترم طرفك في رافة اليها ولم تصغ منك الأذن
لقد غر امهالك المستطيل عداك فباتوا على مطمأن
فطبق ظلمهم الخافقين وعم على سهلها والحزن
ولم يغتدوا منك في رهبة كأنك يا ابن الهدى لم تكن
فعد عنما الجور واستحكموا بأموالنا واستباحوا الوطن
شخصنا اليك بأبصارنا شخوص الغريق لمر السفن^(٣٧)

وتلتقى العقيدة بالسياسة في مكان آخر دون أن يكون استنهاض
للإمام المهدي أو التجاء اليه ، بل تأتي الصورة مقصورة على وصف
الحادثة وأثرها في نفوس الناس وكونها موجهة الى ايداء العقيدة أو مكان
من أمكنتها المقدسة . وقد اجتمعت في حادثة واحدة خطوط متعاكسة متضاربة
من أمكنتها المقدسة . وقد اجتمعت في حادثة واحدة خطوط متعاكسة متضاربة
ليست الا لونا من ألوان المفارقات في الشعر ، وتضارب وجهات النظر بسبب العقائد

(٣٧) شعراء الحلة - ص ٢٧٥ و ٢٧٦ الجزء الخامس .

والمذاهب فإن حادثة كربلاء أيام الوالى محمد نجيب^(٣٨) قد دفعت بعض الشعراء فى بغداد الى تأييدها وامتداح الوالى فيها^(٣٩) بينما أثرت فى شعراء الحلة وغيرهم تأثيراً سلبياً^(٤٠) وألتهم ايلاما شديداً ومن هؤلاء السيد مهدي ابن السيد داود الحلى المتوفى سنة ١٢٨٩هـ ١٨٧٣م فانه رد على أحد الشعراء المؤيدين للوالى بمقطوعة تضمنت بعض الاشطر من أبيات ذلك الشاعر^(٤١) عاكسا المعنى الاصلى ومنمندا بعمل الوالى ومن هذه المقطوعة قوله :

(أحسين دنس دار مرقدك الألى) كفروا فحاشا منه يدنس مرقد
بعضابة الشيطان لم تدنس ولو قد حل منهم فى ثراها الملحد
من حقه جلب الجنود لها كما جاءت اليك جنودها تتجدد
دارت على أشياكم فيها كما دارت عليك غداة قل المسعد
قتلت بمرقدك الشريف أماجدا لأذوابه وبجنبه قد أجدوا
رقدوا به ولكونهم والوكم (سموا الروافض وهو نعم المرقد)
كم من دم سفكوا وكم من حرمة هتكوا وكم لأماجد قد بددوا^(٤٢)

أما الشيخ سالم الطريحي المتوفى سنة ١٢٩٣هـ ١٨٧٦م فانه يقدم قصيدة فى رثاء الامام الحسين بأبيات لا تخفى ألم الشاعر من جنف الحكم فيقول :

الام الثوى وعلينا العدى تجور ولم نستطع ردها ؟

(٣٨) مر ذكر هذه الحادثة فى الفصل السياسى .

(٣٩) ممن مدحوا الوالى فى هذه الحادثة الاخرس البغدادى وسياتى

ذكر ذلك .

(٤٠) راجع قصيدة الكواز فى بداية هذا الفصل .

(٤١) نظم هذا الشاعر المجهول أبياتا جاء فيها :

أحسين دنس دار مرقدك الألى سموا الروافض وهو نعم المرقد
كم من وزير لم ينل تطهيرها منهم فطهرها النجيب محمد
(البابليات) ص ٧٦ ج ٢ .

(٤٢) راجع المصدر السابق ص ٦٧ - ٧٧

تحمّلنا ما لو أن الجبال تحمل عثيرة هدها
تباغت علينا وقد أدركت على رغم أنافنا قصدها (٤٣)

وفي سنة ١٣٠٨ هـ ١٨٩٠ م كان سكان النجف يحتفلون - كعادتهم -
بيوم مقتل الامام الحسين فلم يكن من حاكم المدينة الا أن أمر بقتل بعض
الاشخاص فقتلوا في الصحن الشريف وقد اهتزت النجف وأعلنت سخطها
واتصلت بالاساتنة فأرسلت الدولة من يحقق في شأن هذه الحادثة التي
أغضبت رجال الدين وغيرهم ومنهم الشاعر السيد ابراهيم الطباطبائي الذي
استجاب لعواطف الناس فنظم مقطوعة يسجل فيها هذه الحادثة ولكنه خلط
فيها بين مدح الوالي - وكان اذ ذاك سرى الكريدي - وبين العقيدة النائرة
لانتهاك شهر المحرم على يد حاكم النجف ، ولكن شيئاً جديداً في هذه
القصيدة لم يشر اليه الشعراء ولم يتناولوه بشعرهم وهو وصف الرشوة التي
كانت منتشرة بين الموظفين ، فان الطباطبائي قد كان بارعاً حين لم يفته
ذكرها ، وهذه أبيات من القصيدة تشرح ما ذكرناه :

والى الولاية اليك مظلمتي أشكو بعين الواحد الأحد
لروافك الشاكون قد عمدوا ورواق عدلك مشرع العمد
بلد به يرشى علانية والمرثى هو حاكم البلد
كيد ولا فرعون كاد به موسى بنفت السحر في العقد

* * *

لله شهر محرم فلقد فيه استحلوا حرمة الصمد
واست بعاشر يومه نفر شهداء يوم الطف أو أحد
فلقد أباح به حرام دم هدرا بلا عقل ولا قود (٤٤)

هذا ما استطعت أن أضعه من الشعر في مجال السياسة النائرة في

(٤٣) شعراء الغرى - ص ١١٩ ج ٤

(٤٤) راجع ديوان الطباطبائي - ص ١٠١

ظل العقيدة^(٤٥) ، وهو جزء من كل ولكنه جزء هام فيه تصوير للعقيدة حين لا يرضيها الحكم القائم فتمد شعراءها بالفكرة والعاطفة وتيرهم على الظلم والظلم ، وتوجههم حيث تريد من التوجيه ، وهذا الشعر في كل ما مر من صورته ليس مجرد تفكير ديني أو سبغ في الاخيلة ، وهيام وراء الآمال البعيدة ، بل هو مظهر من مظاهر التعبير عن الظلم وعدم الاستقرار .

(٤٥) مر في فصل (الشعر والحوادث الوهابية) نماذج للكعبي والازري من هذا اللون .

الفصل الرابع

الشعر في ركاب الدولة

قبل البدء :

في كل من عصور الادب مفارقات وخطوط يقاطع بعضها بعضا ويصطدم بعضها ببعض وقد تحدث هذه المفارقات لشاعر واحد كما تحدث لشعراء متعددين يختلف بعضهم عن بعض في الاتجاه والغاية ، وليس من تعليل لذلك غير قسوة الحياة وتفاوت النفسيات قوة وضعفا وغير الحاجة التي ترسم للشاعر طريقته في تناول الاغراض الشعرية وكونه يعيش في بيئة ليس لشعرائها الا هذا المسلك الذي وجهوا اليه .

ولقد كان شعراء القرن التاسع عشر في العراق - ومعظمهم ممن ذكروا في معرض الحماسة والقومية والثورة في ظل العقيدة - قد سلكوا في شعرهم مسلك أى شاعر لا يرى بأسا من جعل الشعر وسيلة للتقرب والزلفى عند السلاطين والولاة أو أى موظف من موظفى الدولة .

وقد يخيل لمن يكفى بتصوير الحالة السياسية والاجتماعية في العراق - كما سبق في مكانه الخاص - أن الشعراء لا بد أن يكونوا في صفوف الناقمين من المواطنين ولكن الحقيقة غير ذلك فقد سار الشعراء في خطوط ملتوية تتناسب مع عصرهم وبيئتهم وحياتهم ولا يفتى على هذا السير كونهم قد ناروا في بعض المناسبات وأظهروا استيائهم في بعض اللحظات التي

لا يفسر معظمها بغير تأثير العقيدة أو ضيق منابع العيش أو الاقصاء عن
وظيفة قد يكون الشاعر راضيا بها وان كانت تافهة بالنسبة لغيره من موظفي
الاتراك أو مقربهم مع أن الموظفين من الشعراء كانوا قلة لا شأن لهم
في الحساب •

ومن ثم لا بد لنا أن نستعين بما مر في الفصل السياسي من عرض لأهم
الحروب والحوادث التي رافقت تاريخ الدولة عامة والعراق خاصة خلال
القرن التاسع عشر ، وما مر من ذكر لأعمال السلاطين والولاة في بناء مسجد
أو تكية أو شق نهر لا يكاد يمر عليه عام حتى يندثر ، أو غير ذلك من
الاعمال التي يراد بها التمويه على السكان واجتذاب عواطفهم ونفوسهم •
ان تلك الاعمال والحروب والحوادث كانت ميدانا فسيحا يتسابق فيه
الشعراء أصيلهم وهجينهم ، قويمهم وضعيفهم ، فهم مع الدولة في حروبها
الخارجية باسم الاسلام ، والداخلية باسم المصلحة ، ومع السلطان في
جلوسه وميلاده وفيما يعمل من ترميم مسجد أو انشاء تكية ، أو ارسال
كسوة الى ضريح أو مرقد ، وهم مع الولاة في حروبهم مع القبائل ، أو مع
جيران العراق ، وفي أعمالهم الصغيرة من تعمير مسجد أو شق نهر صغير ،
أو حفر بئر يشرب منها العابرون ، وفي كل عيد وختان ، بل في كل مناسبة
وغير مناسبة ، وفي استقبال من يأتي وتوديع من يذهب •

وقد يكون من الهين على تاريخ الادب أن يسجل كل هذه الالوان من
الشعر دون أن يضيق بها ، وأن يضمها الى أمثالها مما أنتجته العصور
التقديمة ، وقد يكون من الهين علينا الى حد ما أن نقبل ما قيل في مدح
السلاطين وفي حروبهم مع الدول الاوروبية أو غيرها ممن يتمرّدون من
الاتباع والمحكومين في ولايات البلقان والمناطق الاوروبية ، وقد يكون من
الهين أيضا أن نقبل ما مدح به الولاة في اصلاح مسجد أو شق نهر أو ختان
أو عيد •

ولكن الذي يجعل شعراء العراق عرضة للوم والتقريع ، والنقد
الشديد اسرافهم في مدح الولاة خلال الثورات القبلية والانتفاضات الداخلية

التي لا تفسر الا بأنها رد فعل لفساد الحكم وسوء النظام ، فقد كان الشعراء
حيال هذه الحوادث والثورات متبرعين في شتم القبائل والثائرين منها
خاصة ، وكانوا لا يكتفون استبشارهم عندما يجمع الوالي أية نورة أو
حادثة ، ولا يبخلون بتمجيد انتصاره على اخوانهم من المواطنين كأن الثورة
لم تكن على وال تركي ظالم ، أو دولة لا تربطها بالعراق رابطة جنس أو
لغة !! وكأن الثائرين لم يكونوا طلاب حق أو متدمرين من ظلم واضطهاد !!
وقد يكون من الثورات والحوادث ما لا صلة له بالسياسة ، وانما للشعب
والفوضى حسب ، ولكن أكثر الثورات كان نتيجة لغطرسة الولاة وسوء
أعمالهم ، وحتى في هذه الحالة كان شعراء العراق ينتظرون النتيجة
ويستعدون لاستقبال الوالي عندما يعود منتصرا ظافرا تاركا وراءه الاشلاء
والدماء وخراب البيوت !!

وليس من تفسير لهذا السلوك المضطرب من الشعراء الا أنهم يعيشون
دائما في ضيق من الحياة وفي حاجة الى هبات الوالي وعطاياه ، وأن أكثرهم
أو بعضهم كان في جوار الوالي أو مستخدما لديه في وظيفة من الوظائف
الصغيرة .

وأكثر هذا الشعر لا يخرج عن الملق والطمع ، وعن التقليد
والمحاكاة ، ولا يعبر عن عاطفة صادقة يتجاوب معها المواطنون .

ولما كان هذا الشعر من أكثر الموضوعات^(١) التي تناولها الشعراء فان
استقصاءه كله ليس من وظيفة هذا البحث بل من وظيفة تاريخ الادب
وحده ، لذلك ساكتفي منه بالقدر المناسب لتوضيح مسلك الشعراء ، أو بتعبير
أدق لتوضيح هذا اللون من الشعر في ظل السياسة والاحداث ، وسأكتفي
من هذا اللون أيضا بما يتصل بالسلطين وكبار رجال الدولة والولاة .

(١) اذا استثنينا موضوع الرثاء في آل البيت .

في موكب السلاطين :

ان الشعر في موكب السلاطين لا يخرج عن كونه شعرا تقليديا تمليه العاطفة الاسلامية وخاصة في حروب الدولة مع الدول الاوروبية .
وقد تساوى في هذا اللون شعراء السنة والشيعة ، فقد كان هؤلاء - ولاسيما الفريق الثاني منهم - ينسون الجراح والآلام حين تعلن الدولة حربا على خصم من خصومها ، أو حين يعلن أحد الخصوم حربا على الدولة ، وكانوا بدافع من الشعور الاسلامي لا يدخرون وسعا في الاشادة بالدولة والسلطان وجنده ، ولا يكتفون فرحهم واستبشارهم بالنصر والظفر ، أما السلطان فهو أمير المؤمنين وامام المسلمين وحامي حوزة الدين من أعدائه الكفار ، وخصومه المعاندين المارقين ، وجيوشه المظفرة المنصورة انما تحارب لاعلاء كلمة المسلمين والمحافظة على الثغور الاسلامية من الاعداء .
فإذا لم تكن حروب ولا حوادث تدفع الى نظم الشعر فان مدح السلطان لا بد منه في عيد جلوسه أو ميلاده ، أو حين يعث كسوة الى مكة أو المدينة أو الى مرقد أحد الائمة والاولياء في العراق ، وعندما يأمر بترميم مسجد أو تكية ، أو شق نهر أو غير ذلك .

وأود في هذه الدراسة أن أسير مع السلاطين المدوحين وأسجل ما قيل من الشعر في كل واحد منهم وان جاء متأخرا عن المناسبة ، أو نظم بعد حدوثها بسنين غير قليلة .

محمود الثاني :

كان لهذا السلطان شأن في السياسة العثمانية وقد وقعت في أيامه حوادث وحروب غير قليلة مر ذكر الكثير منها في الفصل السياسي وكان لحوادثه وحروبه أثر في الشعر العراقي كما كان لاعماله الاخرى بل كان مدحه يأتي لمجرد المدح ومن ذلك ما قاله عثمان بن سند حين ذكر تولية هذا السلطان سنة ١٢٢٣هـ ١٨٠٨م فقد نظم على لسانه قائلا :
وما أنا الا من أناس وليدهم لبعت سرايا والجيوش المرشح

ولا عيب فيهم غير أنهم الألى
سلاطين من تقوى أساطين للهدى
إذا ملكوا أمر البرية أصلحوا
رهابين مهما عشمس الليل سبجوا^(٢)

وقال في مدحه أيضا :

سلطان عصر لم يزل
متبلا متخشما
يجرى على سنن الاول
متدرا درع الوجمل
سل عنه دمعا سافحا
والليل مسدول الكلل^(٣)

وفي الحق أن محمود الثاني لم يكن كما وصفه الشاعر هذا الوصف
المبالغ فيه^(٤) .

أما حرب (المورة) سنة ١٨٢٦م - وكانت بين الدولة واليونان^(٥) -
فإنها أثارت عاطفة هذا الشاعر فقال فيها من قصيدة :

لله من هزوا القنا فتحصرا
سلبوا السيوف لنصر دين محمد
سقوا سيوفهم النجيع الاحمر^(٦)
ولكسر من نصروا سفاها قيصرا
قافين (محمود) النقية ما غزا
الا بصيلمه الفوارس فطرا
من آل عثمان الكرام ومن هم
نصروا الهدى بسيوفهم فتأزرا

ثم يختمها بقوله مخاطبا السلطان :

مد النصرى من سفاهة رأيهم
وتوهموا أن العظمم مانع
فتحصنوا في (مورة) فغزوتهم
ففلت جمعهم وأبت بسبيهم
ومحا فاض بما نضوت مكسرا
آساد جندك أن تعوم وتعبرا
بأسود حرب لا تهاب الأبحرا
وغمزت ذابل عودهم فتكسرا^(٧)

(٢) مطالع السعود - الورقة ٩٥ .

(٣) المصدر السابق - الورقة ٩٧ .

(٤) راجع ص ٢٣ .

(٥) راجع ص ٢٨ .

(٦) مر قسم من هذه القصيدة في الفصل الاول من هذا الباب

ص ١٣٤ .

(٧) مطالع السعود - الورقتان : ١٥١ - ١٥٢ .

ولكن الشاعر فاتته الحقيقة لان الدولة لم تنتصر في هذه المعركة ولم يكتب لها الظفر •

وقد بالغ عبد الباقي العمري في مدح السلطان محمود ، ففي سنة ١٢٥٤هـ بعث هذا السلطان بكسوة الى مكة والمدينة وأهدى قطعا ثلاثا من النسيج الى أضرحة الأئمة في العراق وبهذه المناسبة نظم العمري قصيدة جاء فيها :

ويا لأمر المؤمنين مبرة
بها من أبي الزهراء قد أحرز الفخرا
بخدمة بيت الله قد أحرز المنى
وخدمة قبر المصطفى فاز بالبشرى
حمت بيضة الاسلام أحضان رفعة
فلم تخش - ما دامت بأحضانه - كسرا^(٨)

عبدالمجيد الاول :

وفي أيام هذا السلطان جلت جيوش محمد علي والى مصر عن سوريا^(٩) ووقعت حرب (القرم) بين الدولة وروسيا^(١٠) ومدت أسلاك البرق الى بغداد ، وقد كان لهذه الحوادث وغيرها تأثير في شعراء العراق فقد نظم السيد عبدالجليل الطباطبائي قصيدة بمناسبة جلاء الجيوش المصرية عن سوريا سنة ١٢٥٦هـ ١٨٤٠م ورأى في هذا الجلاء مناسبة جميلة لمدح السلطان عبدالمجيد الذي أشاع الفرح في قلب كل موحد بانتصاره على محمد علي وقد جاء في هذه القصيدة الركيكة قوله :

بشرى بعز قد أضاء مخلد شملت به الافراح كل موحد
سلطاننا عبدالمجيد ومن له الـ بأس الشديد وكل مجد أتلد

(٨) الترياق الفاروقى - ص ١٩٢ - ١٩٤ •

(٩) راجع ص ٢٩ •

(١٠) راجع ص ٢٧ •

ويشير الى وقوف الدول الاوروبية بجانب هذا السلطان لرد محمد على :
 ولحربه قواد القياصرة الألى ألقوا الوغى بفرار كل مهند
 أجرى اليه السفن كالأعلام قد قدت له متن الخضم المزبد^(١١)
 ومما يدل على أن الشاعر كان يمدح قصدا للمنفعة الفردية ما جاء له
 فى ختام هذه القصيدة من التماس يطلب فيه من السلطان أن يعفى أملاكه
 فى البصرة من الضرائب فيقول بأسلوب ركيك قريب من الشعر الملحون :
 جد لى وأطلق أسر نخلى من أذى (ال مبرى) معافى لم يزل كمؤبد
 وفى حرب القرم سنة ١٢٧١هـ ١٨٥٥م وقف عبد الباقي العمري
 يشيد بالدول التى ناصرته الدولة العثمانية ضد روسيا ولكنه لم يذكر
 السلطان عبد المجيد وقد كانت هذه الحرب فى أيامه ، ومما جاء له بهذه
 المناسبة قوله :

أقول للدول المنصور عسكرها لا زال عسكرها بالله منصورا
 لما اتفقت على صدق المحبة فى ما بينكم واتحدتم صرتم سورا
 بسطوة (دعت) الاطواد راجفة دمتم محصنات الروس تدميرا

* * *

مدافع غطت الدنيا غنائمها فغادرت صبح يوم الحرب ديجورا
 وينهى هذه القصيدة بيت يؤرخ به هذه الحادثة وفتح حصن
 « سواستبول » فيقول :

سواستبول التى أعيت معاقلها سخرتم حصنها أرخت « تسخيرا »
 ويؤرخ هذه الحادثة بأبيات ثلاثة اخرى فيقول :

يا ملك المسقو سقاك الردى كأسا لها فى كل عضو ديب
 وحزت كسرا ما له جابر وفزت من خزى باوفى نصيب
 جاهك قد أسقط^(١٢) اذ أرخوا نصر من الله وفتح قريب^(١٣)

(١١) راجع القصيدة فى (روض الخل والخليل) ص ١٣٥ - ١٤٠
 طبعة مصر .

(١٢) فى التاريخ تعمية لطيفة وهى اسقاط كلمة (جاهك) من
 التاريخ . اى : اسقاط حساب حروفها من الشطر الثانى .

(١٣) الترياق الفاروقى . ص - ٢٨٥ - ٢٨٦ .

وفي سنة ١٢٧٧هـ ١٨٦١م صدر أمر السلطان عبدالمجيد بمد خط
« التلغراف » الى بغداد فنظم عبدالباقي ارجوزة ضمنها أشطرا من ألقى ابن
مالك وقد وصف بها هذا المخترع الجديد وأثنى على السلطان وقد جاء في
هذه الارجوزة قوله :

نظمتها في نعت من أمدنا بما به كل بعيد قد دنا
من مدد مسلسل الامداد بلوح مرفوعا على أعواد
تهنئ فوقها هواتف الثنا على أمير المؤمنين علنا
من بعض تسهيلاتة الجزئية وهي لعمر جده كليه
صدور أمره الشريف العالي للخطبة الزورا بلا امهال
في مد خط (التلغراف) المستوى على قواعد باحكام قوى
ثم يستمر في وصف الاسلاك بأبيات غير قليلة^(١٤) .

ولعبدالباقي العمري قصيدة اخرى في مدح هذا السلطان وهي في
عيد جلوسه وليس فيها غير المبالغات والبيدعات المتكلفة^(١٥) . ولا يبي الثناء
الألوسي أبيات قليلة في مدح هذا السلطان ومنها قوله في الاستانة :
فيها لقد حلّ الملك المجتبي عبدالمجيد أجل أملاك الوري^(١٦)

عبدالعزیز :

وللسلطان عبدالعزیز نصيب غير قليل من الشعر العراقي ففي أيامه
جاء الوالي مدحة الى بغداد وانشأ بعض المرافق وفي أيامه قضى على
السعوديين في الاحساء^(١٧) ، ومن مدحه من الشعراء عبدالغفار الاخرس

(١٤) راجع المصدر السابق - ص :- ٣٥٢ - ٣٥٦ .

(١٥) راجع : الترياق الفاروقى - ص ٣٥٧ .

(١٦) لقد أخذ الألوسي أبياتا من قصيدة لابن عنين الشاعر الدمشقي
وأضاف اليها أبياتا من عنده ولم يشر الى ذلك . راجع : غرائب الاغتراب
ص ١١٦ - ١١٧ وديوان ابن عنين ص ٣ - ٨ بعد المقدمة . طبع دمشق
سنة ١٩٤٦م .

(١٧) مر في فصل « الشعر والحوادث الوهابية » شعر غير قليل في
مدح عبدالعزیز .

فانه لم يكتف بجعله خليفة بل فضله على جميع الملوك بأسا وكرما وجعل
منه حاكما عادلا في النهار وجرا متبلا في الليل ، ومن ذلك قصيدة
نظمها أيام الوالي محمد نامق وقد جاء فيها قوله :

خليفة الله في الاقطار محترم ان العزيز عزيز حيثما كانا
فلا كنا مق وال للعراق ولا كمثل عبدالعزيز اليوم سلطانا
فلو وزنت ملوك الارض قاطبة لزادهم في الندى والبأس رجحانا

يقضى النهار بأحكام يديرها * * * رأيا ويتلو بجنج الليل قرآنا !!

فأجمعت أمم الافرنج واتفقت * * * على مجتبه شيئا وشباناً^(١٨)

ان من المؤكد أن الاخرس - كغيره من بقية الشعراء - كان مخدوعا
لا يعرف شيئا عن هذا السلطان ولم تصله أنباء فسقه واسرافه وما كان
عليه من أعمال استحق أن يسمى بسببها السلطان المتهتك^(١٩) .

ولقد بالغ أيضا في مدح هذا السلطان شاعر بغدادى آخر هو السيد
راضى القزوينى فقد شبه جلوسه على السرير بظهور النبى (ص) فى حين
أن هذا الشاعر من الذين لا يؤمنون بالخلافة العثمانية ومن ذلك قوله :

زهت الملوك وأزهرت تيجانها مذ قر فى تخت العلاء سلطانها
وتهلكت غرر الممالك بهجة بملكها وتأودت عيدانها
فكأنما هى جنة وكأنما عبدالعزيز بملكها رضوانها
وكان يوم جلوسه بسريره يوم النبوة قد بدا برهانها
سجدت له أملاكها لما استوى وسما بعرش سريره خاقانها
ثم يخاطب المدوح نفسه :

مشكاة نور العدل أنت سراجها وقناة دين الله أنت سنانها

(١٨) الطراز الانفس ص ٤٢٤ - ٤٢٥ .

(١٩) سلاطين بنى عثمان الخمسة . للدكتورة ماري ملز باتريك
ص ٣٤ من الترجمة العربية .

بك ملة الاسلام راق نظامها وزها يعدلك عصرها وزمانها^(٢٠)

وفي سنة ١٢٧٩هـ ١٨٦٣م أمر هذا السلطان بفتح باب جديدة لمرقد الامام علي في النجف فنظم الشيخ عباس بن الشيخ حسن آل كاشف الغطاء أبياتا بهذه المناسبة كتبت على الباب ومنها :

عبدالعزیز أعز الله جانبه والدين حصن فيه أي تحصين
والى الرقاب امام الخلق كلهم خليفة الله فى فرض ومسنون
رأى على البعد ضيق الداخلين الى مئوى الامام ابى الغر الميامين
فجاد فى فتح باب أورثت سعة لزاثرى قبر باب العلم والدين
فقف خاضعا واسمع مؤرخها جلت علت باب سلطان السلاطين^(٢١)

ويلاحظ من هذه المقطوعة أن فتح باب للمرقد العلوى كاف لان يجعل من عبدالعزيز اماما للخلق كلهم !! وليس بغريب أن يصدر هذا من شاعر بعيد عن عاصمة السلطنة لا يعرف ما يجرى فيها وفي قصور السلاطين منها ولا يدري أن الناس كانوا يودون سقوط هذا السلطان وخلعه^(٢٢) . ولعبدالباقي العمري أبيات يؤرخ فيها جلوس هذا السلطان سنة ١٢٧٧هـ^(٢٣) .

عبدالحميد الثانى :

لقد كان نصيب السلطان عبدالحميد الثانى من الشعر العراقى أوفر من غيره مع أن الفترة التى حكم فيها سماها المؤرخون فترة الاستبداد ، غير أن هذا الاستبداد لم يعرف عنه شعراء العراق ما كان يعرفه سواهم من الاتراك أو أنهم لم يدركوا المفهوم الذى أدركه سواهم من المطلعين على التيارات السياسية فقد كان للجامعة الاسلامية التى احتضنها هذا السلطان لتوطيد مركزه أثر كبير عند رجال الدين والشعراء فى العراق اذ

(٢٠) ديوان السيد صالح القزوينى . الورقة ١٧٧ .

(٢١) ماضى النجف وحاضرها ص ٤٧ ج ١ .

(٢٢) راجع : (مذكرات مدحة) ص ١٣ و ١٤ .

(٢٣) راجع : الترياق الفاروقى ص ٤٣٦ .

كان دعاة هذه الجامعة ومؤيدوها لا يألون جهدا في ترسيخها في نفوس العراقيين ، وكانت تبدو الى جانب هذا بعض الاعمال التي يعدها العراقيون من الحسنات وهي في الواقع أعمال يمكن أن يقوم بها أي موظف يحسن تصريف الامور ولكن كل شيء من هذه الاعمال كان يعزى الى السلطان والى رغبته ، واذا كان لهذا السلطان شأن كبير في نفوس الشعراء يوم صار سلطانا نافذ الكلمة فان هذا الشأن قد بدأ يوم مولده سنة ١٢٥٨هـ ١٨٤٣م وقد ظهر أثر ذلك على لسان الشاعر عبدالغفار الاخرس فانه نظم قصيدة يهنئ بها السلطان عبدالمجيد ويصف الفرخ الذي عم الناس بيوم مولد ابنته عبدالحميد ومنها قوله :

ولد قد أشرق الكون به من علا سلطاننا عبدالمجيد

* * *

فزهرت بغداد حتى أنها قابلت أيام هرون الرشيد

* * *

واذا الكون أيضا أرخته فضياء الكون من عبدالحميد^(٢٤)

وحين صار سلطانا أراد أن يبرهن على احترامه رجال الدين وطلبة المدارس الدينية ليجعل من هؤلاء رصيذا يعتمد عليه فأمر بأن لا يشملهم نظام التجنيد الالزامي ، وقد سجل حسن البراز الموصلى هذه المناسبة بأبيات ركيكة جاء فيها قوله :

العلم أشرف ما يسمو به السامي
والله شرف أهليه فميزهم
كهف الخليفة ظل الله من ملئت
لذاك أترعت من صهبائه جامي
سلطاننا عز سلطاننا لنا حامى
منه البسيطة في عدل وانعام

* * *

وقسم الأمر فينا بين منتظر
وقد عفا عن أهيل العلم حين رأى
حربا وداع له تقسيم علام
لايد من علماء فيه أعلام

(٢٤) راجع : الطراز الانفس ص ٩٥ و ٩٦ .

لا يستطيعون حربا غير أنهم الى المحارب فيه كل مقدم (٢٥)
وفى الحق أن طلب العلم لا يمنع من التدريب على أعمال الجندية
الى حد كبير ولكن الجندية فى العصر العثمانى كانت أشد على رعايا الدولة
من وباء الطاعون وقد مرت الاشارة الى موقف العراقيين منها فى أكثر من
مكان واحد .

وفى سنة ١٣٠٥ هـ ١٨٨٧ م تعرضت مدينة النجف - كعادتها -
للعطش بسبب ارتفاعها وعدم وصول الماء اليها فأمر السلطان عبدالحميد
بشق نهر صغير من الفرات يصل الى غربى المدينة حيث تنخفض الارض
هناك الى مستوى نهر الفرات وقد استبشر سكان النجف حين وصل الماء
اليهم وأقاموا مهرجانا بهذه المناسبة ألقى فيه الخطب والقصائد التى أُنبت
فى مدح السلطان والوالى (مصطفى عاصم) وحاكم النجف وقد سُمى
هذا النهر (نهر الحميدية) باسم السلطان كما سُمى أيضا (نهر عبدالغنى)
باسم حاكم النجف . أما الشعراء الذين نظموا بهذه المناسبة فمنهم الشيخ
ظاهر الدجيلي وقد جاء فى قصيدته قوله :

حى الملوك وقل لها بشرى أجرى الحميد لجيدر نهرا
ومنها فى مدح الوالى وحاكم النجف :

كالعاصم الحامى له خضعت أهل العراق فلم يحق مكرا
وكذلكم عبدالغنى فكسّم قد شد فى طلب العلا أزرار (٢٦)

وكان المبدع بهذه المناسبة السيد جعفر الحلى فقد قال يمدح
عبدالحميد :

دول الممالك طأطأت لك هامها قدها فقد ألقى اليك زمامها
نظرت مداك فقصرت من خطوها ورأت لواءك فنكست أعلامها
فاهنأ رئيس المسلمين برتبة شرف الملوك اذا مشوا خدامها
ويمدح الوالى عاصما خلال القصيدة ثم يعود الى مدح السلطان

(٢٥) ديوان البزاز الموصلى ص ٩٠ - ٩١ طبع مصر .

(٢٦) راجع (مباحث عراقية) ص ٦٦ ج ٢ .

ووصف حالة مدينة النجف وما كانت تعانيه من العطش فيقول :

واستمع رئيس المسلمين رسالة بضاعة عزت على من سامها
فندي يمينك قد سقى أهل الحمى (٢٧) عذبا يبل من الصدور أوامها
كان الغرى وأهله في حالة تشكو عن الماء القراح صيامها
وعلى البعاد أغتتهم وأتيتهم بالماء يعلو سهلها وأكامها (٢٨)

وقد أهمل هذا الجدول الصغير بعد مدة قليلة فترسبت فيه الرمال
وانقطع الماء عن النجف سنة ١٣٠٨هـ فأمر السلطان عبدالحميد بحفر نهر
آخر يحاذي الاول وسمى « نهر الحميدية » و « نهر الحيدرية » وقد
روعى في الاول اسم السلطان ، وفي الثاني اسم (حيدر) وهو من أسماء
الامام علي ، فكان لهذا النهر من الفرح ما كان للاول ، وقد أقيم له احتفال
حكومي في النجف وأقيمت القصائد المناسبة ، ومنها قصيدة للسيد جعفر
الحلي وقد جاء فيها :

جری ماؤنا من لطف سلطاننا عذبا فلذ لنا طعما ولذ لنا شربا
جانا امام العصر من صدقاته مراحم فيها ازداد من ربه قربا
امام الوزی عبدالحمید الذی جرت أیادیه حتی عمت الشرق والغربا !!
ثم يمدح الوالی فيها فيقول :

وقد علمت بغداد أن وزيرها غدا لأمام العصر أسرع من لبي (٢٩)

ويختم القصيدة بيت يؤرخ فيه هذه المناسبة فيقول :

لقد صدقت آياتها وهي عذبة
إذا الناس في تاريخها شربوا العذبا (٣٠)

ويصادف هذا التاريخ سنة ١٣١١هـ .

-
- (٢٧) الحمى : من أسماء النجف .
(٢٨) سحر بابل - ص ٢٧٨ - ٣٨٠ .
(٢٩) راجع - البابليات - ص ٢٥ ج ٣ القسم الثاني . للشهيد
محمد علي اليعقوبي .
(٣٠) سحر بابل ص ٧٩ .

وللسيد جعفر الحلبي مقطوعة اخرى بهذه المناسبة أيضا (٣١) * ومن الشعراء الذين نظموا فيها السيد محمد القزويني فقد أرسل الى السلطان أبياتا بطريق البرق يشكره فيها على هذه المبرة ومنها :

شكرا امام المسلمين على صنائعك السنيه
أجريت نهرا في الغرى به مننت على الرعية (٣٢)

وفي حرب الدولة العثمانية مع اليونان سنة ١٣١٤هـ - ١٨٩٧م (٣٣) نظم شعراء العراق قصائد انتصروا فيها للدولة ووقفوا الى جانبها ومنهم السيد جعفر الحلبي فقد قال يمدح السلطان عبدالحميد ويصف هذه الحرب :

لك طأطأت دول الضلال رقابها قدما فسيفك قد أذل صوابها
ومنها :

أرسلت من جند الآله عساكرا يستعذبون من المنية صابها
أما أعداء الدولة فانهم خافوا وتحصنوا في قلعة قد أحكمت
وتخللوا فيها النجاة وما دروا حتى اذا فتح المظفر (أدهم) (٣٤)
ورأت جيوش الشرك ما قد نابها تلك البطارق أن تغير دابها (٣٥)
حلف النصرى بالمسيح وأقسمت

والقصيدة كلها من هذا النسق الذي لا يعدو هذه الفكرة وهي أن النصرى ناروا على المسلمين فحاربهم السلطان *

وكان لابد أن يعلن في الاقطار التابعة للدولة العثمانية ان السلطان قد انتصر لثلاثى الرعية ظننها بالدولة ، وباعتقاد الانتصار نظم الشيخ يعقوب

(٣١) راجع : المصدر السابق ص ٢٣١ .

(٣٢) راجع (نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر) ص

٢٧٤ . و (البابليات) ص ٢٦ ج ٣ القسم الثاني .

(٣٣) راجع ص ٢٨ .

(٣٤) هو القائد المعروف أدهم باشا .

(٣٥) راجع : سحر بابل - ص ٥٢ - ٥٤ .

ابن الحاج جعفر^(٣٦) أبياتا يؤرخ بها هذه الحادثة فقال :

سلطاننا عبد الحميد الذي صن حمي الاسلام والمسلمين
أعز دين الله في موقف أذل فيه الشرك والمشركين
حرب بها اليونان قد شاهدت عاقبة الطغيان عين اليقين
فيها أعان الله أجاده على العدا والله نعم المعين
أوحى له الذكر بتاريخها انا فتحنا لك فتحا مبين^(٣٧)

ويلاحظ في هذه الابيات أن الشاعر لا ينظر الى هذه الحروب الا من
الزاوية الدينية وهو كالسيد جعفر الحلبي في هذه النظرة ، اذ لم يكن
للشعراء علم بالسياسة ولم يكونوا يعرفون ان العامل الديني كان أضعف من
غيره في إثارة هذه الحروب .

ويشارك جميل صدقي الزهاوي في مدح السلطان وجيوشه في هذه
الحرب وكان اذ ذاك في الاستانة فيقول :

هو الفتح ألقى في قلوب العدا هولا وأثبت ان الحق يعلو ولا يعلى

أضاع بنو اليونان في الحرب رشدهم * * * فضلوا ، وقد خابت أمانى من ضلا

نصحاهم ألا يعافوا ولاءنا * * * فلم يقبلوا الا العداوة والغلا
الى أن رددنا كيدهم في نحورهم * * * بنصر به قد خصنا الملك الأعلى

ويشير فيها الى طلب الصلح من قبل اليونان :

ولما سعى الساعون أن نهجر الوغى ونمنح للمغلوب من فضلنا مهلا

عقدنا مع اليونان للحرب هدنة على طلب منهم فكانوا اليد السفلى

ويمدح السلطان فيقول :

لسلطاننا عبد الحميد سياسة طريقتها في العضلات هي المثلى^(٣٨)

(٣٦) هو والد الشاعر المعاصر الشيخ محمد علي اليعقوبي معتمد
الرابطة الادبية في النجف . وقد توفي سنة ١٣٢٩ هـ .

(٣٧) راجع (البابلديات) ص ١٤٤ - ١٤٧ ج ٣ القسم الاول .

(٣٨) راجع (السكلم المنظوم) للزهاوي ص ٣ و ٤ .

ولهؤلاء الشعراء وغيرهم قصائد اخرى في مدح هذا السلطان بمناسبة عيد ميلاده وجلوسه وبعض أعماله ، ومنها قصيدة للسيد جعفر الحلي نظمها بمناسبة عيد ولادة عبد الحميد سنة ١٣١٥ هـ ، وقد جاء في أولها :

ميلاد سلطان البرية عيد وبه سعود للهدى وسعود
بوركت يا دين النبي بليلة فيها خليفة عصرنا مولود

وعدد أبيات هذه القصيدة ثمانية وثلاثون خص بقسم منها والى بغداد اذ ذاك وهو عطاء الله الكواكبي^(٣٩) ، وقد بالغ في مدحه كما بالغ في مدح السلطان^(٤٠) .

الصلور العظام والوزراء :

لم يقتصر الشعر الذي كان يوجه الى استانبول على السلطان وحده سواء سجع هذا الشعر أم لم يسمع ، وسواء وصل أم لم يصل ، بل كان للصدور العظام والوزراء نصيب منه ولكنه نصيب قليل لبعد الشعراء عن العاصمة ولان شهرة هؤلاء الموظفين لم تكن قد بلغت درجة كافية بحيث تملأ أسماع الشعراء كما ملأت أسماعهم شهرة السلطان أو الوالى الذى يقيم بين أظهرهم .

ولذلك لم يكن الشعر الذى قيل فى هؤلاء شيئا يذكر فقد كان لا يتجاوز المقطوعات القصار والابيات القليلة التى كانت تنظم بمناسبة تعيين صدر أعظم أو تقال للزلفى والتقرب لدى صدر أعظم أو وزير .

ومن أمثلة ذلك قول عبد الباقي العمري عندما صار مصطفى رشيد صدرا أعظم للمرة الثالثة سنة ١٢٦٩ هـ :

رجع الرشيد الى الصداره فلنا الهنا ولك البشاره
والمخاطب بالبيت أبو التناء الآلوسى حين كان فى الاستانة^(٤١) .

(٣٩) ولى بغداد سنة ١٨٩٦م وكان طاعنا فى السن .

(٤٠) راجع القصيدة فى (سحر بابل) ص ١٥٦ - ١٥٨ .

(٤١) راجع (غرائب الاغتراب) ص ١٢١ .

ويجمع العمري بين هذا الصدر وبين مستشاره فؤاد على والسلطان
عبدالمجيد أيضا فيقول :

فؤاد لصدر الملك لا زال لائقا وهل لائق للصدر غير فؤاده
فذاك وذا جسم وروح تلازما لخدمة ظل الله بين عباده (٤٢)

وقد جمع الآلوسی أيضا بين هذا الصدر ومستشاره بأبيات ثلاثة فقال :
ولما نظرت الى المستشار وشممت عليه مدار الامور
هتفت أنادى بقول صحيح عليه يلوح من الصدر نور
يليق بذو الصدر هذا الفؤاد وهل غيره لائق للصدر (٤٣)
ولا شك أن للاسماء أثرا في هذا اللون من البديع الذي تلاعب فيه
العمري والآلوسی •

ونرى الآلوسی في رحلته يبين الاسباب التي الجأته الى ترك بغداد
والاتجاه الى الاستانة فيخطب هذا الصدر بيتين ضمنهما شطرا لابي فراس
الحمداني فقال :

قصدت من الزوراء صدرا مغلما وقد سامني ضر وقد ساءني دهر
وقلت لنفسي - والرجاء موفر - (لنا الصدر دون العالمين أو القبر) (٤٤)
وهو بهذا التضمين قد استخدم كلمة الصدر بمعنى آخر •

ثم يعود الى مدح المستشار فؤاد ، والصدر ، والسلطان بأبيات يرجو
بها قضاء حاجته ليعود الى أهله فيقول مخاطبا المستشار :

أرى دولة الاسلام شخصا فرأسه ملاذ الوري السلطان والصدر صدره
وأنت بلا ريب فؤاد وحبذا فؤاد حوى العرفان لله دره
فيا سيدي قد طال بالبعد غربة فمناوا عليه أن يحرر أمره
ليغدو الى أهليه بالخير داعيا ويبقى لكم ما عاش بالمدح ذكره (٤٥)

-
- (٤٢) المصدر السابق والصفحة نفسها
 - (٤٣) المصدر السابق والصفحة نفسها
 - (٤٤) المصدر السابق ص ١٢٤
 - (٤٥) المصدر السابق ص ١٤١ و ١٤٢

وحين صار فؤاد على صدره أعظم سنة ١٢٧٨هـ نظم العمري أبياتا
يؤرخ بها هذه الصدارة فقال :

صدارة كررت مرارا لواحد الدهر في الكمال
ما قطعت عنه وقتا الا وحتت الى الوصال
ان رمت تاريخها ارتجالا كرر ثلاثا الصدر عال^(٤٦)
وليس في هذه الابيات سوى الفن التاريخي فاذا كررنا كلمتي (الصدر
عال) ثلاث مرات وحسبنا حروفها على طريقة الجمل وجدناها توافق تاريخ
هذه الصدارة .

وقد أرخ الاخرس صدارة مدحة باشا الاولى سنة ١٢٨٩هـ وكانت
في أيام السلطان عبدالعزيز فقال :

ان الممالك في صدارة (مدحة) أضحت بطيب مسرة وهناك
ضحكت به دار السعادة بعدما أبكت عليه أعين الزوراء
للدولة العلياء من سلطانها أرخ تصدر مدحة العلياء^(٤٧)

ومما تجب الاشارة اليه أن مدحة عين صدره أعظم بعد أن غادر
العراق بمدة^(٤٨) .

وقد مدح عبد الباقي العمري بعض وزراء الدولة ومنهم حفظي باشا
فقد أرسل اليه مقطوعة مع القصيدة التي نظمها في الاستيلاء على حصن
(سواستبول) في حرب القرم وقد مر ذكرها في مدائح السلطان عبدالمجيد
أما المقطوعة التي مدح بها حفظي فانه يشير فيها الى صداقة كانت بينه وبين

(٤٦) الترياق الفاروقى - ص ٤٣٦ .

(٤٧) مجموعة للاخرس ، لم تنشر . الورقة ١٧ من نسختي المنقولة
عن نسخة يعقوب سرقيس .

(٤٨) في ديوان السيد حيدر الحلي قصيدة في مدح الصدر الاعظم
ولكن ليس في المقدمة أو في ثنايا القصيدة ما يشير الى اسم المدوح ويغلب
على الغنن أنها في (مدحة) بعد ان عين صدره أعظم لان للشاعر فيه بعض
المدائح أيام كان واليا في العراق . راجع هذه القصيدة الغفل في ديوان
السيد حيدر الحلي ص ٢٠٨ - ٢١٠ . وفي العقد المفصل للشاعر نفسه
ص ٢٣ - ٢٤ ج ٢ .

هذا الوزير وأن هذه الصداقة هي التي حفزته لان يرسل اليه قصيدة
(سواستيول) • وقد جاء في مقطوعته التي يخاطب بها حفظي قوله :

أيها المولى الذي باهت به داره الملك شيوخ الوزراء
هذه منظومة قد قالها عبدك الداعي بصبح ومساء
ذاكرا في ضمنها ما شاع من فتح حصن الروس من بعد الغزاه (٤٩)

ولم يكن القصد من هذا الخضوع غير أن يتفضل الوزير بتسجيل
هذا الشاعر في ثبت المخلصين للدولة •

وللعمرى أبيات أرسلها الى أحمد زيور ناظر الاوقاف السلطانية
بالاستانة وكان هذا قد طلب من الشاعر نسخة من ديوانه (البقيات
الصالحات) في مدح النبي وآل البيت لطبعها له وأول الايات :
دعاني زيور الوكلاء أحمد لحضرته بظفر الغيب أحمد (٥٠)

ولاية العراق :

ان الشعر الذي قيل في مدح الولاية وذكر مناسباتهم وحوادثهم
وحروبهم شعر كثير لا يمكن استيعابه في دراسة لا تعرض الا الى النواحي
الهامة التي يمكن أن تكشف عن الخطوط والاتجاهات ، وتترك من الشعر
ما كان صورا مكررة أو معادة لا تضيف شيئا جديدا الى المطلوب من هذه
الدراسة ، كما أن في مدح بعض الولاية ما لا حاجة لذكره في هذا المجال
لانه مجرد مدح يراد به التماس عطف الوالى ورضاه •

ولما كانت صور المدح في مناسبة هامة أو في غير مناسبة صورا كثيرة
متشابهة فان الاقتصار على بعضها دون بعض أجمل من تناولها عامة ، لذلك
أرى من المفيد أن أتناول في هذه الدراسة ما قيل في أبرز الولاية ، وما صدر
من أشهر الشعراء خلال القرن كله ، وأن أتجنب الفضول والزوائد •
وإذا كان تحديد الموضوعات مما يعين على فهمها ودراسة جوانبها أكثر مما

(٤٩) راجع :- الترياق الفاروقى ص ٣٩٥ •

(٥٠) المصدر السابق ص ٣٩٦ •

لو درست وهي غير محددة فان دراسة هذا الشعر في كل ولاية على حدة أفضل في تنظيم الخطوط التاريخية والسياسية والادبية ، وان تناول كل وال من الولاة وكل شاعر من الشعراء بانفراد مما يساعد على التصوير الواضح المفيد •

ولاية بغداد :

اذا كنت قد بدأت ببغداد فلانها الولاية الكبرى ولان ما قيل في ولايتها من الشعر أكثر وأغزر مما قيل في الولاة الآخرين ، وسأتناول من ولاية بغداد من كان لهم أثر في توجيه الشعراء وجهة حكومية طاوعها الشعر في مختلف الحوادث والمناسبات •

الوالي داود :

ان هذا الوالي المملوك الذي ختم به عصر المماليك كان أقرب الولاة الى شعراء عصره ، بل كان الشعراء أقرب طبقات المجتمع اليه ، وقد كان نصيبه من مدائحهم ودواوينهم أكثر من نصيب أي وال سبقه أو لحقه ، فقد رافقوه في كل عمل وكل حادثة ومعركة وسجلوا له ذلك كما يجب ، وكما يشاء ، وارتفعوا به الى مصاف الملوك والامراء بل منحه بعضهم صفة الخلافة وسماه خليفة العصر ، أما هو فقد كان يطرب لهذه المدائح والالقب وينيب عليها بمقدار ما يستحق أصحابها ، ومن أبرز الشعراء الذين مدحوه :

الشاعر عثمان بن سند :

هذا الشاعر كان من المقربين عند داود وقد ألف كتابه المعروف « مطالع السعود^(٥١) » ، وسجل في هذا الكتاب ما يرضى هذا الوالي من تاريخه وتاريخ حروبه ومعاركه والثورات التي قضى عليها ، ومدحه بقصائد

(٥١) لا يزال هذا الكتاب مخطوطا وتوجد منه نسخة في مكتبة الاوقاف ببغداد برقم ٥٨٤٠ . ونسخة ثانية في مكتبة الآثار ببغداد أيضا . اما التي اتخذتها مرجعا في هذه الدراسة فهي نسخة الآثار برقم ٢٣٣ •

كثيرة كان فيها عوننا له وخصما لكل نائر أو محارب ولو كان من القبائل
العراقية العربية ، ولعل من المستحسن أن أترك لشعره كل إيضاح وشرح
وألا أتسرع في الحكم والتعليق .

قال عثمان على لسان هذا الوالي مدعيا ان المعارف والتقوى كانت في
أيامه وان أيام من سبقه كانت حافلة باللهم :

واني لفلال لكل كنية سريع الى ابطال سورتها عدوى
تفاخر أيامي وأيام من مضوا ببغداد ممن أملوا جهدهم شأوى
فكانت لأيامي المعارف والتقوى وما افتخرت أيامهم بسوى اللهم (٥٢)

وإذا كان اللهم لا يحتاج الى دليل فان التقى من مبالغات الشاعر !!
وقال فيه حين أرخ انتصاره على الوالي السابق واسناد ولاية بغداد له
وقد تعرض لذكر الوالي السابق ودفاعه عن نفسه :

بشراك بشرى بما تهوى قضى الزمن والجد منك على " والرجا حسن

أردت حقن دماء المارقين ولكن العصاة أراقوه وما حقنوا
ظنوا الحصون عن الأقدار مائة أمانع من قضاء القاهر الحصن ؟
وما نفوا عن (سعيد) (٥٣) ما تأنفه اذ خال فيهم دفاعا رأيه الزمن
استودع الملك لا أهلا فساء به رعبا ، أذنب على الاغنام يؤتمن (٥٤) ؟

ويخرج عثمان بن سند عن حسه العربي بتأثير الزلفى لهذا الوالي
فيندد بثورة عشائر الدليم على داود سنة ١٢٣٣هـ ، وكان داود قد قضى على
هذه الثورة بقوة الانكشارية ، فيقول :

هو القرم صلت في الرؤوس مناصله فسلّ مناويه وثل مقاتله
مناصل ما سلت على غير معتد غشوم يرى أن يدفع الحق باطله

(٥٢) مطالع السعود - الورقة ٣

(٥٣) هو سعيد بن سليمان الكبير . راجع الفصل السياسي في
بحث الماليك .

(٥٤) مطالع السعود - الورقة ١١٢ - ١١٤

غزا فرقة أموا الضلال فاذعنوا لدن ما صعتهم أسده وقنابله (٥٥)

وزير به عاد الهدى سامى الذرى * * * وأبيض سفاح العطاء وشامله
رأى من (دليم) نفرة ففزتهم

- الى أن أجابوا عن صغار - جحافلهم (٥٦)

وماذا بقى لطلاب الحق بعد هذا الضلال والباطل والصغار الذى وسم

به الثأرون العرب ؟

وحين أرخ حرب داود مع الدولة الايرانية سنة ١٢٣٧-١٢٣٨هـ

١٨٢١م وهى الحرب التى لم يعمل فيها جيش الدولة العثمانية شيئاً مثل ما

عمل بعض عشائر العراق (٥٧) ، رأى عثمان أن يسجل مع التاريخ قصيدة

يشير بها الى هذه الحرب فتجاوز الواقع حين نسب الانتصار الى داود ،

وتناول الايرانيين من زاوية العقيدة لا من زاوية الخلاف السياسى القائم بين

الدولتين ، فقال :

تاج الملا داود والصدر الذى بسعوده صدر الوزارة أعظم

من كنبه فى المارقين كتاب منها كتاب كل باغ تهزم

قل للروافض كيف ذقتم طعنهم * * * أمجاج نحل طعمه أم علقم ؟

ما أن زجرتم شاهكم عن بغيه بل صلتم لم تعرفوا من أنتم

وزحفتم بخميسكم كى تملكوا بغداد فانقلب البوار عليكم (٥٨)

ولكنه رأى من غير المناسب ألا يذكر يد العشائر فى دحر القوات

الايرانية فقال موجه خطابه الى (صفوق بن فارس) رئيس شمر :

يا شمرياً رأينا من مواهبه ما ليس يحصره طرس ولا قلم

انى مدحت لسعوى عنك ما قصرت عن أن تجاريه فى سحه الديم

(٥٥) ماصع بمعنى قاتل وجالد .

(٥٦) مطالع السعود الورقتان ١١٦ و ١١٧ .

(٥٧) راجع ص ٥٤ .

(٥٨) مطالع السعود الورقة : ١٣٤ - ١٣٦ .

وحتى في هذه الايات لا ينسى داود ، ولا يرى لصفوق ما يمدح عليه
غير نصرته هذا الوالى :

لكننى رجل أهوى الكرام ومن كانوا لخير وزير فى الورى خدموا
اذ كنت افرغت وسعا فى نصيخته وكنت قاضيه لما بغى العجم (٥٩)
وفى الثورة القبيلة التى بدأت فى الحلة سنة ١٢٤٠هـ وانتقلت الى
(عفاك) سنة ١٢٤٢هـ وانهت بانتصار داود (٦٠) يستبشر عثمان باندحار
التائرين ويمدح الوالى المنتصر فيقول :

بريد النصر باكرنا فهنا وزيرا هز للعلياء فنا
أبار من الروافض كل هام بأسياف يرين القتل سنا
دعاهم للهوادة فاشمأزوا فشن عليهم الغارات سنا
فبادوا مثلما بادت ثمود ولكن بالسيف ضحكنا سنا
فيا أعلى وزير طال مجدا وأعطته الليالى ما تمنى
تهنأ بالذى أعطاك مولى جباك بنصره فنعمت منا (٦١)

وقد بالغ الشاعر هنا بمبالغة عاطفية ضيقة الشعور لان هذه الثورة كان
من زعمائها قاسم الشاوى ومحمد الكنخدا نفسه وليس كل المحرضين أو
التائرين من الشيعة كما أوجت اليه عاطفته ، ولكن اندفاعه الى هذا الحد
ناشئ من أن الثورة كانت فى مناطق شيعية مضافا الى ذلك كونه متعصبا تعصبا
شديدا ينسبه فى أكثر المواقف أن هؤلاء عرب وانهم طلاب حق •
ولا أريد أن أطيل الوقوف مع الشيخ عثمان بن سند فان شعره فى
داود أكثر مما ذكرته ، وان الذى اخترته أهم ما فيه من الناحية الموضوعية •
وممن أكثروا من مدح داود :

الشاعر الشيخ صالح التميمي :

فقد كان التميمي (٦٢) يعد الشاعر الخاص لداود وكان رئيس ديوان

(٥٩) المصدر السابق - الورقة ١٣٧ •

(٦٠) راجع ص ٦١ و٦٢ •

(٦١) مطالع السعود - الورقة ١٥٧ •

(٦٢) ولد التميمي سنة ١١٩٠هـ وتوفى سنة ١٢٦١هـ ١٨٤٥م

وكانت دراسته الاولى فى النجف •

الانشاء العربي في حكومة هذا الوالي ، وقد تصدى لتسجيل أعماله وحروبه مع ايران . ومع القبائل والمدن العراقية ، وكان داود نفسه لا يعتمد على غير هذا الشاعر^(٦٣) في المناسبات التي تحدث من ترميم مسجد أو بناء جامع فيطلب منه أن يؤرخ تلك الاعمال^(٦٤) ولقد كان التيمى كغيره من الشعراء مبالغاً مسرفاً في مدح داود بل كان موقفه من الثورات القبلية موقفاً لا يدل على شيء سوى الذوبان في موقد الحكم ، وعلى ما فى شعره من قوة وسلاسة كان في طبيعة الشعراء الذين ساروا في ركاب الولاة واندفعوا مع التيار فأكثر من مدح داود في حروبه ومعاركه وأسرف في تمجيد موافقه من قمع الحركات والثورات الداخلية وندد بالقبائل التي كانت تمرد وتثور على الولى ونظر اليها كما ينظر الخصم الى خصمه . ولقد كان شعره في حروب داود ووقائعه مع الفرس أو القبائل العراقية يصطبغ بالدماء ويتلون ببريق السيوف ويزخر بالكلمات المججلة الصاخبة كأنها غارات وكتائب^(٦٥) . ومن ذلك قصيدة نظمها في الحوادث التي وقعت بين العراق وايران في سنتي ١٢٣٧-١٢٣٨هـ ٢٢-١٨٢٣م وهي قصيدة عامرة الاسلوب وقد تناول فيها الفرس من زاوية الجنس وعابهم بالديانة المجوسية القديمة ووازن بينهم وبين الترك في الشجاعة والحروب ففضل الترك عليهم ، وفيها يقول :

بطلعتك الزوراء أشرق نورها فأعيادها أيامها وشهورها
لعمرك ما زاغت عن الرشد أمة اذا كان عن داود تلى زبورها
حمى جانبيها والعراق بسطوة يمينا الى طهران وافى نذيرها

(٦٣) كان داود يسميه (سيد شعراء عصره) . راجع : المسك الاذفر - لمحمود شكري الآلوسى ص ١٤٩ .
(٦٤) فى (تاريخ مساجد بغداد وآثارها) لمحمود شكري الآلوسى - نماذج من هذا الشعر .
(٦٥) مدح التيمى داود قبل أن يكون واليا وذلك عندما ذهب الى خزاعة وأخضعها سنة ١٢٣٠هـ ١٨١٥م . راجع : (ديوان التيمى) ص ٣١ .

إذا ما سرت للفرس منها كتاب
سرت قبلها عقباتها ونسورها
مجوس لئار الحرب ظلت رؤوسهم
سجودا ، كذا دين المجوس سميرها
عتت فاصطلت نار المواضي وبعدها
الى النار في يوم الجزاء مصيرها
وردت على الاذنان لا ذو وقاية
يقبها ولا حصن حصين يجبرها
هي الترك ان صالت فلا يزدجردها
برد مواضيها ولا ازدشيرها

وفى الحق أن الايرانيين لم يردهم داود ولا كئخداه المنهزم ، ولا
ضباطه المماليك ولا جيش الترك ، وانما ردهم العرب ، ولو أن الشاعر جرد
هذه القصيدة من مدح داود والترك لكانت من خيرة الشعر القومي ولكنه
جمع فيها هذا الخليط المتباين وأفرغها في قالب المدح وحده وقد استمر فيها
مادحا داود وأعماله الحربية وبالغ وأسرف في المبالغة (٦٦) .

ونظم قصيدة اخرى مشيرا الى الصلح الذي عقد بين الدولة وايران
في هذه الحوادث وكان قد توسطه رجال الدين سنة ١٢٣٧هـ - ١٨٢١م قبل
المعركة الثانية فقال يخاطب داود :

ملكك الورى مستمسكا بعد همة
بجبل من الله المهيمن موثق
سل الفرس مذ جرت اليك كتابا
متى وطئتها الشمس بالتقع تفرق
ملاحم وافت من خراسان أثرها
ملاحم تترى فيلق بعد فيلق
لقد جمعت من كل قطر وانها
لتسعى على أعقاب شمل مفرق
فباكرتهم في حيهم بكيسة
فلم تبق فيهم غادة لم تطلق
ومذ جنحوا للسلم والصلح طاعة
منتت بصلح صادر عن ترفق (٦٧)

ونرى التحريض واضحا في شعر التميمي اذ يطلب من داود أن يجعل
سيفه بين يديه في معالجة الامور وألا ينسى بذل المال والتأني أيضا :
لا يبلغ الملك المتوج قصده
الا اذا جعل الخزائن معبرا
فاسلل سيوفك انها آيات ما
أدركت من شرف به فقت الورى
واذا رأيت البغي رافع رأسه
فادمغه بالعضب المهند واكسرا

(٦٦) ديوان التميمي - ص ٤٠ - ٤٢ .

(٦٧) ديوان التميمي ص ٨٨ .

هذا العراق وأنت فيه مفرد فانظر امورك بالتأني تقدر^(٦٨)
 والى هذا الحد قد يهون الامر في تفسير مدائح التميمي في داود ولكن
 قصائده في الثورات القبلية ليست ذات اتجاه مقبول شأنه في ذلك شأن
 معاصريه من الشعراء الذين لم يكن هدفهم غير التقرب والزلفى وأخذ
 الجوائز وان كانت يسيرة ، ومن شعر التميمي في هذه الحوادث ما قاله في
 المعارك التي وقعت بين قبائل عنزة وشمر سنة ١٢٣٩هـ ١٨٢٣م وكان داود
 في هذه المعارك بجانب شمر لانهم آزره في محاربة الفرس^(٦٩) . ولما
 كانت قبائل عنزة^(٧٠) من بكر بن وائل فان الشاعر استهل قصيدته
 بالاستخفاف والاستهانة ببكر بن وائل كلها فقال :

سلوا حتى بكر أين قوض وائله وفي أي أقطار تولت قبائله ؟
 تصابت الى ماء العراق وما درت موارد حنف ، ذعاف منايله
 وما كل مفتون بليلي ومغرم اذا رامها في جنح ليل تواصله
 تجافت عن القيصوم شوقاً لباسق من النخل طعم النحل حين يشاكله
 تؤمل من دار السلام سلامة وللرأى زبغ يشبه الحق باطله
 فعارضها من أفق بغداد عارض أبي الله الا أن تبيد زلازله
 ثلاثون شهرا قاتل الفرس لم تطش مراميه عن أكباد قوم تقاتله^(٧١)

ان هذا الاسلوب الرائع الجميل يضع في فكرة غير مقبولة ،
 اذ يرى الشاعر أن قبائل عنزة لا يجوز لها أن ترد مياه العراق ، بل تبقى
 في باديتها بين الشيع والقيصوم ، وانها لا يحق لها أن تسكن في أي مكان
 من العراق الذي استباحته سيول من الترك والممالك والفرس !!

ولقد كان التميمي وفيها لداود حتى بعد أن انطوى حكمه من العراق

(٦٨) المصدر السابق ص ٤٢ و ٤٣ .

(٦٩) راجع (مطالع السعود) الورقتان : ١٤٠ و ١٥١ .

(٧٠) قبائل عنزة منتشرة في العراق من البصرة الى الشمال على
 سقى الفرات الغربي وقد تفرعت الى أفخاذ كثيرة يقيم بعضها داخل
 العراق . ومنها أفخاذ في نجد وسوريا .

(٧١) ديوان التميمي ص ١١٤ .

وسفر الى الاستانة ، ومثال ذلك جوابه على القصيدة « الخالية »^(٧٢) ، التي أرسلها داود الى شعراء العراق ليأروها فإراها بعضهم وأبى التميمي أن ينسج على منوالها ولكنه أرسل الى داود قصيدة يعنذر فيها عن هذه المجارة ويتمنى عودة داود الى العراق ، وقد جاء فيها :

عهدناك تغفو عن مسيء تعذرا ألا فاعفنا عن رد شعر تنصرا
ثم يشرح أسباب اعتذاره بأسلوب فني يدل على ذوق وملكة أصيلة^(٧٣) ويقول بعد ذلك :

فدع ذا ولكن اسأل الله بالذي دنا فتدلى ثم بالوحي أخبرا
بشيرا يوافي باللقاء ، وطالما يوافي رسول بعد بأس مبشرا^(٧٤)
وهذه الايات تدل على ما لداود من أثر في نفس التميمي وعلى ما له من صلة بالشعر والادب حتى في منفاه .
ومن الشعراء الذين مدحوا داود :

الشاعر عبدالباقي العمري :

ولكن العمري لم يكن من شعراء داود لانه كان آنذاك في الموصل ولم ينتقل الى بغداد مقيما فيها الا في ولاية على رضا الذي جاء لانها حكم الممالك ، لذلك كان شعر العمري في مدح داود لم يتجاوز قصيدة واحدة وبضعة أبيات في بعض المناسبات ، ومن هذه الايات قوله متشفعا لدى داود لیساعد على تعيين يحيى الجليلي والبا على الموصل :

يا ملك البلاد أمنيتي حا شك مثل يعود منك كسيرا

(٧٢) هذه القصيدة نظمها الشاعر اللبناني بطرس كرامة وقدمها الى داود في الاستانة ، وأولها :

أمن خدتها الوردي افتتك الخال فسح من الاجفان مدمعك الخال
وسميت الخالية لان كل قوافيها جاءت على كلمة الخال مختلفة المعاني .

(٧٣) ستأتي هذه الايات في الفصل الخامس .

(٧٤) راجع هذه القصيدة في ديوان روض الخل والخليل ديوان السيد عبدالجليل الطباطبائي ص ١٧٢ طبعة مصر و ٢٥٣ و ٢٥٤ طبعة الهند . وفي ديوان التميمي ص ٥٦ - ٥٧ .

أنت هارون وقته ورجائى أن أرى فى حماك يحي وزيراً^(٧٤)
ولا شيء فى هذين البيتين غير الرجاء ، وتشبيه داود بهارون الرشيد ،
والتورية بين يحي الجليلي ويحي البرمكي .

وأما القصيدة فهمى التى نظمها مجارياً بها القصيدة « الخالية » التى
مرت الاشارة اليها ، وقد جاء فى قصيدة العمري قوله :

الى الروم أصبوا كلما أومض الخال فاسكب دعماً دون تسكابه الخال
وعن مدح داود وطيب ثنائه فلا القد يشينى ولا الخد والخال
ويشير فى هذه القصيدة المتكلمة الى أيام داود فى العراق :

عفا الله عنه قد عفت بعد بعده من البلدة الزورا المعالم والخال
وهيهات ما دار الرصافة بعده ولا الكرخ الا السبب القفر والخال
ولكن العمري يحتاط ويستدرك لان حكمه هذا مما يغضب الوالى
الموجود آنذاك وهو محمد نجيب فيقول :

ولكن بهذا العصر أمست كجثة بها تباهى ربوة الشام والخال
ورضوانها اليوم النجيب مشيرها يحافظها مولى عليها هو الخال^(٧٦)
والقصيدة هذه تتألف من ستة وعشرين بيتاً^(٧٧) .

ومن الشعراء الذين مدحوا داود :

الشاعر عبدالغفار الاخرس :

وقد كان الاخرس شاباً صغيراً عند تولية داود الحكم ، وكان عمره
حوالى السابعة والعشرين حين انفصل داود عن الولاية ، ومثل هذه السن
لا تتيح للشاعر أن يشق طريقه بين شيوخ الشعراء لينال من هذا الوالى

(٧٥) تراجم مشاهير الشرق - ص ٢٥٠ ج ٢ - ط ٣ . و (الترياق
الفاروقى) ص ٤٤٩ .

(٧٦) الخال الاولى : البرق ، والثانية : السحاب . والثالثة :
الشامة . والرابعة : الاثر . والخامسة : المكان الموحش . والسادسة :
مكان بالشام . والسابعة : القائم .

(٧٧) راجع - (الترياق الفاروقى) ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

الخطير مكانة تثير شاعريته للمدح والاطراء غير أنه ركض مع الراكضين وصفق مع المصفيين فسجل في ديوانه صورة من المدح^(٧٨) بعث بها الى هذا الوالى بعد أن سافر الى الاستانة وقد جاءت هذه الصورة فى قصيدة طويلة بدأها بمقدمة بدوية النسيج والخيال وأولها :

بوادى الغضا للمالكية أربح سقتها الحيا منا جفون وأدمع

وتستمر هذه المقدمة فى أربعة وعشرين بيتا تعقبها صورة ناثرة على

الحياة والاقدار كشأنه فى معظم قصائده ومنها :

أراني مقيما بالعراق على ظما ولا منهل للظامئين ومرتع

وكيف بورد الماء والماء آجن يبل به هذا الغليل ويتقع ؟

ويصف نفسه متخلصا الى مدح داود :

كأني صفاة زادها الدهر قسوة من الصم لا تبلى ولا تصدع

فسالمت حرب الثابتات فلم تزل تقود زمامي حيث شاءت فاتبع

وكنت اذا طاشت سهام قسيها وقتنى الردى من صنع (داود) أدرع

وقد تمنى الاخرس فى هذه القصيدة عودة داود الى العراق أو أنه

نفسه يذهب الى أرض الروم فيلثم أقدامه !! :

أبا حسن هل أوبة بعد غيبة فلبدر فى الدنيا مغيب ومطلع

وانى على خصب الزمان وجدبه اليك وان شط المزار لأهرع

ولو أننى وقتت للخير أصبحت نياقى بأرض الروم تحدى وتسرع

الى مالك ما عن مكارمه غنى وغير ندى كفيه لا أتوقع

فألثم أقدام الوزير التى لها الى غاية الغايات معشى ومهيع^(٧٩)

(٧٨) للاخرس أبيات طلب فيها من داود أن يتسبب فى معالجة

لسانه . ومنها :

هذا لساني يعوقه ثقل وذاك عندي من أعظم النوب

فلو تسببت فى معالجتى لنتل أجرا بذلك السبب

وقد أرسله داود الى الهند ولكن الطبيب حذره من المعالجة لانه قد يشفى

وقد يموت ، فقال : لا أبيع كلى ببعضى . راجع (المسك الاذفر) ص ١١٧ .

(٧٩) راجع هذه القصيدة فى (الطراز الانفس) ص ٢٤٩ - ٢٥١ .

ولا أدري فلعل داود كان ملء النفوس في ذلك الوقت والا فكيف
يتنزل شاعر تأثر علوى النسب الى لثم أقدام هذا الوالى المملوك ؟ على اننا
لا نستبعد مثل هذا من شعراء ذلك العصر مهما كان فخرهم بأنفسهم .

شعراء متفرقون :

وقد مدح داود شعراء كثيرون في بغداد والحلة والنجف ، ومنهم
السيد حسين بن سليمان الحكيم الحلبي فقد استوحى ثورة القبائل في (عفك)
سنة ١٢٤٢هـ ونظم قصيدة فيها شماتة بالمغلوبين وثناء على الوالى الغالب وقد
جاء فيها قوله :

خليفة هذا العصر داود من غدت شكيمة هذا الدهر في يده اليمنى (٨٠)
ثم يقول له :

وأضحكت سن الدهر من شيخ حمير وباهلة من بعد ما ملثوا حزنا (٨١)

ومن الواضح أن الشاعر أسبغ على داود لقب الخليفة دون أن يلتفت
الى أن الخليفة في الاستانة وهو سيد داود وأمثاله .

ومنهم الحاج مسعود الأزرى وقد جاء في قصيدة له :
تذل لداود المملوك جلاله وتلم منه موطن النعل بالقم (٨٢)

ومنهم الشيخ ابراهيم قفطان النجفي ، وفي قصيدته اشارة الى صلة
داود بعلماء النجف (٨٣) .

(٨٠) راجع هذه القصيدة في (شعراء الحلة) ص ٢٢٩ - ٢٣٠ ج ٢ .
(٨١) يريد بشيخ حمير (قاسم الشاوى) وباهلة من عشائر
عفك ، ومن الطريف ان عبدالنبي البغدادي جمع بعض زعماء الثائرين في
بيت ركيك فقال :

نادى محمد ، رستم ، يا صالح يا قاسم الشاوى جميعا نشرد !!
والمقصود محمد الكتخدا ، ورستم آغا ، وصالح اخو شوكة حاكم الحلة
المؤقت . (ديوان مزيد السرور ومزيل الحزون) الورقة ١٠ من نسخة
يعقوب سرقيس .

(٨٢) مجموعة الشيخ محمد رضا الشبيبي

(٨٣) راجع (شعراء الغرى) ص ٥٥ ج ١ .

ومنهم السيد عبدالجليل الطباطبائي البصرى وليس فى شعره ما يستحق الذكر (٨٤) .

الوالى على رضا :

وهذا الوالى كان نصيبه من الشعر كثيرا ، وكان موقف الشعراء منه كموقفهم من داود فهم معه فى كل حادثة وثورة ، وهم الى جانبه فى كل عمل ، ان غرب نحو الاكراد هملوا له وكبروا ، وان شرق نحو القبائل العربية زمروا وطبلوا !! وهم فى كل ما نظموه كانوا حربا على بلادهم واخوانهم وبوقا صاخبا لهذا الوالى الذى كان يخدعهم بالبسمة الساخرة ، ويقربهم بأساليبه المختلفة وان كانوا لا يحتاجون الى تقريب !! ومنهم :

الشاعر الشيخ صالح التميمي :

الذى أكثر من مدائح على رضا ورافق أيامه وحوادثه كما رافق أيام داود ، ولم تقف به كهولته موقف التبصر والتريث فى الحوادث القبلية والثورات التى اريقت فيها الدماء جزافا ، بل اندفع الى اطراء هذا الوالى والاشادة بحروبه الى حد بعيد ، ولعل أول قصيدة يمكن أن تجعل بداية الاتصال بين الشاعر وهذا الوالى قصيدته التى استعرض فيها ظفروه بداود ، وقد دلت على وفاء التميمي لممدوحه الاول وعلى ضخامة الاثر الذى تركه داود فى نفوس الشعراء ، قال :

ظفرت بداود الوزير وللردى	قوارع خطب لا يفك اصطلامها
ولو ظفرت فيه نزار ويعرب	يوم هياج ، والذمام ذمامها
فخطبها مستعجلا عن حياته	لعاجله قبل الخطاب حمامها
على أنه ما مد كف مسالم	وترتكب الامر العظيم عظامها

(٨٤) راجع : روض الخل والخليل . ص ٥١ - ٥٣ و ١٦٨ - ١٦٩
طبع مصر .

واعلم حقا اني ان ختمتها بذكر على قيل مسك ختامها (٨٥)

وقد جمع الشاعر بين التهويل في خطر داود على الدولة ، وخطر
الوالي الجديد في سمو نفسه حين عفا وصفح عن داود .

وعندما هوجمت امارة راوندوز في الشمال سنة ١٢٥٢هـ ١٨٣٦م (٨٦)
واكتسح على رضا قلعة أربيل الواقعة في الشمال أيضا رأى التميمي أن
يسجل هذه الحادثة فنظم قصيدة يهنئ بها الوالي ويمجد قوته ، وقد وصف
قلعة أربيل وصفا بارعا وشبهها بعمورية التي فتحها جيوش المعتصم
العباسي فقال :

لا ترو عن فتح عمورية خبرا ففتح أربيل ما أبقى لها أنرا
لو أن معتصما تعدوه صارخة بقطر أربيل عن ادراكها قصرا
دع ما سمعت وحدث بالذي نظرت عينك فالصدق مقرون بمن نظرا
ما فوق فتحك الا فتح من نزلت عليه سورة نصر الله فاتصرا

أما قلعة أربيل فهي :

صماء سامية الاعلام غاصبها قد كاد يبلغ حد الكفر أو كفرها
غمامة لا يدانيها الغمام علا ولا مع البرق مع ارجائها امسترا
ما صافح الريح من أركانها حجر الا ويقدح من حافاتهما شررا
ما في جوانبها ماء لذي ظمأ وليس في أرضها ما ينبت الشجرا
مذ كانت الارض ما فيها جرى نهر لكن سيفك أجرى بالدما نهرا
كانت هي «الهل» الاعلى وكم صنم سما « على » له بالكسر فانكسرا
وان من خالف السلطان ما ربحت يوما تجارته بل انما خسرا
لو طار سهمك في اربيل عن هدف فالصدر تالله بالكردي ما صدرا (٨٧)

وإذا تركنا المبالغات التي حشدتها التميمي في أول القصيدة فان ما بقي

(٨٥) ديوان التميمي - ص ١٢٩ .

(٨٦) راجع ص ٦٣ .

(٨٧) ديوان التميمي - ص ٥٢ و ٥٣ .

فيها صورة واقعية لقلعة أربيل في كونها قائمة على قمة جبل قليل الماء ، أما ان سكانها غاصبون لها وانهم قد بلغوا حد الكفر أو كفروا لتمردهم على الوالى فذلك من رأى الشاعر ومن يشاكله !! وقد شبه هذه القلعة بهبل وهو الصنم المشهور فى مكة ، واستعان بالتورية بين الوالى على رضا الذى احتل هذه القلعة وبين الامام على الذى شارك النبى (ص) فى تحطيم الاصنام .

وكانت حادثة (المحمرة) سنة ١٢٥٣هـ ١٨٣٧م واحتلالها من قبل على رضا وجيوشه وأتباعه من العشائر العراقية^(٨٨) ذات أثر فى شاعرية التيمى فقد أشاد بانتصار هذا الوالى على قبائل (كعب) فى جنوبى البصرة وطرد زعيمهم من مشيخة المحمرة نفسها ، وقد أثر عن التيمى البيت الآتى :

دع التفاصيل واسألني عن الجمل

هذا على وهذي وقفة الجمل^(٨٩)
ويظهر من هذا البيت انه مطلع قصيدة لم تكمل أو انها كملت ولكن ضاعت فيما ضاع لهذا الشاعر ، غير أنه أفرغ طاقته الشعرية فى قصيدة تناول فيها هذه الحادثة تناولا يرضى هذا الوالى ومن سار فى ركابه ، وقد جاء فيها قوله :

وكم قلعة بالمرهفات حصينة كما حصنوا بالخدر عذراء كاعبا
جلت لها من شاسع الدار شاحط كئيب للهيجاء تزجى كئيبا
ويشير الى جيش على رضا الذى جاء به من الشام واستعان به على أخذ المحمرة فيقول معبرا عن كتابه :

تجافت عن (العاصى) وعن عذب مائه

وشوقا بـ (كارون) استساعت مشاربا^(٩٠)

(٨٨) راجع ص ٦٣ .

(٨٩) مجموعة الشيخ محمد رضا الشيبى .

(٩٠) العاصى : نهر معروف فى سوريا : وكارون : نهر فى عربستان

يصب فى شط العرب .

لقد طيعت شرق البلاد وغربها
 فما يوم (ذى قار) وان زمعت به
 وبأعظم من يوم (المحمرة) التي
 رمى شرقها الاقصى بأعظم وقعة
 وأسمى بكعب الرمح (كعبا) فأصبحت
 ويهنته باتصاره على قبيلة (خزاعة) في الفرات الاوسط بأكثر من
 قصيدة واحدة ومن ذلك قوله :

أقمت بأكتاف الخورنق موسما
 قبائل لم تجنح الى السلم عادة
 على انها ما زارها ذو وزارة
 بأشلاء أهل البغي قد صار موسما
 فألحقها طسما وعادا وجرهما
 لعمر ك قبل اليوم الا توهما^(٩٢)

وهذا اعتراف صريح من الشاعر بأن هذه القبائل كانت لا تخشى بأس
 الحكومة ولا ترهب الولاية ، وقد يكون التيميمى أراد تعظيم الوالى وتمجيد
 قوته التي استطاعت أن تخضع شوكة هذه القبائل القوية ، وهذا النوع من
 التصوير مألوف فى الشعر القديم ، وهو التهويل بالعدو وتضخيم قوته ثم
 القضاء عليه ، لثلا يقال أن الممدوح انتصر على خصم ضعيف .

وفى حادثة الاستيلاء على العمادية فى الشمال وسجن حاكمها الكردي
 اسماعيل البهدينانى فى بغداد^(٩٣) - وكانت هذه بعد الاستيلاء على امانة
 راوندوز واحتلال أربيل والمحمرة - وجد التيميمى مناسبة لمدح علي
 رضا فقال :

على لوائك خط النصر والظفر
 فاسعد بفتح قضت فيه السعود له
 جرى القضاء بما قد خط والقدر
 يوم أغسر من الايام مشتهر

(٩١) ديوان التيميمى - ص ١٩ و ٢٠ .

(٩٢) المصدر السابق - ص ١٣٠ .

(٩٣) راجع (خلاصة تاريخ الكرد وكردستان) ص ٢٤٨ من

الترجمة العربية .

قد يقبل العذر لكن ما عملت بما والى العمادية المخذول يعتذر^(٩٤)
كم فى (المحمرة) العبرى له عبر ان لم تفده ففى (اربيل) يعتبر

* * *
لكنه (جابر) الثانى طغى وبغى وغاية البغى كسر ليس ينجبر^(٩٥)
وجابر هو أمير المحمرة المغلوب ، ولا شك أن ذكر المحمرة فى هذه
القصيدة يعين على معرفة تسلسل هذه الحوادث التى كادت أن تغمض
فى ثنايا التاريخ .

وقد كرر التيمى وصف هذه الحوادث التى انتصر بها علي رضا فى
هذه المناطق ومدحه بهذه المناسبات فى قصائد متعددة^(٩٦) .

وقد سجل فى قصيدة اخرى حركة قبائل (عنزة) حول بغداد للرد
على سياسة هذا الوالى وسوء تديره فقال :

فان سمعت اذناك عن نسب العلاء لغير على فالعلاء غير لائق
ضربت على صحن العراق سرادقا غدت جنة اكرم بها من سرادق
رغمت بها آناف بكر بن وائل فلم يبق منهم ذو شظاظ ومابقى^(٩٧)
واذا كان الوالى قد شئت هذه القبيلة وأبعدها عن بغداد فان العراق
لم يكن جنة فى أيامه ولا فى أيام غيره .

وبعد انتقال علي رضا من بغداد الى الشام سنة ١٢٥٨هـ - ١٨٤٢ - ١٨٤٣م
بعث اليه التيمى بقصيدة فيها شوق له ودم لمن جاء بعده ، ومنها :

أيام غيرك قد أكدى بها أملى عسى بأيامك الاقدار تسمح لى
* * *
لم يبق بعدك فى الزوراء ذو كرم يرجى ولا لبني الآداب من أمل^(٩٨)
ومن الذين مدحو علي رضا :

(٩٤) هكذا ورد البيت وفيه شيء من غموض التعبير .

(٩٥) ديوان التيمى - ص ٥١ .

(٩٦) راجع المصدر السابق - ص ٤٧ و ٤٨ و ٧١ و ٧٢ و ١١٠ و ١١١ .

(٩٧) المصدر السابق - ص ٩١ .

(٩٨) راجع المصدر السابق - ص ١٠١ و ١٠٢ .

الشاعر عبد الباقي العمري :

فقد كان عبد الباقي ذا صلة وثيقة بالوالي علي رضا وقد توطدت مكانته السياسية في أيامه ، وقد نافق كثيره من الشعراء ومالاً السياسة في قصائد غير يسيرة ، وكانت أهمها قصيدته التي نظمها عند الاستيلاء على (المحمرة) لانه رافق الوالي في هذه الحملة الصارمة وشاهد عن كثب تلك المعركة التي أسفرت عن انتصار الوالي وهزيمة قبيلة (كعب) وأتباعها . وقد حشر العمري في هذه القصيدة بعض العوامل الدينية فنظر الى الثائرين من زاوية التشيع ، ونسى أنهم عرب وأن ثورتهم أو تمردهم انما كان بدافع قبلي كالذي حدث من غيرهم في العراق ، ونسى أيضا ان الوالي الذي مدحه كان يتشيع لعلي وأولاده ومن المشجعين على مدحهم ورتائهم ، أما القصيدة فهي طويلة وقد جاء فيها :

فأضحت بتسخير الآله مدمره	فتحنا بحمد الله حصن المحمرة
لقد أخلصت صقلا يد الله جوهره	بسيف علي ذي الفقار الذي لنا
وليس لعظم قد كسرتناه مجبره	وجابر أورثناه كسرا بكعبه
وخلي قناطر التراث المنظرة	غدا هاربا يبغي النجاة بنفسه
فزلت بهم أقدامهم متعثره	على ساقها قامت لكعب قيامة
من الله شيئا في القضايا المقدره	فلم تنن عنهم مانعات حصونهم

* * *

غدوا طعمة للسيف الا أفلهم قد اتخذوا من شط (كارون) مقبره

* * *

سقى (الرفض) ساقى الحوض كأس منية

غداة وردنا بالمسرات كوثره

وأمت (بنو النصار) والرفض دينها

على ما دهاها من علي مفكره

وخير ما في هذه القصيدة انها سجلت أسماء المحاربين من الجيوش والقبائل العربية التي آذرت الوالي ومنهم (الارناؤد) الذين جاؤا معه ،

وقبائل زبيد ، والشاوي ، وعقيل ، وطى ، والمتفق . ولقد كان هذا النصر
بكرامة الشيخ عبدالقادر الكيلاني لا بالقوة والمدافع والقبائل !! :

وطار بسر (الباز)^(٩٩) صيت عقابنا

لهم فعدت شيراز منهم مطيره

أما الوالى فى الختام :

فلا زال منصور الجيوش مؤيدا وأحزابه فى كل حرب مظفروه^(١٠٠)

ومن الشعراء الذين مدحوا هذا الوالى :

الشاعر الاخرس :

وتدل القلة الموجودة فى شعر الاخرس على أن صلته بالوالى علي رضا
لم تكن ذات شأن ولعل تردده المستمر على البصرة وبعده عن بغداد فى
معظم الاحيان قد يكون سببا فى قلة ما نظم فى مدح هذا الوالى .

وقد يكون له فيه مدائح ولكنها لم تدون اذا كان ديوانه المطبوع
بعض ما نظم^(١٠١) ، غير أن المطبوع لم يخل من مدح هذا الوالى عرضا
وفى سياق مناسبات لا تخصه بالذات ، كالقصيدة التى نظمها الاخرس فى
مدح أبى التناء الآلوسى عندما ولى منصب الافتاء سنة ١٢٥٠هـ برغبة من
علي رضا وقد جاء فيها قوله :

لله ما هذا الوزير انه (على) المولى جاك بالرضا^(١٠٢)

معمر بغداد فى احسانه من بعدما أبادها ريب الوبا^(١٠٣)

وراض أهل البغى بالقتل فلن تسمع فى ديارهم الا الوعى^(١٠٤)

وقد كرر هذا المعنى فى قصيدة اخرى موجهة الى الآلوسى

أيضا ، ومنها :

(٩٩) يريد به (الباز الاشهب) وهو من ألقاب الشيخ عبدالقادر .

(١٠٠) راجع (الترياق الفاروقى) ص ٢٣٩ - ٢٤٢ .

(١٠١) المسك الاذفر - ص ١١٩ .

(١٠٢) مرت من هذه المقصودة أبيات فى الفصل الثانى .

(١٠٣) يشير الى الطاعون الذى دمر العراق سنة ١٢٤٧هـ - ١٨٣١م .

(١٠٤) راجع (الطراز الانفس) ص ٢٦ - ٣٤ .

ملك فأما حلمه فموقر ضاف وأما بطشه فشديد^(١٠٥)

غير أن قصيدة واحدة وجدت في غير الديوان وقد خص بها هذا
الوالي وقد صدرها بمقطع ثائر على الحياة وعلى العراق فقال :

اعل نفسى بئيل المنى وما لى الى نيلها مقتحم
ومن لى بعزم الجرىء الأبي فلا يتنى عزمه ان عزم
فما لى أقمت بأرض العراق ولو لا خمولى بها لم أقم
وكتت ترحلت عن موطن اذا كتت فى غيره لم اضم

ولكن الى أين يريد الشاعر أن يتجه ويترك العراق ؟

الى قائد عسكر المسلمين ومقدمهم فى الحروب الدهم
على الرضا مشرفى القضا وغيث العطاء ، غياث الامم
أذل الطفلة وأردى الكماة وساق الصناديد سوق الغنم !!
حسام لدولة عبدالمجيد ملك الملوك وسيف خذم^(١٠٦)

وقد مدحه السيد عبدالجليل البصرى الطباطبائي بقصيدة ركيكة
النسج وذكر أعماله مع المحمرة ، وقبيلة خزاعة ، ومعاركه مع
الاكراذ^(١٠٧) . ومدحه أيضا السيد صالح القزوينى وتطرق لتعيينه من
لدى السلطان محمود وإقراره من قبل عبدالمجيد فقال :

وشاهد خاقان الملوك سداده فقلده أمر العراق وولاه
ولما قضى المنمود ذكرا أقره عليه ابنه عبدالمجيد وأبقاه^(١٠٨)

(١٠٥) المصدر السابق ص ٩٢ .

(١٠٦) راجع هذه القصيدة فى مجلة المجمع العلمى العراقى . ج ١

م ٣ سنة ١٩٥٤م .

(١٠٧) راجع (روض الخل والخليل) ص ١٠٠ - ١٠٣ طبعة مصر ،

و ١٤٧ - ١٥١ طبعة الهند .

(١٠٨) ديوان السيد صالح القزوينى - الورقة ٩٨ .

الوالى محمد نجيب :

ان هذا الوالى الذى جاء بعد علي رضا سنة ١٢٥٨هـ ١٨٤٢م قد التف حوله الشعراء على الرغم من تعصبه التركي وغطرسته الشديدة ، ونظمت في مدحه قصائد كانت فى مناسبات ذات أهمية ، وبعضها كان فى أعمال ليست ذات شأن كبير ، وسأكتفى مما قيل فى مناسباته ببعض الصور التى جاءت للعمري والاخرس ، وهى كفيلا يرسم الجانب السياسى فى أيامه ومقدار تأثير ذلك الجانب فى نفوس الشعراء .

الشاعر العمري :

ومن الحوادث التى استغلها هذا الشاعر حادثة انتصار محمد نجيب على أحمد بابان حاكم الاكراد^(١٠٩) فى السلمانية فنظم قصيدة جمعت بين هجاء الاكراد ومدح الوالى ، واستخدم فيها الشاعر كلمات فيها كثير من الشدة والاستهانة بالاكراد فقال :

رجفت لهية بأسك الأطواد وتفرقت بشعابها الأكراد
كروا ففروا كالحمير بأسرهم اذ هممت بزئيرها الآساد
الزور حلّ (بشهرزور) ولم يحد عنها ولا أهلوه عنها حادوا
كفروا بنعمة ربهم فقتلهم الله أكبر انه لجهاد !!

وإذا كان أهل المحمرة روافض - كما سبق - فبماذا يعتذر الشاعر حين كفر هؤلاء وعد قتالهم من قبل الوالى جهادا ؟ ومهما يكن من شيء فإن هذا العمل :

فتح به قطر العراق قد امتلا فرحا وفيه استبشرت بغداد^(١١٠)

ويؤرخ العمري هذه الحادثة بأبيات جاء فيها على سبيل التورية :

(١٠٩) راجع ص ٦٤ .

(١١٠) الترياق الفاروقى - ص ٢٤٤ و ٢٤٥ .

بأيها الملك الذي آتاه فوق الأثير محلها ومكانها

فتحت ولاية شهرزور فأرخوا * * * بسديد رأيك فتحت (بابانها) (١١١)

ومن المعلوم ان هذه الحادثة كانت سنة ١٢٦١ هـ .

وكان هذا الوالى قد جاءه (المقرر الثانى) من السلطان بأبقائه واليا على

العراق . وقد جاء هذا المقرر سنة ١٢٦٠ هـ فاستغل العمرى هذه المناسبة

لنظم قصيدة استعرض خلالها حادثة هذا الوالى فى كربلاء سنة

١٢٥٨ هـ (١١٢) فقال :

بك العراق أحرز الأمانيا لما تقررت عليه واليا

وقد تجاوز فيها حدود الواقع وكذب على التاريخ فقال :

للعدل فى الزوراء رحى ناسرا مطارفا للجور فيها طاويا

ثم يشير الى قمع ثورة كربلاء :

مهدت بالهندي يوم كربلا هندية فاندرست مجاريا (١١٣)

وقد تركت الرفض فيها ضفدعا جفت سواقيه فمات صاديا

ويتنزل الشاعر مستخدما التورية :

والسعد دام خادما ملازما لبابك العالى و (عبدا باقيا) (١١٤)

وليس هذا كل ما قاله العمرى فى هذا الوالى ففى ديوانه صور اخرى

من مدحه ، وقد نظمها فى مناسبات متفرقة .

ومن الشعراء الذين مدحوا هذا الوالى :

الشاعر الاخرس :

وقد استهل الاخرس مدح الوالى محمد نجيب فى أول سنة من

ولايته فنظم قصيدة استوحاها من حادثة كربلاء سنة ١٢٥٨ هـ وذم الناشرين

(١١١) المصدر السابق ص ٢٤٥ .

(١١٢) راجع ص ٦٤ .

(١١٣) يشير الى المساعدة التى بذلها اهل الهندية على الفرات لسكان

كربلاء .

(١١٤) الترياق الفاروقى - ص ٢٤٦ و ٢٤٧ .

وهنا الوالى باتصاره عليهم فقال مشيرا الى اليوم الذى وقعت فيه الحادثة وهو يوم عيد الاضحى :

لقد خفقت فى النحر ألوية النصر
وفتح عظيم يعلم الله أنه
محا البغى صمصام الوزير كما محا
وكر البلا فى كربلاء فأصبحت
فدانت وما دانت لمن كان قبله
وكان انمحاق الشر فى ذلك النحر
ليستصغر الأخطار من نوب الدهر
دجى الليل فى أضوائه مطلع الفجر
مواقف للبلوى ووقفا على الضر
من الوزراء السابقين أولى الفخر

* * *

رمتهم بشهب الموت منه مدافع لها شرر فى ظلمة الليل كالقصر

ويؤرخ هذه الحادثة فى ختام القصيدة فيقول :

ولا زال فى عيد جديد مؤرخا

فقد جاء يوم العيد بالفتح والنصر (١١٥)

وإذا كان هذا العمل فتحا عظيما فأى شيء أخره الشاعر ليقوله فى المدح لو أنه فتح قطرا كبيرا أو حارب دولة من الدول فانتصر عليها؟
الوالى محمد نامق وثلاثة شعراء :

كان هذا الوالى مشيرا للفيلىق المرابط فى بغداد وقد حدث قبيل ولايته عليها أن نار أهالى (الهندية) من سكان الفرات الاوسط سنة ١٢٦٧هـ ١٨٥١م وكان الثائرون من عشائر (بنى حسن) فسار اليهم هذا المشير بجيشه وحاصرهم فى مكان يسمى (العوينة) (١١٦) واحتل قلاعهم ، وقد أثر هذا الانتصار بالشاعر محمد أمين العمري واهتز له فرحا فنظم قصيدة شديدة اللهجة أراد بها أن تكون ثورة على الثورة لا مدحا للمشير فقط ولم يخف شماته بالمغلوبين الذين شردوا هم ونساؤهم وأطفالهم بعد أن قتل منهم من قتل ، وقد جاء فى القصيدة قوله :

(١١٥) الطراز الانفس ص ١٦٨ و ١٦٩ .
(١١٦) لعله ماء يسمى بهذا الاسم .

بأيها الملك المشير القصور
 جاهدت أرباب الشقاق فأصبحوا
 دارت عليهم للنحوس دوائر
 جحدوا وما شكروا لنعمة ربهم
 فبطشت فيهم بطشة كبرى بها
 ظنوا القلاع تصونهم لكنهم
 سخرتها قهرا بيوم واحد
 ففدا (بنوحسن) لسوء فعالهم
 وافتعهم بمدافع كصواعق
 هذا الجهاد هو الجهاد الأكبر !!
 طوع القياد لما تقول وتأمروا
 فيها النكال مكور ومدور
 وطغوا وفي طرق الضلال تجبروا
 ذلوا وفي عين (العويثة) صغروا
 لم يعرفوا ان الشقاء مدمر
 ولك العسير كما تشاء ميسر
 كانوا بها وكأنهم لم يذكروا
 مثل الرواعد بالقنابر تهدر^(١١٧)

وإذا كانت محاربة عشيرة من العشائر جهاداً أكبر - كما يقول في مطلع القصيدة - فأى جهاد بقي للدولة في حروبها مع الدول الكبرى ؟
 ولعبدالباقي العمري قصيدة في مدح هذا الوالي قالها عند قدومه من الشام الى العراق وقد بالغ وأسرف في المدح^(١١٨) .

وقد مدحه الاخرس بأكثر من قصيدة واحدة ومن هذه القصائد ما قاله عند نقله الى مشيرية المدفعية في الاستانة سنة ١٢٦٩هـ ١٨٥٣م وقد جاء في أول القصيدة :

دعاك أمير المؤمنين وانما دعا مسرعا فيما يروم مسابقا
 ويختار هذه القافية ليأتي بكلمة (نامق) فيقول في غير تحفظ :
 فحق لبغداد البكاء وكيف لا وقد فارقت فخر الوزارة نامقا
 وهي طويلة لا شيء فيها غير الملق^(١١٩) .

ومدحه بقصيدة اخرى في ولايته الثانية (١٢٧٨هـ - ١٨٦٢م) وأثنى على الدولة والسلطان عبدالعزيز لانه :
 أحوال العراق الى نامق ليصلح ما شان من شأنها

- (١١٧) راجع (نشوة الشمول) لابي الالوسي ص ٤٨ و ٤٩ .
 (١١٨) راجع (الترياق الفاروقى) ص ٢٨٣ و ٢٨٤ .
 (١١٩) راجع (الطراز الانفس) - ص ٢٦٥ - ٢٦٧ .

أباد الطفلة وأفنى العصاة ودمرها بعد عصيانها^(١٢٠) !!
وهنأه في قصيدة بوسام ورد اليه من السلطان وأثنى على
السلطان لانه :

جعل العراق بنامق في جنة محفوفة بالروح والريحان^(١٢١) !!
الوالي أحمد مدحة وثلاثة شعراء :

كان أحمد مدحة أفضل الولاة الذين حكموا في العراق ولكنه جاء
حين كان التميمي وعبد الباقي العمري في ذمة التاريخ ، وكان الاخرس
يشرف على السبعين من عمره ولم يبق في بغداد من الشعراء من يملأ مكان
اولئك . أما شعراء الحلة والنجف فقد كانوا على الاكثر بعيدين عن أعمال
الولاة ومناسباتهم وقد صدمهم مدحة بحادثة (الدغارة) التي شتق فيها
الزعماء من الفراتيين لذلك كان الشعر الذي قيل فيه لا يرتقى الى مرتبة
الشعر الذي قيل في داود وعلي رضا ، على أن قصر المدة التي قضاهما في
العراق كان من الاسباب في قلة ما مدح به ، ومع ذلك كان ذا نصيب
غير قليل .

وقد مر في فصل (الشعر والحوادث الوهابية) بعض القصائد التي
تتعلق بأعماله بالاحساء ، أما في غير هذه الاعمال فقد مدحه الشيخ أحمد
قطان النجفي المتوفى سنة ١٢٩٣هـ بأبيات قالها عندما فتح بابا لسور النجف
يؤدي الى النهر الصغير الواقع غربي المدينة . وكان هذا العمل سنة ١٢٨٨هـ
ومن هذه الابيات قوله :

باب خير فتحوه رحمة لسقاة لقلوب ظالميات
أحمد مدحة باشا من سرى فضله فينا مسير التيرات
وقد مدح في هذه الابيات السلطان عبدالعزيز^(١٢٢) .

ومدحه السيد حيدر الحلبي بقصيدة باردة العاطفة وقد جاء فيها :

-
- (١٢٠) المصدر السابق - ص ٣٩٧ - ٣٩٩ .
(١٢١) المصدر السابق - ص ٣٩٩ - ٤٠١ .
(١٢٢) راجع (شعراء الغرى) ص ١٧٥ من الجزء الاول .

روافك ذا لا بل وليجة خادر
لك العسكر الجرار والهية التي
ومدحه أيضا بقصيدة اخرى (١٢٤) وقد قال فيها:
أنتت عليك بأسرها الدول
وتسوقتك الأعصر الاول
وأعدت للايام جدتها
فاليوم عمر الدهر مقبيل
ومنها:

يا ابن الوزارة أنت واحدها لا راعها بفراقك النكل (١٢٥)

وفي ديوان الاخرس قصيدتان أهمل فيهما اسم الممدوح ، ولم يهمل اسم وال من الولاية الذين مدحهم الاخرس غير مدحة لان الديوان طبع في الاستانة أيام السلطان عبدالحميد وكان هذا لا يرضى بأن يذكر مدحة في كل ما ينشر أو يطبع من صحف وكتب ، لذلك يغلب على الظن أن القصيدتين في مدح هذا الوالي ولاسيما أن احدهما تشير الى أن الممدوح ذهب الى البصرة لاختاد ثورة هناك ، والمعروف أن مدحة سافر الى البصرة في طريقه الى الاحساء ، يضاف الى هذا أن الاخرس قال في مكان آخر مؤرخا قصرا بناه نقيب البصرة لينزل فيه المشير ، وكان بيت التاريخ :

فقلت لسيد النقباء أرخ مبانها يشرفها المشير (١٢٦)

وهذا التاريخ يوافق سنة ١٢٨٦هـ ، وفي هذا الوقت كان الوالي في بغداد مدحة . أما القصيدة الاولى فقد جاء فيها :

شرف البصرة مولانا المشير (١٢٧) وتوالى البشر منه والسرور

(١٢٣) راجع (الدر اليتيم) ص ٢١٠ - ٢١١ . و (العقد المفصل) ص ١٥٥ ج ٢ .

(١٢٤) نظم هاتين القصيدتين استجابة لرغبة صديقه التاجر البغدادي الحاج مصطفى كبه .

(١٢٥) راجع (الدر اليتيم) ص ٣٢٨ - ٣٣٠ . و (العقد المفصل) ص ١٥٦ و ١٥٧ ج ٢ .

(١٢٦) الطراز الانفس - ص ٢٤١ .

(١٢٧) كان مدحة يلقب بلقب (المشير) لانه كان رئيسا للفيلق المرابط في بغداد .

وقال فيها :

انت ظل مده الله على أهل هذا القطر ان حان الهجير
تمحق الباغين عن آخرهم مثلما يمحو الدجي الصبح المثير
أصلحت بيضك ما قد أفسدوا وكبا بالمفسد الجد العنور
عدت منصورا بجند ظافر وجناب الحق مولانا النصير (١٢٨)
وإذا صح ما ذهب إليه فان هذه العودة الظافرة كانت من الاحساء ،
ولولا الشك الذي يحوم حول اسم المدوح لكان من حق هذه القصيدة
أن تأخذ محلها في الحوادث الوهابية •
أما الثانية فقد جاء فيها قوله :

جئت بالخير علينا مقبلا وتنقلت مع السعد انتقلا
فرأينا منك ما لم نره قبل أن جئت كمالا وجمالا (١٢٩)

مصطفى عاصم وثلاثة شعراء :

وكان عاصم قد ولى بغداد سنة ١٣٠٣هـ ١٨٨٧م وقد مدحه جميل
صدقى الزهاوى بأبيات - أو قصيدة - جاء فيها :
بكيت ولكن لا بكاء الغنائم ونحت ولكن لا نواح الحمام
وهل ينفع الباكين شجوا بكأؤهم اذا لم يصادف في الهوى قلب راحم
ثم يتخلص الى المدوح على الطريقة التقليدية فيقول :
وكيف أخاف الدهر أو أرهب الردى
وقد لذت من الزمان بعاصم (١٣٠)

ولا يخفى ما فى البيت من تورية •

ومدحه السيد جعفر الحلى والشيخ طاهر الدجيلي وقد مرت الاشارة
الى ذلك فى مدائح السلطان عبدالحميد (١٣١) •

(١٢٨) راجع (الطراز الانفس) ص ١٧١ - ١٧٣ •

(١٢٩) راجع المصدر السابق ص ٤٥٢ و ٤٥٣ •

(١٣٠) الكلم المنظوم - ص ١ •

(١٣١) راجع مدح السلاطين فى هذا الفصل •

سرى الكريدى وطائفة من الشعراء :

جاء سرى الكريدى واليا سنة ١٣٠٧هـ ١٨٩٠م وكانت الثورات القبلية قد خفت الى حد ما ، فانصرف هذا الوالى الى بعض الاعمال العمرانية ومنها انشاء متنزه فى ساحة الميدان ببغداد (١٣٢) ، وقد نظم أحمد الشاوى قصيدة بهذه المناسبة ، وقال فيها :

ألم تر كيف الارض تشقى وتسعد وتصلح طورا بالولاة وتفسد ومنها :

وحسبك فى ميدان بغداد عبرة وشاهد عدل بالذى قلت يشهد فيناه فى حال تسوك حاله اذا هو من بين الميادين يحسد

ولكن المناسبة التى انشأت موسما للشعر هى التى تم فيها بناء سد على فم نهر الهندية (١٣٣) ليجرى الماء فى نهر الحلة وكانت هذه المدينة معرضة للعطش الذى اشتد سنة ١٣٠٢هـ بسبب انقطاع المجرى ، وفى سنة ١٣٠٨هـ ١٨٩١م تم انشاء السد على نهر الهندية ليأخذ نهر الحلة حقه من الماء ، وحين تم العمل احتفل الاهلون احتفالا مشهودا حضره الوالى (سرى) ووجهاء بغداد والحلة وسفراء الدول وألقيت الخطب والقصائد (١٣٤) ، ومن الشعراء الذين نوهوا بهذه المناسبة أحمد الشاوى فقد جاء فى قصيدته سالفه الذكر أبيات يمدح بها (سرى) ويتنى على جهده المبذول فى اقامة السد ومنها قوله :

(١٣٢) يقع هذا الميدان أمام باب القلعة القديمة وهى من مداخل وزارة الدفاع الآن .

(١٣٣) انشأ هذا النهر المهراجا آصف الدولة الهندى سنة ١٢٠٨هـ ٩٣ - ١٧٩٤م لمنفعة النجف فأضر بالحلة . وقد انهارت السدود التى اقيمت على مدخله ولم يبق ثابتا الا السد الذى تم بناؤه سنة ١٩١٣م .

(١٣٤) اخبار بغداد وما جاورها من البلاد - لمحمود شكرى الالوسى . الورقة ٦١ ج ١ من نسخة يعقوب سركىس . و (الروض الازهر) ص ٢٠٣ ويشير هذا الكتاب الى ان الاحتفال كان فى ١١ ربيع الاول سنة ١٣٠٨هـ الموافق ٢٤ تشرين الاول سنة ١٨٩١م .

وفي الحلة الفيحاء أبلغ حجة متى هي قامت منكر الحق يقعد
تصدى لها والى الولاية باذلا لجاشته ، والنافر الجأش يرعد
وناء الى سد الفرات بنية حميدة التوفيق للرشد ترشد (١٣٥)

ولا يخفى ما فى هذا البيت من مدح للسلطان عبدالحميد .
وللسيد محمود شكرى الألوسى أبيات بهذه المناسبة ، ومنها - يخاطب
الوالى سرى - :

بسد يد الرأى قد أحكمت سدا وبه أنجزت للآمال وعدا
وفرات الماء قد عاد كما كان فى السابق يجرى مستبدا
وللشيخ محسن العذارى الحلى مشاركة فى هذه المناسبة فقد مدح
السلطان والوالى لان الماء عاد الى الحلة بعد انقطاعه ، أما هذا السد فقد
فاق كل عمل :

فلا السويس ولا حفر الخليج ولا سكور كسرى ، ولا الزباه فى القدم
وللشيخ عباس العذارى أيضا مشاركة شعرية ومنها :

سد به سر العراق وأهله ففدا لهم مذ تم عيدا أعظما
وللشيخ علي بن حمزة الحلى قصيدة ومنها فى مدح سرى :

لولاك ما ارتوت العطاش ولا جرى وسط الفرات - وراحتك - الماء
ومثل هؤلاء الشيخ حسن العذارى فانه يصف عطش أهل الحلة
والرزايا التى حلت بهم حتى شاب لها الوليد :

الى أن شكوا بالتلغرافات ضيمهم الى الملك المنتصور ذى العدل والرفد
فسير للزورا وزيراً وواليا به الطالع المنحوس آل الى السعد

وللشيخ محمد سعيد بن محمود النجفى قصيدة بهذه المناسبة وأولها :
شكرت مساعى خير والى قسور من يصنع المعروف فينا يشكر
وكذلك الشيخ عبدالوهاب نائب قضاء بغداد ، والسيد محمد باقر
الطباطبائى (١٣٦) .

• (١٣٥) اخبار بغداد وما جاورها من البلاد - الورقة ١٦ ج ١

• (١٣٦) راجع المصدر السابق الاوراق : ١١٣ - ١٢٠ .

وللسيد ابراهيم الطباطبائي قصيدة بهذه المناسبة (١٣٧) .
ولكن هذا العمل ليس وحده من بواعث الشعر الذي قيل في هذا
الوالي فقد مدحه أحمد الشاوي بقصيدة اخرى غير تلك التي أسلفنا ذكرها
وتطرق فيها الى مدح السلطان عبدالحميد أيضا ومنها قوله :

سلمت أمير المؤمنين ولم تزل لك الراية العليا تخفق بالنصر
فأضحكت من قد كان بالأمس باكيا * * *
فلو طار اسنان من الناس قبلهم

لطاروا سرورا يعلم الله من (سرى) (١٣٨)

ومدحه السيد ابراهيم الطباطبائي ومما قاله فيه :

قد حل فيك من العراق وثاق ولديك منه الأسر والاطلاق (١٣٩)

وحياه السيد جعفر الحلبي بقصيدة عندما زار النجف وأولها :

مرنا فأمرك في العراق مطاع أنت الزعيم وكلنا أتباع (١٤٠)

ولكن هذه المدائح ليست دليلا على انتشار العدل في أيام هذا الوالي

لان بقاءه في العراق لم يدم أكثر من سنة وستة أشهر وأيام ، وقد كانت

المناسب في أيامه تباع بيع المتاع حتى كثر شاكوه الى السلطان وشغبوا عليه

بعد أن أعقدوا عليه التحف والهدايا (١٤١) غير أن أعماله تلك وما كان

يدعيه من العلم والتأليف (١٤٢) كل ذلك قد دفع الشعراء الى مدحه .

ولاية آخرون :

ليس للولاية الذين جاؤا بعد سرى شأن مرموق في دنيا الشعر فقد

خلفه الحاج حسن رفیق سنة ١٨٩٢م وعطاءالله الكواكبي السوري العلوي

(١٣٧) راجع - ديوان الطباطبائي - ص ٢٧٦ .

(١٣٨) ارسل الى هذه القصيدة الاستاذ محمد بهجة الاثري

(١٣٩) ديوان السيد ابراهيم الطباطبائي ص ١٨٩ .

(١٤٠) سحر بابل - ص ٢٧٢ - ٢٧٤ .

(١٤١) هذا تعليق الاثري على قصيدة أحمد الشاوي

(١٤٢) له كتاب (أحسن القصص) في تفسير سورة يوسف .

سنة ١٨٩٦م وقد ورد بعض المدح لهذين الوالين في ديوان السيد جعفر
 الحلي ومما قاله في الحاج حسن رفيق :
 بشرى العراق فبيك أشرق نورها هي جنة الدنيا وأنت وزيرها (١٤٣)
 أما الكواكبي فقد جاء ذكره عرضاً في قصيدة مدح بها السلطان
 عبدالحميد ومنها :
 هو سيد وكواكبي نسبة وعلومه للعالمين تفيد (١٤٤)
 وانتهى القرن التاسع عشر بولاية نامق الصغير (١٤٥) الذي
 خلف الكواكبي .

ولاية الموصل :

لقد مر بنا في الفصل السياسي أن ولاية الموصل استقبلت القرن التاسع
 عشر وولاتها من الأسرة الجليلية ، ومر كذلك في بحث الحالة العلمية
 والادبية شيء من أثر هذه الأسرة في تشجيع الادباء وطلاب العلم وكان لا بد
 لهذه الرعاية أن تجد صدى في نفوس الشعراء ، ولكن ما قيل في آل الجليلي
 لا يضيف شيئاً جديداً الى ما قيل في ولاية بغداد سوى الاسماء والمناسبات
 أما التعبير والاسلوب والمعاني فهي من لون ما كان في بغداد أن لم تكن أقل
 وأدنى ، وكان من أبرز شعراء الجليليين آل العمري والغلامي .

ومن مناسبات هذا الشعر اسناد الوزارة الى أحمد بن سليمان الجليلي
 سنة ١٢٢٩هـ - ١٨١٤م ثم منحه وظيفة فراش الحضرة النبوية بمرسوم سلطاني سنة
 ١٢٣٠هـ - ١٨١٥م فقد كان لهذه المناسبة تأثير في نفوس شعراء الموصل ومنهم
 عبدالله العمري ومن شعره قوله :

بشير المعالي بالوزارة حياكا فبشراك يا رب المكارم بشراكا
 أهنيك في ملك وسعد مؤيد مدى الدهر للأحكام مولاك ولاكا

(١٤٣) سحر بابل ص ٢٤٢ - ٢٤٥ .

(١٤٤) المصدر السابق - ص ١٥٨ .

(١٤٥) لقب بالصغير تمييزاً له عن الوالي الاسبق محمد نامق .

ويستخدم الناظم في هذه القصيدة أسماء العلوم ومصطلحاتها في المدح ، من الجزم بحفظ الجار الى رفع لواء العدل ، وان المدوح أصبح طويل المدح فيه قاصرا لانه بحر لا تحصى سجاياه ، ويختم القصيدة بيت تاريخ :

أقول بختم القول فيك مؤرخا فيا أحمد تاج الامارة وافاكا (١٤٦)

وقد مدحه قاسم حمدي بن يحيى حين جدد سور الموصل سنة ١٢٣٦ (١٤٧) .

أما محمد الغلامى مفتى الشافعية بالموصل فانه نظم ديوانا في هذا الوزير. وضمنه تسعا وعشرين قصيدة كل قصيدة تحتوى على تسعة وعشرين بيتا مرتبة على حروف الهجاء وقد تكلف في هذه القصائد فجعل أول البيت كآخره ، وسمى هذه المجموعة (الجمان المنضد فى مدح الوزير أحمد) ومن أمثلة هذا الشعر قوله :

خليفة هذا العصر للعدل أحمد حميد السجايا أرفع المجد أشمخ
خير بتدليل الطفاة فلم تزل صوارمه للمارقين تدوخ (١٤٨)

وكان الوالى يحيى بن نعمان الجليلى مثابة للشعراء فقد ولى الموصل سنة ١٢٣٨هـ ١٨٢٢ وتكررت هذه الولاية سنة ١٢٤٩هـ ١٨٣٣م (١٤٩) ، وفى هاتين الولايتين برزت شخصيته ومنح رتبة كبير الوزراء ومدح بشعر غير قليل جمعه عبدالباقى العمري وسمى المجموعة : (نزهة الدنيا فيما ورد من المدائح على الوزير يحيى) (١٥٠) . وقد ألفت هذه المجموعة سنة ١٢٤٠هـ وانتهى منها سنة ١٢٤١هـ أما الشعر الذى جمع فيها فانه كان متشابها فى

(١٤٦) الجمان المنضد ص ٨ و ٩ طبع الموصل سنة ١٩٤٠م .

(١٤٧) المصدر السابق ص ١١ و ١٢ .

(١٤٨) المصدر السابق ص ١٣٠ .

(١٤٩) توفى يحيى فى القسطنطينية سنة ١٢٨٤هـ ١٨٦٧م .

(١٥٠) توجد من هذه المجموعة نسخة خطية فى مكتبة الآثار ببغداد

وقد أخذت عن نسخة بخط يونس الوهيبى الموصلى ، والمرجع هنا نسخة الآثار .

الموضوع والاسلوب بل كان كأي شعر نظم في المدح ، وكان ابتهاج الشعراء في انتصار هذا الوالي على خصومه في الثورات التي يجمعها من مميزات هذا الشعر ، وان كان الانتصار بقتل النساء والاطفال والشيوخ ، وحرق البيوت ونهب القرى ، ومن أمثلة ذلك ما قاله محمد أسعد شقيق الوزير يحيى يهنئ أخاه بانتصاره على الزيديين في إحدى ثوراتهم في (الشيخان) وكان هذا العمل قبل أن يكون واليا :

عسى ولعل أن يطفى لهيبى وأبلغ ما أومل من مراد
كما قد نال يحيى العز لما أطاعته الجبال من الوهاد

* * *

وأهرق من نجيع بني يزيد دماء سال منها كل واد^(١٥١)
وتكررت مدائح لآخيه في مختلف المناسبات^(١٥٢) .

وحين اسندت الوزارة ليحيى سنة ١٢٣٨هـ هناك الشعراء بها واستعرضوا وقائمه مع الزيديين في (الشيخان) و (سنجار) من مقاطعات الشمال .
ومن هؤلاء الشعراء قاسم حمدي ، وقد قال فيه :

تهن وخذ يحيى الكتاب بقوة لك الامر فافعل ما تروم وتقصد^(١٥٣)
والحاج محمد سعيد الجوادى ومن شعره في ولاية يحيى :

وأنت الى يحيى أبقى الفضل الذى أحيت مكارمه بنى العباس^(١٥٤)
وله فيه وقد أشار الى وقائمه مع الزيديين فقال :

وقد أخذت نار الحسين جيوشه بسنجار حتى أن أطاع خصيمها^(١٥٥)
ومدحه عبدالله العمرى بهذه الوزارة^(١٥٦) .

أما محمد الغلامى فانه سجل النزاع الذي حدث بين الاسرة الجليلية على الحكم في قصيدة يمدح بها هذا الوالى :

(١٥١) نزهة الدنيا - الورقة ٩ .

(١٥٢) راجع المصدر السابق الورقتان ١٦ و ١٨ .

(١٥٣) المصدر السابق الورقة ٢٢ .

(١٥٤) المصدر نفسه الورقتان ٣٠ و ٣١ .

(١٥٥) المصدر السابق الورقتان ٤٦ و ٤٧ .

(١٥٦) المصدر السابق - الاوراق : ٧٠ و ٧١ و ٧٢ و ٨٠ .

يا لها من سقيفة حل فيها آل عبد الجليل لما تلاحوا
كلهم يطلب الرياسة لكن لفساد الامور فيها الصلاح
لفظ القوم قد علا فيه حتى قارب الأمر أن تسل الصفاح
وحين رأى يحيى أن الامر اشتد :

سلّ من عزمه الشديد حساما خضع الكل عنده واستراحوا (١٥٧)

ومدحه بقصيدة اخرى استعرض فيها انتصاره على الزبيديين فقال :
قد اعتصمت فيه الجزيرة كلها وفي بعضها وافاه حكم ومنصب
وسنجان لما جار اولاه سطوة فأولاده والمال تسبى وتتهب (١٥٨)

وقد سار الشاعر في البيت الاخير على طريقة اللف والنشر ولكنه
سجل حقيقة من حقائق التاريخ في أعمال يحيى مع الزبيديين .

ومدحه محمد الفهمي وذكر وقائعه مع الزبيديين أيضا (١٥٩) .

ومدحه محمد أمين العمري بقصائد بالغ فيها (١٦٠) .

أما عبد الباقي العمري فقد خلا ديوانه المطبوع من القصائد التي مدح
بها يحيى ولكنه أثبتها في (نزهة الدنيا) وقد سجل لنا في احدى هذه
القصائد تعيين يحيى من قبل داود والى بغداد واسناد الوزارة اليه سنة
١٢٣٨ هـ وقرار السلطان لهذا التعيين ، وفي هذه القصيدة دليل على أن
والى الموصل لا يعين الا بموافقة والى بغداد في عصر المماليك ، وقد جاء في
هذه القصيدة قوله :

ملك كانت الوزارة ترعا . بعين مذ كان رهن المهود
يوم جاء البشير بالحكم فورا قلت شعرا يضوع أرخ يعود
ان يحيى بجيده وأبيه نال فصل الخطاب من داود (١٦١)

٠ (١٥٧) المصدر السابق الورقة ٩٣

٠ (١٥٨) المصدر السابق الورقة ١٠٠

٠ (١٥٩) المصدر السابق الورقتان ١١٢ و ١١٣

٠ (١٦٠) راجع المصدر السابق الورقتان ١٢٦ و ١٢٧ . و (المسك

الاذفر) ص ١٥٨ و ١٥٩ .

٠ (١٦١) نزهة الدنيا - الورقتان ١٣٢ و ١٣٣ .

ولاية البصرة وحكامها :

لقد حكم البصرة عدد غير قليل من الولاة والمتصرفين وكان شأنها في ذلك شأن بغداد والموصل ، وقد قيل فيمن حكمها شعر غير قليل ولكن تناول هذا الشعر بجميع صورته لا يأتي بشيء جديد في هذه الدراسة ، لذلك أرى من الأفضل أن أقصر على بعض صورته ، وأن أتناول هذه الصور بمثل ما فعلت في ولاية الموصل ، وأن أترك الكثير من هذا الشعر لتاريخ الأدب وحده ، وأكثر من ذلك اني سأتناول شاعرا واحدا لعله خير مرآة تعكس السياسة في البصرة ، وهذا الشاعر هو عبدالغفار الاخرس ، ولعل من المستغرب أن هذا الشاعر الذي ولد في الموصل ونشأ في بغداد كان كثير التردد على البصرة فلا يكاد يفارقها الا ليعود اليها .

وقد كان له فيها أصدقاء من ذوى اليسار والثروة ، وقد أتاح له تردده الى البصرة أن يتصل بالحكام والموظفين وأن يسمعهم قصائده ، ومن الحكام الذين مدحهم حسام الدين القدسي الحلبي وقد كان هذا بمنصب قائم مقام في البصرة سنة ١٢٧٦هـ^(١٦٢) ، ومن مدائح الاخرس فيه قصيدة أولها غزل وتشبيب ، أما المدح فمنه :

قد بلونا الناس في أحوالها وعرفناهم كراما ولثاما
فمحال أن ترى عين امرئ كحسام الدين للدين حساما
ويظهر من القصيدة أن المدوح شريف النسب لانه :

من كرام سادة لم يخلقوا بين أشرف الورى الا كراما

حاكم بالعدل علوى التنا * * *
عن (على) قام بالحكم مقاما^(١٦٣)
ومدحه بقصيدة اخرى ليس فيها شيء سوى أن المدوح كان يعطف
على الشاعر :

فارتعت أيامي لعمر كجاهدا حتى انتضيت لها حسام الدين
أعلى مقامى في على مقامه فرأيت منزلة الكواكب دوني

(١٦٢) سالنامه البصرة - الدفعة الثانية سنة ١٣٠٩هـ .

(١٦٣) راجع (الطراز الانفس) ص ٣٩٢ - ٣٩٤ .

فتكاثرت نعم على بفضله من فضله وأقلها يكفيني (١٦٤)
وفي سنة ١٢٧٧هـ ١٨٦١م كان حاكم البصرة القائم مقام محمد
منيب (١٦٥)، وللأخرس فيه قصيدة لا تدور حول المدح حسب بل تجاوزته
الى تصوير حادثة من الحوادث التي كانت تقع بكثرة . ويظهر من هذه
القصيدة أن هذا القائم مقام أخذ ثورة قبلية ولكن الشاعر لم يعين المكان
ولم يذكر اسم القبيلة النائرة غير أن سياق الشعر يدل على أن التمرد كان
من قبيلة تابعة لآيران ، وأول القصيدة :

هنيت هنيت بالاقدام والظفر فاسلم ودم سالما بالعز وافتخر
أنت المتيب الى الله العزيز به والمتقى منه فى أمن وفى خطر
ويدو أن هذا الحاكم استعان ببعض القبائل النجدية لمحاربة الثائرين :
لبتك أبناء نجد اذ دعوتهم فأقبلت زمرا تأوى الى زمر
ثم يصف الحرب وانها كانت تقوم على المدافع :
وللمدافع ارعاد وزمجرة ترمى جهنمها الطاغين بالشرر
أما الثائرون فانهم :

فى كل عام لهم حرب ومعترك وموعد للمنايا غير منتظر
ورأس الخيط لمعرفة الثائرين أو التمردين قوله :
ورب أحقق معروف لشهرته وافاك من قومه الأعجام فى نفر (١٦٦)
وله فى قصيدة اخرى يبدو منها أن المدوح علوى النسب :
فرع سادات المعالى والعلا علوى الاصل علوى المقام
من أناس خلقوا منذ خلقوا سادة الدنيا وأشرف الأنام
ويبين وقت مجيئه الى البصرة :

قرت البصرة عيننا بالذى حل فى البصرة بالشهر الحرام (١٦٧)

(١٦٤) المصدر السابق - ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(١٦٥) سالنامه البصرة - الدفعة الثانية سنة ١٣٠٩هـ .

(١٦٦) راجع - الطراز الانفس - ص ١٧٤ - ١٧٦ .

(١٦٧) مجموعة للأخرس لم تنشر - الورقة السادسة من نسخة

يعقوب سرقيس . والسابعة من نسختى .

أما ناصر السعدون فإن للاخرس فيه مدائح كثيرة ولكنه مدحه ولما يدرك أيام ولايته على البصرة لانه عين واليا سنة ١٢٩١هـ وهي السنة التي توفي فيها الاخرس ، ووصل بغداد متوجها الى مقر ولايته في الثالث عشر من رمضان سنة ١٢٩٢هـ (١٦٨) الموافق للخامس عشر من تشرين الاول سنة ١٨٧٥م .

غير أن ناصرا كان من سيوف الدولة ومن المشاركين لها في أعمالها قبل أن يكون واليا وحين كان متصرفا للواء المتفق (١٦٩) . وقد مر في بحث الحالة السياسية شيء من أعماله في محاربة السعوديين بجانب الوالي مدحة . ولهذا أرى ما قيل في ناصر السعدون لا يختلف عن موضوع الشعر الذي قيل في الولاة الآخرين ، غير أن شعر الاخرس في هذا الوالي الزعيم كان يجمع بين الصبغة الحكومية والصبغة العربية المستوحاة من شخصية الممدوح وأسرته وتقاليد . ومن هذا الشعر قصيدة كانت مناسبتها حدوث ثورة دموية في البصرة وقد قضى ناصر على هذه الثورة ، ومما جاء في هذه القصيدة قوله :

محوت بسيف سطوتك الفساد بحكم قد أرحت به العبادا
دخلت البصرة الفيحاء صبحا ونار الشر تتقد اتقادا
وقد عبثت يد الاشرار فيها وطلال فسادهم فيها وزادا
لقد حكمت بها جهال قوم يرون الغي يومئذ رشادا

* * *

ولما ساءت الاحوال فيهم ولا نفع الحفاظ ولا أفادا

(١٦٨) الزوراء - العدد ٥٧٣ من السنة السابعة - ١٦ رمضان سنة ١٢٩٢هـ .

(١٦٩) حاز ناصر السعدون رتبة أمير الامراء سنة ١٢٨٣هـ ١٨٦٧م وحين عين واليا للبصرة كان في الاستانة ، ثم عاد بعد ذلك اليها وعين عضوا في مجلس شورى الدولة وبقي في الاستانة حتى توفي سنة ١٣٠٣هـ ١٨٨٥م ولقد كان ناصر اول عراقى يعين واليا للبصرة . وكانت له يد في رد هجوم الفرس على هذه المدينة . راجع (ذكرى السعدون) للشيخ على الشرقي ص ٤٥ . و (مباحث عراقية) ص ٥ ج ١ و ص ٢٥٧ ج ٢ .

وبات الناس في وجل عظيم يربح السمع منه والفؤادا
دعيت لكشف هذا الضر عنها ولا يدعى سواك ولا ينادى (١٧٠)

وله فيه قصيدة اخرى جاء فيها :

ولو علم السلطان اقدام ناصر لما استنصر السلطان الا بناصر
همام اباد المفسدين ودمرت صوارمه من كل باغ وفاجر (١٧١)
وقصيدة ثالثة منها :

ومنزلة بين الفرات ودجلة اذا لم يكن فيها المشير فناصر

رحى الحرب ان دارت رحاها فانه * * *
هو القطب ما دارت عليه الدوائر (١٧٢)

وله فيه قصيدة اخرى ، منها :

أبا فالج سدت الأمور بحكمة وأنت خير بالسياسة عالم

بطشت بمن يبغى عليك بكيده * * * وأنت رؤف بالرعية راحم
وأبقيت دار المفسدين بلاعفا * * * خلا عالم منها وأقوت معالم (١٧٣)

وعند هذا الحد ينتهي البحث في الشعر الذي سار في ركاب الدولة
وولاتها ممثلا فيه معظم الشعراء من بغداد والموصل والنجف والحلة ، وقد
توخيت فيه ابراز الخطوط العامة الموضحة لمسلك الشعراء حيال السياسة
ومواقفهم من أعمال الدولة والولاية ، وراعت فيه أهم النواحي ، وأهم
الولاية و أشهر الشعراء ، وتركت ما كان مدحا خالصا ليس فيه تسجيل
لحادثة أو مناسبة هامة في تاريخ الدولة والعراق .

وعند هذا الحد أيضا ينتهي بحث الشعر السياسي في كافة نواحيه من
ايجابي يرضى شعور الدولة والولاية ، وسلبى يمثل شعور الساخطين على
الدولة والحكم ، والناقمين على أعمال الولاية والموظفين .

-
- (١٧٠) الطراز الانفس - ص ١٢٧ - ١٢٨
 - (١٧١) المصدر السابق - ص ١٧٨ - ١٨٠
 - (١٧٢) المصدر السابق - ص ١٧٦ - ١٧٨
 - (١٧٣) راجع - المصدر السابق - ص ٣٧٠ - ٣٧٢

الفصل الخامس

القيم الفنية والموضوعية

نظرة عامة في شعر القرن التاسع عشر :

أربعة فصول مرت هي خلاصة الشعر السياسي في العراق ابان القرن التاسع عشر وهي أظهر ما في هذا القرن من شعر يصور السياسة في أساليبها ومراحلها ويرسم أحداثها الكبرى والصغرى في العراق وما حوله بل هي أبرز ما في الشعر السياسي من صور تمثل سخط الشعراء ورضاهم ، واندفاعهم في ركاب الدولة وثورتهم عليها ، وانطلاقهم في رحابها والمهم منها ، وهي أبرز الصور أيضا لتأثير السياسة في هؤلاء الشعراء سلبا وإيجابا ومقدار تصويرهم للحياة والأحداث من زاوية الدولة أو من زاوية الأمة المحكومة ، وهي أبرز الصور للموضوعية التي تناولها الشعراء في ظل السياسة ، والفنية التي استجابت لتلك الموضوعية وطاوعتها وعبرت عنها واندفعت بها من عالم التجربة والشعور الى مجال الرسم والتسجيل ، غير أنه لا بد من دراسة الموضوعية والفنية لهذا الشعر ولا بد من الكشف عن أهم القيم فيه وعن مدى الاداء اللفظي الذي استجاب له وقبل أن أدرس هذه الناحية لا بد أن أشير الى أن دراسة الشعر في عصر ما أو دراسة شاعر واحد في أي عصر من العصور لا تتم الا بدراسة ذلك العصر الذي ولد فيه الشعر أو ظهر فيه الشاعر وهذه الدراسة قد مرت في الباب الاول بما تضمنته من فصول ثلاثة في السياسة والمجتمع والثقافة وقد أوضحت في تلك الفصول

الثلاثة جوانب السياسة في أهم خطوطها واتجاهاتها والمجتمع العراقي في حياته ومعيشتة وفي عناصره وتقاليده وعاداته وفي دياناته ومذاهبه ، والثقافة العامة في أهم ألوانها وأشكالها ولاسيما الثقافة العربية التي كانت تشق طريقها بين العواصف والامواج وتصارع العجمة الخائفة من الترك والفرس . وعلى ضوء هذه الدراسة العامة يمكن أن ترسم صورة معبرة كاشفة لحياة الشعراء وثقافتهم وسلوكهم وتناولهم الموضوعات العامة والخاصة ومنها موضوعات الشعر السياسي .

وإذا كانت الفصول الثلاثة - وقبلها التمهيدي - قد وضعت لتكون مدخل البحث وخط السير الموصل الى موضوع الشعر السياسي فإن ربطها بهذا الموضوع وغيره من الموضوعات الاخرى وتأثيرها في اتجاه الشعراء أمر لا يقل عما سواه في الدراسة والتتبع ، ولا شك في أن ما استعرضته من الشعر في الفصول الاربعة الخاصة به كفيل بتوضيح هذه الجوانب كلها والكشف عن أثر السياسة والمجتمع والثقافة في الشعراء ففي هذا الشعر ما يكشف عن سلوكهم السياسي العام والخاص وفي هذا الشعر ما يوضح علاقتهم بالمجتمع وفي هذا الشعر ما يصور مدى قابلياتهم الفكرية واللغوية وإذا كنت قد أشرت في بحث الحالة العلمية الى الموضوعات التي تناولها الشعراء مما يتصل بالحياة العامة فإن ذلك التلميح كاف في معرفة الاثر الذي أحدثته ظواهر المجتمع في اولئك الشعراء فقد نظموا في معظم الاغراض العمودية من مدح ورناء وهجاء ووصف وغزل وخمريات وأكثرها في الموضوعات الدينية فنظموا في مدح النبي وآل البيت ورنائهم ولاسيما الامام الحسين^(١) ونظموا في التصوف مدحا وذمما^(٢) ووصف بعضهم الفقر الذي كان يعانيه الشعراء وهم جزء من المجتمع^(٣) وتناولوا مجالس اللهو

(١) ان معظم الدواوين والمجموعات ملىء بهذا اللون ولاسيما ما كان منها في الخلة والنحف .

(٢) راجع ديوان عبد الباقي العمري (الترياق الفاروقى) في كثير من صفحاته . و (الطراز الانفس) ص ٣٧ وما بعدها وص ٢٤٢ .

(٣) مرت أمثلة من ذلك في بحث الحالة العلمية .

والخمر^(٤) وصور بعضهم ما كان يحدث من فتن داخلية لا شأن لها بالسياسة^(٥) ، ولما كنت في غنى عن الاطالة في بحث هذا الاثر في الشعر فان التوضيح في دراسة الاثر الثقافي شيء لا بد منه في معرفة القيم الموضوعية والفنية في الشعر السياسي والوقوف على مدى التفكير والقابلية عند الشعراء وما رافق ذلك من أداء وتعبير لذلك أرى لزاماً أن استعرض أثر الثقافة بصورة موجزة لانهى منه الى تقدير ما ذكرته في الفصول الاربعة من شعر يتصل بالموضوعات السياسية ووضعه في المكان الذي يستحقه بين الدراسات .

الشعراء في مستواهم الثقافي :

ان شعراء العراق في القرن التاسع عشر يمكن أن يقسموا من حيث مستوى الثقافة الى طبقات فطبة منهم كانت موفورة الحظ من الاطلاع على اللغة والادب الى جانب الدراسة الدينية وما يتبعها من العلوم اللسانية . وطبقة اخرى كانت على شيء لا بأس به من الاطلاع والدراسة والحفظ ولكنها دون سابقتها في سعة الافق ، ومنهم طبقة لم تكن معروفة بالدراسة المألوفة فيما عدا السير من النحو وغيره والاطلاع القليل على مصادر الادب القديم ولكنها كانت تمارس الشعر بدافع من الذكاء وبما اتيح لها من مخالطة واستماع . غير أن هذا التقسيم لا يعنى أن الطبقة الاولى كانت أشعر من الثانية وأن الثانية كانت أشعر من الثالثة فقد يكون في الاولى شعراء وقد يكون فيهم نظامون ليس لهم حظ من الشعر الا جمع المفردات اللغوية وقد يكون في الطبقة الثالثة شعراء لهم من صدق الحس والاداء ما يجعلهم في الطليعة اذ ليست الميزة بالرصف وتخير الكلمات الدالة على كثرة الحفظ وانما الميزة أن يكون الشاعر قادرا على رسم التجربة بما يلائمها من الالفاظ الدالة الموحية ، واذا كانت كثرة الحفظ قد تفيد في تخير الكلمة المناسبة

(٤) الطراز الانفس . ص ٢٤٢ و ٢٤٣ و ٢٧٢ و ٢٧٣ ، وفي ديوان الحبوبى أمثلة كثيرة لذلك .

(٥) راجع ديوان السيد ابراهيم الطباطبائي ص ٥٣ .

واللفظ الملائم فإنها قد توقع الشاعر في حيرة واضطراب فتبرد التجربة ويضعف الخيال الناشط مع تلك التجربة أثناء البحث عن الكلمة المتخيرة واللفظ المناسب وقد يدفعه ذلك الى الاغراب في التعبير فيكون لفظيا أكثر منه شاعرا ذا حس وانفعال وصدق ، وقد يدفعه ذلك الى التقليد والمحاكاة والى الخروج عن البيئة التي يعيش فيها الى بيئة ثانية بعيدة فيستعير منها الاسماء والاماكن والصور . ولا شك ان الاثرء من اللغة ليس وحده طريق الشعر فقد يكون هذا الاثرء باعنا على الغموض والابهام ولقد قال النقاد في (شيلر) الشاعر الالماني : ان الالفاظ التي استعمالها في قصائده ورواياته الشعرية كانت قليلة ولكنه بهذا القليل استطاع أن يؤدي معانيه أحسن أداء وأجمله ، بينما كان (غوته) معاصره وزميله مثرى من اللغة ولكن كثيرا من شعره لا يخلو من الغموض المتعب^(٦) .

وأنا - حين أضرب مثلا للغموض والوضوح - لا أريد أن أعقد موازنة بين شاعرين غربيين لهما حظ من الثقافة المتطورة والتفكير النامي وبين شعراء عاشوا في عصر التقليد والمحاكاة وانما أردت أن أقرر ما استهدفه النقاد من تقويم الشعر ووزنه بالميزان السليم ووضع كل شاعر حيث يجب أن يوضع ، ولكن ضرب المثل بهذين الشاعرين لا يعني عدم الاستعانة به في بعض الصور التي سجلها شعراء القرن التاسع عشر في العراق فقد يكون من هؤلاء من استحوذت عليه اللغة بمفرداتها الغريبة وكلماتها الخشنة فذابت شاعريته خلال تلك المفردات والكلمات ، وقد يكون منهم من آثر جانب الشاعرية المحضة على تلمس الغريب من المفردات فجرى على سجيته غير متكلف ولا متوعر ، غير أنه كان الى جانب هذين الفريقين فريق ثالث لا يمكن أن يوضع الا في عداد النظامين المتكلمين ولكنه تكلف من لا رصيد له من اللغة وسلامة الاداء ، ولعل من نوع (غوته) في الاثرء اللغوى وذوبان الشاعرية في وهج المفردات الغامضة عثمان بن سند البصرى - اذا صحت المقارنة - فان هذا الشاعر قد أغرق في استعمال

(٦) من تقرير لابراهيم عبدالقادر المازني في مجلة (مجمع اللغة العربية) بالقاهرة الجزء السابع ص ١٩٠ .

الغريب ، مع سعة اطلاعه على اللغة ، حتى فقد - أو كاد يفقد - عنصر
الاصالة بما استعمل من مفردات متوعرة لا تنسجم مع موسيقى الشعر
وأساليه الصحيحة ، ولا تتفق مع الذوق الذي يريد من الشعر الوضوح
والبساطة ، ومن أمثلة ذلك قوله في قصيدة نظمها على لسان السلطان محمود :

إذا ما بدا ناب التواب خلتنى
أنا الرجل الضرب الهصور الصلنق^(٧)

وقوله في الوالى داود :

سل الاكراء عنه غداة كروا فلاقوا منه مغوارا وقعب^(٨)
وقوله فيه أيضا من قصيدة :
عجبت للقوم اذ راعوا مصاعك ما صبحتهم باسود للقنا جحنوا
ومنها :

مذ بلغ الملك المحمود همتك الـ عليا وأنتك من بغدادك الشفن
رتك منه عيون العدل من أمم فحولتك بملك ما له حجج^(٩)

فان فى (الصلنق) و (قعب) و (جحنوا) و (شفن) و (حجن)

اغرابا يحتاج الى شرح لغوى ، ونبوا عن طبيعة الشعر .

أما الخروج عن البيئة العراقية الى غيرها بدافع التقليد والمحاكاة فقد
ابتلى به كثير من كبار الشعراء آنذاك ومنهم السيد ابراهيم الطباطبائي فقد
كان هذا الشاعر كثير التبدي فى شعره بينما كان يعيش فى التجف ويتدرد
على بغداد ، ومن صورته البدوية قوله :

هديتم سراة الحى مسقطنا الضال أميلوا رقاب العيس فالركب ضلال
أميلوا بها عن عالج نحو لعل فلى فى محانى سفح لعل آمال^(١٠)
ولكنه يقول فى مكان آخر :

بعيسى صرت قسيسا وعفت الضمير العيسا

(٧) مطالع السعود - الورقة ٩٥ .

(٨) المصدر السابق - الورقة ١٠٦ .

(٩) المصدر نفسه - الورقة ١١٣ .

(١٠) ديوان السيد ابراهيم الطباطبائي - ص ١٩٨ .

ويخاطب صاحبه قائلا :
تركنا لك مأكولا ومشروبيا وملبوسا
ولو تصلح باريس لقلدناك باريسا^(١١)

فأين باريس من لعلع والضال ؟

وفي شعر السيد محمد سعيد الجبوبي صور بدوية كثيرة مع أنه كان كالطباطبائي يعيش في النجف ويتردد على بغداد وينزع الى التجديد وقد جاءت هذه الصور البدوية حتى في الرثاء^(١٢) ولعل للسيد الجبوبي العذر في ذلك فان بعض أسفاره الى نجد والحجاز قد ترك في خياله أثرا للبادية وقد انعكس هذا الاثر في شعره غير أن ذلك كله لا يمنع من الحكم بجودة فنه ورشاقة اسلوبه ، وقد ذكرت هؤلاء الشعراء - ولاسيما عثمان بن سند والجبوبي - لأضع مثلا للشعراء الذين عرفوا بالدراسة والاطلاع غير أن الجبوبي كان يتجنب الوعورة والتكلف في شعره وان لم يسلم من المحاكاة والتقليد .

أما بعض الشعراء - أو كثير منهم - ممن شملتهم هذه الدراسة فقد كان عرضة للوقوع في الأخطاء اللغوية والنحوية وغيرها وذلك لعدم توفر الدراسة والثقافة ولقلة النقاد الموجهين ، وبسبب هذا كان التفاوت بين بعضهم وبعض كبيرا في الاداء اللفظي وفي سلامة الاسلوب من تلك الأخطاء ، وسلامة الوزن من الخلل والاضطراب ، وهذا يعني أن العصر الذي ندرسه لم يكن شعراؤه جميعا قد توفرت لديهم أسباب الشعر وقواعده فان كثيرا منهم - وفي هذا الكثير شعراء بارزون - قد وقع فيما يجب ألا يقع فيه شاعر يحرص على الفن وقواعده ومن هؤلاء عبدالغفار الاخرس فان لهذا الشاعر

(١١) المصدر السابق - ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(١٢) راجع قصيدته في رثاء السيد حيدر الخلي في ديوانه وفي

مقدمة ديوان السيد حيدز نفسه ، ومنها قوله :

الى النزوان العيس تلوى أعنة وهيهات ليست تملك النزوانا
وليست تشيم البرق من ابرق الحمى بلى قد تشم الشيخ والعلجانا

الرقيق أكثر من سقطلة في اللغة والنحو وفي الوزن والقافية والاسلوب ومن ذلك قوله في مدح بعض الوجهاء :

ان أيامك أعياد المنى حيث كانت للاماني موسما
نظم الشعر لكم داعيكم فتقبل فيك ما قد نظما^(١٣)

ولعل من الواضح ان اسلوب البيتين أقرب ما يكون الى العامية منه الى الشعر الفصيح وليس فيه شيء من الدقة والمتانة ، فالتعليل بحيث - كما في البيت الاول - لم يرد في المأثور عن العرب ، وكلمة (داعيكم) في البيت الثاني تعبير عامي ، ثم مخاطبة المفرد بضمير الجماعة ليست من التعابير الشائعة الا في ركيك الشعر ، وفي مكان آخر يخاطب الوالي داود فيقول :
فديتك لا (ترجو) لنطقي تكلما فان يراعي عن لساني يترجم^(١٤)

فقد أبقى فعل (ترجو) على حالته وهو مسبوق بحرف جازم واذا صححنا للشاعر هذا الخطأ وحذفنا حرف العلة فان (مفاعيل) المكفوفة لم ترد في وسط الشطر من عروض الطويل الا في النادر الضعيف ، أما استعمال نطق بمعنى لسان فهو من ضعف اللغة . وفي مكان آخر خرج الاخرس على موسيقى الوزن فقال :

أعد اللهو فان العود أحمد وأدرها في لجين الكأس عسجد
واسقنيها قهوة عادية أخبرت عما مضى في ذلك العهد
ان هذه القصيدة من الرمل ومن العروض الاولى والضرب الصحيح
أما القافية فهي مقيدة ساكنة ولكن الشاعر خرج في البيت الثاني عن الضرب
وسبغ التفعيلة بزيادة حرف وكرر هذه الزيادة في قوله :

في رياض لعبت فيها الصبا وأذاعت سر نشر الشيخ والرند
وأردف ذلك في تسعة أبيات اخرى من هذه القصيدة^(١٥) فأفسد
موسيقى الشعر . وفي شعر عبد الباقي العمري ما يدل على عدم الغرابة

(١٣) الطراز الانفس - ص ٣٧٤ .

(١٤) المصدر السابق - ص ٣٩١ .

(١٥) المصدر السابق - ص ١٠٢ - ١٠٤ .

والتمجيص ومن ذلك قوله في مدح الشيخ عبدالقادر الكيلاني :
أتى من العلم في مثل الذى أتيا موسى وعيسى بتوراة وانجيل
وقوله فى القصيدة نفسها :

وقبل الترب من أعتاب سُدَّته وابد الخضوع بدمع منك مسبول^(١٦)
فقد جمع الشاعر فى البيت الاول بين الظاهر والضمير فى جملة
(أتيا) ، ووصل فى البيت الثانى همزة القطع فى فعل الامر (أبد) وجاء
بكلمة (مسبول) مكان مسبل • وقال فى قصيدة اخرى يمدح بها أبا حنيفة :
قد كلفوه للقضا فأبى ولم (يرضى) وطال بسجنه استمراره^(١٧)
وفى هذا البيت أبقى الفعل (يرضى) على حالته وهو مسبول بحرف
جازم • ومن تساهله فى ضبط العروض ما جاء له فى قصيدة يمدح بها
الامام عليا وأولها :

أنت العلى الذى فوق العلاء رفعا بطن مكة وسط البيت اذ وضعا
فقد قال فيها :

وأنت أنت الذى لله ما فعلا وأنت أنت الذى لله ما صنعا
وأنت أنت الذى لله ما وصلا وأنت أنت الذى لله ما قطعنا^(١٨)

فقد صرع الشاعر فى هذين البيتين بغير حرف الروي الذى يجوز
التصریح فيه فى خلال القصيدة ، ولكن العمري قد اعتذر عن أخطائه
واعترف بضعف لغته فى بيت من قصيدة أرسلها الى الوالى يحيى الجليلي
عندما كان هذا فى الاستانة اذ قال :

فان لساني لا كما تمهدونه فقد أعجمته بالتكلم رومه^(١٩)
وقد وقع السيد جعفر الحلي فى أخطاء مماثلة ومنها قوله :

حشاشتان التقتا كل ترى أن ليس فى الآخر كالذى بها^(٢٠)

(١٦) الترياق الفاروقى ص ١٦٦ - ١٦٧ •

(١٧) المصدر السابق - ص ٢١٣ •

(١٨) المصدر السابق ص ٩٧ - ١٠٠ •

(١٩) نزهة الدنيا الورقة ١٤٦ •

(٢٠) سحر بابل ص ٧١ •

فجاء بكلمة (الآخر) بدل الاخرى • وقوله :

هداكم ربكم يا ركب نجد وأرشدكم الى الطرق النهاج^(٢١)

ولم يرد في كتب اللغة جمع نهج على نهاج • وقوله :

يهدى لمأدبة لها سعة السما ركبت بها عدد النجوم قداح^(٢٢)

يريد الأقداح جمع قدح - بفتح الدال - أما الجمع الذي استعمله

فهو لقدح بكسر القاف وسكون الدال وهو هنا غير مناسب ولا معنى

له • وقوله :

هل يصلح الناس لعلياه بلى فصالح للمكرمات صالح^(٢٣)

والمعروف في النحو أن (بلى) حرف جواب يأتي بعد الكلام

المنفي فيثبته •

وهذه الامثلة التي ذكرتها ليست كل شيء مما وقع فيه الشعراء من

أخطاء وانما هي من أبرز ما وقع فيه المشاهير منهم وقد سقتها للاستدلال على

قلة التمحيص والغربة والنقد • ولكن هذا كله لا يعنى أن الذوق الادبي

كان غير موجود وان التمييز بين البث والسمين وبين القوى والضعيف كان

مفقودا فقد وجدنا بعض الشعراء يضع نفسه ميزانا للشعر ويحكم بين

الاساليب ويفضل شاعرا على آخر تفضيلا فيه سلامة الذوق وحسن التأني

ومن ذلك قول السيد ابراهيم الطباطبائي :

فقل قول من يرضى الرضى فيعتلى

ودع قول من يصفى الصفى فيسفل^(٢٤)

فان الشاعر هنا يعترف للشريف الرضى بالقوة والاصالة ويحث على

اتباع اسلوبه بينما لا يرى في شعر صفى الدين الحلي غير التسفل • وينتقد

عثمان بن سند أبااتا للشيخ صالح التميمي من قصيدة قالها في مدح الوالي

داود عندما ختن ولده يوسف سنة ١٢٣٥هـ ومما نقده قوله :

(٢١) المصدر السابق ص ١١٠ •

(٢٢) المصدر السابق ص ١٢٠ •

(٢٣) المصدر نفسه ص ١٣٨ •

(٢٤) ديوان الطباطبائي ص ٢٠٢ •

تسربل حلما فوقه تاج قدرة تسربل منه الجهل قيس وأخف
وقد عد عثمان هذا البيت ذمّا لان تاج القدرة قد ألبس قيسا والاحنف

جهلا فهو اذن تاج جاهل . وقوله في وصف سطوة الممدوح :
اذا وعدت حيا يكاد وعيدها اذا ما قضى أمراً له العفو يخلف
وقد تقدمه بقوله : ان خبر (يكاد) جملة (يخلف) وهذا الفعل لم
يرفع ضمير اسم (يكاد) بل رفع ضمير العفو . وقوله :

رأت طهره والظهر للرجس داحض بدار وبعض القوم بالظهر سوفوا
والظهر لم يأت في اللغة بمعنى الختان^(٢٥) ، وأضيف الى هذا النقد
بأن كلمة (الظهر) شاعت في عامية العراق بمعنى الختان . ومن هذا يستدل
على أن لعثمان بن سند ثقافة تؤهله لان يكون حكما في دراسة الشعر مع أن
التميمي كان أشعر منه بكثير . ومع أن للتميمي رأيا في الشعر ساقه في
قصيدة أرسلها الى الوالى داود بعد أن نفى الى الاسطانة ، وكانت هذه القصيدة
ردا على (خالية) بطرس كرامة^(٢٦) وقد جاء فيها للتميمي قوله :

اما وعلوم ضمها صدرك الذى براه اله العرش للعلم اذ برا
لجم غير صير (الخال) قبله مكان القوافى بالقوافى مكررا
لعمرك ما كعب ولا الشيخ قبله زهير بتكرار الروى تصدرا
ولست أرى المصنوع الا مؤمراً ولست أرى المطبوع الا مؤمراً
وما الشعر الا ما أبانت صدوره قوافيه لا ما السمع فيه تحيرا
وغنى به الساقى على الكأس آخذنا عليك وان لم تشرب الكأس أسكرا^(٢٧)
فالشيخ صالح التميمي يميز هنا بين الاصاله والتقليد وبين الطبع

(٢٥) راجع القصيدة والتعليق عليها في (مطالع السعود) الورقتان :
١٢٣ و ١٢٤ .

(٢٦) بطرس كرامة شاعر لبناني وقد ارسل الى داود قصيدة قافيتها
كلمة (الخال) مكررة في كل الابيات فطلب داود من الشعراء مباراتها .
راجع (روض الخل والخليل - ديوان السيد عبدالجليل) ص ١٦٧ - ١٧٢
طبع مصر .

(٢٧) راجع ديوان التميمي المخطوط ص ٣٨ - ٣٩ والمطبوع ص
٥٦ - ٥٧ وروض الخل والخليل ص ١٦٧ - ١٧٢ طبع مصر .

والصنعة ويدرك الى حد كبير ميزة الشعر وأثره في النفوس وأنه ليس نظما مكرر الروى ، ولم يكتف التسمية بهذا بل أراد أن يكون قوى الحججة حين ذكر كعبا وأباه زهيراً للتدليل على اصالة الشعر ، ولكن هذا كله لم يمنع التيمى من الوقوع فى الاخطاء التى لم يسلم منها شعره ولا سيما تلك التى تتصل باللغة والنحو .

صدق الشعور والاداء :

الاثر الشعري - أو أى اثر أدبي - تجربة تجول فى خاطر الشاعر ثم يدفعها الى الاطار الخارجى بكلمات معبرة موحية ولا بد لهذه التجربة من عاطفة وخيال وموسيقى ولا بد أن تتساوى هذه فى العمل الادبى لتتحول التجربة الى قصيدة أو مقطوعة أو بيت وليس كل الشعر قد توفرت فيه هذه الخصائص فقد تكون القصيدة ذات عاطفة وانفعال وخيال محلق ولكن موسيقاها اللفظية لا تتساوق مع العاطفة والخيال وقد تكون الموسيقى ذات رنين وايقاع ولكنها لا تعبر عن عاطفة صادقة أو خيال مشرق وقد تلتقى العاطفة والموسيقى فى تجربة لا يسهم الخيال فى عملها ، ولا شك أن الاثر الادبى هو الذى تتوفر فيه هذه الخصائص الثلاث غير أنه لا يكون كاملا ما لم تسنده حرية النفس فى التناول والاداء ولكن هذه الحرية قلما تتاح للشاعر فى كل موضوع يتناوله فقد يكون مبدعا فى الغزل والرثاء فى حين يكون مخفقا فى تناول القضايا السياسية أو فى وصف ناحية من نواحي المجتمع ، وسر الابداع هناك صفاء الحس وتوفر الحرية النفسية فى تناول التجربة ، وسبب الاخفاق هنا ضعف الحرية النفسية فى نقل التجربة الى اطارها الخارجى ، فلا بد حينئذ لكل عمل أدبي كامل من حرية تامة تتساوق مع مستوى التجربة وهذه الحرية هى التى تدفع العاطفة الى الصدق ، والخيال الى الابداع ، والموسيقى الى الرنين والمطاوعة . أما الشعر العراقي فقد كان نصيبه من الاثر الادبى الكامل يختلف باختلاف الموضوعات وباختلاف البيئات والازمان وباختلاف الشعراء ونفسياتهم وثقافتهم أيضا ، هذا اذا تسامحنا فى الحكم والتقدير أما فى الواقع فان الاثر الادبى الكامل

قد يبدو مهزوز السكبان في شعر القرن التاسع عشر ذلك لان الثقافة لم تكن على مستوى عال يتيح للشاعر أن يتصرف في الالفاظ والتعابير كما يشاء فيلائم بين عناصر التجربة كما يجب ، ولكننا على كل حال لا نعدم في شعر القرن التاسع عشر صورا تبدو فيها ظلال الابداع الى حد كبير كما في بعض مرثي السيد حيدر الحلبي للامام الحسين أو في كثير منها ، واذا استئينا هذه المرثي فاننا قد لا نعثر بالصورة الكاملة فيما تركه لنا شعراء العراق في القرن التاسع عشر ما دمنا قد قيدنا الاثر الادبي بهذه الخصائص اذ ليس من الممكن أن تلتقى هذه الخصائص في أدب عصر غير واسع الثقافة ولا موفور الحرية واذا كانت الحرية والموسيقى قد التقيتا في بعض الموضوعات كخمريات الجبوبي أو غراميات الشيخ عباس النجفي^(٢٨) فان صدق العاطفة عند الاول يبدو ضعيفا كضعف الخيال عند الثاني ، أما انفعالات الاخرس ووثبات احساسه وعاطفته في الكثير من ذاتياته فانها تفقر الى عنصر الحرية في تناول الاشياء التي سببت له المتاعب والآلام وان كان حر النفس فيما نظم من وصف ملاحيه ومحافل سروره^(٢٩) ومثله بقية الشعراء الذين تناولوا الموضوعات السياسية في غير جانب الدولة أما ما كان منها في جانب الدولة فانه يحتاج في معظمه الى صدق العاطفة والانفعال وفي كثير منه الى التعبير المناسب والاداء المطاوع وهذه كلها غير متوفرة لدى الشعراء .

القديم والجديد :

الشعر تجارب لا تجول الا في حدود نفس الشاعر ومداركه ولا تنطلق الا في آفاق البيئة التي يحيا فيها ويتقل بين مناظرها ومشاهدها فلا يرسم الا ما تقع عليه عينه ولا يحسن الا بما يدفعه اليه ادراكه وتفكيره ، وهما - أي الادراك والتفكير - ليسا على وتمرة واحدة عند الشاعر فقد

(٢٨) هو الشاعر العاشق صاحب القصيدة التي يقول فيها :

عديني وامطلي وعدى عديني وديني بالصباية فهي ديني

راجع قصته وقصيدته في (نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر)

ص ٢١٠ - ٢١٨ .

(٢٩) راجع الطراز الانفس ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

يختلفان قوة وضعفا باختلاف الثقافة والاطلاع والانتقال من سن الى سن وفي أدبنا العربي أمثلة كثيرة لهذا التعريف فشعر المتنبي في صباه أقل عمقا وتفكيراً من شعره بعد أن تجاوز الثلاثين . وشعر المعري في اللزومات غير شعره في سقط الزند فالاول حافل بالمعاني والافكار الفلسفية والاجتماعية والثاني تقليدي ترسم فيه خطا من قبله من الشعراء العموديين ، ومثل هؤلاء من شعراء العصر الحديث البارودي واسماعيل صبري في مصر فان الاول منهما بدأ شعره مقلدا متأثرا بمن سبقه من القدماء ثم استطاع أن يجدد وأن يضيف الى الصور المكتسبة صور طبيعية من نفسه أما الثاني فقد بدأ النظم بأسلوب تقليدي يبدو عليه الضعف ثم استطاع أن يرتفع الى القمة في مرحلته الثانية ، وكثيرا ما ينطبق هذا التعريف على شاعرين بينهما تقارب في الزمن فابن الرومي - مثلا - غير البحترى في عمق المعاني ودقة الصور ومثلهما في القرن التاسع عشر الشيخ ناصيف اليازجي وابنه الشيخ ابراهيم في تفاوت الاسلوب والموضوع فان الاول كان مقلدا ظاهر التكلف قد ملأت شعره الكلمات القديمة من الرقمتين والاراك وحاجز^(٣٠) بينما كان يعيش في لبنان ، أما ابنه الشيخ ابراهيم فهو صاحب القصيدة الثورية المعروفة التي يقول فيها :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب

فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب^(٣١).

وفي ظل هذا التعريف للقديم والجديد نستطيع أن نحدد مسارب الشعر العراقي في القرن التاسع عشر ونحن فيما قرأناه من هذا الشعر يمكننا القول بأن شعراء العراق في هذا القرن ليسوا على شيء كبير من الادراك في اختيار المادة فقد كانت الثقافة الموجهة ثقافة ضيقة ليس فيها شيء من التيارات الحديثة التي لمستها مصر ولبنان وسوريا ولذلك بقيت الموضوعات

(٣٠) راجع (ثالث القمرين) ص ٢٤ و ٨١ طبع بيروت سنة ١٨٨٣ م .

(٣١) راجع (العقد) ديوان ابراهيم اليازجي ص ٥٦ - ٥٩ طبع البرازيل .

القديمية قدوة الشعراء العراقيين وأملتهم المفضلة ، والاساليب القديمة قوالهم المختارة أما التجديد والابتكار فلا شيء منهما غير النادر القليل ، وهذا القليل لم تظهر فيه الدقة الفنية التي تناسب المادة المتخيرة للعمل الادبي فقد وصفوا بعض المخترعات الحديثة^(٣٢) التي شاهدها في العراق ولكن وصفهم كان مقصورا على المظهر العام وليس فيه نفاذ الى الجزئيات والدقائق وكثيرا ما يستعينون على هذا الوصف والتشبيات القديمة المعروفة ، ومن ثم يمكن القول بأن البيئة وحدها ليست من مقومات الشاعر بل هي مستودع يتزود منه مادة العمل ولكن تحويل تلك المادة الى صور تستوقف بالوانها وخطوطها واطارها وبما فيها من جمال وتعبير انما يتوقف على حس الشاعر وادراكه وعلى فكره الواعي المنظم ولا بد لهذا كله من دراسة واطلاع ولا بد من ثقافة حديثة متطورة تسمى الادراك وتغذي الخيال والشعور وتقوى ملكة الاستقلال في العمل والتجديد في وضع الخطوط والالوان والقوالب ، غير أن شعراء العراق اذا فاتهم التطور والتجديد في الموضوعات والمعاني^(٣٣) فان لهم من الاساليب والتعابير ما يجعلهم في القمة بين شعراء مصر والشام ولبنان ، ولعل مجموع الشعر في العراق أفضل في هذه الناحية من مجموع الشعر في الاقطار العربية الاخرى اذا استثنينا البارودي^(٣٤) .

(٣٢) أشرنا الى المراجع في الحواشي : ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ و ٤٨ من الفصل

الثالث - الباب الاول .

(٣٣) من مظاهر التجديد الذي ظهر في مصر أناشيد الشيخ رفاعة الطهطاوي وان لم تكن قوية الاداء . (في الادب الحديث ص ٢٩ ج ١ ط ٢) ومن مظاهر التجديد في الشعر السياسي قصائد الشيخ ابراهيم اليازجي (العقد ص ٥٦ - ٦٣) وقصيدة الياس صالح اللبناني المتوفى سنة ١٨٩٥م (تراجم مشاهير الشرق ص ٢٨٧ ج ٢ ط ٣) .

(٣٤) ظهر في أواخر القرن التاسع عشر في العراق ثلاثة شعراء ولكن تجديدهم لم يظهر الا في القرن العشرين وهم الشيخ محمد جواد الشيببي والشيخ عبدالمحسن الكاظمي وجميل صدقي الزهاوي ، وكان تجديد الاول والثاني في الموضوعات على الاكثر أما الثالث فقد جدد في المعاني والافكار أيضا وان كان أسلوبه وأداؤه دون سابقه على ان ظهور التجديد عنده في الثمانين لم يمنع من بعض المحاولات التي ظهرت له في أواخر القرن التاسع عشر .

القيم الموضوعية والفنية في الشعر السياسي :

لعل في تلك الدراسة العامة التي قدمتها عن الشعر والشعراء ما يساعد على البحث في الشعر السياسي لانه كالموضوعات الاخرى من حيث القوة والضعف في مسارب الشعور والعاطفة ، وفي ظلال الصدق والانفعال ، وهو مثلها في جمال الفن والاسلوب وفي ضعف هذين أيضا •
ولما كان الشعر السياسي قد قسم الى أربعة فصول فان الحكم على الناحية الموضوعية فيه ليس بحكم واحد بل هو متعدد بتعدد الاتجاهات والملازمات والوقائع ، وأود في هذه الدراسة أن أتناول كل فصل على حدة •

الشعر والحوادث الوهابية :

ان الشعر الذي قيل في الحوادث الوهابية قد تنوعت أهدافه وتعددت جوانبه ولم يتساو فيه الشعراء من حيث الدوافع والبواعث ، فقد كان بعضهم مندفعاً بتأثير العقيدة الكعبية والازرى ، وبعضهم كان مندفعاً بتأثير التقرب للدولة والولاء ، والطمع بشيء من العطف والقبول كالاخرس والعمرين وكل من نظم في حملة الوالى مدحة وهؤلاء لم يخرجوا عن حدود المدح الا في القليل • وبعضهم جمع بين الدين والسياسة كعثمان بن سند فقد نظر هذا الى الوهابيين من زاوية الدين فشنع بهم ورماهم بالزيغ والضلال ، ونظر الى أعمال الدولة من زاوية التقرب والتعصب للسلطين والولاء فمدحهم وأثنى على أعمالهم المناهضة للحركات الوهابية ، وهو في الشق الاول يلتقى مع الكعبى والازرى ، وفي الشق الثانى يلتقى مع بقية الشعراء المداحين •
وشاعر واحد سار في ركاب الدعوة الوهابية وهو السيد عبدالجليل البصرى • وقد مر في الفصل ذاته ايضاح تاريخى لما رافق شعر عبدالجليل وفي ذلك الايضاح ما يكشف عن دوافعه التي لم تكن عن شعور صادق •
ومجمل ما يقال عن هذا الشعر سواء أكان ضد الوهابيين أم كان بجانبهم ليس فيه من المعانى ما يتناسب مع ذلك الاندفاع وتلك الكثرة المتنوعة

الصور ، وهو لا يستطيع أن يسجل موضوعا هاما في الشعر السياسي الا
يكونه جديدا في تاريخ الادب لانه ظهر بظهور الدعوة الوهابية ، وبكونه
يستطيع أن يؤلف مادة من مواد التاريخ الادبي الحديث ويساعد على دراسة
الحوادث الوهابية من حيث أثرها في العراق وصدائها في نفوس الشعراء •

ولا اريد أن استعيد شيئا منه في الدراسة الموضوعية فانه قد أخذ
نصيبه منها في أثناء العرض العام هناك • ولكنني أود أن أفف منه بعض
الملحظات في الدراسة الفنية لأرى ما له من نصيب ازاء الموضوعات الاخرى ،
وما لكل شاعر من حظ في الاداء والتعبير •

لقد كان هذا الشعر من الوجهة الفنية يتفاوت بين الوسط والضعيف
وليس فيه من الاداء اللفظي ما يسمو به الى مستوى الكثير من شعر الفصول
الاخرى لان الذين تناولوه لم يكونوا كلهم من طبقة المشاهير الذين ترددت
اسماؤهم في بقية الفصول ، فقد كان هؤلاء أربعة عشر شاعرا اثنان منهم تلاقيا
في الفكرة وتقاربا في الاسلوب وهما هاشم الكعبي ومحمد رضا الازري ،
ولكن هذين ليسا من مشاهير الشعراء ، وأربعة ترددت اسماؤهم في
الدراسات العامة وكان لهم شأن في البحث وهم عثمان بن سند البصرى
الوائلى وصالح التميمي والاخرس وابراهيم الطباطبائي وثلاثة يعدون في
الطبقة الوسطى وهم حسين الحكيم الحلبي وأحمد عزة ومحمد أمين
العمريان ، وثلاثة لم يكونوا سوى نظاميين وهم أبو الحسن كوثر وأحمد
رشدى والشيخ فليح ، وواحد مجهول الاسم ولكنه في عداد الطبقة
الوسطى ، والاخير هو السيد عبدالجليل البصرى الطباطبائي الذى سار
وحده في ركاب الدعوة الوهابية •

أما الكعبي فقد جاءت له قصيدة واحدة في حادثة كربلاء بدأها بمطلع
تقليدى النسخ وهو :

أنت الملووم فمن يكون الأموما فلك الظما هيهات معسول اللمي
واستمر بعد ذلك يسرد الحادثة ويحشد لها الالفاظ الحزينة الباكية
وكان في سرده يصعد مرة ويهبط اخرى ولكنه كان متماسكا بين الصعود

والهبوط وهذا التماسك ساعده على تضيق الفجوات الصوتية في سلم
الاداء • هبط في المقدمة :

يا سعد قف بي في المنازل ساعة نكي فربت عبرة تروى ظلما
وصعد في الوسط حين تحدث عن كربلاء :

فاذا الرزايا لا تزال بربعها فذا تطرق بالخطوب وتوأما
وتماسك في التحريض على الدفاع :

ان كان همك ليس الا بالبكا فتكون نائحة وتسمع مفرما
ثم صعد مباشرة :

فلم ادخرت من السيوف مصمما لكريهة ومن الرماح مقوما (٣٥)

واحسب ان هذا الصعود الصوتي انما جاء من التضعيف في بعض
الكلمات ، والتضعيف يكسب البناء متانة وقوة أما أن تعابيرها كانت تمثل
جانب التقليد فذلك شيء واضح • وأما الازرى فقد جاءت له ثلاث قصائد
لا يختلف اسلوبها التقليدي عن اسلوب الكعبى ، فقد كان الشاعر يتماسك
حيناً ويهبط حيناً آخر وقد يصعد في بعض الاحيان • تماسك في قوله :

فيا قائد الجيش العرمرم سحبه تظاهر عن ليل من النقع أليلا
ثم هبط بعد هذا البيت مباشرة :

الام وها ضاق الزمان بوافد يضح ولا ساح يجير ولا ولا (٣٦)
أما الصعود فقد جاء في قصيدته الثالثة وذلك في قوله وهو يهدد
خصومه :

وسرعان نزعها اليكم كتابا صواعقها بيض الظبي والعواسل
عليها من القتيان كل موحد أشم طويل الساعدين حلالحل

* * *

وساء صباح المنذرين اذا هوت صواعقها في أرضكم والزلازل (٣٧)
والسيد حسين الحكيم جاءت له قصيدة واحدة يدل مطلعها على ذخيرة

(٣٥) راجع ص ١٢٣ و ١٢٤ •

(٣٦) راجع ص ١٢٦ •

(٣٧) راجع ص ١٢٦ و ١٢٧ و ١٢٨ •

لفظية وجودة في الاختيار • وهو قوله يخاطب الكتخدا :

أفمت اعوجاج الملك بالسيف والعزم وشيدت ركنيه على مفرق النجم^(٣٨)
وأما عثمان بن سند فقد أكثر من النظم في هذه الحوادث ولكن ما
نظمه لا يدل على اصالة فنية ولا على شاعرية سمحة الاسلوب ، فان ذخيره
اللغوية التي عرف بها كانت تسنده في صحة التعابير وسلامتها من العيوب
ولكنها لم تسعفه في التسيق والانسجام • ومن ذلك قوله في حادثة الخيانة
التي وقعت في جيش الكتخدا :

أسلمتهم للنائبات رجال عن هدى الله للمطامع مالوا
واستحلوا مال الوزير وقالوا ان مال الوزير لله مال
أبطنوا الغش للوزير وراموا كل ما فيه للوزير اختلال^(٣٩)
فان الجنس بين (مالوا) و (مال) في قافيتين متاليتين ، وتكرار كلمة
(الوزير) أربع مرات في بيتين متالين أيضا ليس الا من طبيعة النظامين
المتكلفين لا الشعراء المجيدين •
وقوله في حادثة كربلاء :

سفك الدماء وظن أن صنيعه ينجيـــــــــــــــــه
ولقد تجاوز حده في كل ما يجنيه^(٤٠)
وهذان البيتان لم يخلوا من الجنس الذي جاء ناقصا في قافيتين
متابعتين •

ولكن ابن سند لم يفته الاداء الحسن في بعض ما نظمه كقوله في
مدح السلطان محمود :

أمطرت « عارضهم » بعارض بندق فجرى به وادبهم فدمرا
* * *

فتنافس الحرمان منك بعادل أمضى من الليث الهصور وأغيرا^(٤١)

(٣٨) راجع ص ١٢٨ •

(٣٩) راجع ص ١٣٠ و ١٣١ •

(٤٠) راجع ص ١٣١ •

(٤١) راجع ص ١٣٤ •

ولم يكن للتيمى غير بيتين أشرت الى قيمتهما الفنية فى مكانهما
هناك (٤٢) .

أما الآخرس فقد كان غير قليل النظم فى هذه الحوادث غير أن شعره
هذا لم يستطع أن يثب به الى السلم الذى وقف عنده فى موضوعات الحماسة
والشكوى والثورة النفسية . ولعله فى ذلك لم يكن متأثرا بالجو أو منفلا
مع الحوادث ، فقوله فى مدح الوالى مدحة :

سعدت نجد اذا وافيت نجدا بقدوم منك أقبالا وسعدا
أقبل الخير عليها كله منجزا فيك بلطف الله وعدا
وأراد الله أن يعصمها من شرار كادت الأشرار كيدا
من الشعر الوسط الذى لم يخل من ركة فى بعض الالفاظ التى لا
مكان لها فى سياق الأسلوب فقد وضع الشاعر (فى) الظرفية مكان (باء)
السببية فى البيت الثانى وجاء بكلمة (كيد) قافية فى البيت الثالث واستعمال
الثلاثى معتل الوسط بالواو أو بالياء لم يرد فى قوافى الشعر الاصيل .
وقد أعجزه التمحيص فى قوله :

اذ تصديت لأمر لم نجد قبل عليك له من يتصدى (٤٣)

فان استعمال المستقبل فى المعانى الماضية دليل على اضطراب الأزمنة
فى ذهن الشاعر وعدم تحديدها عنده وان كان من الممكن توجيه المعنى
توجيها مقبولا ، أما كلمة (عليك) فقد أقحمت فى البيت أقحاما ، ولكن
الآخرس لم يفقد شاعرته السمحة فى قصيدته التى مدح بها تقيب
البصرة اذ قال :

لقد كفى العسكر المنصور نائبة تجنو لها نوب الدنيا على الركب
وقومت كل معوج صوارمه وسكنت منذ وافى كل مضطرب (٤٤)

وقد دل الآخرس على ذكاء وفطنة فى البيت الاول اذ احترس بكلمة

(٤٢) راجع ص ١٣٤ .

(٤٣) راجع ص ١٣٥ .

(٤٤) راجع ص ١٣٧ .

(المنصور) لثلا يفسر كلامه تفسيراً ينسب فيه الضعف الى الجيش الذى ذهب الى الاحساء .

أما الشعراء الآخرون فلا حاجة للوقوف عندهم لانهم دون مستوى هؤلاء الذين استعرضت لهم بعض ما قالوا ولأن ما جاء لهم من الشعر لم يكن فى كفه الا مثل كيفه فقد كان طابع الاسفاف والانحدار الى المعانى العامية المبتذلة يغلب على شعرهم ولعل من أمثلة ذلك قول محمد أمين العمري وهو يخاطب الوالى (مدحة) :

فانعم ظل الله سيفاً مجوهرًا عليك به أنف الشقاوة تجدع^(٤٥)

فان نصب السيف هنا غير مستساغ واستعمال كلمة (الشقاوة) انما جاء من التأثير التركي فانها قد أطلقت فى هذا العصر على المجرمين واللصوص فى حين أنها ليست كذلك فى اللغة اذ هى نقيض السعادة .

ولكن واحدا ممن بقوا لا يجوز استناؤه من المتقدمين ولا يجوز حشره مع المتخلفين وهو السيد ابراهيم الطباطبائي فان هذا فى مقطوعته التى نظمها فى مدح السلطان عبدالعزيز لم يكن شاعراً كما كان فى كثير من قصائده القوية ، بل كان فى هذه المقطوعة ناظماً متكلفاً صعب القافية ، ولعل البيت الاول يكفى للدلالة على هذا الحكم ، وهو قوله :

أعز ملوكنا عبدالعزيز أذل عداه بالاسل العزيز^(٤٦)

ويخيل الى ان الذى ساق الشاعر الى هذه القافية الثقيلة اسم (عبدالعزيز) . أما الجنس فهو دليل آخر على التكلف والصناعة .

وأما السيد عبدالجليل البصرى شاعر الدعوة الوهابية من بين شعراء العراق فان دراسة شعره هنا لا تعنى أكثر من اعادة الرأى مرة ثانية فقد أخذ فى الفصل نفسه حفظه من هذه الدراسة . وكل ما يقال فيه هنا : انه

(٤٥) راجع ص ١٤٠ .

(٤٦) راجع ص ١٤١ .

من طبقة النظامين الضعفاء ، ويكفي أن نستدل على ذلك بقوله :
تباركت يا مولى الملوك الاعظم
و (عزيت) يا مبدى الجميل وراحمي (٤٧)

وقد ذكرت في مكان البيت هناك ان الشاعر قلب (الزاي) ياء في
الفعل (عزز) لان الشاعر لم يسلم من تأثير العامية •
وقوله في قصيدة اخرى موجهة الى فيصل بن تركي :
وأنتهى اليك الحال مذ غبت غالنا بغيبتك الدهر العبوس على عمد (٤٨)

الشعر بين الحس العربي والشكوى :

في هذا الشعر من الخصائص الموضوعية ما يسمو به الى حد بعيد
غير أن هذه الخصائص لم تتوفر لكل شاعر من شعراء هذا الموضوع لانهم
سلكوا فيه مسالك مختلفة وان كانت كلها تلتقى عند نقطة التذمر من الحياة
والشكوى من الضيم والذل ، وقد رافق هؤلاء الشعراء جميعا قلق نفسي
واضح ظهر في كثير من الصور الشاكية المتألمة ، وليس لهذا القلق النفسي
من سبب غير اضطراب السياسة وتفكك المجتمع وعدم الاستقرار
والاطمئنان ، وضيق مسالك العيش الكريم ، وقد كان هذا كله من بواعت
الاتفاضات الحادة التي تجاوب في معظمها اسلوب التعبير مع ثورة النفس •
وقد أوضحت في مقدمة الفصل نفسه جانباً كبيراً من طريقة العرض التي
سلكها الشعراء في تصوير الظلم والذل ، واضيف الى ذلك ان كثيراً من هذا
الشعر كان يفقد عنصر الحرية التامة ويقف عند حدود الذات ، ذات الشاعر
وشخصيته دون أن يتجاوزها الى المظهر العام أو يلمس الحقائق في صورها
وأسبابها • وعنصر الحرية النفسية عامل هام في معالجة المفاصد السياسية
 والاجتماعية ونقد الاساليب المعوجة ، وقد مر أن شعراء العراق كانوا
مأخوذين بتيار الحكم ومدفعين في ركاب الدولة الاسلامية ، وكانوا بعيدين

(٤٧) راجع ص ١٤٣ •

(٤٨) راجع ص ١٤٧ •

عن آفاق التطور التي أتيح لغيرهم أن يدرك مداها القريب والبعيد ، وبتأثير ذلك كله اضطرب شعراء العراق بين الخوف من السياسة وبين الجمود العقلي فلم تتطور عندهم حرية النفس الى الصراحة والجرأة ، بل وقفوا عند حدود الشكوى والالام وترديد كلمات الذل والضييم والتهديد بحمل السلاح وخوض المعارك ولكنهم لم يشيروا الى مصدر الذل والضييم الا القليل منهم ممن بلغ به التذمر درجة لا يستطيع معها كبت الانفجار ، وهذا القليل لا يصور الا جزءا يسيرا من مفاصد الحكم الذي طغى واستشرى ، وأود أن أشير في مقدمة هذه الدراسة الى أبرز الصور التي يمكن أن تعد من الشعر السياسي الواضح في نوره على الظلم والمساوىء لأدل على أهم ما في هذا الشعر من موضوعية أخذت حظها من حرية الانطلاق وان كانت في خطرات قليلة .

لقد كان الاخرس من أكثر الشعراء ألما وشكوى ، وأقدرهم تصويرا لذلك الالم وتلك الشكوى حتى ليكاد يفعل معه ويستجيب له كل من يقف على تاريخ القرن التاسع عشر في العراق ، ولكنه كان يطل من نافذة ضيقة فلا يعرف من السخط غير ذم الحياة وبغداد والعراق والسكان ، وغير التعبير عن ألمه الناشء من تجهم الحياة في وجهه والتواء طرق المعيشة أمامه ، وتقل لسانه الذي قد يكون عاملا نفسيا آخر ، غير أن لهذا الشاعر بعض الوثبات العامة التي لم تقف عند حدود الذات ، ومن ذلك قوله :

بلد كيار ملوكة بقصر صاروا ولاية النهى والأمر (٤٩)

فان هذا البيت صورة صادقة للحكم في بغداد آنذاك ، وليس فيه الا الواقع الذي لا ينكر ، ومن ذا ينكر أن الكثيرين من الولاة والحكام والموظفين كانوا جهلة حمقى واذا لم يكن كل ذلك فيهم فهم - على الأقل - ليسوا من جنس الحكوميين .

ولقد وقف الاخرس وقفات اخرى ليس فيها صراحة هذا البيت

(٤٩) راجع ص ١٥٨ .

ولكنها تنطوى على فكرة قوية وتجربة حادة توحى بما كان يحسن به الشاعر من ظلم وذل ، كقوله :

ألم يحزن الآبى نفوس تطامنت وفاخر رأس القوم فيه ذنابه
وأعظم بها دهباء وهى عظيمة اذا اكتنف الضرغام بالذل غابه
متى ينجلي هذا الظلام الذى أرى ويكشف عن وجه الصباح نقابه (٥٠) ؟
لعل أى واقعى من الشعراء لا يأتى بأكثر من هذا التصوير للذل الذى
خضع له حتى رؤوس القوم • ولعل أى واقعى يتساءل عن نهاية الظلم
لا يتجاوز حدود استفهام الأخرس ، ولكن الشاعر - كما قلت - لم يكن
فيلسوفاً مفكراً يتناول الأشياء بمظاهرها العامة ويتعمق فى جذورها وعناصرها
ويشرح أسبابها وبواعثها لان ذلك يحتاج الى حرية تامة ، تدفع الى التحليل
والعلاج من كل النواحي •

ومثل الأخرس فى ضيق النافذة غيره من الشعراء ، وهم مثله أيضاً فى
قلة الخطرات الجريئة ، فالسيد صالح القزوينى كان صريحاً فى بيت واحد ،
وكان فى هذا البيت أكثر صراحة من الأخرس ولكنه لم يكن قوى الانفعال
مثله ، أما البيت فهو :

وكم لملوك الترك هتك لحرمة

لأهل النهى ، والغدر من شيم الترك (٥١)

والفرق بين الشاعرين ان الأخرس كان يعنيه ما يجرى فى العراق أو
فى بغداد على الأقل ولا يهمه شأن الترك فى أى مكان آخر أما القزوينى
فانه لم يجعل للقضية سورا - على حد تعبير المناطق - بل جعلها مطلقة
تشمل جميع الترك فى هذا الحكم الذى رآه وهو انهم هاتكون غادرون ،
ولكن القزوينى لا يفقد العذر أو الدليل على حكمه لانه ابن بيته التى عاش
فيها وشهد مراحل الحكم عشرات السنين ، فلم ير من الترك فى العراق
غير ما عبر عنه فى هذا البيت •

(٥٠) راجع ص ١٥٨ •

(٥١) راجع ص ١٧٧ •

وأحمد الشاوي كان جريئاً صريحاً إلا أنه كان مقتصدًا فلم تكن ثورته الواقعية إلا في لحظة خاطفة ولكنها من أخطر اللحظات في حركة الشعور ، وكانت الصورة التي رسمها أشبه شيء بالمسمة التوهججة بين المعادن الأخرى ولكي تسلم لهذا التشبيه قوته أعيد تلك الصورة وهي :

امخترمي ريب المنون ولم اكن
لادرك للاسلام ثأراً من الشرك

وابرد من صهب العنانين غلتي
واشفي واستشفي بسيفي من الترك^(٥٢)

ولكن الشاوي لم يوضح الأسباب التي دعتة الى هذه الثورة على الترك وريمهم بالشرك - وهم مسلمون - ولم يبين لنا لماذا يتمنى أن يبرد غلته منهم بالسيف ، فقد يكون مسوقاً بثورة نفسية في حدود ذاته وشخصه ، والواقع اننا لا نطالب الشاعر بأكثر من هذا ما دمتنا قد عرفنا تاريخ الحكم العثماني في العراق ، وما دمتنا قد ألمنا بمكانة أسرة الشاوي في بغداد وطموح هذه الأسرة الى أكثر من الوظائف الصغيرة المذلة .

أما عبدالغني الجميل فقد كان أكثر الشعراء تصويراً للحالة السياسية العامة في العراق والخاصة في بغداد ، وكان جريئاً في ثورته على الظلم صريحاً في قوميته . ولم تكن الصور التي رسمها من الصور القليلة العابرة ، ولا العدسة التي كان يلتقط بها مهزوزة أو مضطربة غير أن تركيزه لتلك العدسة لم يشمل كل الزوايا والابعاد فقد كان متدمراً من الحياة ساخطاً على أهل بغداد لانهم ساكنون خانعون ، وكان مليئاً بالاحساس العربي في نخوته واستهائضه ، وكان غير قليل الحظ من تصوير الظلم والمآسي إلا أنه لم يجرؤ على مخاطبة الأتراك وجها لوجه أو بشرح أسباب ثورته شرحاً واضحاً وأحسب أن قوله :

فخيرهم للاجنبي وقبحهم
على بعضهم بعضاً يعدونه حسناً

(٥٢) راجع ص ١٧٨ .

هو البيت الوحيد الذي أشار الى تباين العناصر في العراق واختلاف الاجناس ومنها العنصر الحاكم الذي لا يمت الى العراق بصلة • اما أنه كان معبرا في أكثر من نطاق الذاتية فذلك شيء واضح في شعره • واما أنه من الركائز الرصينة في بناء الشعر القومي فذلك أيضا لا يحتاج الى دليل اذا رجعنا الى قصائده ، وليس أشد حسا بالقومية ابان القرن التاسع عشر من قوله :

الا غيرة تدعو الصريخ اذا دعا
 الا رافع عن قومه بغى ظالم
 الا مبلغ غني سراة بني الوغى
 ليوم عبوس شره يوقظ الوسنى
 اذا فقدوا في الحرب من ينطح القرنا
 واقبال عرب كيف صبرهم عنا^(٥٣) ؟
 ومن قوله :

أهم ومالي من مسعد
 فأين سراة بني هاشم
 انادى ومالي من سامع
 الى كم - نراعى الخسيس الدنيء
 فما لي في الكرخ من مسكن
 وقومي كسالى ودائى الهرم
 ومن لعظام الاعادى هشم
 وهل يسمع القول من فى صمم
 ونرعى له حرمة كالحرم
 ولا فى الرصافة مأوى العجم^(٥٤)
 وقوله :

وما ساد فى أرض العراقين ماجد
 متى يلثم اللبائ رمحى وترتوى
 وحولى رجال من معد ويعرب
 من الناس الا قدمها ورذيلها
 سيوف بأغناق المطى صليلها
 مصاليت للحرب العوان قبيلها^(٥٥)

أما قصيدته التى يقول فى أولها :

لهفى على بغداد من بلدة
 قد عشعش العز بها ثم طار^(٥٦)

(٥٣) راجع ص ١٧٠

(٥٤) راجع ص ١٧١

(٥٥) راجع ص ١٧٣

(٥٦) راجع ص ١٧٤ و ١٧٥

من أخذ الصور في وصف بغداد الخاضعة الذليلة .
ولعل من الحسن أن أفق عند قصيدة العمري التي يقول في أولها :
قد استحال العراق مفسدة ليس سوى ضرب السيف يصلحها
وأهله كالانعام عاث بها أذوبة والكلاب تنبحها (٥٧)
فإن هذه القصيدة - على ما فيها من قلة الصراحة والجرأة - ذات
مغزى بعيد في تصوير السياسة الخرقاء .

غير أن الزهاوى كان أوسع الشعراء افقا وأعمق نظرة ، وقصيدته
بداية التجديد في الشعر السياسي ، ولكن اقحام الزهاوى بين شعراء القرن
التاسع عشر لم يأت الا لأن القصيدة قد ولدت في أواخر ذلك القرن .
هذه هي أهم الخطرات الدالة على حس سياسي وشعور قومي وطني ،
وإدراك واع لثقل الوطأة التركية في العراق ، أما بقية الشعر فإنها تعبير عن
آلام ذاتية ، ولكنها في كل صورها تشير الى الذل والضم وتدعو لحمل
السلاح وخوض المعارك ، وهي في كل ألوانها لا تفقد المغزى السليم الذي
ترمي اليه ، لان احساس الشاعر جزء من احساس مجتمعه ولاسيما اذا كان
ألمه ناشئا من ضيق الحياة وفساد الاحوال العامة .

وانى لاحسب - بعد هذه الدراسة - أن الشعر الذي جاء في هذا
الفصل أقرب ما يكون الى الواقع منه الى أى شيء آخر ، وأصدق انفعالا
وعاطفة من الفصلين الاول والرابع ، ولكنه أعم من الفصل الثالث الذي
يكاد يكون جزء منه في تصوير الظلم وقسوة الولاة والموظفين .

أما الفنية في هذا الشعر فإنها هي الاخرى كانت تختلف باختلاف
القابليات والملكات اللغوية ، فهي في شعر الاخرس فنية مطاوعة منسجمة
مع الاداء الحسي في كثير من الصور ، وهي أمينة الى حد كبير في نقل
التجربة الشعورية الى الاطار الخارجي ، ولكن هذه الفنية لم تخرج عن
حدود الاسلوب القديم المصنوع من بقايا الميراث وان كان الصنع جميلا ملونا
بعض الالوان الزاهية .

(٥٧) راجع ص ١٧٦ .

غير أن الذى يلاحظ فى شعر الآخرس ما فى الصور من تشابه وتكرار لان هذا الشاعر قد يعيش فى ظلال التجربة الواحدة زمتا غير قليل وقد يقف عددها أكثر من موقف واحد فلا يكفى منها برسم صورة واحدة بل كانت عاطفته التى تثوب وترجع الى ما كانت عليه تدفعه الى رسم الصور المتعددة لتلك التجربة ، وهذا التعدد جعله يكرر الالفاظ والتعابير أكثر من مرة ومن ذلك قوله :

وبنات أفكار لنا عربية لا يرتضين سوى الكرام بعولا^(٥٨)

فقد تكررت هذه الصورة فى قوله :

وبنات أفكار لنا عربية رخصت لدى الاعجم وهى غوالى^(٥٩)

وقوله أيضا :

ولم أرد مورد عذب شابه ضيم رأى تكديره لما صفا^(٦٠)

فقد كرر هذه الصورة بقوله :

ولو كنت ممن يشرب الماء بالقذى رويت وفى رى الذليل غليل^(٦١)

وقوله أيضا :

ولست مقيما ما أقمت بمنزل وعيشي أنكاد تسوء وأنكال^(٦٢)

ومثل هذا قوله :

تأبى المروءة أن أرانى واقفا فى موقف يدع العزيز ذليلا^(٦٣)

ومثله أيضا :

عجبا لمتلى أن يقيم بموطن متشابه الاشراف بالانذال^(٦٤)

(٥٨) راجع ص ١٥٦ .

(٥٩) راجع ص ١٥٩ .

(٦٠) راجع (الطراز الانفس) ص ٢٨ .

(٦١) راجع ص ١٥٧ .

(٦٢) راجع ص ١٥٢ و ١٥٣ .

(٦٣) راجع ص ١٥٦ .

(٦٤) راجع ص ١٥٩ .

على أن هذه الخاطرة التي كررها الاخرس وترددت بكثرة في شعر
الآخرين لا تعدو فكرة الشريف الرضى حين قال :

وما العيش عندي الا الأباء وبعدى عن المنزل المستباح^(٦٥)
وقد يستعير الاخرس معانيه وألفاظه من شاعر آخر ولكنها استعارة
ضعيفة مشلولة الحركة الى جانب المستعار منه ، كقوله :

وادفع الشر ان علمت بشر ربما يدفع السقام السقام
وتقلد بالرأى قبل المواضى ليس يجدى بغير رأى حسام^(٦٦)
فقد أخذ هذين البيتين من المتنبي ، أما الاول فمن قوله :

لعل عتبك محمود عواقبه فربما صحت الاجسام بالعلل
وأما الثاني فمن قوله :

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني^(٦٧)
وأقف عند شاعر آخر من شعراء القومية وهو عبدالغنى الجميل ، فان
هذا الشاعر على الرغم من وثباته الشعورية كان في أدائه اللفظي قد يسف
بعض الاحيان ، وقد يتهاون باللغة وقواعدها ولكن بقلّة نادرة ، ومن أمثلة
ذلك قوله :

وقد بدلوا الغالى الذى تعرفونه بصفقة غبن لا تقيس بها غبنا
فان النفى فى قوله : (لا تقيس) ضعيف جدا ، والمناسب النهى لانه
أقرب الى ادراك الاديب •
وقوله :

الا نخوة منهم فيصحوا الى التى أيادى سبا قد غادرت ذلك المغنى
والمشهور أيدي سبا ، لان (أيادى) جمع يد التى هى بمعنى النعمة •
وقوله :

الا مبلغ عنى سراة بنى الوغى وأقبال عرب كيف صبرهم عنا

(٦٥) راجع ديوان الشريف الرضى ص ١٩٢ طبعة بيروت •

(٦٦) ص ١٥٣ •

(٦٧) راجع ديوان المتنبي •

فان تنكير عرب قد أضعف البيت •
وقوله :

طوبنا عن الزوراء لادردها بساطاً متى ينشر يعدونه طعنا (٦٨)
فقد رفع جواب الشرط على القاعدة الضعيفة •
وقوله :

وأين الكماة الحماة الدعاة اذا شب نار الوغى واضطرم (٦٩)
فانه حذف تاء التأنيث من فعل (اضطرم) في حين أن الفاعل ضمير
يعود الى مؤنث •

ثورة الشعر في ظل العقيدة :

العقيدة جزء هام في حياة المرء لانها هي التي توجه العواطف والرغبات
وتؤثر في العمل والسلوك ولاسيما بين الطبقات المتدنية •

وشعراء هذا الفصل ممن كان للعقيدة شأن عندهم لانها غرست في
قلوبهم منذ الصغر ثم نمت وترعرعت في أحضان البيئة ورسخت عن طريق
الدراسة الدينية ، ولهذا كان شعرهم في ظل هذه العقيدة شعراً يمثل
صدق العاطفة والشعور •

وليست قيمة هذا الشعر فيما يتصل بالعقيدة حسب - وان كان ذلك
في مناهج التاريخ الأدبي وفي دراسة العقائد شيئاً هاماً - وانما قيمة هذا
الشعر أيضاً فيما يتصل بالسياسة التي أثرت فيه فأخرجته من النواحي الدينية
الخالصة الى الثورة على الظلم • ولكن أكثر الذين تاروا عن طريق العقيدة
كانت آفاقهم ضيقة في تناول السياسة ، وهم في ذلك لا يعدون ما نظمه
بعضهم في النواحي القومية العامة أو ما قاله الكثيرون من شعراء القومية فلا
انطلاق ولا حرية في التعبير ولا أسماء ولا أشخاص سوى الضمائر المهمة

• (٦٨) ص ١٧٠

• (٦٩) ص ١٧١

التي كثر ترددها في مختلف الصور !! ولعل ذلك ناشئ من الخوف وما يتصوره الشاعر أو يخشاه من بطش وتنكيل .

ومهما يكن من شيء في هذا الشعر فإنه لا يمكن أن يفصل شأنه في خطر الموضوع وبعد الاتجاه لان أخيلة الشعراء وآمالهم في قيام دولة عادلة ليست شيئاً هيناً في الموضوعات السياسية المناوئة . أما استنهاض المهدي فلم يكن الا اطاراً للصورة الثائرة وطاقة يستمد منها الشاعر قوة الاندفاع والاستمرار .

ولعل من أوضح الامثلة على انتظار الدولة العادلة وزوال دولة الفساد قول السيد صالح القزويني وهو يتخيل نداء جبرائيل واعلانه البشري بأن قد :

أقبلت دولة الرشاد وزالت عنكم دولة الفساد زوالاً (٧٠)
فان هذا البيت في تفسيره الصحيح مصدر من مصادر التاريخ في وصف الدولة العثمانية ، وقد مر لهذا الشاعر قوله :

وكم لملوك الترك هتك لحرمة لأهل النهى والغدر من شيم الترك
وإذا كان هذا الشاعر قد نسب الغدر وهتك الحرم الى الترك فإن من غير المستبعد عليه أن يسمى الدولة العثمانية دولة الفساد .

أما أنه كان شاعراً بوطأة الظلم فذلك واضح من قوله :
نمارس منهم كل يوم شدائدنا لها بين أحناء الضلوع مقابس (٧١)

ومثل القزويني في النظرة الى الخلافة العثمانية الشيخ صالح الكواز فإنه لم يعترف بها لهؤلاء ، وذلك في قوله مخاطباً المهدي :

فقم طالبا حق الخلافة معلماً فها هي في ايدي العدى تلتقف
وهذا لواء المسلمين بزعمهم على رأس أشقى العالمين يرفرف
وهذان البيتان صريحان في تسجيل اتجاه بعض الشعراء ونظرتهم الى

• (٧٠) ص ١٨٧

• (٧١) ص ١٨٩

الدولة العثمانية نظرة لا ترضى اعتقادها بأنها وارثة الخلافة الاسلامية في حين أنها في رأى الكواز لم تكن الا غاصبة *

وقد فسر الكواز جانباً من ثورته وعلل أسبابها بانتشار الظلم وضياع حقوق المظلومين :

دعوتك للمظلوم ضاعت حقوقه وليس له من عصبة الجور منصف

وهذا البيت صريح في وصف الظلم والجور ولكن الشاعر كان يضغط على حريته النفسية ضغطاً شديداً فلم يجرؤ على ذكر اسم من أسماء رجال الدولة والولاة الحاكمين بل اكتفى بالضمائر كما فعل القزويني *

وفي شعر الكواز لمسة قومية لا ترى في العثمانيين من يصلح لحكم العراق لانه بلد معظم سكانه من العرب :

أيملك أمر العرب من لا أباً له ولم ينمه منهم نزار وخندق (٧٢)

غير أن الكواز كان يستمد هذا الشعور من عقيدته التي كانت لا ترى

الخلافة الا في بني هاشم *

وممن لاذ بالضمائر ولم يصرح الشيخ حسن قفطان ، ولكنه استطاع أن يرسم بعض خطوط الظلم ويساعد على صدق التاريخ فيما وصف به الاتراك ، وذلك بقوله :

أعزاء فينا نرتضيهم ، واننا اذلاء فيهم ، تلك قسمة اجبار !!
دعوا حرنا رقاً لهم فمتى نرى عليهم سمات الذل رقاً لأحرار ؟
سجا ليلنا جوراً ولم يعترض به من العدل فجر مستبد باسفار (٧٣)

والسيد حيدر الحلبي كان ثائراً عنيف الثورة منفعلاً أشد الانفعال وكان شعوره بفداحة الظلم مندفعاً أشد الاندفاع ولكنه لم يجرؤ على مواجهة الحاكمين والتصریح باسمائهم بل اكتفى بالضمائر وأسماء الاشارة كما في قوله :

(٧٢) ص ١٨٦ *

(٧٣) ص ١٩٠ *

أصبرا وهذى تيوس الضلا ل قد أمنت شفرة الجازر ؟
نرى سيف أولهم منتضى على هامنا بيد الآخر
وفيه يسوموننا خطة بها ليس يرضى سوى الكافر
فنشكو اليهم ولا يعطفون كشكوى العقيرة للعافر^(٧٤)

ومثله السيد محمد القزويني اذ قال :

فطبق ظلمهم الخافقين وعم على سهلها والحزن
ولكن في هذا الشعر بيتا واحدا له أهميته في التاريخ السياسي لانه
سجل ظاهرة عامة من ظواهر الحكم التركي وهي ظاهرة الرشوة ، أما البيت
فلسيد ابراهيم الطباطبائي وهو قوله :

بلد به يرشى علانية والمرشى هو حاكم البلد^(٧٥)

واذا عرفنا أن البلد هو مدينة النجف المقدسة التي كانت تعيش على
الخيرات والهبات ، وان هذه المدينة لم تسلم من الحكام المرتشين أدركنا
خطر الرشوة في العراق وشيوعها بين الموظفين ، وأظن هذا البيت من
الاشعة القليلة التي تلمس على ضوئها خطوط الحكم العثماني في العراق
ونظرة الحاكمين الى السكان .

أما الاساليب التي تناولت هذا الموضوع فانها لم تختلف بأية حال عن
أساليب الشعر القديم ولكنها كانت أساليب مطاوعة منسجمة وليس فيها تكلف
أو ضعف يقصر عن التساوق مع الفكرة . وسبب هذا أن الشعراء الذين
مارسوا هذه التجارب كانت ملكة التعبير عندهم على جانب غير قليل من
القوة ، ولكنهم لم يكونوا جميعا متساويين في هذه القوة اذ كان بعضهم
أقدر من بعض على رسم التجربة ولعل الكواز والسيد حيدر الحلبي والسيد
محمد القزويني في الطليعة من هؤلاء .

• (٧٤) ص ١٩٤

• (٧٥) ص ٢٠١

الشعر في ركاب الدولة :

أما هذا الفصل - على ما فيه من تنوع كثير تبعاً للحوادث والمناسبات والوقائع - فإنه من الوجهة الموضوعية ليس فيه ما يثير الانتباه سوى تسجيله تلك الحروب والحوادث والوقائع ، وسوى أنه مادة من مواد التاريخ تصلح للاستعانة على تفسير بعض الجوانب السياسية في العراق ، ولذلك يمكن أن يقال عنه : أنه من الأدلة الحاسمة على صدق الثورة عند الشعراء في الفصلين الثاني والثالث بما سجل من حروب وثورات داخلية كانت نتيجة لفساد الحكم ، وطغيان الجور ، وإن لم يكن هذا التسجيل مما كان يقصده الشعراء أو يهدفون إليه لأنهم في الواقع لم يحاولوا غير المدح ولم يفكروا بغير الزلفى والتقرب وارضاء الحاكمين ، شأنهم في ذلك شأن من سبقهم من الشعراء .

ولقد كان من الهين لو أنهم وقفوا عند حدود المدح ولكنهم أسرفوا في تشجيع القوى المناهضة لكل حركة وثورة ، ونشطوا مع الحكم نشاطاً كبيراً ، ولم يكونوا في ذلك كاله امرأة لانفسهم وللدولة التي ساروا في ركابها والزعماء ورجال الدين الذين كانوا مماليين للحكم والولاية .

أما في غير الحوادث والحروب فلم يكن شعرهم إلا مدحاً كاذباً لا عاطفة فيه ولا صدق ولا حس ولا انفعال ، وكيف يأتي الصدق في هذا الشعر الذي كان يعد لاستقبال وال وتوديع آخر ؟

وإذا جردنا هذا الشعر من ناحيته التاريخية وكونه نافذة من النوافذ التي يطل منها المؤرخ على الحياة العامة في العراق فإنه من أسوأ الموضوعات التي تناولها الشعراء ، وبخاصة تلك القصائد التي اندفع بها الشعراء أيام داود وعلي رضا ومحمد نجيب ومحمد نامق .

هذا هو الشعر المماليء للحكم في موضوعه وفكرته ، أما في أسلوبه وفنيته فقد كان الكثير منه تقليداً تزخرفه الصنعة بلا مهارة ويلونه البديع

بلا دقة ، وتكثر فيه المبالغات ويصعد به التهويل الى حد يجعل من المدوح
عملاقاً جباراً •

ومن المبالغات الكاذبة في هذا الشعر قول عثمان بن سند في
السلطان محمود :

سل عنه دمعا سافحا والليل مسدول الكلل
وقول الاخرس في السلطان عبدالعزيز :

يقضى النهار بأحكام يدبرها رأيا ويتلو بجنح الليل قرآنا
وقول السيد جعفر الحلي في السلطان عبدالحميد :

دول الممالك طأطأت لك هامها قدها فقد ألفت اليك زمامها
غير أن من المبالغات ما يكون جميل الصياغة عذب اللفاظ كقول
الآخرس في مدح الوالي داود بعد أن نفى الى الأستانة :

وكت اذا طاشت سهام قسيها وقتني الردى من صنع داود أدرع
وقول الشيخ صالح التميمي في مدح علي رضا عندما استولى
على أربيل :

لا ترو عن فتح عمورية خبرا ففتح أربيل ما أبقى لها اثرا
وقول الزهاوى في مدح الوالي عاصم :
وكيف أخاف الدهر أو أرهب الردى
وقد لذت من صرف الزمان بعاصم

ولقد كان هذا الشعر لا يخلو من صور فنية جميلة في معانيها وأخيلتها
وموسيقاها ، ومن ذلك قول التميمي في مدح علي رضا عندما صد قبيلة عنزة
عن محاصرة بغداد :

سلوا حتى بكر أين قوض وائله وفي أى أقطار تولت قبائله (٧٦)
تجافت عن القيصوم شوقا لباسق من النخل طعم النحل حين يشاكلة

(٧٦) ص ٢٢٨ •

ففى البيت الثانى حركة ولون وطعم ، حركة القبائل وهى تتردد بين البادية والفرات ، ولون القيصوم والنخل والتحل ، وطعم العسل والتمر . أما الخيال فقد امتد الى مسافات بعيدة فى رسم هذه الصورة اذ استطاع بيت واحد أن ينقلنا الى البادية حيث منابت القيصوم ثم يعود بنا الى شواطئ الفرات حيث مشابك النخل ، ويحملنا بعد ذلك الى الشمال حيث تكثر خلايا النحل . ولولا الجنس الناقص بين النخل والتحل ، ووضع كلمة (طعم) مكان (أرى) ، ولولا قرب الخاء والحاء المكررة فى الشطر الثانى وهى من الأصوات التى لا تأتلف فى حركة ايقاعية واحدة لكان البيت فى القمة من الشعر العربى الصافى .

تكرار الصور :

اذا كان من غير المستغرب أن يتسلف شاعر من غيره معنى أو تعبيراً فإن بعض الشعراء كان يكرر ما ينظمه هو فى أمكنة مختلفة ومن ذلك قول الأخرس فى الوالى محمد نجيب عندما قمع ثورة كربلاء :

محا البغى صمصام الوزير كما محا دجى الليل فى أضوائه مطلع الفجر^(٧٧)

فقد كرر هذه الصورة فى مدح المشير المجهول^(٧٨) اذ قال :

تمحق الباغين عن آخرهم مثلما يمحو الدجى الصبح المنير^(٧٩)

ومن ذلك قول السيد جعفر الحلى فى السلطان عبدالحميد :

دول الممالك طأطأت لك هامها قدما فقد ألفت اليك زمامها^(٨٠)

فقد كرر هذه الصورة فى مدح هذا السلطان أيضاً فقال :

لك طأطأت دول الضلال رقابها قدما فسيفك قد أذل صغابها

(٧٧) ص ٢٤٣ .

(٧٨) لقد مر فى الفصل نفسه ترجيح الوالى مدحة على غيره ، وبيان

أسباب الترجيح .

(٧٩) ص ٢٤٧ .

(٨٠) ص ٢١٤ .

أما الإخذ من الشعراء الأقدمين فقد كان بابه مفتوحا لهؤلاء الشعراء
ومن أمثلة ذلك قول الأخرس في السلطان عبدالعزيز :
خليفة الله في الأقطار محترم ان العزيز عزيز حيثما كانا^(٨١)
أخذه من قول المتنبي :
وهكذا كنت في أهلى وفى وطنى ان النفيس غريب حيثما كانا^(٨٢)

الركعة :

لم يخل هذا الشعر من بعض الأبيات المسرفة في الركعة والضعف
ومن ذلك قول محمد الغلامى في يحيى الجليلي :
خير بتذليل الطغاة فلم تزل صوارمه للمارقين تدوخ^(٨٣)
وقول عبد الجليل البصرى في السلطان محمود :
جد لى وأطلق أسر نخلى من أذى الـ . . . ميرى معافى لم يزل كمؤبد
وقد قلت عن هذا الشاعر انه من أضعف الشعراء أداءا ، وبيته هذا
لا يخلو من الكلمات العامية فكلمة (ميرى) بمعنى الضربة الاميرية ، وكلمة
(معافى) عامية محرقة عن (معفو) .

ومن ذلك قول الأخرس في المشير المجهول :
عدت منصورا بجند ظافر وجناب الحق مولانا النصير^(٨٤)
وكلمة (جناب) جاءت في البيت على غرار تعابير الدولة ورجال
الدين ، ولم يرد في الشعر العربى أن يعبر عن لفظ الجلالة بجناب الحق .
وهذه الأبيات التى عرضتها ليست كل ما وجد من ضعف في هذا
الشعر ولكنها أمثلة للضعف .

(٨١) ص ٢١١ .

(٨٢) راجع ديوان المتنبي .

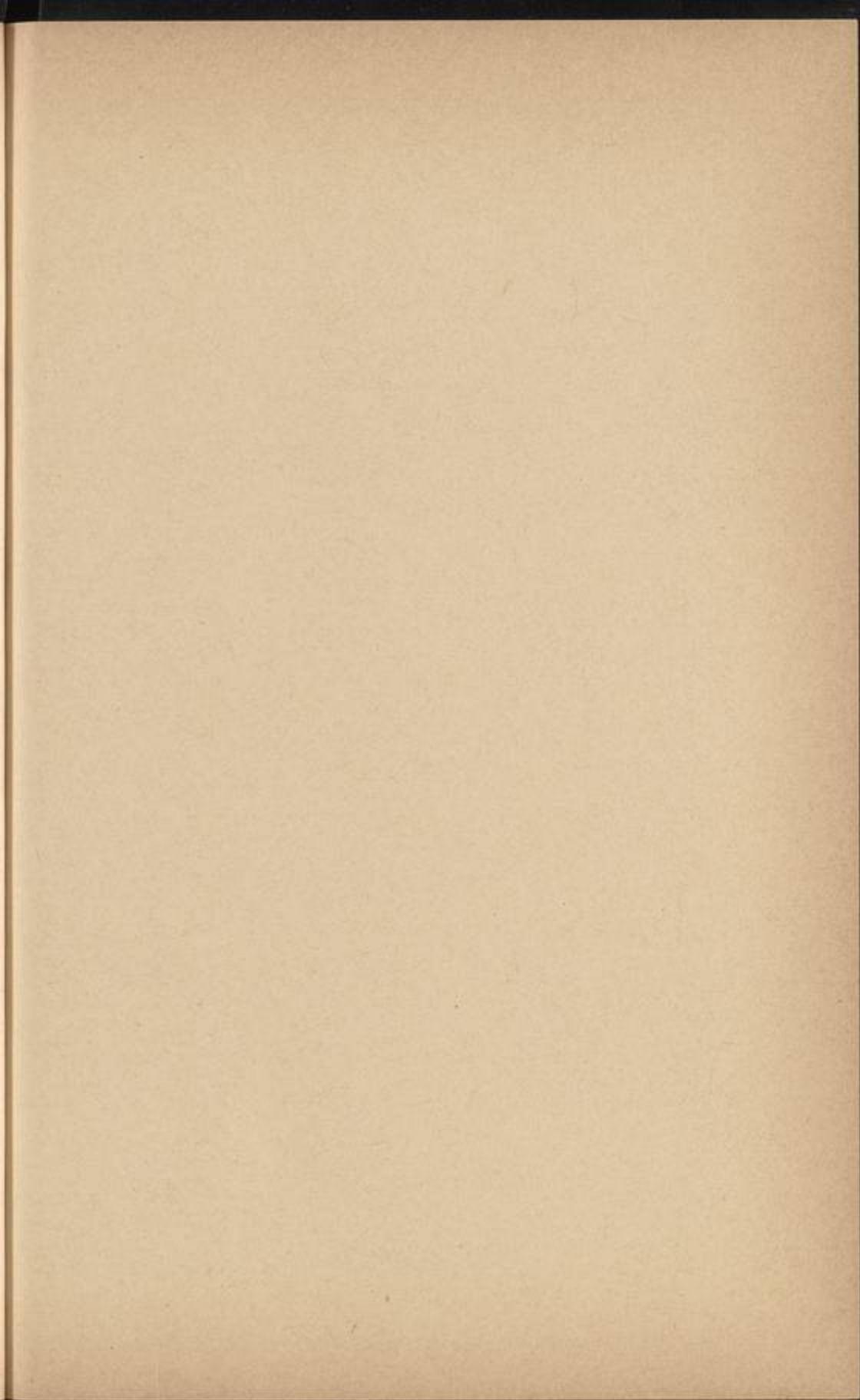
(٨٣) ص ٢٥٢ .

(٨٤) ص ٢٤٧ .

أما الكلمات الجديدة التي عثرت بها في هذا الشعر فهي كلمة
(مدفع) و (تلفراف) •

نظرة موجزة :

ان هذه الفصول الاربعة من الشعر يمكن أن تكون قسمين من حيث
التقارب في الموضوعات ، فالفصلان الاول والرابع متشابهان في الاهداف
التي كانت توجه الى ما يرضى الحاكمين ، والفصلان الثاني والثالث متشابهان
أيضا في الاهداف التي كانت توجه الى تصوير الظلم ، هناك مدح واسترضاء ،
وهنا ثورة وألم وسخط •



خاتمة

انتهى بي المطاف عند بداية القرن العشرين بعد أن امتد طيلة القرن التاسع عشر وقد تناولت في هذا التطواف شعر العراق حسب ووقفت من هذا الشعر عند موضوع واحد وهو الموضوع السياسي فقط فدرسته في أهم نواحيه وأغراضه وربطته بكثير من موحياته ودوافعه ونظرت إليه في أسلوبه وتعبيره كما نظرت إليه في موضوعه وأعطيت الناحيتين ما أستطيع من الحق في الدراسة والتحليل والنقد *

وإذا كان لابد من عرض موجز لقيمة الدراسة في هذا الموضوع ومقدار أهمية الفصول التي سجلت من تاريخ للسياسة أو وصف للمجتمع أو تصوير للحالة العلمية أو دراسة للشعر السياسي موضوع البحث فإن تناول هذا الجانب لا يعينني من الاعتراف بما لى وما على واعترافى بما على لا يتجاوز الفصل السياسي فأنى لم أعمل فيه أكثر من الاستقصاء والتتبع والاطلاع على المراجع الموثوق بها والالمام بما يهم البحث من عناصر ومواد ثم جمع هذه العناصر والمواد ووضع كل منها في مكانه وقد راعيت في ذلك كله تتابع الزمن وتسلسل التاريخ والحوادث *

ولكن هذا لا يعينني أيضا من أن أدل على مواطن الجهد المتعب في استقصاء المراجع من أجنبي وعربي ومن مطبوع ومخطوط * ولعل أهمية هذا الفصل تتجلى في ربطه بالشعر السياسي لانه مفتاح الدراسة لهذا الشعر في ايجابيته وسلبيته *

أما الفصول الباقية فإنها تختلف أهميتها باختلاف الجدة والظرافة

وباختلاف القيمة الموضوعية فما كان جديدا في وضعه وتبويه وتنويعه هو البحث في الحالة الاجتماعية ، وأهميته تبدو في ربطه بالشعر ولو من بعض الجهات ، وأقربها الى الذهن تلك المدائح التي أسرف فيها الشعراء نتيجة للتفكك والحاجة وضعف النفوس وتلك المفارقات التي لمساها ازاء بعض الحوادث الداخلية ولاسيما حادثة كربلاء أيام الوالى محمد نجيب فقد وقف فيها بعض الشعراء بجانب الحكم بينما وقف بعضهم بجانب المحكومين ولعل سبب ذلك راجع الى تضارب العواطف الدينية ، ومثل هذا ما يقال من موقف عبدالباقى العمري في بعض حوادث الاكراد فانه تناول هذه الناحية من زاوية العنصر ، ولا ننسى الشعر المستغرق في ظل العقيدة الشيعية فان صلته بالعاطفة الدينية صلة قوية .

أما الفصل الخاص بالحالة العلمية فانه أيسر ما يقال في هذا الشأن غير أن أهميته تظهر في تقسيمه بين عمل الدولة وعمل السكان وفي عرضه بعض النواحي التي نسيها الناس وأخفاها التاريخ في المهجور من سجلاته ، ولعل ربطه بالشعر يبدو في أثر الدراسة والثقافة بالقيم التعبيرية عند الشعراء ومقدار ما يملكون من لغة واسلوب .

وأما الشعر والحوادث الوهابية فانه أول بحث جمع فيه هذا الشعر المتناثر ونسق وفق الحوادث التي تناولها وروعى فيه ترتيبها الزمني وقد أشرت في بداية الفصل الخاص به الى مقدار أهميته في تاريخ السياسة والادب .

ولعل من أهم فصول الشعر ما تناول الجانب القومي والوطني فانه أول بحث وضع لدراسة مفهوم القومية في العراق ابان القرن التاسع عشر ومدى صلة الشعراء بها وما قيل فيها من الشعر ، وهو أيضا مفتاح لدراسة التطور في الشعر العراقي منذ أوائل القرن العشرين ولاسيما السياسي منه . أما الفصل الخاص بالشعر الذي أملته العقيدة فانه أول دراسة كشفت عن جانب السياسة في هذا الشعر الذي كان معروفا بأنه شعر ديني مذهبي وانه من خطرات الشيعة في صوامع الابتهال والمناجاة .

وأهمية الشعر الذي سار في ركاب الدولة والولاة تظهر في تسجيله للحوادث والثورات وبعض الاعمال التي استحدثها السلاطين والولاة وهو من جانب آخر يصور نفسيات الشعراء وسلوكهم العام بالإضافة الى كونه أول بحث جمع أكثر هذا الشعر وربطه بحوادثه ومناسباته ، وكونه مثل غيره من فصول الشعر في الكشف عن أثر السياسة في العراق وفي مسلك الشعراء خاصة .

أما الفصل الاخير فقد جاء غريبة للشعر العراقي في القرن التاسع عشر عامة وللموضوع السياسي منه خاصة . وليس لي أن أقدر جانب الأهمية فيما عرض من القيم الموضوعية والفنية للشعر وفيما نص عليه من صور وأمثلة للقوة والضعف في الموضوع والأسلوب . أقول : ليس لي ذلك بل أترك تقدير الجهد لمن تهمهم دراسة الادب الحديث في العراق وفي غير العراق .

استنتاج :

ولا بد لي أن أسجل في هذه الخاتمة ما انتهت اليه هذه الدراسة من النتائج ، وأهمها كما يلي :

- ١ - ان الشعر السياسي في العراق لم يجدد في موضوع السياسة^(١) كما حدث في مصر والشام بل سلك الطريقة القديمة التي اتبعها الشعراء .
- ٢ - ان هذا الشعر في أسلوبه وأدائه كان محافظا على عمود الشعر ولم يجدد في عرض الصور وطريقة التعبير عن المعاني ولكنه من حيث القوة يستطيع أن يسير في مقدمة القافلة من الشعر العربي في القرن التاسع عشر .
- ٣ - ان هذا الشعر في مدائحه قد سجل لنا كثيرا من الحوادث في

(١) مما تجب ملاحظته ان موضوعات الشعر السياسي قد تغيرت وتطورت في أوائل القرن العشرين ، فان الشعر في الحوادث الوهابية قد انقطع بانقطاع الحوادث الا القليل النادر . وشعر المدح قد استمر ولسكنه تطور باختلاف المدوحين . والشعر المنبعث عن العقيدة واستنهاض المهدي قد قل ، ولم يتسع الا الشعر القومي والوطني .

العراق وغير العراق من أجزاء الدولة العثمانية وساعد على توضيح شيء غير قليل من التاريخ السياسي في العراق وفيما حول العراق .

٤ - ان الشعر النائر منه قد صور بعض نواحي الظلم غير أن عنصر الصراحة كان ضعيفا في معظم المواقف ، ويكفى أن نعرف ذلك من كلمة (الترك) التي لم ترد في الشعر المناويء الا بضع مرات ، ومن كلمة (الاجنبى) المستبد بخيرات العراق التي لم ترد - فيما ظفرت به - الا مرة واحدة في شعر عبدالغنى الجميل .

والرشوة التي كانت منتشرة في العراق بين طبقات الموظفين لم أعر على ذكرها فيما قرأته الا في بيت واحد للسيد ابراهيم الطباطبائي^(٢) وآخر للشيخ صالح التميمي^(٣) .

٥ - ان الشعر النائر قد جنح كثير من أصحابه الى ذم بغداد مركز الحكم والى السخط على سكانها لانهم - كما يرى الشعراء - كانوا خاضعين وكان كثير من وجهائهم مترلفين للولاة .

٦ - ان الشعر الشيعي النائر كان أشد مناوأة للخلافة العثمانية لانها لا تصلح لحماية الدين والعدل ، وللولاة والحكام لانهم كانوا قساة ظلمة .

هذا هو الجديد الذى استطعت أن أصل اليه عن طريق الاستنتاج . أما الجديد الذى يمكن أن يضاف الى البحوث الأدبية من هذه الدراسة فهو ان هذا البحث أول محاولة تناولت الشعر السياسي في العراق خلال القرن التاسع عشر وكشفت عن مناسبات بعض القصائد التي استقرت في الدواوين والمجموعات بدون اشارة الى بواعثها وموجباتها ومنها قصائد الأخرس فى الوالى (مدحة) وقصيدة السيد صالح القزوينى فى حادثة سجن (مطلق بن كريدى) زعيم خزاغة . وبعض قصائد عبدالغنى الجميل أيام الوالى محمد

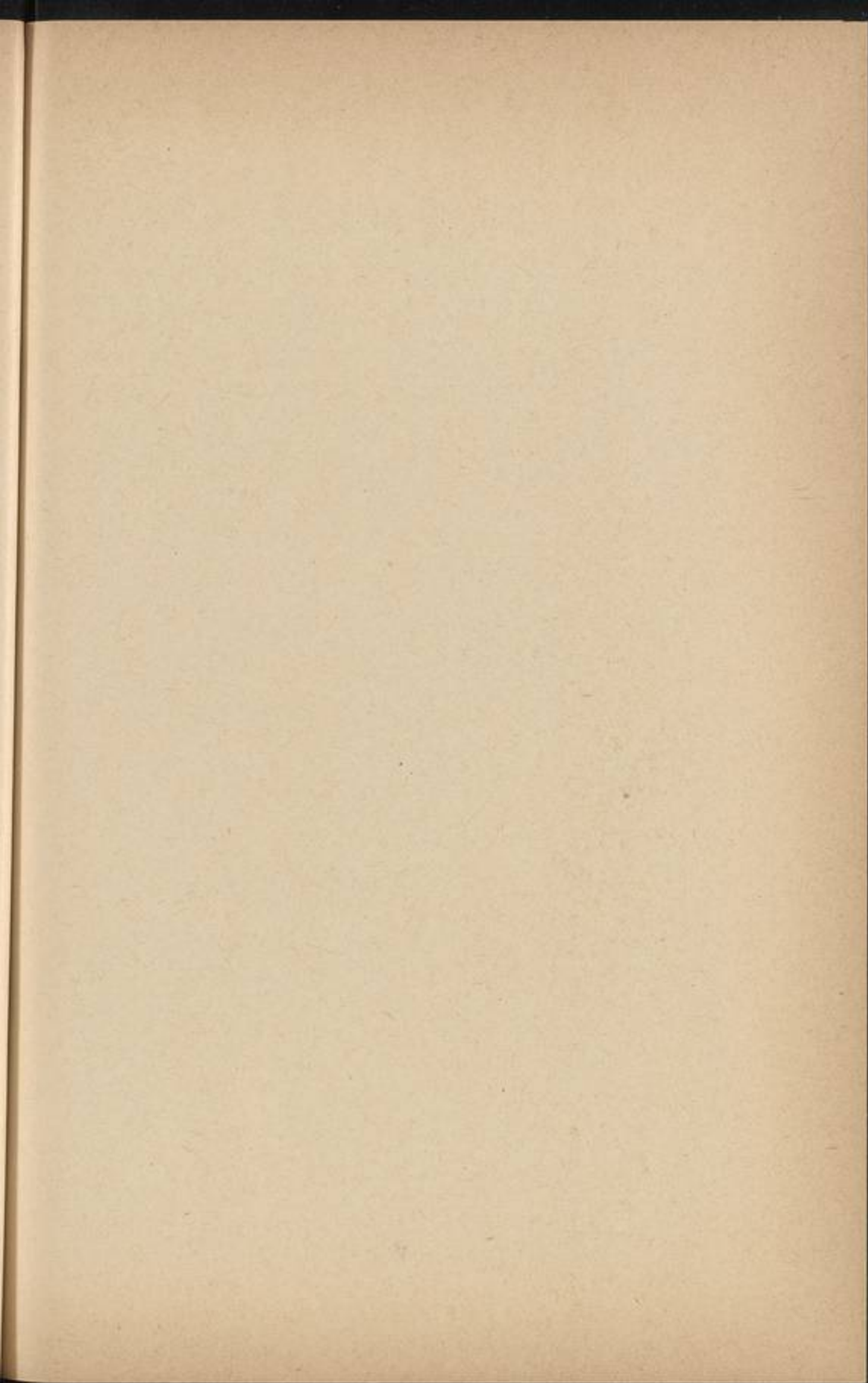
(٢) ص ٢٠١ .

(٣) هو قوله فى هجاء بعض المأمورين فى أيام الوالى على رضا :
خنت الوزير الذى سواك من عدم وفيه نلت الغنى من بعد اعسار
تبدلى له النصيح فى معمول كاتبه وترتشى عن خراسان بدينار
ديوان التميمي الورقة ٦٢ .

نامق ، وغير قليل من قصائد التيمسي في الوالي علي رضا ، وقصيدة السيد
حسين الحكيم في حادثة (عفك) أيام الوالي داود ، وأبيات السيد ابراهيم
الطباطبائي في مدح السلطان عبدالعزيز أيام الاستيلاء على الاحساء .

ولا شك في أن جمع الشعر المتناثر في الدواوين والمخطوطات المبعثرة
وضم أجزاءه في بحث واحد واتقاه بعضه من الضياع ان هذا كله خير ، ا
يدفعني الى التفاؤل بنجح المسعى والى كبير الظن بأني قدمت شيئاً من الخدمة
لأدب العراق وللباحثين في البلاد العربية عامة .

غير أنني أعتقد أن عملي هذا ما هو الا غرس شجرة في الحقل الكبير
فعسى أن يجد المتبعون أكثر مما وجدت فيضيفوا الى هذا البحث بحوثاً
اخرى أكثر جدة وطرافة .



فهرست الموضوعات

مقدمة (ص ٣)

تمهيد - (ص ٧ - ٢٠)

الحالة السياسية والادبية في العراق قبيل القرن التاسع عشر :
الاستيلاء العثماني - بداية المماليك - الحالة العامة - الثقافة العامة -
الشعر والنثر في هذه المرحلة .

الباب الاول (ص ٢١) :

عوامل الشعر السياسي - ويشتمل على ثلاثة فصول

الفصل الاول (ص ٢٢ - ٧٠) :-

القسم الاول - الحالة السياسية في الدولة العثمانية :

السلطين ونظام الحكم - أهم الحروب والحوادث - الحرب مع
روسيا - مع اليونان وجيرانهم - مع محمد علي الكبير - مع الوهابيين
في المرحلة الاولى - الحملة المصرية - مع الوهابيين في المرحلة الثانية .

القسم الثاني - الحالة السياسية في العراق :

الولاية الكبرى والمماليك - بعد المماليك - الكذب على السكان .
الموصل والبصرة - الاجانب في العراق - ايران والعراق - الحوادث
الوهابية - الحوادث الداخلية - العراق والتيارات الحديثة .

الفصل الثاني (ص ٧١ - ١٨٩) :

الحالة الاجتماعية :-

صعوبة التصوير - نظرة موجزة - عناصر السكان - المظهر القبلي -
مظاهر الغنى والفقير - مظاهر الافراح والاحزان - الديانات والمذاهب -
أثر الدين في حياة السكان - التصوف وأثره - التباعد .

الفصل الثالث (ص ٩٠ - ١١٣) :-

الحالة العلمية والادبية : قبل البحث - نصيب الدولة من العلم والادب -
الحركة العلمية في العراق والمدارس العثمانية - المدارس القديمة -
مراجع الطالب - اختلاف المناهج وتنوع الدراسات - التأليف وأهم
المؤلفات - نشر المؤلفين والادباء - نهضة الشعر - موضوعات الشعر
وطريقة الاداء *

الباب الثاني (ص ١١٥)

الشعر السياسي - ويشتمل على تمهيد وخمسة فصول :
تمهيد :- الشعر السياسي - معناه وتطوره * (ص ١١٦ - ١٢٠)

الفصل الاول (ص ١٢١ - ١٤٨) :-

الشعر والحوادث الوهابية : في المرحلة الاولى - الشعر في المرحلة
الثانية * شاعر مع الوهابيين في المرحلة الاولى وفي المرحلة الثانية *

الفصل الثاني (ص ١٤٩ - ١٨٠) :-

الشعر بين الحسّ العربي والشكوى العامة :
طرق التعبير - الفخر والحماسة - الشكوى من الحياة - شعراء
علويون - الثورة الجريئة - صوت جديد *

الفصل الثالث (ص ١٨١ - ٢٠٢) :-

الشعر في ظل العقيدة :-
بعض أسبابه وبواعثه - استنهاض المهدي - مقدمات في قصائد الرثاء -
قصائد مستقلة في الاستنهاض - وصف بعض الحوادث *

الفصل الرابع (ص ٢٠٣ - ٢٥٨) :-

الشعر في ركاب الدولة : قبل البدء - الشعر في موكب السلاطين -
السلطان محمود الثاني - السلطان عبدالمجيد الاول - السلطان
عبدالعزیز - السلطان عبدالحميد الثاني * الشعر والصدور العظام

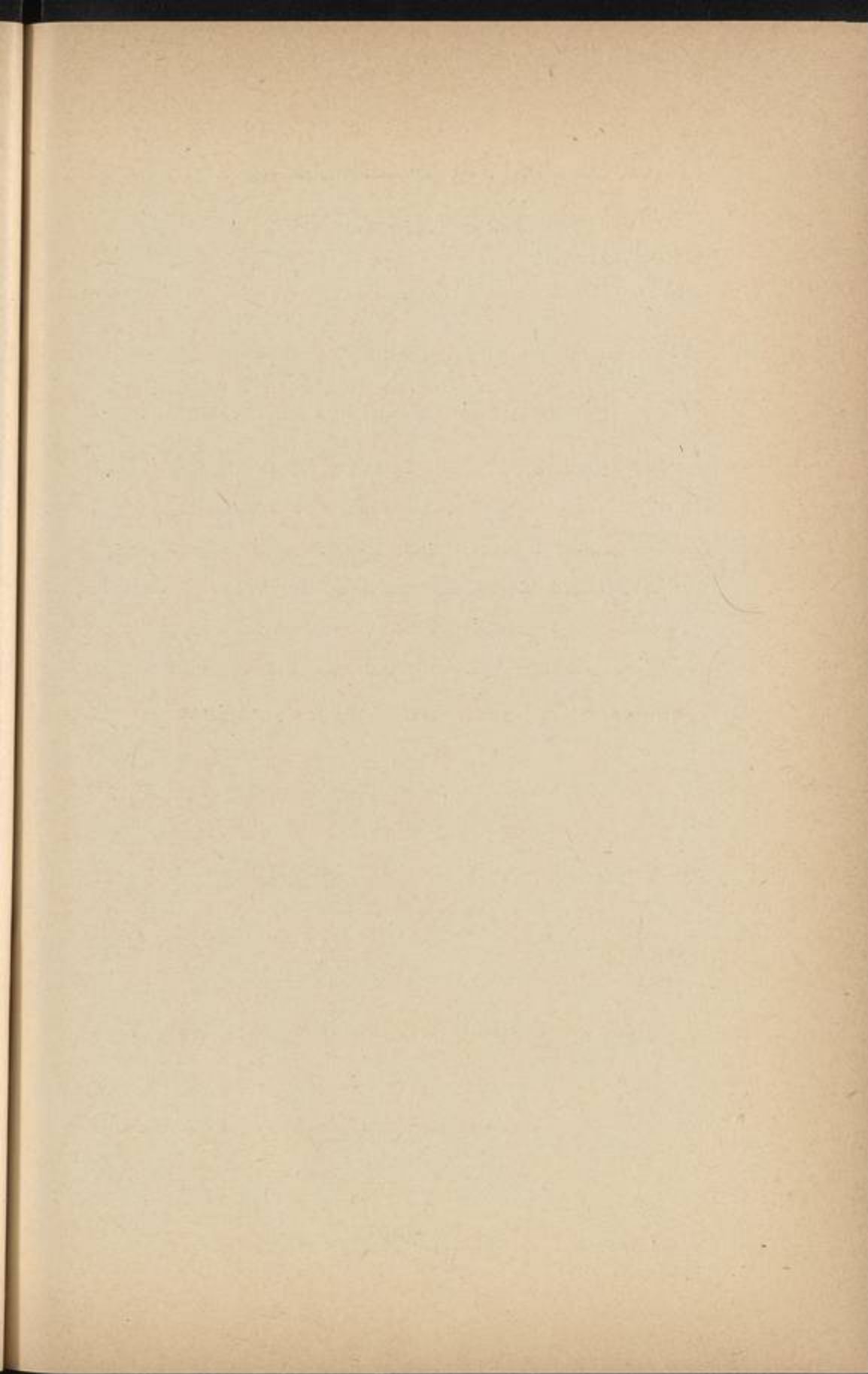
والوزراء • الشعر وولاية العراق • ولاية بغداد - الوالى داود
وشعراؤه - الوالى على رضا وشعراؤه - الوالى محمد نجيب
وشعراؤه • الوالى محمد نامق وثلاثة شعراء - الوالى مدحة وثلاثة
شعراء • الوالى مصطفى عاصم وثلاثة شعراء - الوالى سرى الكريدى
وطائفة من الشعراء - ولاية آخرون : الحاج حسن رفيق • عطاء الله
الكواكبي •

ولاية الموصل : آل الجليلي وشعراؤهم • ولاية البصرة وحكامها - حسام
الدين الحلبي - محمد منيب - ناصر السعدون •

الفصل الخامس (ص ٢٥٩ - ٢٩٥) :-

القيم الفنية والموضوعية : نظرة عامة فى شعر القرن التاسع عشر - الشعراء
فى مستواهم الثقافى - صدق الشعور والاداء - القديم والجديد -
القيم الموضوعية والفنية فى الشعر السياسى : الشعر والحوادث
الوهابية - الشعر بين الحس العربى والشكوى - ثورة الشعر فى
ظل العقيدة - الشعر فى ركاب الدولة - تكرار الصور - الركة •
نظرة موجزة •

خاتمة (ص ٢٩٧ - ٣٠١) •



فهرست المصادر والمراجع العربية والمترجمة

(أ)

- آراء الرصافي - تأليف معروف الرصافي • مطبعة المعارف - بغداد ١٩٥١
أخبار بغداد وما جاورها من البلاد للسيد محمود شكرى الألوسى •
(مخطوط) نسخة يعقوب سر كيس - بغداد •
أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث • تأليف ستيفن همسلى لونكريك
وتعريب جعفر خياط • طبعة بيروت •
أريج الهند والعود فى ترجمة أبى التناء شهاب الدين محمود • تأليف
عبدالفتاح الشوافى (مخطوط) الحق بنسخة خطية من غرائب
الاعتراب • نسخة السيد هاشم الألوسى - بغداد
الاسرار الالهية • للسيد محمود شكرى الألوسى - طبعة مصر •
الاسلام والحضارة العربية لمحمود كرد على - مطبعة دار الكتب - القاهرة
سنة ١٩٣٦ م •
أعلام العراق - لمحمد بهجة الاثرى • المطبعة السلفية - مصر •
الانقلاب العثمانى • لجرجى زيدان •
أهداف الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر - ليوسف عزالدين - رسالة
الماجستير المقدمة الى جامعة الاسكندرية •
أوروبا والاسلام - بقلم أغا خان زكى على - منشورات دار المكشوف -
بيروت •
أوليات سلاطين تركيا • لمحمد جميل بيهم • مطبعة العرفان - صيدا •

(ب)

- البابليات - للشيخ محمدعلى يعقوب - طبع النجف •
البادية - لعبدالجبار الراوى - الطبعة الثانية • بغداد •

بحار الانوار للمجلسي المجلد الثالث عشر - الملحق - ايران -
بغداد كما وصفها (السواح) الاجانب : ترجمة سعاد هادي العمري -
بغداد .

البلدان - لابن الفقيه .
بواعث الحرب العالمية الاولى في الشرق الادنى - تأليف : جان بيشون -
تعريب محمد عزة دروزه . مطبعة الكشاف . بيروت .

(ت)

- تاريخ الاتراك العثمانيين - حسين ليب . مطبعة الواعظ . القاهرة ، ١٩١٧ .
- تاريخ آداب اللغة العربية . لرجي زيدان . مطبعة الهلال . ١٩٣١ .
- تاريخ حرب الدولة العلية ودولة اليونان سنة ١٨٩٧م لكامل صدقي
وعبدالواحد حمدي - طبعة بولاق سنة ١٣١٥هـ القاهرة .
- تاريخ الدولة العلية العثمانية - لمحمد فريد . طبعة ثانية سنة ١٨٩٧ القاهرة .
- تاريخ الديوانية قديما وحديثا . للحاج وداي العطية . النجف .
- تاريخ السليمانية - لمحمد أمين زكي . تعريب الملا جميل الملا أحمد
الروزياني . طبع شركة النشر والطباعة . سنة ١٩٥١م بغداد .
- تاريخ الشعوب الاسلامية - لكارل بروكلمان - تعريب الدكتور نبيه أمين
فارس ومنير البعلبكي - دار العلم للملايين - بيروت .
- تاريخ الشعر السياسي - أحمد الشايب . القاهرة .
- تاريخ الكاظمين - للشيخ جعفر نقدي . بغداد ١٩٥٠م .
- تاريخ مساجد بغداد وآثارها . للسيد محمود شكري الألوسي - مطبعة دار
السلام - بغداد .
- تاريخ المماليك في بغداد - لسليمان فائق - تعريب محمد نجيب الارمنازي -
مخطوطة مكتبة الآثار - بغداد .
- تاريخ الموصل - لسلمان صائغ . الجزء الاول - القاهرة .
- تاريخ نجد - للسيد محمود شكري الألوسي . القاهرة .
- تاريخ اليمن - للشيخ عبدالواسع - القاهرة .
- تجارة العراق قديما وحديثا . ليوسف غنيمه - بغداد .

- تذكرة الشقيق الجامعة لمعرفة الطريق - للشيخ عبدالقادر الكيلاني •
 مخطوطة دار الكتب بالقاهرة - ٢١٤٧٩ ب •
- تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر - لجرجي زيدان - الطبعة
 الثانية • دار الهلال - القاهرة •
- ترجمة الزهاوي - بقلمه - مخطوطة الاستاذ كوركيس عواد - بغداد •
- التصوف الاسلامي في مصر • للدكتور توفيق الطويل - القاهرة •
- تصريح الخاطر - ترجمة الشيخ عبدالقادر • تأليف محمد صادق القادري
 الشهابي عربيها عن الفارسية عبدالقادر بن محي الدين الاربلي -
 القاهرة •
- تنزه العباد في مدينة بغداد - للمعلم نابليون الماريني - بيروت ١٨٨٧م •
- التوقيفات الالهامية لمحمد مختار - الطبعة الاولى - بولاق - القاهرة •

(ج)

- جزيرة العرب في القرن العشرين • لحافظ وهبة - الطبعة الاولى • مطبعة
 لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة •
- الجمان المنضد في مدح الوزير أحمد - لمحمد الغلامي - الموصل •
- جنة المأوى - للشيخ حسين النوري • ملحق - المجلد الثالث عشر من
 البحار • طبعة ايران •

(ح)

- حاضر العالم الاسلامي - تأليف لوثرروب ستودار • تعريب : عجاج
 نويهض - الطبعة الثانية - القاهرة •
- حديقة الزوراء - لعبدالرحمن السويدي - مخطوطة - بغداد •

(خ)

- خلاصة تاريخ الكرد وكردستان - لمحمد أمين زكي • تعريب محمد علي
 عوني • القاهرة •
- خلاصة الكلام في بيان أمراء البيت الحرام • للسيد أحمد بن زيني دحلان
 القاهرة •

دائرة المعارف الاسلامية • (الترجمة العربية) • القاهرة •
ديوان مزيد السرور ومزيل الحزون • عبدالرضا البغدادي - مخطوط في
مكتبة يعقوب سر كيس • بغداد •

دواوين الشعراء :

- ديوان السيد ابراهيم الطباطبائي - مطبعة العرفان - صيدا
- ديوان الشيخ ابراهيم اليازجي - (العقد) • طبع البرازيل
- ديوان الازري - الشيخ كاظم • بومبي
- ديوان البزاز الموصلى • مصر • المطبعة الشرقية •
- ديوان ابن عنين - دمشق
- ديوان الاخرس البغدادي (الطراز الانفس) استانبول
- ديوان عبدالباقي العمري (الترياق الفاروقى) القاهرة •
- ديوان السيد حيدر الحلبي (الدر اليتيم) بومبي •
- ديوان الشيخ حسين العشارى (مخطوط) مكتبة الآثار - بغداد •
- ديوان السيد جعفر الحلبي (سحر بابل) صيدا •
- ديوان السيد صالح القزويني (مخطوط) مكتبة الآثار - بغداد
- ديوان السيد صالح القزويني (الدرر الغروية) مخطوط - الآثار - بغداد •
- ديوان الشيخ صالح الكواز (مخطوط) مكتبة يعقوبى - النجف •
- ديوان الشيخ صالح التميمي - طبع النجف - ونسخة مخطوطة في بغداد •
- ديوان الزهاوى (الكلم والمنظوم) - بيروت •
- ديوان الشريف الرضى - بيروت •
- ديوان السيد محمد سعيد الجبوبي - صيدا
- ديوان المتنبى - القاهرة •
- ديوان الكعبى - الحاج هاشم - النجف •
- ديوان السيد عبدالجليل الطباطبائي (روض الخل والخليل) طبع الهند
والقاهرة •
- ديوان الشيخ ناصيف اليازجي (ثالث القمرين) - بيروت

- ديوان ابي فراس الحمداني - ط ٣ - بيروت
- ديوان البارودي - القاهرة
- ديوان اسماعيل صبرى - القاهرة

(ذ)

- ذكرى السعدون - الشيخ على الشرقى - بغداد

(ر)

- الروض الازهر - السيد مصطفى الواعظ
- رسائل اخوان الصفا - القاهرة
- روضات الجنات - السيد محمد باقر الخنسارى - طهران
- رحلة المنشى - ترجمة المحامى عباس العزاوى - بغداد
- رحلة ربيع - ترجمة بهاءالدين نورى - بغداد

(ز)

- الزهاوى الشاعر - اسماعيل أحمد أدهم - القاهرة

(س)

- سلاطين بنى عثمان الخمسة - الدكتور مارى ملز باتريك - ترجمة حنا صن ورفيقه - بيروت

(ش)

- الشرق الاسلامى الحديث - حسين مؤنس - القاهرة
- شعراء بغداد وكتابها أيام داود باشا - لعبدالقادر الخطيبى الشهربانى - بغداد ١٩٣٦ م
- شعراء الحلة - الشيخ على الخاقانى - المطبعة الحيدرية النجف - ١٩٥١ و ١٩٥٣
- شعراء الغرى - الشيخ على الخاقانى - النجف - ١٩٥٤
- شمامة العنبر والزهر المغبير فى ادباء القرن الثانى عشر - محمد بن مصطفى الغلامى - مخطوط - مكتبة الآثار - بغداد
- شهداء الفضيلة - الشيخ عبدالمحسن الامينى - النجف - ١٩٣٦ م

(ص)

- الصابئون في حاضرهم وماضيهم - عبدالرزاق الحسيني - صيدا
- الصواعق الالهية في الرد على الوهابية - سليمان بن عبدالوهاب
- ط ٢ - مصر
- الصراع بين الموالي والعرب - الدكتور بديع شريف - دار الكتاب العربي - القاهرة - ١٩٥٤ م

(ع)

- على هامش العراق بين احتلالين - الحاج وداي العظيمة - العراق
- العراق بين احتلالين - المحامي عباس العزاوي - بغداد
- العرب - تاريخ موجز - فيليب حتى - بيروت - دار العلم للملايين
- عشائر العراق - عباس العزاوي - ج ١-٢ - بغداد
- عبدة وذكري - سليمان البستاني - القاهرة - مطبعة الاخبار سنة ١٩٠٨
- عبدالحميد من ولاية العهد الى المنفى - جلال نوري - ترجمة ابراهيم سليم
- النجار - مصر
- عجائب الآثار في التراجم والاخبار - الشيخ عبدالرحمن البحري - القاهرة
- العراق - دراسة في تطوره السياسي - فيليب ويلارد آيرلاند - ترجمة جعفر خياط دار الكشاف - بيروت - ١٩٤٩
- العقد المفصل - السيد حيدر الحلبي - بغداد - مطبعة الشايندر
- عنوان المجد في بيان احوال بغداد والبصرة ونجد - ابراهيم فصيح بن صبغة الله الحيدري - مخطوط - مكتبة الآثار - بغداد
- عنوان المجد - عثمان بن بشر النجدي - مكة

(غ)

- غرائب الاغتراب - أبو التناء الألوسي - مطبعة الشايندر - بغداد
- غاية المرام - ياشين بن خيرالله العمري - مكتبة الآثار - بغداد

(ف)

- في الادب الحديث - عمر الدسوقي - القاهرة

فى الادب المقارن - عىدارزاق حمىءه - القاهرة •

(ق)

قلب جزىرة العرب - فؤاء حمزة - القاهرة •

قلب العراق - أمىن الرىحانى - بىروت •

(ك)

كتاب التوىء - الشىخ مءمء بن عىءالوهاب - القاهرة •

(ل)

لسان العرب - ابن منظور -

(م)

ماضى النءف وءاضرها - الشىخ ءعفر مءبوءة - صىءا •

مباحء عراقىة - يعقوب سر كىس - بءءاء •

مءموءة آئار رفىق العظم - مطبعة المنار - القاهرة •

المءء التاء فى مناقب الشىخ ءالء - ابراهىم فصىء الءىءرى - القاهرة •

مءموءة تراءم العلماء - مءموء شكرى الالوسى - (مءءوط) مءكبة الآئار

- بءءاء •

مءموءة الشىخ مءمء رضا الشىبى - بءء يءه •

مءموءة عىءالفار الاءرس - طبع شركة الآءارة والطباعة - بءءاء •

مءموءة للاءرس - لم ئشر - مءءوطة يعقوب سر كىس - ونسخة علبها

• بءء يءى

مءءصر آارىء بءءاء - على ظرفى الاءظمى - مطبعة القرات - بءءاء •

مءءصر آارىء الءة - الشىخ يوسف كر كوش - مطبعة العرفان - صىءا •

مءءصر مطالع السعوء - عثمان بن سئء - بءء مءءصره أمىن الءلوانى

سنة ١٢٩٣هـ نسخة ءار الكئب بالقاهرة •

مءءصر مطالع السعوء - أىضا - بومبى - المطبعة الءسنىة سنة ١٣٠٤هـ •

مءءكرات مءءء باشا - تعرب يوسف كمال ءئائه - القاهرة

المساءلة الشرىة - مصطفى كمال - مطبعة الآءاب - القاهرة سنة ١٨٩٨م •

- المسك الاذفر - السيد محمود شكرى الألوسى - بغداد •
 مشاهير الكرد وكردستان - محمد أمين زكى - ترجمة سائحة محمد
 أمين زكى - القاهرة •
 مطالع السعود فى طيب أخبار الوالى داود - عثمان بن سند البصرى -
 مخطوط - مكتبة الآثار - مع مراجعة مخطوطة مكتبة الاوقاف - بغداد
 مقامات الألوسى - أبو الثناء - طبع كربلاء - العراق - سنة ١٢٧٣هـ •
 مقدمة ابن خلدون - المكتبة التجارية - القاهرة •
 الممالك فى العراق - أحمد على الصوفى - مطبعة الاتحاد الجديدة - الموصل •
 من أمير الى سلطان - مصطفى فاضل - تعريب أحمد فتحى زغلول - مصر

(ن)

- نثر الآلىء على نظم الامالى - السيد عبدالحميد الألوسى - بغداد •
 نزهة الدنيا - عبدالباقي العمري - مخطوطة مكتبة الآثار - بغداد •
 نشوء الفكرة القومية - ساطع الحصرى - القاهرة - ط ٢
 نشوء الشمول فى السفر الى اسلامبول - لابي الثناء الألوسى - مطبعة
 الولاية - بغداد - سنة ١٢٩١هـ •
 نشوء المدام فى العودة الى مدينة السلام - أبو الثناء الألوسى - مطبعة الولاية
 - بغداد - سنة ١٢٩١هـ •
 النهضة العربية فى العصر الحاضر - محاضرة لشكيب ارسلان -
 نهضة العراق الادبية فى القرن التاسع عشر - الدكتور محمد مهدى البصير
 - مطبعة المعارف - بغداد •
 نيل الامانى فى الدستور العثمانى - عبدالمسيح الانطاكى - مطبعة العرب -
 القاهرة •

(ي)

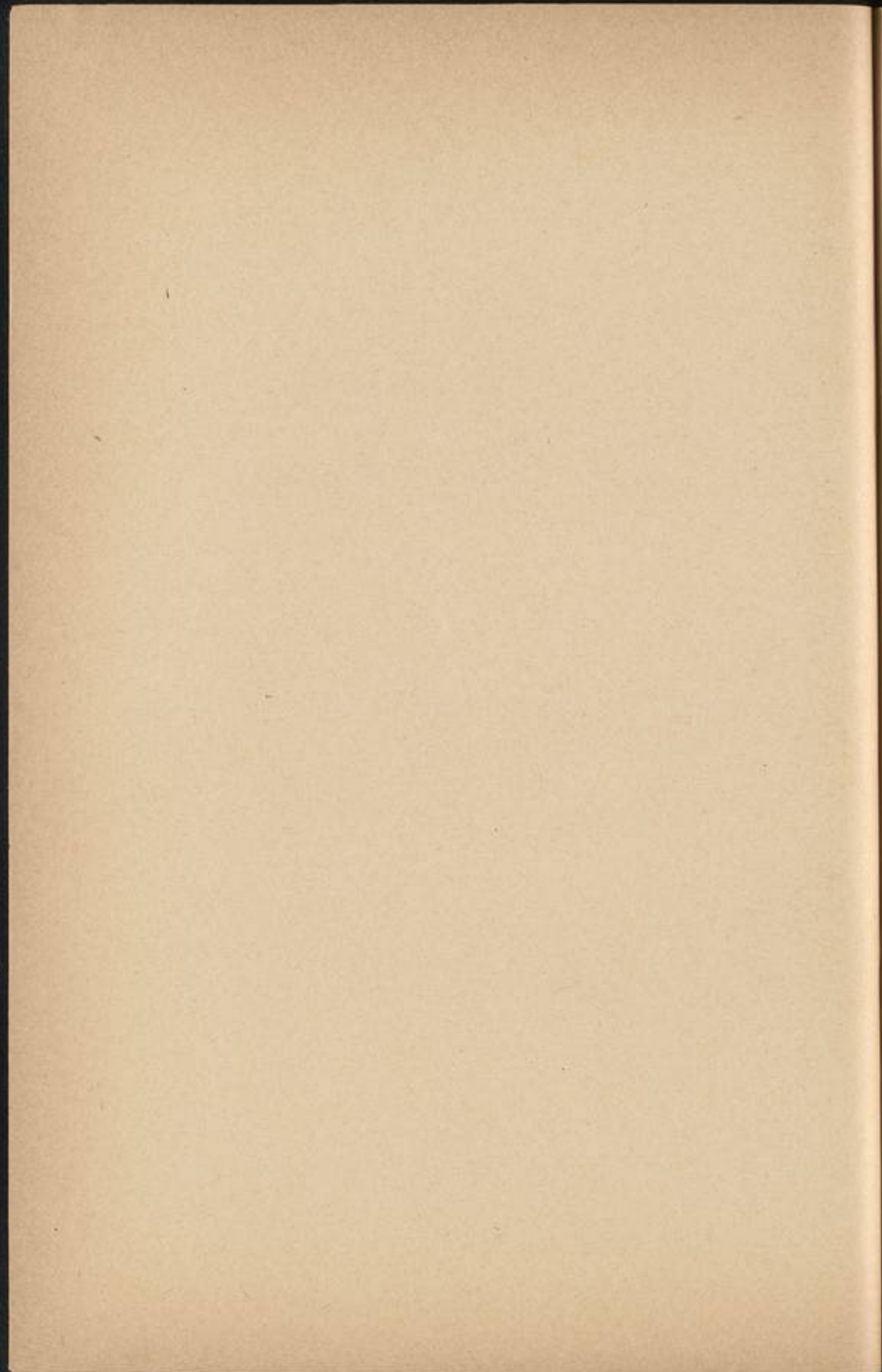
- اليزيدية - صديق الدمولوجى - مطبعة الاتحاد - الموصل •

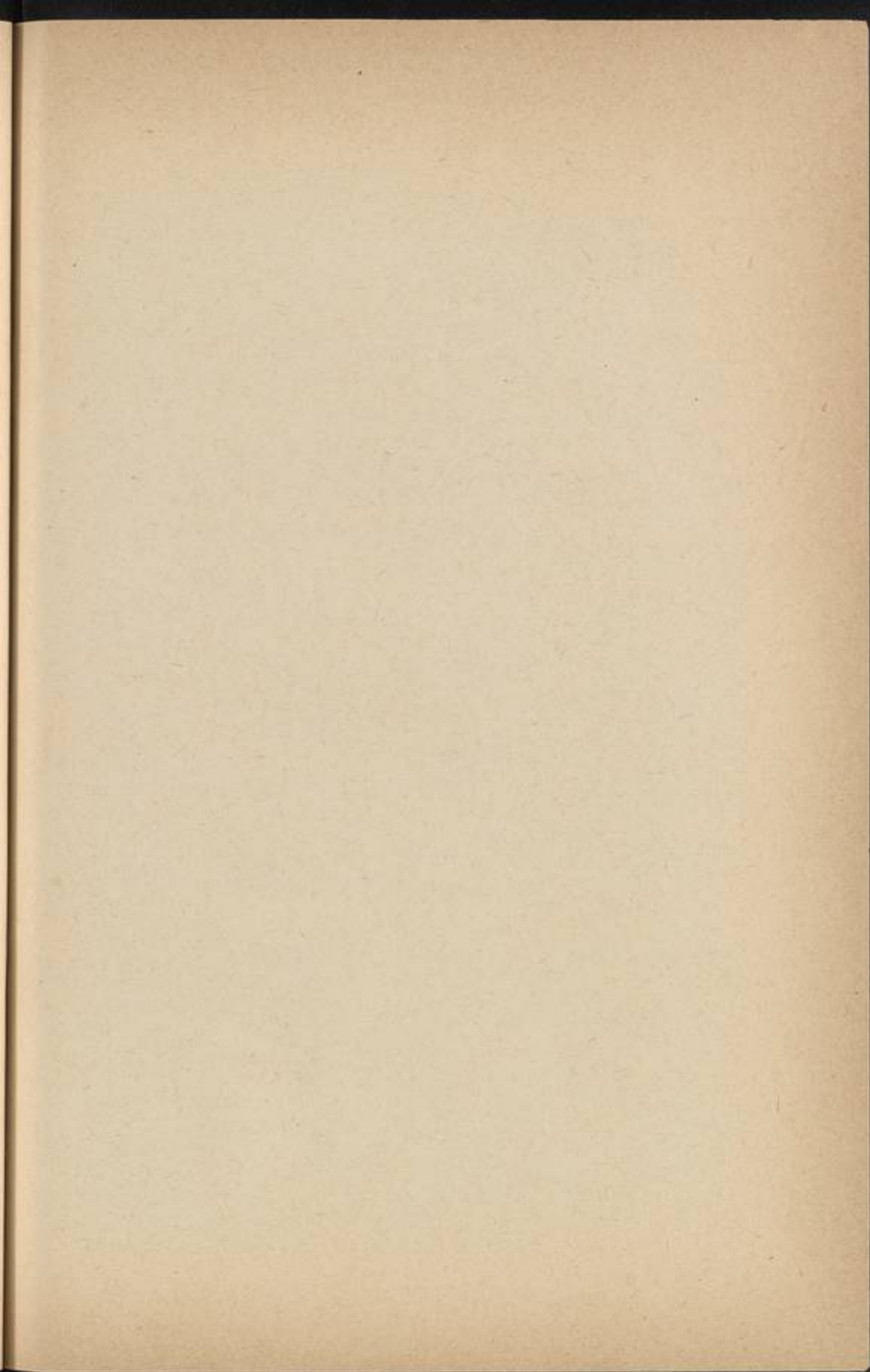
المراجع الاجنبية غير المترجمة :

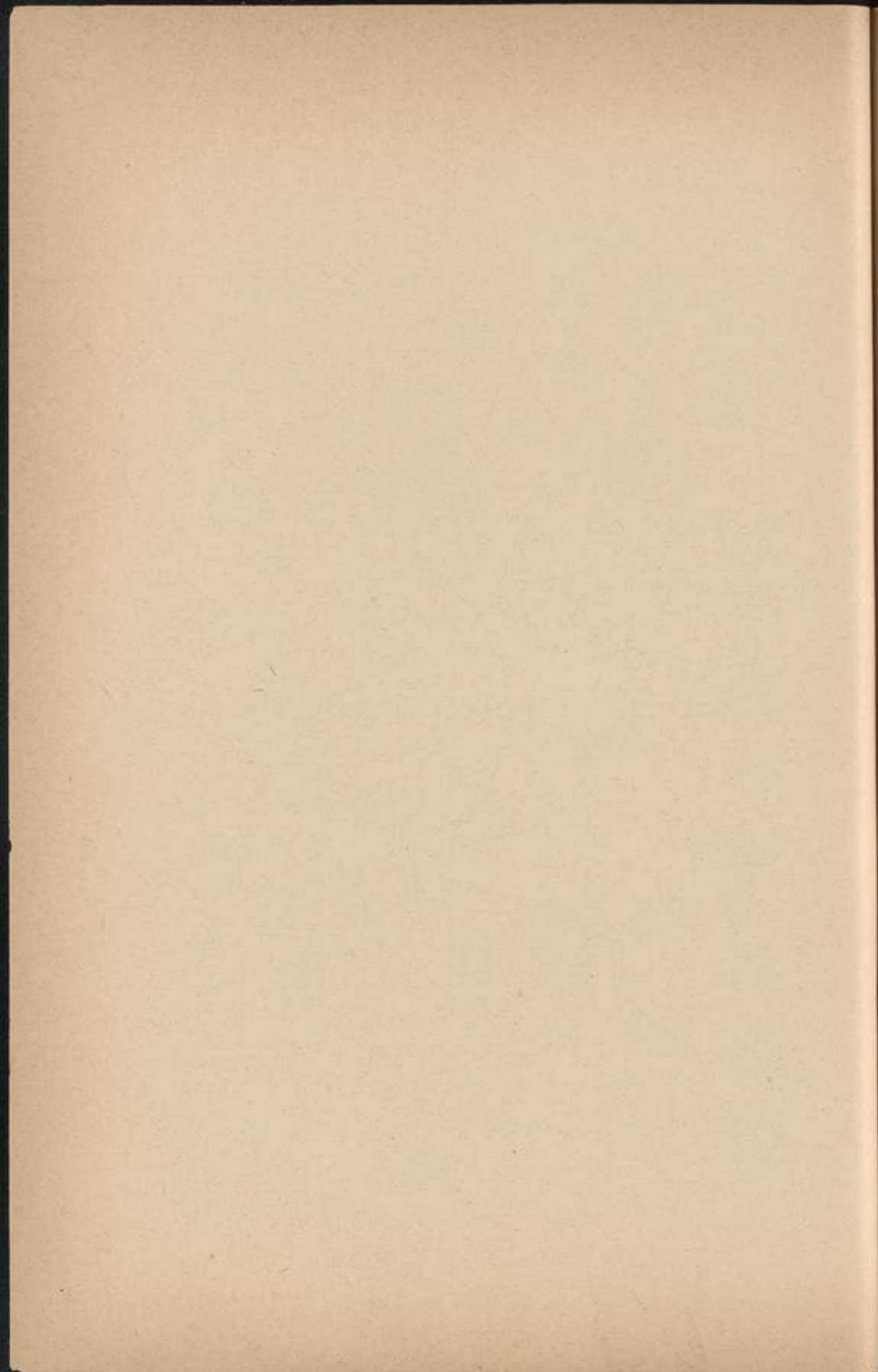
- تاريخ جودت - المؤلف التركي - استانبول - ط ٢ •
- حروب الايرانيين - سليمان فائق (تركي) مخطوطة مكتبة الآثار - بغداد •
- دوحة الوزراء - رسول حاوي - (تركي) مخطوطة مكتبة الآثار - بغداد •
- الرسالة التسع عشرية - أحمد سهراب (فارسي) مطبعة السعادة - مصر •
- رسالة في تاريخ الكوله من (الممالك) - سليمان فائق (تركي) مخطوطة
مكتبة الآثار - بغداد •
- مرآة الزوراء (تركي) - سليمان فائق - مخطوطة مكتبة الآثار - بغداد •
- Baghdad Thecity of Peace
By Richard Coke. 2 no
London 1935.
- Travels In Mesopotamia
By —J—S—Bucingham.
Lonon 1827.
- Travels In Koordistan - Mesopot. Amia - Etc...
By Baillie Fraser.
London 1840.
- Travels of Robertker Porter.
London 1830 - 31.
- Modern Trends In Islam-
By: A.R. Gibb. 1950.

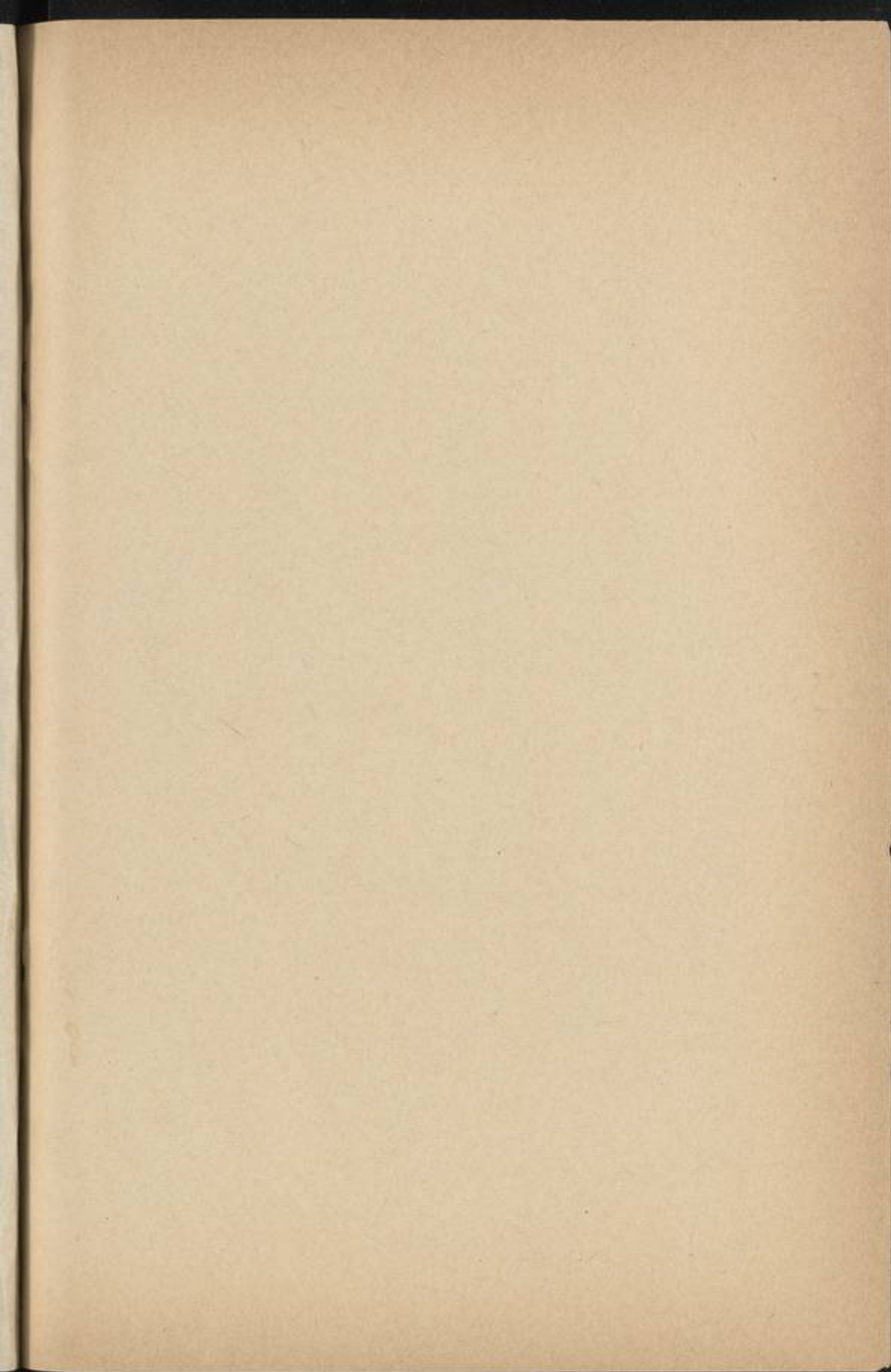
الدوريات والجرائد

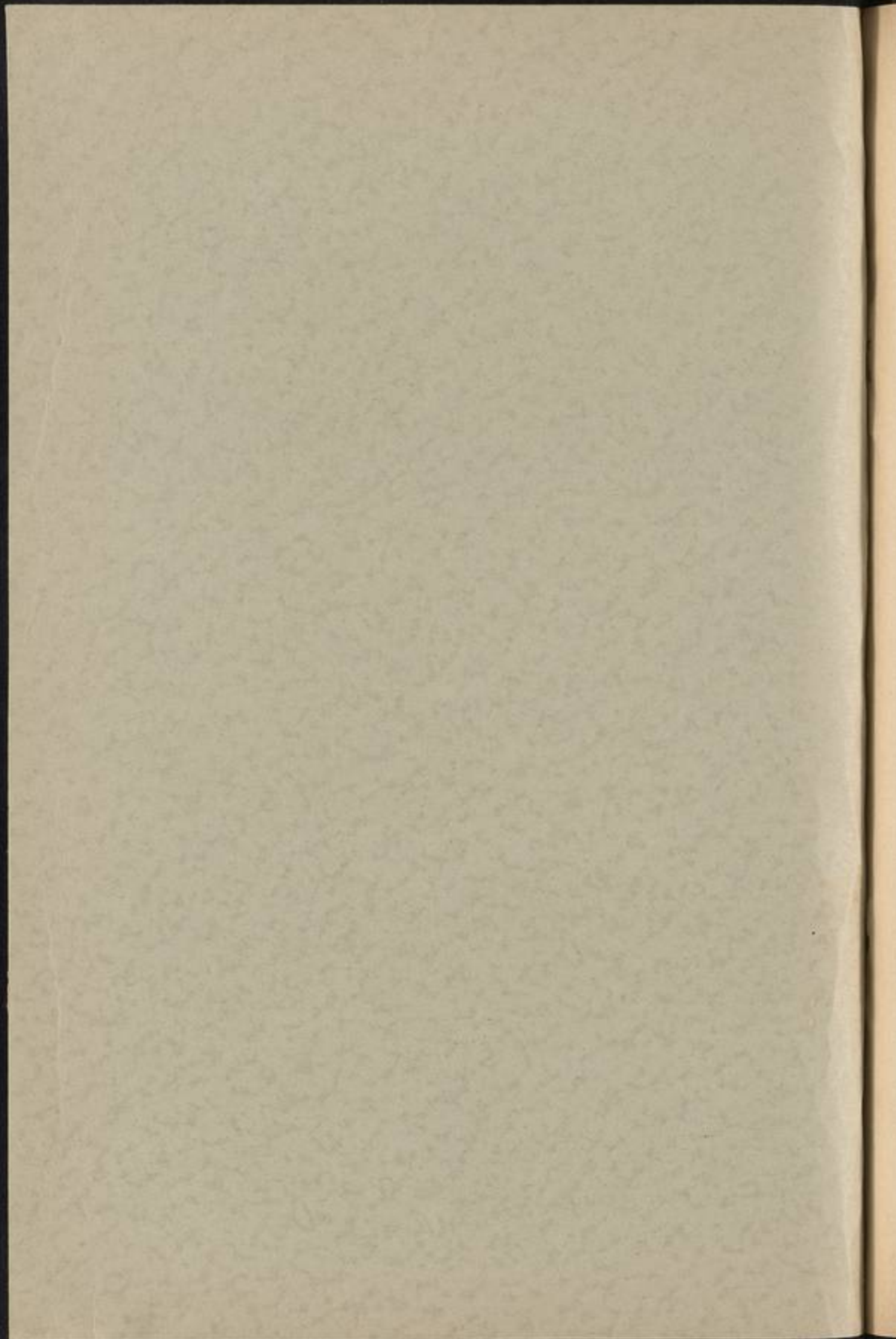
- الاساس - جريدة - القاهرة
- البصرة - جريدة - صدرت في البصرة - العراق سنة ١٨٩٥ م
- بصيرت - جريدة - تركية - الاستانة
- تقديم وقائع - جريدة - تركية - الاستانة
- حولية الثقافة العربية - لساطع الحصري - أصدرتها جامعة الدول العربية
- القاهرة السنة الاولى ١٩٤٩ م
- دار السلام - جريدة - بغداد سنة ١٩١٨ م
- الرسالة - مجلة - القاهرة - سنة ١٩٤٧ م
- الزمان - جريدة - بغداد ٢٩-٤-١٩٥٠ م
- الزوراء - جريدة - بغداد
- سومر - مجلة - بغداد
- سالنامه - تقويم سنوي - بغداد سنة ١٣٢٩ هـ
- سالنامه - تقويم سنوي - البصرة سنة ١٣٠٨ هـ - ١٨٩١ م
- سالنامه - تقويم سنوي - الموصل سنة ١٣٣٠ هـ - ١٩١١ - ١٩١٢ م
- الشعب - جريدة - بغداد العدد الصادر بتاريخ ٢٩-٢-١٩٥٥ م
- الطليعة - مجلة - دمشق - ج ٧ س ٥ سنة ١٩٣٩ م
- العرب - جريدة - بغداد سنة ١٩١٧ - ١٩١٩ م
- لغة العرب - مجلة - بغداد مجموع السنوات
- مجلة المجمع العلمي العراقي - بغداد ج ١ م ٣ سنة ١٩٥٤ م
- مجلة مجمع اللغة العربية - القاهرة ج ٧ سنة ١٩٥٣ م
- اليقظة - جريدة - بغداد ١٩-٢-١٩٥٠ م











V

IRAQI POLITICAL POETRY

IN

The Nineteenth Century

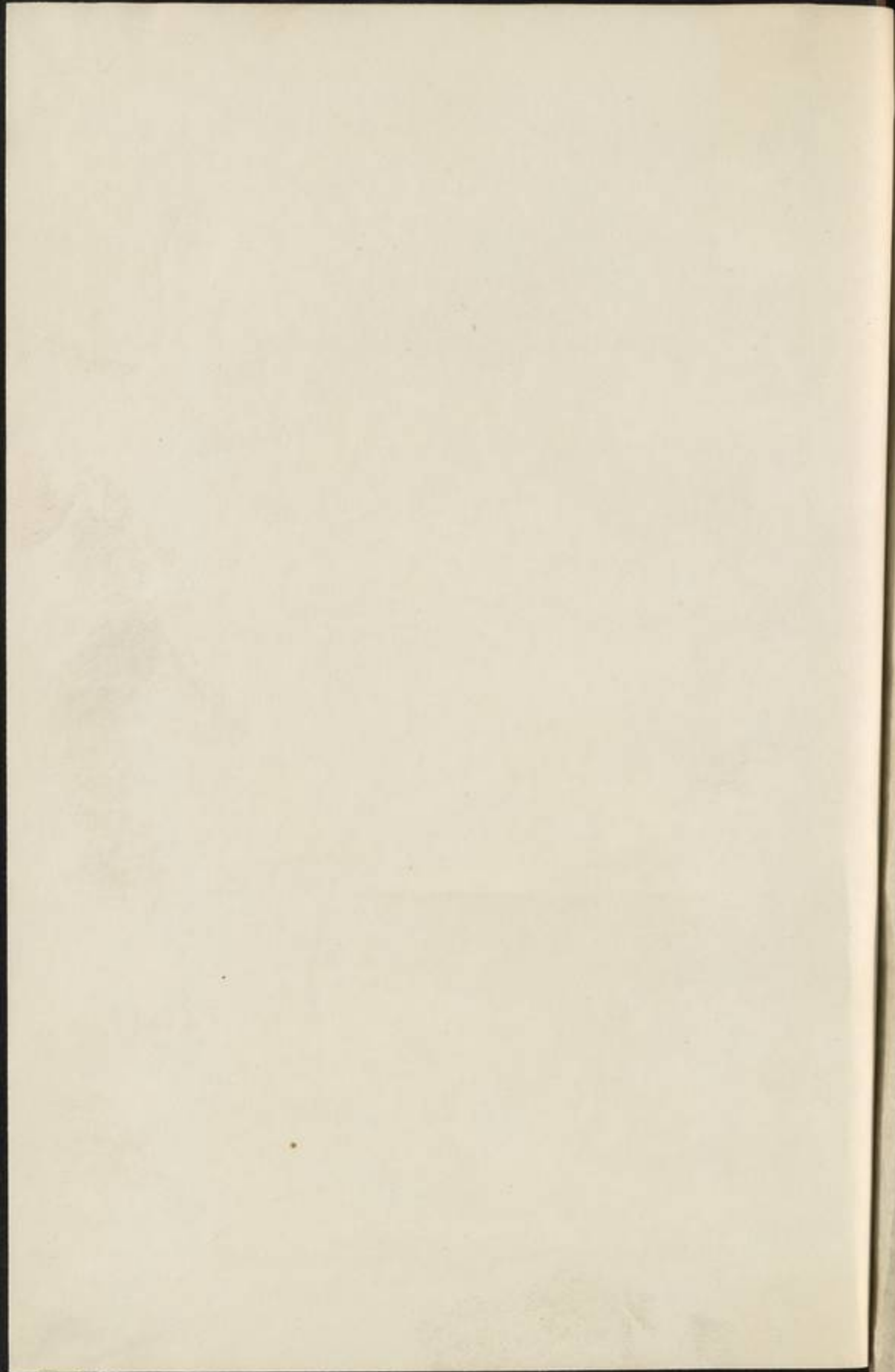
BY

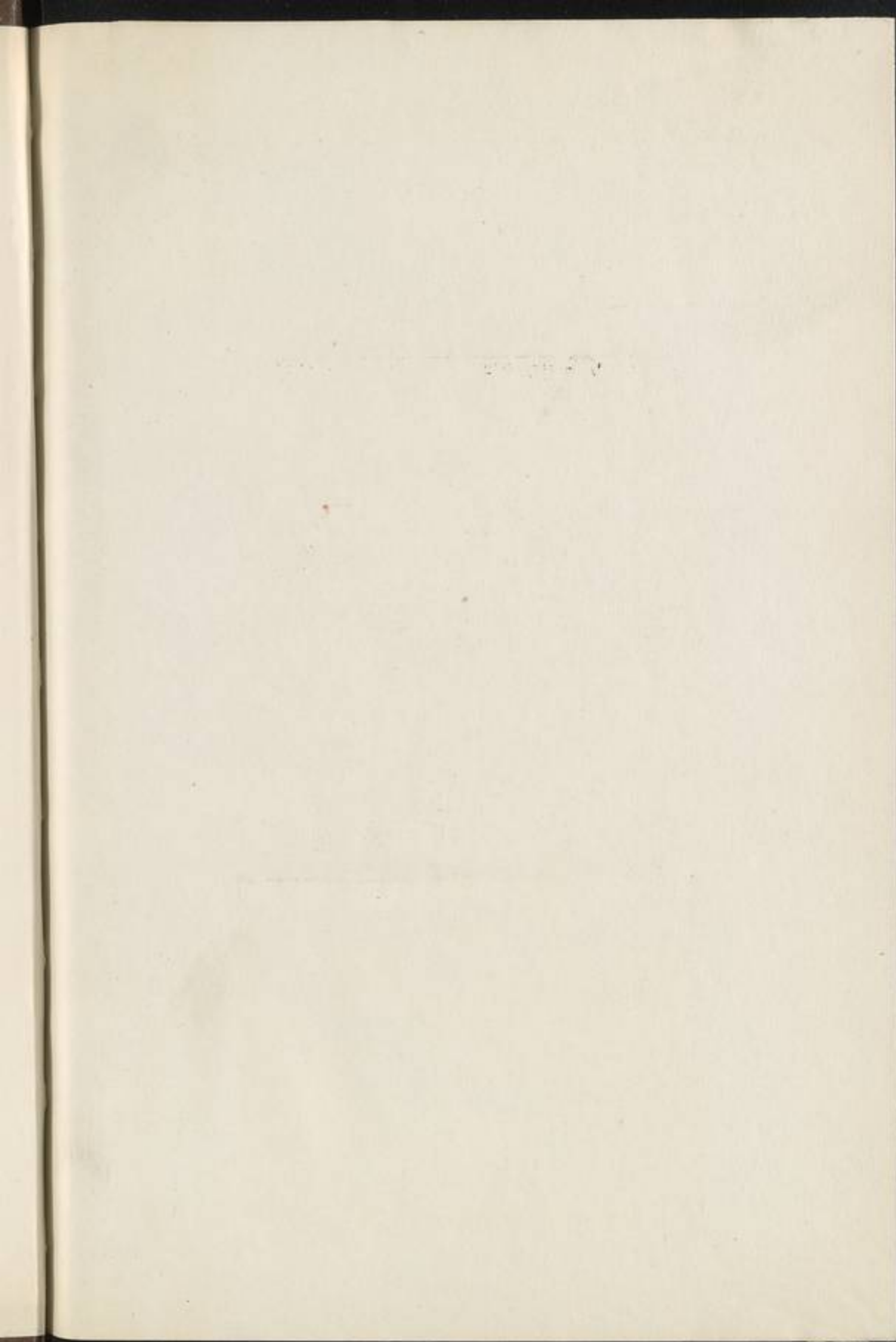
IBRAHIM AL-WA'ILI

**INSTRUCTOR AT THE FACULTY OF ARTS,
UNIVERSITY OF BAGHDAD**

**Baghdad
1981**

Printed at AL-ANI Printing Press





893.782
W13

DEC 3 1962

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58889116

893.782 W13

Shir al-siyasi al-ir